

منشورات اتحاد



القاهرة

٢٠٠٨ / ١٤٢٩

مجلة المؤرخ العربي

يصدرها
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر

مارس ٢٠٠٨ م

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السادس عشر

مارس ٢٠٠٨ م

تم الجمع والاخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المربوطية - عمارات شركة الخليج

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣

الموقع الالكترونى WWW.Dar -Ein.com

هذه المجلة

- * علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- * تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- * البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- * تصدر مؤقتاً سنوياً فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- * لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن ثلاثين صفحة ، منسوخ الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة.
- * تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانيات- لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- * البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* * *

* جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير
العنوان ك ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .
تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

صفحة

كلمة الافتتاح ٧

كلمة التحرير ٩

د. عبدالله إبراهيم محمد راجح

الأسس التي أقام عليها النبي ﷺ مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة ١١

د. الطاهر دراع

المجتمع العربي بين أهل الدير وأهل المدر ٩٧

أ.د. محمد بركات البيلي

بعض ملامح القرية في مصر الإسلامية ١١١

د. أحمد إبراهيم علي

الهجرات العربية الهندية وآثارها الاجتماعية (القرنين الأول والثاني الهجريين) ١٢٥

د. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين

مكانة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي الأول ١٨٩

د. آمال حسن عبد الحافظ الخطيب

السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية ٢١٩

أ. د. ليلي عبد الجواد اسماعيل

ظاهرة تعاظم الحشيش ومكافحتها في مصر المملوكية ٢٦١

د. بشير زين العابدين

تحقيق مخطوط : « تاريخ الأستاذ سيدى علي أبو الحسن وفا » ٣٢٧

د. السيد حسين جلال

التاريخ الاجتماعي لسكان منطقة برزخ السويس

٣٦١ (فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)

ضياء الدين حسن القاضى

٤٠١ تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد

مقلاتى عبدالله

٤٤٧ موقف المغرب من دعم الثورة الجزائرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إفتتاحية

يسعدنى ويشرفنى تقديم العدد السادس عشر من مجلة «المؤرخ العربى» (مارس ٢٠٠٨) التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، بعد أن احتلت مكانة متميزة بين الدوريات التاريخية المتخصصة التى تصدرها الجامعات ومراكز البحوث فى أنحاء الوطن العربى الكبير. ويحتوى هذا العدد على أحد عشر بحثا فى موضوعات تاريخية جديدة تلقى أضواء كاشفة على تاريخ الوطن العربى عبر العصور . وقد قام بكتابة هذه البحوث مجموعة من الباحثين من مصر والمغرب والسعودية والبحرين واليمن والجزائر وغيرها ، وتنشر لأول مرة بعد أن قام أساتذة متخصصون بتحكيمها ضمانا للجودة ، واستبعدوا غير الصالح منها.

ومجلة «المؤرخ العربى» ترحب بالبحوث والدراسات التاريخية الجديدة والمبتكرة للباحثين من سائر الجامعات ومراكز البحوث لنشرها بعد تحكيمها . ويشترط ألا يكون العمل المقدم للنشر فى مجلة الاتحاد قد سبق نشره ، أو قُدم للنشر لأية مجلة أخرى. ويراعى أن تتراوح صفحات البحث بين ١٥-٣٠ صفحة . ويقدم البحث مكتوبا على الحاسوب على ورق كوارتر (A4) ، ومسجلا على «اسطوانة مدمجة» وفق برنامج Word ، ومساحة الكتابة فى الصفحة ١٢ × ١٩ سم، والهوامش والتعليقات فى نهاية البحث ، وينط النص ١٤ ، وينط الهوامش ١٢ ، وينط العناوين الرئيسية ١٦ أسود ، وينط العناوين الفرعية ١٤ أسود ، والمساحة بين السطور Autp وترفق الرسومات والصور والخرائط والأشكال على ورق كلك ، قابلة للاستنساخ مباشرة.

وفقنا الله جميعا ، ووفق جميع أعضاء اتحاد الناشرين العرب لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية فى الوطن العربى ، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير .

أ.د. حسنين محمد ربيع

كلمة التحرير

يصدر العدد السادس عشر فى مجلة «المؤرخ العربى» ويعد استكمالاً لمسيرة بدأت من سنوات ليكون نافذة علمية على الثقافة العربية، والعدد الذى بين أيدي قرائنا وأعضاء الاتحاد يتضمن أحد عشر مقالا من باحثين من أقطار عالمنا العربى فهناك أبحاث من مصر والسعودية والجزائر والبحرين تعد إضافة وإثراء سواء فى موضوعاتها أو فى تناولها لتاريخ وحضارة مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، فتطوف بنا من الجزيرة العربية حيث تعرض للأسس التى أقام عليها النبى مجتمع المدينة بعد الهجرة ، ثم دراسة تناولت المجتمع العربى من أهلى الوبر وأهلى المدر ، ثم تنقل إلى العصر العباسى حيث تناقش العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ثم تتجه إلى مصر فى دراسة عن القرية فى مصر الاسلامية، ودراسة عن تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد ، ثم دراسة عن المغرب وموقفها من الثورة الجزائرية وكان للمخطوطات نصيبها من البحث فهناك دراسة تناولت دراسة وتحقيق لمخطوط تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا» ، وجميع أبحاث العدد محكمة من قبل أساتذه متخصصين فى المجالات التاريخية المتنوعة.

والمجلة تأمل أن تضيف الجديد خلال إعدادها القادمة حيث يتسع المجال لإضافات بناءة، فهناك مقترحات بإضافة باب يتناول تلخيص ودراسة موجزة لأهم الإصدارات التاريخية على مستوى العالم العربى .

ويسعدنا أن نلتقى اقتراحات الزملاء أعضاء الاتحاد، لأننا نسعى جميعا لما فيه الخير والتقدم لمجلة المؤرخ وللإتحاد .

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. عفاف صبره

أ.د. عفيفى محمود

رئيس التحرير

أ.د. زبيدة محمد عطا

د . عبد الله إبراهيم محمد راجح

الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم

مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة

مقدمة

إن الحمد لله جل جلاله ، نشكره على نعمائه ، فالكل من آلائه وإليه مآله ، والمصلي عليه نبينا محمد وآله ، أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وأخرج الناس من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور العلم والرفق المبين ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، بفضل رجال - حوله - حملوا مشعل الهداية والنور إلى العالمين ، وهم أصحابه الميامين : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (الجمعة: ٢) . - وبعد ..

فلقد كثر اللَّغَط في عالمنا المعاصر^(١) - وخاصة من قبل أعداء الإسلام - أن دين الإسلام لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئاً سوى العنف والإرهاب والعدوان ، وقد حفزني هذا اللَّغَط إلى البحث فيما قدمه الإسلام للحضارة العالمية ، من خلال القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين ، وإبراز هذا العطاء الحضاري للإسلام ، فكتبت بحثاً عن : " مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية " ، وآخر عن " القيم الحضارية في القرآن الكريم والسنة النبوية " .

* أ . م في كلية التربية للبنات ببع - وقسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر .

وقد ضاعف من همّي للاستمرار في البحث في هذا المجال ، أن تلقيت دعوة كريمة من قبل : الجمعية التاريخية السعودية للاستكتاب في اللقاء العلمي العاشر بالمدينة المنورة ، حول أحد محاور اللقاء - عن منطقة المدينة المنورة - ، فاخترت المحور الثاني " المدينة المنورة ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم " لأنه بجانب كونه عمل علمي أكاديمي ، أحسبه - كذلك - من وسائل القربات إلى الله ورسوله ، للزّود عن منهج الله ، الذي جاء به القرآن والسنة ، لهداية العالمين ، وإقامة مجتمع فاضل قويم ، فجاء البحث تحت عنوان : " الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة " .

وقدّمت له بتمهيد عن : المدينة الفاضلة عند الفيلسوف المسلم " أبي نصر الفارابي " ، وبيّنت تأثيره بالفكرة اليونانية الأفلاطونية ، ثم أوضحت كيف تأثر الغرب الأوروبي بهذه الفكرة التي نقلها " سير توماس مور " عن تراث المسلمين وحضارتهم - في مطلع النهضة الأوروبية الحديثة - ووصف فيه أحوال وقيم هذه المدينة الفاضلة ، وإن أسماها " يوتوبيا " ، أي مدينة لا وجود لها إلا في عالم الخيال ، فرددت عليه مقولته هذه ، بأنها ليست " يوتوبيا " ، ولكنها المدينة الفاضلة التي وجدت في عالم الواقع الإسلامي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وبيّنت الأسس والركائز المنهجية التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع هذه المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة ، وقدّمت لهذا الموضوع نبذة عن الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة ، وأصناف الفرقاء فيها ، ثم تناولت الأساس الأول للبيان الجديد وهو : بناء المسجد النبوي ، ولماذا ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأهميته في بناء الدولة الجديدة . ثم تحدّثت عن الأساس الثاني وهو : الإخاء الإسلامي بين المهاجرين والأنصار ، مبيناً أسبابه وآثاره ، وما سهله من موجبات السمع والطاعة لله ولرسوله ، ثم تناولت مهادنة اليهود والأعراب حول المدينة ، كأساس ودستور للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، وأكدّدت على أن الإسلام دين تعاون ومودة ، وبر غير المسلمين إذا ما التزموا جانب السلم مع الإسلام وأهله ، ثم ختمت البحث بالأساس الأخير والمهم ، وهو : الإعداد والجهاد للذود عن هذا البيان ، وليس للعدوان

على غير المسلمين - كما يزعم أعداء المسلمين - واستدللت على كل ما كتبت بآيات من القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين .

وتوصلت إلى أن عالم اليوم ، لو أخذ هذه الأسس التي أرساها النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرضى والقبول ، لاستطاع أن يبني أعظم حضارة ، وأقوم مجتمع ، يضمن للإنسان الأمان من الخوف ، والإطعام من الجوع ، والسعادة المادية ، والراحة النفسية ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون - من بعده - حين طبقوا هذه الأسس ، فأقاموا المجتمع الفاضل ، والدولة القويمة في صدر الإسلام ، والتي ما تزال حقيبتها غرّة في جبين الدهر ، ولو كره الحاقدون ..

والله أسأل أن يعيدها للمسلمين ثانية ، وما ذلك على الله بعزيز .. إنه أهل له وهو القادر عليه .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تقديم

(١) المدينة الفاضلة عند الفارابي .

قامت الحضارة الإسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين على أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبعض من تراث الأمم الأخرى الذي ، لا يخالف القرآن والسنة - وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة في الشرق والغرب والشمال - ، لكنه بعد تولى العباسيين الخلافة عملوا على نقل التراث القديم إلى الحضارة الإسلامية ، فنقلوا تراث مصر القديمة والهند والفرس واليونان ، وأقاموا مراكز للترجمة لتعريب هذا التراث ، وخاصة اليوناني منه ^(٢) ، وازدهرت حركة علمية وحضارية كبيرة ، خاصة في القرن الرابع الهجري في شتى مناحي الحياة ، وخاصة الحياة العلمية ، أثرت رموزاً لعلماء ومفكرين مسلمين ، حملوا عبء الفكر الإنساني ، وانطلقت الطاقات الإسلامية لشرح وتطبيق هذه العلوم بالممارسة والتجربة والاستقصاء ، فتقدموا بالعلوم والثقافة خطوات على طريق الحضارة ، وتركوا بصماتهم على صفحات التاريخ ، في شتى العلوم التي بنى عليها الغرب الأوروبي نهضته وتقدمه في مجالات العلوم التطبيقية والفلسفة .

ومن هؤلاء الذين اشتغلوا بالعلوم الفلسفية والعقلية " أبو نصر الفارابي " المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، فقد درس الفارابي الفلسفة اليونانية القديمة وتأثر بكتاب " النفس " لأرسطو طاليس ، وقال إنه قرأه مائة مرة ، كما تأثر بكتاب " السماع " لنفس المؤلف ، وقال أيضاً : إنه قرأه أربعين مرة ، كما قرأ جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة) وتأثر به ، وأخذ عنه الفكرة المادية للمدينة الفاضلة .

إذن فكرة المدينة الفاضلة هي فكرة أفلاطونية ، - خرجت من عقل فيلسوف نشأ في بيئة إسلامية ، - كما يقول د . طه الدسوقي حبشي ^(٣) .

تحدث الفارابي - من بين ما تحدث - في كتابه عن المدينة الفاضلة ، فوصفها بأنها المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة ، فكل الحياة فيها

قائمة على التعاون ، وشبَّهها بالبدن التام الصحيح ، فكما أن رئيس البدن في الإنسان هو القلب ، وبقية الجوارح تبع له حسب أهميتها ، فكذلك المدينة الفاضلة يقع في القلب منها الرئيس، الذي يجب أن يتمتع بخصال عظيمة ^(٤) ويليه في الأهمية من هم أقرب إلى الرئيس (البطانة) ، ودون هؤلاء قوم يعملون الأغراض التي ترضي الرئيس وتسعده ، ومن دونهم قوم يعملون لصالح الرئيس ، ثم دونهم قوم آخرون يعملون لصالح الأولين بإرادتهم ، لكن دون مصلحتهم هم ، أو مصلحة عامة أهل المدينة ^(٥).

ثم تحدث عما يضاد المدينة الفاضلة مثل : المدينة الضالة ، والمدن المبدلة ، فقال : " الذي أضل أهل المدينة الفاضلة وعدل بهم عن السعادة لأجل شيء من أغراض أهل الجاهلية - وقد عرف السعادة - فهو من أهل المدن الفاسقة .. وهو وحده - دون أهل المدينة - شقي ، وهم يهلكون وينحلون جميعاً " ^(٦) .

وعن المدن المبدلة قال : " أما المضطرون والمقهورون من أهل المدينة الفاضلة على أفعال الجاهلية ، فهم أهل المدن المبدلة ، فإن المقهور على فعل شيء لما كان يتأذى بما يفعله من ذلك ، صارت مواظبته على ما قُسر عليه ، لا تكسبه هيئة نفسانية مضادة للهيئات الفاضلة ، فتكدر عليه تلك الحال ، حتى تصير مترلة مترلة أهل المدن الفاسقة ، فلذلك لا تضره الأفعال التي أُكْرِه عليها ، وإنما ينال الفاضل ذلك الذي وصف به أهل المدينة الفاسقة ، متى كان المتسلط عليه أحد أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة ، واضطره إلى السكن في مساكن المضادين " ، ثم تحدث عن الأشياء المشتركة لأهل المدينة الفاضلة، وأولها معرفة السبب الأول ، ثم الأشياء المفارقة للمادة وصفاتها التي تنتهي من المفارقة إلى العقل الفعّال ^(٧) ... الخ.

لقد بنى الفارابي وجهة نظره - في بنية كتابه - على : دعوة التقريب بين الثقافتين الإسلامية واليونانية - المتأثر بها - وهي دعوة ينقصها الدليل ، ولا يفيد فيها التبرير ، ولا تتم إلا بتنازل إحدى الثقافتين للأخرى ، وبما أن الثقافة اليونانية لا تنازل عن شيء من

قيمها ، فإن المطلوب أن يتنازل الإسلام وثقافته عن شيء من تشريعاته الإلهية ، وهو ما أُلح إليه الفارابي .

وكثير من الفلاسفة حاولوا مجازاة الفارابي - من يومها إلى الآن - وفشلوا ، لكنهم يعيدونه اليوم تحت مسمى جديد هو : الحوار بين الإسلام والغرب .

إن أخطر ما جاء في كتاب الفارابي هو حديثه عن الإلهيات ، حيث جاء رأيه فيها محكوماً بمبدأين يونانيين :

أحدهما : أن الله لا بد أن يكون واحداً من كل ، وهذا يؤدي إلى تعطيل الله عن صفات كماله .

وثانيهما : أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو العقل الثاني ، ومن ثم العقل الثالث . وهكذا .. مما يؤدي إلى التسلسل ، وهذا يناقض عقيدة الإسلام . ولما تحدث الفارابي عن السياسة المدنية ، اضطر إلى الحديث عن الفلاسفة و الأنبياء والمصلحين ، ومن ثم تحدث عن الرياسة العامة في المدينة الفاضلة ، والشروط الواجب توافرها في هذه الرياسة ، ونسى - أو تناسى - أن هذه المدينة الفاضلة التي تأثر بها من خلال جمهورية أفلاطون ، كانت مدينة طبقية ، ومن ثم لا يصح نعتها بالفاضلة .^(٨)

٢ - المدينة الفاضلة عند "سير توماس مور"

إننا في نظرة شاملة لمدى أوسع ، نستطيع أن نؤكد أن أوروبا في أواخر العصور الوسطى (من أوائل القرن السادس إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) كانت ترزح تحت ظلام دامس ، حتى أُطلق على هذه الفترة في التاريخ الأوروبي (العصور الوسطى المظلمة) حيث طبع فيها التعليم بطابع ديني غيبي جامد ، وهيمنت الكنيسة على فرض هذا النوع من التعليم ، ومحاربة كل وسائل البحث العلمي المادي^(٩) . وظاهرَ بعض حكام أوروبا الكنيسة في هذا المجال ، فقد حرّم ثيودريك ملك القوط في شبه جزيرة أيبيريا (بلاد الأندلس فيما بعد) إرسال أبناء القوط إلى المدارس ، بمقولة أن الطفل الذي يشب على الخوف من عصا

المعلم ، لن يكون في مستقبل حياته شجاعاً يواجه السيوف والحرا ب ، وفضلاً عن ذلك انتشرت المفا سد الدينية ببيع صكوك الغفران لمن يدفعون للكنسية ورجال الدين ، وحرمان من ينقدونها من دينهم ، بل ومعا قبة بعضهم بالطرد و الحرق^(١٠).

حدث هذا في الوقت الذي نضجت فيه حضارة الإسلام واكتمل بناؤها ، وأخذت تشق طريقها إلى أوروبا عبر علماء الإسلام ، ومراكز الترجمة في كل من الأندلس وصقلية ، ثم إبان الحروب الصليبية ، وما أحدثته من احتكاك ثقافي بين المسلمين والصليبيين ، فعن طريق مراكز الترجمة في قرطبة وصقلية (باليرمو) نقل الأوروبيون الكثير من تراث الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وبخاصة تلك الأفكار التي تدعو إلى الحرية ، ونقد سيطرة الكنيسة على شؤون الحياة ، وقد اعترف أحد أعلام النهضة الأوروبية في القرن ١٣ م "دانتى أليجيري" (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) بأن الشعر الإيطالي هو نتاج للشعر العربي الموروث من حضارة صقلية^(١١). كما استفاد دانتى نفسه من رسالة الغفران لأبي العلاء المعري (عن رحلة الإسراء و المعراج) ، وكتب منها مؤلفه المشهور " الكوميديا الإلهية"^(١٢). والتي نقد فيها الكنيسة تصريحاً لأول مرة ، حينما تحدث فيه عن رجال الدين والقسس ، و أنه رآهم في النار ، أما العبيد و الفقراء فإن مترلتهم الجنة ، وأن الأعراف أو المطهر ، - وهو سور بين الجنة والنار - فإنه مكان المنافقين الممالئين لسلطة الكنيسة^(١٣).

وجاء بعده في مطلع القرن السادس عشر الميلادي " السير توماس مور " (١٤٧٨ - ١٥٣٥ م) - أحد أعلام النهضة الأوروبية أيضاً في أواخر القرن ١٥ م - وقد استفاد من حركة ترجمة التراث الإسلامي و الفكري والسياسي إلى اللغات الأوروبية ، وخاصة كتابات ابن رشد ، وابن حزم ، والفارابي ، فقد استفاد من الأخير ونقل عنه الكثير من آرائه في كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة ، وأسمى كتابه " يوتوبيا "^(١٤) فما الذي جاء في هذا الكتاب .^(١٥)

كان " توماس مور " أحد أعلام النهضة في إنجلترا ، وذكر في كتابه " هنري الثامن " أرسله في بعثة إلى بلاد فلاندر - بلجيكا الحالية - كسفير له فيها ، وما أن وصل إلى هذه البلاد حتى استقر في جزيرة " يوتوبيا " ، وبمعونة أحد ابنائها ويدعى " روفائيل هيثلوداي " وأخذ يصف مدنها ، وماءها ، والقانون الذي يحكمها ثم تحدث عن زي أهلها الموحد ، فذكر أن لكل واحد حُلة واحدة كل عامين ، الرجال والنساء سواء كما ذكر أن الأبناء يخضعون لطاعة الوالدين ، وأن الزراعة هي مهنة إجبارية لأهل البلاد ، يختار كل واحد بجانبها حرفة أخرى إضافية ، وأن الطفل يتعلم مهنة أبيه ، أما النساء فيأمن بأعمال نسج الثياب ، وذكر أن الدولة هناك تحدد ساعات العمل بساعات فقط ، وأن الناس يتناولون العشاء مبكرين وينامون مبكرين .

ثم تحدث عن سن الزواج ، وأنه محدد بثمانية عشر عاماً للمرأة ، واثنين وعشرين للرجل ، وأن الطلاق غير مباح إلا بالتوافق بين الزوجين ، أو بموافقة مجلس شورى الدولة . كما ذكر أن المرأة لا تستخدم المساحيق للزينة ، ولا تلبس الملابس الخليعة ، وأن الجمال هناك هو جمال الخلق وليس جمال الخلق ، كما ذكر أن عدد أفراد الأسرة محدد ، أي أن يوتوبيا تقرر تنظيم الأسرة بتحديد النسل ، وأضاف بأن يوتوبيا بها أربع وخمسون مدينة ، لا يجوز الانتقال بين مدنها إلا بتصريح ، ولا يمكن الشخص بها بدون عمل سوى يوم واحد ، وأكد أن المساواة و المواساة قائمة بين هذه المدن ، إذ تأخذ كل مدينة ما تحتاجه من الأخرى بدون ثمن أو ضريبة ، لأن الإنتاج وفير يفيض عن حاجة السكان ، والمجتمع اشتراكي يقوم على التكافل ، كما ذكر أن سكان يوتوبيا يحقرون الذهب والفضة ، فيصنعون منه شارات نزلاء السجون وأرباب السوابق وذوي الأخلاق السيئة ، وأن الجواهر والفضة لحلي الأطفال فقط ، وأكد أن سكان الجزيرة يفضلون الحديد على الذهب والفضة ، لأنه أكثر فائدة في مجال الصناعات الإنشائية ، وللدلالة على صدق كلامه ، ذكر أن السفراء الذين جاءوا بحلي الذهب إلى الجزيرة طرحوه أرضاً ، لأنهم وجدوه موضع سخرة من أهل الجزيرة .

أما عن الدين : فذكر أن حرية العقيدة مكفولة في يوتوبيا ، لكن الأغلبية للموحدّين ، وإذا كان لكل إنسان الحرية في اعتناق الدين أو المذهب الذي يريده ، فإن من يثير الفتن الدينية يطرد من الجزيرة ، وذكر أن أماكن العبادة جميلة تلائم جميع الديانات ، وأن أول كل شهر وآخره أيام مقدسة ، وأكد أن كل من ارتكب جرماً يصبح عبداً .

أما من الناحية السياسية : فذكر أن مبدأ الحكم يقوم على الانتخاب الحر ، وأن أهل الجزيرة يختارون رئيسهم مدى الحياة ، عن طريق مجلس الشورى الذي تمثل فيه جميع العائلات ، كما ذكر أن السلطة القضائية مستقلة عن السلطة التنفيذية ، وأن كل قضية يفصل فيها قاضيان ، وإن العقوبة على قدر الجرم .

وأضاف : أن أهل الجزيرة يمتنون الحرب ، ويرون أن هناك وسائل أخرى لفض النزاع ، كالذكاء والدهاء والحيلة ، لأن القوة في مفهومهم هي وسائل الوحوش في الغابات ، ورغم ذلك فإن أهل الجزيرة يدافعون عن بلادهم بكل قوة إذا ما اعتدى عليهم .

وينتقد "توماس مور" طبيعة المجتمع الإنجليزي خاصة - والأوربي عامة - في مساوئاته في عقوبة الإعدام بين القتل والسرقة ، وكان غرض "توماس مور" من يوتوبيا يرمي إلى :

١- الحملة على النظام الرأسمالي في بلاده (إنجلترا) .

٢- الدعوة إلى حرية العقيدة لدرء الخصومة بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣- تعديل القوانين الجائرة في إنجلترا .

٤- تنظيم العلاقات الدولية لمنع الحروب ، وهو نقد يوجهه لحروب مليكه " هنري

الثامن " .

٥- المقارنة بين المساوى الاجتماعية التي تسود أوروبا عامة - وإنجلترا خاصة - ، وبين

المثل العليا في يوتوبيا .

تلك هي المدينة الفاضلة التي أشاعت كل شيء بين الناس ، حتى صاروا أغنياء بالقناعة ، بخلاف انجلترا التي قسّمت المجتمع إلى سادة وعبيد ، ومن ثم كالت بمكيالين في التعامل بين البشر . لكن بعد كل ذلك يسمى " توماس مور " - جزيرته المدينة الفاضلة - " يوتوبيا " أي في عالم الخيال ، أو لا وجود لها ، لكننا نقول له : لا ! يا سير توماس مور ؟ !

إنك لم تأت بجديد ، لكنك أخذت الفكرة عن الفارابي في - آراء أهل المدينة الفاضلة ، وإنما الجديد هو إنكارك للمدينة الفاضلة ، وادعاؤك أنها مدينة لا وجود لها ، وأنها إنما وجدت في عالم الخيال .

والحقيقة أنها وجدت على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وسنبيّن في الصفحات التالية الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة ، حتى نقف على ما قدمه الإسلام للعالم من مجتمع راق نظيف متحاب ، متعاون متكافل ، يدعو إلى السلم ويدفع العدوان رغم أنف بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " الذي يدعي - حقداً وكمدأ - أن الإسلام لم يقدم للعالم شيئاً سوى العنف والإرهاب والكراهية والعدوان " فسحقاً لأصحاب السعير " (١٦)

الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة النبوية إليها

قبل أن نتحدث عن مجتمع المدينة الفاضلة أو الدولة المثلى التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب نتبين : أولاً حالها عند الهجرة فنقول :

لم يكن معنى الهجرة إلى يثرب هو التخلص من الفتن والاستهزاءات التي لحقت بالمسلمين في مكة من قبل مشركي قريش فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاوناً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، قوامه التوحيد ونشر العدل والمساواة في بلاد العرب أولاً ، ثم في العالم أجمع ثانياً ، مجتمع مؤسس على الأخوة الصادقة والمحبة والوئام ، وقبل كل شيء على عقيدة التوحيد الصحيحة المنبثقة من عالمية القرآن والسنة ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة

شأنه ، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع ، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع في يثرب ، بعد أن أصبحت دار إقامة للنبي وأصحابه الكرام ، الذين هاجروا إليها من مكة وضواحيها ، ليكونوا جنداً مخلصين لدولة الإسلام الجديدة ، وللدعوة الإسلامية التي اتخذت من هذه المدينة المباركة مقراً لها ومنطلقاً إلى أنحاء العالم أجمع^(١٧) .

وأرى ، من واجبي - إيفاء بحق الموضوع محل البحث - أن ألقى ضوئاً على ذلك المجتمع الجديد الذي استقر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنرى من هم الذي كانوا يسكنون في تلك البلدة وما هي أصولهم وجذورهم ، وطبائعهم ، وخصالهم ، حتى يسهل علينا فهم ما جرى في مدينة الرسول من الانقلاب الجذري بواسطة الإسلام ، وما هي العقبات التي واجهها الرسول في سبيل بناء هذا المجتمع الجديد ، المؤسس على الإسلام عقيدة ونظاماً . فأقرر : أن بلدة يثرب كانت من قديم الزمان واحة خضراء ، خصبة التربة كثيرة المياه ، وكانت تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع ، وكان يسكنها اليهود ، وقبيلتا الأوس والخزرج ، فضلاً عن سكانها الجدد المهاجرين إليها مسلمين من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم^(١٨) ، إذن فالأقوام التي كان يواجهها النبي في المدينة كانت على ثلاثة أصناف ، يختلف أحوال كل منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وبالتالي تحتاج كل واحدة منها إلى معالجة خاصة ، وهذه الأصناف الثلاث هي :

١- أصحابه الصفوة الكرام البررة (مهاجرون وأنصار) .

٢- المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

٣- اليهود على اختلاف طوائفهم وقبائلهم .

أما الصنف الأول : (أصحاب النبي) - وخاصة المهاجرين - فإن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكة كانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، أمرهم بيد أعدائهم في الدين ، ولذا لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً رغم اجتماعهم على كلمة جامعة ، وهي كلمة

التوحيد ، أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم من أول يوم ، حيث لم يكن عليهم سيطرة لأحد من الناس ، ومن ثم فقد آن لهم أن يكونوا مجتمعاً إسلامياً جديداً ، يهتم بمسائل الحضارة والعمران والمعيشة والاقتصاد ، والسياسة والحكومة والسلام والحرب .. ومما إلى ذلك من مسائل الحياة ، أي مجتمع يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، إنه مجتمع يمثل الدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال طيلة عشر سنوات في مكة ، ولا يخفى أن تكوين مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يتم في يوم وليلة ، أو في شهر ، أو في سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن يتكامل فيه التشريع والتقنين ، مع الثقيف والتدريب ، والتربية بالتدريج ، وكان الله كفيلاً بهذا التشريع ، كما كان رسوله صلى الله عليه وسلم قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفق هذا التشريع^(١٩) : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)^(٢٠) ، وكان الصحابة أيضاً مقبلين عليه بقلوبهم يتحلون بأحكامه ويستبشرون بها : (وَإِذَا ثَلِثْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)^(٢١) .

ولما كانت جماعة المسلمين في المدينة مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهتمهم إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد^(٢٢) . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر - وهم المهاجرون - فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ليس لهم ملجأ يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به القوام من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، بل يزداد يوماً بعد يوم ، ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، ومن ثم تزعزع ميزانها الاقتصادي ، خاصة وقد قامت الجهات المعادية للإسلام - في مكة وما حولها - بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلّت لأجلها الواردات الغذائية ، وتفاقمت الحاجة^(٢٣) .

٢ - وأما الفريق الثاني : وهم المشركون - من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتدرد في ترك دين الآباء (الوثنية) ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، فهؤلاء

أسلموا وأخلصوا دينهم لله بعد فترة قصيرة ، ولكن كان في هذا الفريق أيضاً - من يبطن شديد الحقد والعداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، لكنه لم يكن يستطيع أن يناوئهم ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء لضعفه وجبنه ، وهو يبطن الكفر والعداء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (مهاجرين وأنصار) وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ويأتي على رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب " بعاث " ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة ، فباغته مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وانصراف قومه عنه إلى النبي ، فكان يرى أنه استلبه ملكه ، فأبطن العداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الظروف لم تكن تساعده على شركه الذي يُحرّم بسببه الفوائد الدنيوية ، ولهذا أظهر الإسلام - بعد بدر - ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين إلا ويأتي بها ، يدعمه أصحابه ومن على شاكلته ممن حُرّموا المناصب التي كانت مرجوة لهم في ملكة ، وكان العداء الخفي (النفاق) أشد وأنكى على المسلمين من العداء المعلن من قبل قريش وحلفائها ، ولكن قيادة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسته في بناء المجتمع الجديد كانت كفيلة بالقضاء على كل هذه العقبات ^(٢٤).

٣ - أما الفريق الثالث وهم اليهود : فقد كانوا نزحوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري ثم الروماني ، وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في يثرب والحجاز منذ القرن الثاني الميلادي ، وارتاد يهود " بني النضير ، وبني قريظة " منطقة يثرب ، واستقروا فيها لخصبها ، وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل إلى الشام ، وكانت ديارهم بضواحي يثرب ، ومن القبائل اليهودية التي استقرت داخل يثرب يهود " بني قينقاع " الذين يقال عنهم إنهم كانوا عرباً قهوداً ^(٢٥) ، وكان هؤلاء اليهود عبرانيين ، لكن بعد نزوحهم إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم و أفرادهم عربية ، وقامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهرية ، ولكنهم حافظوا على عصبيتهم الجنسية العبرانية ولم يندمجوا في العرب كلياً ، بل كانوا يحتقروهم ويسمّوهم "

أميين " ، أي وحوش سُذَّج وأراذل متأخرون ، كما كانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيفما شاءوا . (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) (٢٦) ، ولم يكن لهم تحمُّس في نشر دينهم ، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، مما عدُّوا به أنفسهم أصحاب علم وفضل ، كما كانوا ذوي خبرة في بناء الحصون ، وفي فنون الكسب والمعيشة ، كالزراعة والصناعة وتربية الماشية ، وصناعة النسيج ، وآلات الحرب ، كما مهروا في التجارة والتعامل بالربا . فكانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم مقابل ارقان أرضهم وحوائلهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها ، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويوقدون دائماً نار الحرب بين الأوس والخزرج في يثرب ، ثم يزودون الطرفين بقروض ربوية ثقيلة ، حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين : الأولى : المحافظة على كيانهم اليهودي قوياً أمام أعدائهم المتحاربين ، والثانية : إنفاق سوق الربا واستمراره ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ، ويجنوا الثروات الطائلة من ورائه ، ولقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج ، وإثارة الحروب بينهم حتى كان يوم " بعث " - كما ذكرنا - وكان عدد رجالهم المقاتلين يجاوز الألفين ، دخل أكثرهم (بنو النضير وبنو قريظة) هذه الحرب إلى جانب الأوس ، لكي يضعفوا الخزرج بوصفها القوة الكبرى في يثرب ، ومن ثم يبقى لهم السيادة على الطرفين ، وبالطبع فإن اليهود لم يكن يرجي منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، لأن النبي المنتظر جاء من غير جنسهم ، كما أنه جاء بدين جديد يعمل على إطفاء نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وتوحيدهم في مؤاخاة تجمعهم والمهاجرين المسلمين في أمة واحدة .

إن النبي صلى الله عليه وسلم جاء من غير اليهود ، فأثار ذلك حقدهم عليه وحسدهم له ، كما أن القرآن الكريم أخذ يعدد مخازي اليهود ، ونكوصهم عن الدين الحق ، لذلك أبطن اليهود أشد العداوة للإسلام ورسوله منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين (٢٧) ، ولم يكن لهم حق في عداة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم

يعرفون أنه نبي مرسل ، جاء ذكره وعلامته في التوراة ، كما شهد بذلك عبد الله بن سلام^(٢٨) ، فضلاً عما اعترف به حيي بن أخطب لأخيه أبي ياسر ، بأنه هو النبي ، كما ورد في حديث صفية أم المؤمنين - رضي الله عنها - الذي نقله ابن إسحاق ، وأورده البخاري^(٢٩) . وهذه أول تجربة تلقاها النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود في إنكار دعوته منذ أول يوم دخل فيه يثرب ، أضف إلى كل ذلك عداء قريش ومشركي العرب المستمر منذ سنوات^(٣٠) .

هذه هي القضايا و المشاكل التي كان يواجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في يثرب حين دخلها بصفته رسولا هاديا وإماماً قائداً ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور النبوة والقيادة في المدينة الجديدة ، وأدلى إلى كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة ، أو الشدة والنكال ، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات ، قضاها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في بناء مجتمع المدينة الفاضلة^(٣١) .

الأسس التي أقام عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم

مجتمع المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة النبوية

إن بناء المجتمع الإسلامي يقوم على أساس خضوع المسلمين في أفعالهم الاختيارية لشرع الله ومنهجه ، لأن الإسلام في جوهره دين عقيدة وشريعة ، وإذا كانت عقيدة الإيمان هي التصديق القلبي للنبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغ عن ربه مع النطق بالشهادتين ، فإن الشريعة هي العمل المصدق للعقيدة ، والدال على هذا الإيمان ، الذي يظهر أثره في السلوك البشري ، وسلوك الإيمان لدى ذويه يقتضي السمع والطاعة لما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كان بناء المجتمع الإسلامي وتأسيس دولته المثلى في المدينة ، يعتمد على أسس وركائز منهجية تضمن له الاستقرار والاستمرار^(٣٢) .

وهذه الأسس هي : بناء المسجد النبوي ، والمواخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم الإخاء الإنساني بالتعاهد مع اليهود ومع من حول المدينة من الأعراب ، إرساء لقواعد التعايش السلمي ، والتعاون الدولي بين البشر ، وسبق هذه الثلاثة ، أساس مهم هو السمع والطاعة لله ولرسوله ، وأعقبها عامل أهم هو الجهاد في سبيل الله ، للحفاظ على هذا البناء ، حماية للدين واستقراراً للدولة ، وتأمين أفراد المجتمع من أعدائهم في الداخل والخارج . ولنبدأ بالأساس الأول .

[١ - بناء المسجد النبوي]

دخل النبي صلى الله عليه وسلم يثرب مهاجراً من مكة^(٣٣) ، ونزل في بني النجار يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ (الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) ، نزل في أرض أمام دار " أبي أيوب خالد بن زيد النجاري الخزرجي " في المكان الذي بركت فيه ناقته ، وقال : " ها هنا المنزل إن شاء الله " ، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً إلى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة ، حتى بُنِيَ

المسجد ، والحجرات لزوجاته فانتقل إليها وكانت أول خطوة خطاها النبي صلى الله عليه وسلم هي إقامة المسجد النبوي .

ففي المكان الذي بركت فيه ناقته ، وهو - يومئذ - مربد لغلّامين يتيمن من بني مالك ابن النجار ، اشتراه النبي صلى الله عليه وسلم من كافلهما معاذ بن عفراء ، وأمر ببناء مسجده في هذا المكان^(٣٤) للصلاة فيه والمسلمين معه ، بعد أن كان يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وكان في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من الغرقد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصُفّت في قبة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادته من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعلوا سقفه من جريد النخل ، وعمّده الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب وكانت طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع وبني النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبه بيوت أزواجه باللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب - كما ذكرنا - وكان النبي هو وأصحابه ينقلون اللبن ، ويقول وهو ينقل اللبن والحجارة مع أصحابه :

هذا الحمال لا همّال خير هذا أبرّ ربنا وأطهر

كما كان يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأغفر للأنصار والمهاجرة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه ليرغب المسلمين في العمل ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار بدأب ، وكانوا يرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلّ^(٣٥)

ولكن .. لماذا كان المسجد أول لبنة يضعها النبي صلى الله عليه وسلم في بيان الدولة الإسلامية ؟ !

إن المسجد وإن اشتق اسمه من أظهر شعيرة في الصلاة ، وهي السجود على الأرض خضوعاً وانكساراً لله - لا لغيره - إلا أنه أضحي مكاناً لشعائر الصلاة كلها ، سجوداً وركوعاً ، وذكرأ وعبادة ، فضلاً عن كونه داراً للاعتكاف ، وجامعاً لسماع الخطبة والوعظ كل جمعة ، ومكاناً لتلاوة القرآن والذكر ، ومنتدى يجتمع فيه المسلمون عندما يحزبهم حازب ، أو يطرقهم أمر ، فيتنادوا : الصلاة جامعة ! .

إن مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بناء المسجد فور وصوله إلى المدينة ، يبين لنا الدور الأساسي للمسجد في بناء المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان ، وعندما نتصفح تاريخ المسجد النبوي في عصر الرسالة ، يتبين لنا جلياً أنه لم يكن مجرد مكان للعبادة و فقط ، بل تحققت بواسطته أهداف إسلامية عظيمة شملت مهام المجتمع والدولة كلها ، ويمكن أن نجملها فيما يلي :

١ - كان المسجد مدرسة لتعليم النشء القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم ، وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وسلم على التعليم في المسجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيراً أو ليتعلمه كان كالجاهد في سبيل الله " (٣٦) ، وقوله أيضاً : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القدر ، إنما هي لذكر الله ومن والاه ، وعالماً ومتعلماً " (٣٧) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " (٣٨) ، كما أنه جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم عدد من أبناء المسلمين القراءة والكتابة في مدرسة المسجد (٣٩) .

٢ - كان المسجد جامعة لإلقاء العلوم وتلقيها ، تعلم فيها الصحابة الكرام القرآن الكريم والسنة النبوية ، على يد معلمهم الأول النبي صلى الله عليه وسلم وتخرج منه كثير من الصحابة ، والتابعين من الأئمة الذين تلقوا على أيدي الصحابة في جميع العلوم والآداب . وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتربية في جامعة المسجد ، بل إنه هو الذي وضع أصول التربية الحديثة في هذه الجامعة ، وليس " دور كايم " ، ولا " سبنسر " ولا " روسو " كما يزعم المستشرقون والمستغربون - ، فإذا كانت أصول التربية الحديثة تقوم على وسائل ثلاث هي :

أ - إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم الإجابة .

ب - إثارة شوق المتلقي بالسؤال وحجب الإجابة حتى يكرّر السؤال ، فتأتي الإجابة لترسخ في ذهن المتلقي فلا ينساها .

ج - والثالثة التدريب العملي بعد الدرس النظري^(٤٠) ، إذا كانت تلك أسس التربية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤصل ذلك كله ، وبالمثال يتضح المقال :

ففي المقام الأول - السؤال ثم الإجابة - يأتي ما ثبت عن أبي واقد الليثي : " أن ثلاثة نفر جاءوا المسجد والنبي في حلقة الدرس ، فأقبل أحدهم على الحلقة مسرعاً ، وجاء الثاني على استحياء ، وانصرف الثالث عن الدرس ، ولم يلفت ذلك نظر واحد من الصحابة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا تسألوني أخبركم خبر هؤلاء الثلاثة ؟ فقالوا أخبرنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : أما الأول : فقد أقبل على الله فأقبل الله عليه ، وأما الثاني فاستحيا من الله فاستحيا الله منه ، وأما الثالث : فقد انصرف عن الله فانصرف الله عنه))^(٤١) .

وفي المقام الثاني - إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم حجب الإجابة عنه حتى يلح في سؤاله - يأتي حديث سعيد بن المعلا في شأن سورة الفاتحة ، حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " يا سعيد لأعلمنك شيئاً لا تسأل عنه أحداً " فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الدرس سأله ابن المعلا يا رسول الله : قلت لي لأعلمنك شيئاً لا تسأل عنه أحداً . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كرر ابن المعلا سؤاله ثلاثاً . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أنه على شوق لتلقي الإجابة على سؤاله ، قال صلى الله عليه وسلم : " يا سعيد عليك بالسبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته "^(٤٢) .

وفي المقام الثالث - التدريب العملي - ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه ، فإذا برجل جاء المسجد يصلي ، فأسرع في صلاته ولم يتم ركوعها وسجودها حتى يلحق بالدرس ، فلما جاء الحلقة ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصل فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل فصلى مثل صلاته الأولى ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم فقال له ثانية " ارجع فصل فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل ليصلي لكنه لم يزد على ما فعله في المرتين السابقتين ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قال سابقاً ، فقال الرجل : يا رسول الله لم أحسن غير هذا ، فعلمني كيف أصلي ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا دخلت في صلاتك فكبر بتهليل ، وقرأ بترتيل ، واركع بتواضع ، واسجد بتخشع ، وافعل ذلك في صلاتك كلها ، فتكون قد صليت " (٤٣) . ففعل الرجل بعد أن علمه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أثرت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأتباعه ، فذلكم السُّبُطَيْن : - الحسن والحسين - رأيا أعرابياً يتوضأ فلا يحسن الوضوء ، فأرادا أن يعلماه كيف يتوضأ وضوءاً صحيحاً ، دون تجهيله أو تجريحه ، فقال له الحسن : " أي عماه ! إني وأخي نحتكم إليك فيمن فينا يحسن الوضوء ؟ " فقال الرجل : أي بني توضأ فبدأ الحسن بالوضوء ثم أعقبه الحسين ، فنظر الرجل إليهما قائلاً : " لقد أصبتما وأنا الذي أخطأت ، جزاكم الله خيراً فيما علمتما " (٤٤) .

٣ - كان المسجد منتدى لتناشد الأشعار والآداب ، إذ دخل كعب بن زهير بن أبي سلمى على النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد وأنشده قصيدته التي بدأت بالغزل : " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " ولم ينهه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . كما كان حسان بن ثابت يجلسه النبي صلى الله عليه وسلم على مقعد خصَّصه له بجوار منبره ، ينشد الأشعار داخل المسجد (٤٥) . ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة أراد أن يخرج حسان من المسجد ، فحاجَّه حسان قائلاً : يا عمر : أجلسني من هو خير منك لأنشد الشعر هنا ، فكيف تخرجني أنت ؟! فقال له عمر : صدقت ، وأقرَّه في المسجد (٤٦) .

٤ - كان المسجد دار قضاء ، ومحكمة للفصل بين الخصوم ، ودار فُتيا فيما يرزل به الوحي متلوّاً وغير متلو ، ودار شورى فيما ليس فيه وحي : جلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضي بنفسه بين المتخاصمين ، كما أناب عنه من يقوم بذلك ، كأبي بكر وعمر ، وكان عمر أيضاً ينيب علي بن أبي طالب ليقضي بين الناس في محكمة المسجد ، حتى قيل : " قضية ولا أبا حسن لها " وما يؤثر في هذا المقام أن " كعب بن مالك " ، و " عبد الله بن

حدرود " اختصما في المسجد ، حيث كان ابن مالك قد أقرض ابن حدرود مالا ولم يرد القرض ، فجاء المسجد وطلب إليه أن يرد المال ، وعلا صوتهما والنبي صلى الله عليه وسلم في بيته فسمعهما ، فخرج إليهما ، فأشار إلى كعب قائلاً : " حطّ عنه الشطر " ؟ فقال : أفعَل يا رسول الله ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن حدرود وقال : " قم الآن واقضه حقه " ؟ فقال : أفعَل يا رسول الله ^(٤٧) ، وكان المسجد معتقلاً للأسرى ومحبساً للخاطئين : فهذا " ثمامة بن أسال " الذي كان يتخطف قوافل المسلمين ويغير على سرحهم ، وظفر به المسلمون فأمسكوه ، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقيده إلى إحدى سوارى المسجد ، وكان يمر عليه فيقول : " ما صنع الله بك يا ثمامة ؟ فيقول خيراً يا محمد : إن تقتل تقتل صاحب إثم ، وإن تعف تعف عن ذي رحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة ؟ فأطلقوه " ^(٤٨) وعفا عنه النبي فذهب واغتسل وعاد مسلماً . أما " أبو لبابة بن عبد المنذر " الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريظة بناء على طلبهم - وأخبرهم أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم سيدبجهم إن سلموا ولكنّه أحسن بخطئه وأنه خان الله ورسوله والمسلمين . وندم على فعلته ، وحضر إلى المسجد فربط نفسه في سارية من سواريه ، وأقسم ألا يحله أحد حتى تأتي براءته من السماء لتؤكد توبته ^(٤٩) من فعلته ، وظل حبساً في المسجد ما ينيف على الشهر ، حتى أنزل الله قرآناً يؤكد قبول توبته : ((وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) ^(٥٠)

٥ - كان المسجد داراً للضيافة ومقراً لاستقبال الوفود القادمة إلى المدينة ، حيث استقبل فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وضيّفهم فيه ، كما استقبل وفد نصارى نجران ، ووفد الحبشة وقدم لهم الضيافة ، وأسمعهم القرآن فأسلموا ، وفاضت عيونهم من الدمع ^(٥١) وأنزل الله فيهم : ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِصْنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)) (٥٢).

٦ - كان المسجد منزلاً للفقراء ، ومطعماً للمساكين ، وسكناً للمحتاجين ،
فكان دار من لا دار له ، ومطعم من لا طعمة له ، بنى النبي صلى الله عليه وسلم في مؤخرة
المسجد صُفَّة " مصطبة " أقام فيها هؤلاء الفقراء ، وعلق في سقف المسجد كلاليب بها
سبائط البلح ، وعناقيد العنب ، ليقتات منها هؤلاء ، ثم يبيتون في الصفة ، وهم الذين سُموا
بأهل الصُفَّة ، أو أصحاب الصُفَّة (٥٣). ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم رجاءهم ولا
نساءهم من المبيت في المسجد ، بل أمر أصحابه بذلك ونهاهم عن المنع قائلاً : " لا
تمنعوا عباد الله إماء الله من المبيت في مساجد الله " (٥٤).

٧ - كان المسجد مصنعاً لصناعة آلات الجهاد ، ومستشفى لتمرير الجرحى ومداواة
المرضى وداراً لعقد الأنكحة ، ومقراً لقيادة الجيش وقاعدة لإدارة الشؤون السياسية
والعسكرية ، فقد جلست النسوة فيه يثقفن الرماح ويرققن السهام ويحدثن السيوف ، كما
قمن بتمرير جروح المصابين من المجاهدين ، كما فعلت صفية عمة النبي صلى الله عليه
وسلم ورفيدة الأسلمية التي داوت جروح سعد بن معاذ يوم الخندق ، وكما فعلت أم
عمارة نسيبة بنت كعب المازنية مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٥٥)، كما كانت
تشهر الأنكحة في المسجد أيضاً ، ومنه يعلن الجهاد ويخرج اللواء ، وفيه تعقد المهادنات
والمعاهدات (٥٦).

والخلاصة أن المسجد قد جمع كل هذه المهام والوظائف المنوطة بالدولة ، واللازمة لبناء
المجتمع ، وهذا يبين : لماذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ! والعمل فيه بيده مع
أصحابه داعياً لهم بالرحمة والغفران ، قبل أن يفكر في بناء دار لنفسه ، كما كان يحض
المسلمين على الإسهام في بناء المساجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من بني لله مسجداً
ولو كمفحص قطاة بني الله له بيتاً في الجنة " (٥٧). كما حض المسلمين على انتظار
الصلاة في المساجد ، وسماها الرباط ، تشبيهاً بمن يربطون في الثغور لحمايتها من
الأعداء ، كما طلب إلى المسلمين توقيف المساجد ، ونهاهم عن الكلام فيها بغير ذكر الله ،

فقال صلى الله عليه وسلم : ((الكلام في المساجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ^(٥٨))) كما هي عن مجالسة من يلغون في المسجد بكلام دنيوي ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي إلى المساجد ، فيقعدون فيها حلقاً ، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة ^(٥٩))) . كما هي عن البصاق والنخامة في المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها ^(٦٠))) ، وقد أمر الله بعمارة المساجد فقال تعالى : ((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)) ^(٦١) .

كما هي عن تخريب المساجد أو السعي في خرابها ، وتوعد الساعين في خرابها بالحزى في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) ^(٦٢) .

تلکم هي رسالة المسجد الجامع في بناء الدولة الإسلامية الأولى ، والتي استمرت في كل المساجد في أنحاء الدولة الإسلامية فيما بعد ، وانتشرت من المدينة ومكة إلى البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وفاس والفسطاط ، والقاهرة . وما زال جامعها " الأزهر " يؤدي تلك الرسالة إلى اليوم منذ أكثر من ألف عام .

فأنت أخي القارئ ترى أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً في المبنى ، لكنه عظيم المعنى في الأهداف والغايات ، ومع تواضعه وبساطته ، ربى فيه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام ، والتقى فيه بالمسلمين من جميع القبائل العربية - المشتتة قبل الإسلام - لينسيهم الترعات الجاهلية ، والفوارق القبلية ، ويربيهم على الخير والحب والتآلف ، لينصهروا في بوتقة واحدة متماسكة ، ويؤلفوا أمة واحدة موحدة ، تدوس على رؤوس الكفر والشرك والطغيان ، وتحمل دعوة التوحيد إلى أرجاء العالم بالحكمة والموعظة الحسنة ^(٦٣) .

ونخلص من كل هذا إلى أنه : كان لاهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالعلم والتعليم ، والعلماء والمتعلمين ، أثر كبير في سلوك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين جلسوا حوله في المسجد ، واستمعوا إلى هذه التوجيهات المتكررة من القرآن ، والبحث المتواصل من الرسول صلى الله عليه وسلم علي العلم ، فكانت استجاباتهم الكبيرة للجلوس بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد ليتعلموا أمور دينهم ويتفقهوا فيه، ومن ثم قامت حركة علمية في المدينة المنورة ، كان أستاذها هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التلاميذ هم أصحابه - رضوان الله عليهم - وبعد موته اقتدي به أصحابه في القيام بتعليم الناس في المسجد النبوي ، فلقد شهد المسلمون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - معلمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد ، ثم رأوا علماء القرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء، وعلي أيديهم تعلم فقهاء المدينة السبعة في القرن الثاني للهجرة^(٦٤) .

كما رحل كثير من هؤلاء الصحابة إلى البلاد التي فتحتها المسلمون ، لينشروا فيها الإسلام ويعلموا الناس ، وأقام كل واحد من هؤلاء العلماء مركزاً علمياً بالبلد الذي نزل فيه ، ومن مشاهير علماء الصحابة : عبد الله بن عمر ، وكانت حلقة العلم في المدينة ، وعبد الله بن عباس وكانت حلقة في مكة ، ومعاذ بن جبل وكانت حلقة في اليمن ، وأبو موسى الأشعري وكانت حلقة في البصرة ، وعبد الله بن مسعود وكانت حلقة في الكوفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكانت حلقة في مصر ، وهكذا بدأت حركة العلم والتعليم في الإسلام تمتد بامتداد البلاد التي يفتحها جند الإسلام ، ولهذا لم يمر وقت طويل حتى وجدنا حركات علمية إسلامية تزدهر في كل البلاد الإسلامية . خاصة وقد توفرت كل العوامل والأسباب التي أدت إلى تلك النهضة العلمية ، ومنها: رعاية الحكام والأغنياء للتعليم والعلماء ، وإنشائهم الكثير من المكتبات والمدارس والجوامع والأربطة والزوايا، ووقف العقارات والمنقولات علي العلم وأهله ، وتشجيع حركة الترجمة وامتزاج الثقافات، والحرية الفكرية التي شملت كل مناحي العلوم^(٦٥) .

[٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

الإخاء الإسلامي .. هو الأصل الأصل في بناء دولة الإسلام وقيام الأمة الإسلامية..
ولقد كان العرب - والناس معهم - على شفا حفرة من النار .. متشاكسين ..
متنافرين .. متحاربين سنين طويلة .. من أجل ناقة ، فزلت الآيات .. قيل لهم : تحابوا..
فتحابوا . قيل لهم : تأخوا .. فتآخوا ..

ثم قيل لهم : انفروا .. فهبوا خفافاً وثقلاً ، وتنزلت الآيات .. فقالوا : سمعنا وأطعنا ..
ولم يقولوا سمعنا وعصينا . ومؤمنو مكة - على اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في
التاريخ ، إلا المهاجرين.

ومؤمنو المدينة ، على - اختلاف قبائلهم - ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ إلا الأنصار .
وكانوا قبلها فرقاء متشاكسين ، فإذا بالفرقاء المتشاكسين أمة ودولة ^(٦٦) .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين .. على المؤمنين من أهل مكة المهاجرين إلى
المدينة . ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتي الأوس والخزرج . " أبناء قبيلة " .
الذين دخلوا في الإسلام .. مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين .. كافياً لإزالة كل ما يؤدي
إلى التعصب ، لكن نعتوا جميعاً بالصادقين والمفلحين .

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في البناء الأخوي الكامل .. ليقوم دولة
الإسلام على أساس سليم .

قال ابن إسحاق:

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، من المهاجرين والأنصار ..

فقال - فيما بلغنا - : ((تأخوا في الله أخوين أخوين)) ^(٦٧) ؟

قال ابن القيم : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ..
على المواساة ، والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام ، فلما أنزل الله - بعد بدر -
(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) ^(٦٨) نسخ التوارث دون عقد الأخوة ^(٦٩) .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا الإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والموانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملاً المجتمع الجديد بأروع الأمثال^(٧٠) .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلّوه على السوق ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغد ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم " فيم يا عبد الرحمن ؟ قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال كم سقت إليها ؟ قال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبي : - صلى الله عليه وسلم - ، أو لم ولو بشاة^(٧١) .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)^(٧٢) .

لقد بلغ المسلمون الأوائل في الإيثار - بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم ومدلول - . بلغوا درجة عليا ، ومكانة عظيمة .. بما وقر في قلوبهم من إيمان ، وبما أشرق في نفوسهم من يقين ..

إن قوة الإيمان ، والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم تجعل النفس الإنسانية ، تشرق بالكثير من صفات الخير ، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة ، ولقد صنع ذلك الإيمان وهذا التصديق جماعة ، اصطبغ سلوكهم بالشمال الجلييلة .. فكانوا يؤثرون

إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم ، ويتنازلون عن قسمهم في الغنائم من أجلهم ،
ويقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم ، حباً لهم ، ورغبة في أخوتهم..^(٧٣)

والإيثار في الإسلام .. هو : تقديم الغير على النفس وحفظها الدنيوية ، رغبة في
الحفظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة .. يقال :
آثرته بكذا ، أي خصصته به ، وفضلته ،^(٧٤) والمعنى أيضاً

والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان ، من قبل هجرة أولئك المهاجرين ..
لهم صفات كريمة ، وشيم جلييلة ، تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع^(٧٥) ولذا كانوا
يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك ،
وهؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم
وحاجتهم إلى ما أنفقوه^(٧٦) !!

وجاء في الأثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسم أموال بني النضير على
المهاجرين . ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر : أبا دُجَّانة (سماك بن خرشة) وسهل بن حنيف ،
والحارث بن الصمة .

وقال لهم : ((إن شئتم قسمتكم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركتموهم في هذه
الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة)) .

فقالت الأنصار : " بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة دوننا ، ولا
نشاركهم فيها "^(٧٧)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للأنصار :

((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم)) .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو غير ذلك " ؟

قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟

قال : ((هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم إياه وتقاسموهم الثمر)) .

فقالوا : نعم يا رسول الله .. نكفيكهم العمل ونقاسمهم الثمر^(٧٨)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قالت الأنصار للرسول صلى الله عليه وسلم : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

فقال الرسول : لا ..

فقال المهاجرون : أتكفونا المؤونة ونشارككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا ! " ^(٧٩)

نعم .. إن الإيمان الصادق ، الذي صادف قلوباً هُيئت له . تمكن فيها ونما وترعرع ، وأشرقت آثاره على من حولها ، وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة في بذل كل ما يرضي من حولهم من المسلمين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيرة من تمسك بفضيلة الإيثار .. حرصاً على أخوة الإسلام ، وتودُّداً في ظلال الإيمان ..

قال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ^(٨٠)
وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) ^(٨١) .

وقد أجرى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عقد المؤاخاة هذا في دار أنس بن مالك ، وقد اشتملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً ، (خمسة وأربعين من المهاجرين ، خمسة وأربعين من الأنصار) ^(٨٢) ، لأن المهاجرين جاءوا إلى المدينة لا مال لديهم ولا مسكن لهم ، فكان من الضرورة الملحة أن يبحث لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - عمن يأويهم في بيوتهم ويشركهم في معاشهم ، حتى تستقر أوضاعهم ، وتأنس قلوبهم ، بعد الوحشة الشديدة التي فرضها عليهم مشركو مكة ، ولم يخل الأنصار على إخوانهم المهاجرين بشيء ، بل آثروهم على أنفسهم رغم خصاصتهم وحاجتهم - كما أسلفنا - ، وهذا يدل على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، كما يدل على ما كان عليه المهاجرون من تقدير لهذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم ، وحقاً كانت

هذه المؤاخاة حكمة فذة ، وسياسة حكيمة ، وحلاً رائعاً لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون في المدينة^(٨٣)

ولتأكيد هذه المؤاخاة كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، عُرف بميثاق التحالف الإسلامي ، وهذه بنوده ملخصة :

(١) هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

(٢) أهم أمة واحدة من دون الناس .

٣- المهاجرون من قريش - على ربعتهم - يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف (الأنصار) على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وإن المؤمنين لا يتركون مفرجاً (القليل لا يُدري من قتله) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(٥) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيسة (عطية) ظلم ، أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(٧) وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

(٨) وإن من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

(٩) وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

الائتلاف .. وإنما كان كذلك ، لأن الائتلاف ، بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس . فإذا
عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف ..
فثبت أن التجانس - وإن تنوع - أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف .

وقد روى يحيى بن سعيد ، عن عمر ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها
اختلف ^(٨٧) " فالأرواح بالتجانس متعارفة ، وبفقدته متناكرة ^(٨٨) .

قال الشاعر :

فلا تحقّر نفسي وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكل

وقال آخر :

فقلت : أخي ، قالوا : أخ من قرابة

فقلت لهم : إن الشكـول أقارب

نسيبي في رأي وعزمي وهمّي

وإن فرقنا في الأصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس .. المواصلـة بين المتجانسين - وهي المرتبة الثانية من مراتب الإخاء .
وسبب المواصلـة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلـة نتيجة التجانس ،
والسبب فيه وجود الاتفاق . لأن عدم الاتفاق منفر ، وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عذبوا وإلا فإن جناهم مـرر

كم من رياض لا أنيس بما تركت لأن طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلـة رتبة ثالثة .. وهي المؤانسة ، وسببها : الانبساط .

ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة .. وهي المصافاة ، وسببها : خلوص النية ..

ورتبة خامسة .. وهي المودة وسببها : الثقة . وهذه الرتبة هي أوفى الكمال في أحوال الإخاء . وما قبلها أسباب تعود إليها . فإن اقترن بها المعاضدة .. فهي الصداقة . ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة .. وهي المحبة ، وسببها : الاستحسان . فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة — وهي الإعظام .

وإن كان الاستحسان للصورة والحركات ، حدثت رتبة ثامنة .. وهي : العشق ، وسببه الطمع ، وقد قال المأمون العباسي رحمه الله تعالى :

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد إذا زاد الطمع
كل من يهوى وإن علت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدّدة .. لأنها قد تؤدي إلى ممازجة النفوس .. وإن تميزت ذواتها ، وتفضي إلى مخالطة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها .. وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها ..

وقد قال الكندري : " الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك " . ومثل هذا .. المروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً ، وكتب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً ، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

فأتى طلحة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : والله ما أدري أنت الخليفة أم عمر ؟ . فقال : بل عمر لكنه أنا^(٨٩) .

وأما المؤاخاة المكتسبة بالقصد .. فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها .. وقد يكون الداعي لها من وجهين : (رغبة ... وفاقه)

فأما الرغبة : فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخوانه ، ويُتوسَّم بجميل يدعو إلى اصطفائه ..

وأما الفاقة : فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء من يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرتة وموالاته ^(٩٠) !! . ؟ ! وأعز ما تملكه الجماعات .. الإخاء .. فهو الرصيد الثابت ، والقاعدة الصلبة ، والمرتكز الصاعد .

والأخوة في الإسلام .. بلغت من السمو مبلغاً ، جعلها أساس الحياة ، ولا حياة بدون إخاء وإخوان .

والأخوة في الإسلام تقوم على أصول أصيلة وقواعد متينة (منها أيضاً) :

٢- وحدة الأصل الإنساني ..

فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم . يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، آدم وحواء .

ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وبينها في أساليب شتى ، وآيات متعددة لكي تكون دائماً موضع الاعتبار والرعاية . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) ^(٩١)

وهذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام ، وهو المساواة بين الناس .

ولقد قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية .. فهي من معجزات القرآن العظيم ، الذي أنزله الله ضياءً للناس ونوراً يهتدون به ، وبرهاناً ساطعاً ينير السُّبل أمامهم ^(٩٢) !!

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام . يمج في الظلم ، ويضطرب في الفساد ، وتسوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتحيم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشر الرعب أجنته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحت ظل نظام الطبقات في هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدد أنواره تلك الغيوم السوداء .

وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً . وهو إعلان المساواة بين البشر ، كل البشر ^(٩٣) . ويهتم القرآن الكريم بالإنسانية والبشرية اهتماماً بالغاً .

و كلمة (الناس) يتكرر استعمالها في أساليب القرآن الكريم نحواً من مائة وأربعين مرة : كثير منها جاء خطاباً للبشر عموماً ، وكثير منها ورد دالاً على الجنس البشري .
وهذه أيضاً كلمة (الإنسان) .. تتكرر أكثر من ثمانين مرة في أساليب متنوعة ..
عائدة بنا إلى أصل الإنسان .

ولا شك أن استعمال (الناس والإنسان) بهذا الاهتمام . يخلق في المسلم .. تربية إنسانية تعجز عنها أساليب فلاسفة العالم .. أمثال : "جان جاك روسو" ، " وهربرت سبنسر " ، " وجون ديوي " ، " ووليم جيمس " ..

حتى كلمة (البشر) الدالة على الجنس الإنساني الواحد ، تستعمل في القرآن الكريم ، في أكثر من خمس وثلاثين آية .

وهكذا يهتم القرآن الكريم بكل ما من شأنه أن يوقظ في الناس أحاسيس الإنسانية .

إن الإسلام جاء ليقم بين البشر رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق ، "وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة ، آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته . وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل ، مدعاة إلى التآلف ، لا إلى التعادي والتقاتل ، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس " (٩٤) ؟ !

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ، ولا إلى أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ، ولا إلى أموالكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم " (٩٥) .

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس باتباع هدى القرآن .
وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الأصول الأصلية .. للأخوة في الإسلام .

٣- وحدة العقيدة .

ووحدة العقيدة .. من أهم الركائز لوحدة المسلمين وتكامل أخوتهم .

وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار ، أو جيل من الأجيال ...

وهذه العقيدة تقوم على الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم. وبكل ما في القرآن .. وأن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن . ومن آيات العقيدة في القرآن قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)^(٩٦)

قال الإمام ابن كثير : " اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة " ^(٩٧) ، والآية - كما ترى - مشتملة على خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام :

فالخمس الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد ، وآخرها قوله " والنبين " وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد .

والسنة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي من قبيل حسن معايشة العباد ، وأولها (وآتى المال) وآخرها (وفي الرقاب)

والأربعة الأخيرة ، تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس لوقايتها من شر الأضداد . وأولهما " وأقام الصلاة " ، وآخرها " وحين البأس " .

ولعمري من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى مراتب الإيقان^(٩٨) !

وعقيدة الإسلام واحدة لدى كل المسلمين في شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ،
تجتمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنهم نفوسهم ، ووحدة العقيدة جذدت بين
المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم .

وإذا كانت أبوة آدم - عليه السلام - أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوحد
بينها في الأصل ، فإن العقيدة الإسلامية هي أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين .

والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحي ، الذي يجمعه وإخوانه
المؤمنين - في مشارق الأرض ومغاربها - ، إلى جانب الأصل المادي الذي يرجعه معهم إلى
أبوة واحدة ..

فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه ، ويحيا لهم ، ويحس وكأنه غصن من أغصان شجرة
عظيمة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها^(٩٩) !

وإن رابطة العقيدة في الإسلام - وهي رابطة في المبادئ والمثل العليا - من أقوى عوامل
الازدهار ، وتلك التعاليم هي أعلى وأقوى من رابطة الدم ، والنسب ، والمساكنة في
الوطن ، والمشاركة في القومية .

وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد ، للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية والقبلية
والقومية ، إلى صعيد اللقاء الإنساني ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل ، والخير .
وفي هذا الإطار التربوي النفسي ذاته ، عالج الإسلام النفس الإنسانية ، إعداداً لها ،
لتحقيق التعارف والتعاون . فعالج آفات وأمراضها الحائلة دون التعاون . كالحقد والحسد
والغل ، التي تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية ، أو القبلية ، أو القومية^(١٠٠) ؟

٤ - وحدة الشريعة :

والأصل الرابع ... في أصول الأخوة الإسلامية . وحدة مصدر التشريع . . .

ومصدر التشريع واحد لدى المسلمين . وهو القرآن الكريم - كتاب الله - الذي أنزله ،
ليكون دستور الخالق في إصلاح الخلق ، ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقوم اعوجاج
المجتمع .

قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (١٠١)

وقال تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١٠٢)

وقال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١٠٣)

وإن الله عز وجل ، ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأولى : أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، أي أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور ، يهديه الطريق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة ، من كل ما يرديه ويشقيه .. فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى ، وحقوق نفسه الروحية والجسدية ، وحقوق الناس ، فيكون متمتعاً بالطيبات ، مجتنباً للخبائث ، نقياً ، مخلصاً ، صالحاً مصلحاً .. ويكون في الآخرة سعيداً منعماً ، جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي ، والنعيم الروحي العقلي .

الثانية : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص .. حيث يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق ، عبداً خاضعاً بين يدي الخالق وحده .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين ، في أقرب وقت ، لأنه طريق لا عوج فيه ، ولا انحراف ، ومن ثم فلا يبطئ سالكه ، أو يضل

في سِيره .. وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم ، على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله .. بأن تكون عقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، مؤثرة في تركية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وإحسان الأعمال .. وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بحسب سنن الله في خلق الإنسان . (١٠٤)

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وبعالمه الداخلي ..

والقرآن الكريم هو وحده القادر على تحديد علاقة الإنسان بالوجود كله ...

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على أن يرسم للمجتمع الإسلامي ، الخطوط السليمة ، ويضع له الحوافظ التي تحفظ الإنسانية من التردّي والهلاك .

والقرآن الكريم .. هو وحده الذي توجد فيه الحلول المنطقية المقبولة لكل ما وراء الحواس .. والقرآن الكريم .. غني بكل جوانب الحياة : الروحية ، والعقلية ، والجسمية .. والقرآن الكريم هو وحده القادر على إذكاء روح الأخوة الإسلامية ، وتدعيم المحبة بين المسلمين .

وما دام القرآن الكريم يعمل على وحدة الصف الإسلامي ، فلا غرو أن يأمر الله المسلمين .. إن دب بينهم نزاع بأن يرجعوا إلى كتاب الله .. قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (١٠٥)

فالرجوع عند التنازع في أي أمر إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله .. شرط في الإيمان .. وذلك كله خير محض لا شر فيه أبداً .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم .. قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (١٠٦)

وهي أخوة في الدين والحرمة لا في النسب .. ولهذا قيل أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب (١٠٧) .

وأخوة الدين أحق ، وأجدر أن يُهْتَمَ لها ، ويصلح بين المتخاصمين من المؤمنين ، لأنها أخوة بنص كتاب الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة من فوق سبع سموات ، وما عقده الله - تبارك وتعالى - لا تحله يد بشر ، مهما قويت وسطت ، وظلمت . ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه ، لا يُرد ولا يُصد .. فقالت : " إنما المؤمنون إخوة " .

هكذا حكم الله ، وهكذا أخبر عن هذا العقد ، الذي ربطه في السماء بين المؤمنين ، مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم ، وتناعت ديارهم .. فهم إخوة ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، لتقرر واقعاً عظيماً ، وتخبر عنه فقالت : " إنما المؤمنون إخوة " . ولم تأت الجملة إنشائية .. إذ لو جاءت الآية إنشائية .. لكانت الأخوة غير موجودة .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة . وقضى فيها بحكمه فقال : " إنما المؤمنون إخوة " .. ثم ثنى بتقرير هذه الحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " المسلم أخو المسلم أحب أم كرهه " .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتناول عليه في البنيان ، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره ^(١٠٨) " ... وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال :

" المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ، ويحوطه من ورائه " ^(١٠٩)

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ، ولها ، وأصبحوا بفضل الله تعالى إخواناً ، دعوتهم واحدة ، وأمرهم واحد ، تقاسموا الحب فيما بينهم ، وآثروا إخوانهم

على أنفسهم فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثار ، أن يقول صاحب لصاحبه .. هذا مالي جعلته بيني وبينك . وهاتان زوجتاي ، اختر أيتهما تشاء ، لتزوجها أنت ، بعد أن أطلّقتها وتعتدّ (١١٠) .

والأخوة في الإسلام .. أسلوب تربوي بناء .. يسمو بالمجتمع .. ويصل به إلى مراقبي الفلاح ... وآثار الأخوة .. تبدو واضحة ، في تعاون المسلمين وحبهم للقرآن ، ولرسالة الإسلام . وسوف يبقى المسلمون في أشد الحاجة إلى الأخوة ، لأنها سياج يقي المجتمع من التعثر ، والتبثر ، والأمة الإسلامية تحتاج إلى الإخاء الكامل الذي لا يعرف الحزبية .. ولا العصبية .. ولا القومية .. ولا الإقليمية .. ولا اليمين .. ولا اليسار .. ولا المذاهب الوضعية ...

وقد أتم الله للمسلمين .. وحدة الأصل .. ووحدة العقيدة ، ووحدة المصدر . ووحدة الشعور . ووحدة الصف .

وكانت آثار ذلك واضحة في ...

الحب في الله .. والتعاون .. والتكامل .. والمساواة .. والعدل ... والشورى .. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن هذا المنطلق .. كانت الأمة الإسلامية تملك رصيдаً ضخماً .. يمكن استثماره لتحقيق الإخاء الكامل ... إذا ما أطاعوا الله ورسوله ..

السمع والطاعة لله ورسوله من المعنويات المهمة في مجتمع الإخاء :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحداقة أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد مؤمن بالله يسمع ويطيع أوامر الله ورسوله ، لأن سلوك الإيمان لدى أصحابه جعلهم ينقادون لحكم الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١١١) ، وقوله تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ

وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا^(١١٢) ، وقوله عز من قائل : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)^(١١٣) .

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحضهم على حسن الجوار فيقول : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " ^(١١٤) كما يحضهم على الحب والإخاء ، وعدم التحاسد والتباغض ، ويدعوهم إلى العطف والرحمة والتكافل .

يقول - صلى الله عليه وسلم - : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " ^(١١٥) ويقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ^(١١٦) ويقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " ^(١١٧) ويقول : " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " ^(١١٨) ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " ^(١١٩) ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر " ^(١٢٠) ويقول - صلى الله عليه وسلم - : " أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْي كساه الله من خضراء الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " ^(١٢١) .

سمع المسلمون أوامر نبيهم فأطاعوه حباً وامتثالاً ، بل فضّلوه على آبائهم وأنفسهم ، وخير دليل على ذلك ما فعله " عبد الله بن عبد الله بن أبي " مع أبيه المنافق لما قال في غزوة بني المصطلق : " إن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل " - ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم - فقال له ابنه : " والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - العزيز " . ففعل ^(١٢٢) .

إن الإسلام أرسى دعائم الدولة الإسلامية وربط بها سائر القبائل والجماعات ، فانخرط الجميع في سلك الإسلام ، وبرزت فكرة الأمة الواحدة حين ذابت جميع العصبية القبلية ، امثالاً لأمر الله : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)^(١٢٣) .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، قام على الأخوة والمحبة والمودة ، والسمع والطاعة .

[٣ - معاهدة اليهود والأعراب حول المدينة]

أ - المعاهدة مع اليهود (في يثرب) :

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع المدني الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين - إقامة المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار - رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام ، والسعادة والخير للبشرية جمعاء ، مع تنظيم المنطقة التي يسكنها المسلمون في وفاق واحد ، فسَنَ في ذلك قوانين السماح والتجاوز ، التي لم تُعهدَ في عالم ملئ بالتعصب والتغالي ، خاصة وأن الإسلام يطلب إلى المسلمين العدل مع غيرهم ، بل يزيد على ذلك الدعوة إلى برّهم والإحسان إليهم ، قال تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِمَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١٢٤) ، كما أنه يطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معاملة أهل الكتاب بالحسنى ، ودعوتهم إلى الله باللين ، قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (١٢٥) . وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكن لم يكونوا أظهرها أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة ، ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، والحلّ والترحال ، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام ، بل وفر لهم الأمن والسلام والمقام ، هاتين هادئتين في ظل الإسلام ، إذا لم ينقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (١٢٦) .

وجاءت هذه المعاهدة ضمن الوثيقة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم العلاقة بين المسلمين أنفسهم - مهاجرين وأنصار -^(١٢٧) بينما يرى الدكتور أكرم ضياء العمري^(١٢٨) : أنهما وثيقتان في الأصل ، لتنظيم العلاقة بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم ، خلط بينهما بعض المؤرخين ، وأن الوثيقة الخاصة بالمسلمين كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد غزوة بدر ، بينما وثيقة اليهود كانت بعد وصوله المدينة بخمسة أشهر فقط^(١٢٩).

وأياً ما كان الأمر ، فإن المعاهدة مع اليهود اشتملت على عدة بنود أهمها^(١٣٠) :

١ - " إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢ - إن ليهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣ - إن " جفنة " - بطن من ثعلبة - كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود (خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم ، وإن البر دون الإثم .

٤ - وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك ، فبنفسه وأهل بيته فتك ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا .

٥ - وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٦ - وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

٧ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨- وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٩- وإن الجار كالنفس ، غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

١٠- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله - عز وجل - و إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره

١١- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرهسا .

١٢- وإن بينهم النصر على من دهم يشرب (المدينة) ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

١٣- وإذا دعوا (أي المؤمنين) إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وإنهم (أي اليهود) إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم هذا على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

١٤- وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحسن (الخالص) من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

١٥- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو آثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

ويبرام هذه المعاهدة مع اليهود صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة وقائدها الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين .

إن كلمة " الدستور " هي أقرب إطلاق مناسب على هذه الوثيقة، لأنها بالفعل وضعت دستور الدولة وقانونها العام ، سواء فيما يتعلق بالمسلمين أنفسهم أو فيما بينهم وبين جيرانهم اليهود ، حيث أكدت أن الإسلام دين ودولة ، ونظام يشمل كل مناحي الحياة ، يجمع المسلمين ويصهرهم في بوتقة واحدة تشملهم تشريعات واحدة قائمة على العدل و الأخوة والمساواة بين الجميع دون نظر إلى الجنس أو اللون ، كما تدل هذه الوثيقة على مدى العدالة ، و الحرية الدينية ، و الحل والترحال ، و الأمن والأمان ، وتحكيم الله ورسوله فيما يشكل بين اليهود والمسلمين ، كل ذلك كان من المهام التي اتسمت بها معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود ، لكنهم قابلوها بالمكر والغدر والخديعة - التي جبلوا عليها - مما جعل المسلمين في حل من الالتزام بما جاء فيها تجاه اليهود .

ب - مهادنة الأعراب حول المدينة :

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام في المدينة وما حولها - في المستقبل - عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى بمثل هذه المعاهدة ، خاصة القبائل المجاورة للمدينة ، والتي تقطن على طريق قريش التجاري من مكة إلى الشام ، فعاهد قبيلة جهينة وبطونها - ومساكنها بين المدينة ورابع - على بعد ثلاثة مراحل (أي ينبع وما حولها ^(١٣١)) ، وكان هدف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه المعاهدات الحد من غطوسة قريش واستكبارها، وفضلاً عن ذلك فإنه بث السرايا للاستكشاف و التعرف على الطرق حول المدينة - قبل تشريع الجهاد - للاطمئنان على أمنها ، وليظهر لليهود و مشركي العرب بالمدينة ، والأعراب من حولها ، أن المسلمين أصبحوا قوة ، بالإضافة إلى إنذار قريش بأن ينتهوا عن طيشهم وغيهم لأن الحال قد تغير ، وأن المسلمين أصبحوا أقوياء ^(١٣٢) .

وفي أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم صفر سنة ٢ هـ بعد تشريع الجهاد ، وهي غزوة الأبواء (بين المدينة و الجحفة) والتي خرج فيها يعترض عيراً لقريش لكنه لم يلحق بها ، وكانت الأبواء ، وودان منازل بني ضمرة (من كنانة) فعقد معاهدة حلف مع مخشي بن عمرو الضمري - سيد بني ضمرة في زمانه - نص فيها على : " هذا كتاب من

محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بلّ بحر صوفه ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصره أجابوه . (١٣٣)

وفي غزوة العشيرة - من بطن ينبع - جمادى الأولى سنة ٢ هـ خرج النبي صلى الله عليه وسلم لأخذ عير لقريش ، لكن العير سبقته قبل وصوله بأيام ، وفي هذه الغزوة وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة (١٣٤) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف قبيلة خزاعة بعد عقد الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـ (١٣٥) . كما وادع صلى الله عليه وسلم يهود تيماء (١٣٦) في صفر سنة ٧ هـ ، وكتب لهم بذلك كتاباً وهذا نصه : " هذا كتاب من محمد رسول الله إلى بني عاديا: إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولا عدا ولا جلاء ، الليل مدة والنهار شدّ (١٣٧) " . ولكن بعض هذه القبائل خانت العهد وتحالفت مع قريش ، فكان لابد من رد عدوانهم ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الجهاد والحرب .

[٤ - الجهاد في سبيل الله لحماية الدعوة والدولة]

لم تكتف قريش بما فعلته مع المسلمين في مكة من تنكيل واضطهاد ، لكن عدوان كفار مكة استمر ، وزاد من غيظهم أن فاقهم المسلمون ، ووجدوا مأمناً ومقراً لهم بالمدينة ، ولذا أرسلت قريش إلى أهل المدينة يتهددونهم بالحرب إن لم يخرجوا محمداً والمسلمين من ديارهم ، وحاول عبد الله بن أبي تنفيذ مطالب مشركي مكة ولكن حكمة النبي - صلى الله عليه وسلم - أطفأت نار حقهده ، ومن كان على شاكلته من المنافقين واليهود ، ولم تفلح - أيضاً - عزيمة المسلمين من - أهل يثرب - عن المسجد الحرام ، لأن أهل يثرب توعدوا قريش بقطع طريقهم إلى الشام المار على المدينة ، وهنا لم يبق أمام كفار مكة إلا تهديد المهاجرين ، حينما أرسلوا إليهم يقولون : " لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، وسنأتيكم فنستأصلكم ، ونبيد خضراءكم في عقر داركم " (١٣٨) .

لكل هذا ما كان يبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة - حتى نزل قوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ))^(١٣٩) ، فصرف النبي حراسه لعصمة الله له - بل إن الخطر كان يتهدد المسلمين كلهم ، ولذا كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه^(١٤٠) في ظل هذه الظروف الخطيرة التي باتت تهدد كيان المسلمين بالمدينة ، أذن الله للمسلمين بالقتال لرد العدوان ، - ولم يفرضه عليهم - . قال تعالى : ((أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ)) إلى قوله تعالى ((الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))^(١٤١) - وسنبيِّن ذلك عندما نتحدث عن تشريع الجهاد^(١٤٢) - . وبعد الإذن بالقتال كان من الحكمة أن يسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش المؤدية من مكة إلى الشام ، ولتنفيذ ذلك عقد النبي محالفات مع القبائل التي تقطن حول هذا الطريق مثل جهينة ، وبني ضمرة وبني مدلج - كما ذكرنا سابقاً - كما قام بإرسال البعوث والسرايا إلى هذا الطريق ، لإخافة قريش ، حتى كان شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة - أي بعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب سنة ٢ هـ - ففرض الله القتال على المسلمين لرد عدوان الكفار ، وأنزل في ذلك آيات بينات : ((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ.....)) إلى قوله تعالى : ((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ ائْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ))^(١٤٣) وبعد هذه الأوامر والإشارات القرآنية زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعاتهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ولقاء العدو في عراق دامي .

يفصل بين الحق و الباطل ، لتأمين الدعوة وانتشارها ، ورد الحقوق المسلوبة ، ومكافحة العدوان^(١٤٤) .

وأضحى الجهاد قسمة من قسمة بنيان الدين والدولة ، يستحيل اكتمال هذا البنيان بدونه ، حسب طاقة المسلمين وجهدهم ، ولأمر ما كان الجذر اللغوي لكل من الاجتهاد والجهاد جذرا واحدا ، فالجهد هو أصلهما ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد في

مبادئ الفكر هو " الاجتهاد " ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد لوضع هذا الاجتهاد في الممارسة والتطبيق في مختلف الميادين هو " الجهاد " الذي يحقق المقاصد والغايات الحقيقية من الاجتهاد ! إنهما وجهان لعملة واحدة هي تطبيق منهج الإسلام ^(١٤٥) .

إن العقيدة الإيمانية علي النحو الذي صورناه ، سمعاً وطاعة - فيما مضى - تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين بها ، والإسلام كنظام عالمي جاء ليغيّر الحياة ويكتسح ركامها بالحق ، فلا بد أن يجد من الأعداء في كل جيل من يتصدى له - بالباطل - ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي هذه العقيدة ونظامها الحياتي من كيد المتربصين ، وهجمات الجاهلين ، ليأخذ هذا النظام مجراه العتيد في هداية البشر من غير تعويق ، ولا صد علي مر الزمن ، : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين " ^(١٤٦) .

فالجهاد درع تحتمي به العقيدة ونظامها الإسلامي ، في مواجهة أعدائها والصادين عنها ، وليس وسيلة إرغام ولا سبيل قهر ^(١٤٧) ، إنما هو عقيدة استعلاء تبعث في روح المؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، لأن الإسلام دين المسالمة مع المسلمين ، والردع للمعاندين ، وهو نور يهدي المؤمنين ونار تحرق الطغاة الآثمين ، يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جد الجد كان الصخرة التي يتحطم عليها مكر كل جبار عنيد ، إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا علي حذر في وقت السلم حتى لا يؤخذوا علي غرة ، كما يدعو المسلمين إلي الجهاد والاستشهاد - زمن الحرب - من أجل عزة الإسلام والمسلمين ، ولا يعدل الجهاد في سبيل الله مال ولا ولد ، ولا والد ولا عشيرة ولا أهل ، لأن الدفاع عن العقيدة ، وعن ديار الإسلام من أسمى أهداف هذا الدين ^(١٤٨) .

ومن هنا صار الجهاد - بوجه عام - مبدأ من مبادئ الإسلام التي أخذت مكانتها بين عقائده وفروعه ، واستقرت دعوة القرآن والسنة إلي الجهاد - علي عموميه - متعلقة بذمة المسلمين جماعة وأفرادا ^(١٤٩) ، كقيمة عليا للحفاظ علي بيان المجتمع الجديد وإعلائه .

ولهذا كان مقام الجهاد عالياً في رسالة الإسلام ، بل إنه سنام أمر الإسلام ، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد " (١٥٠) .

وهو سياحة الأمة الإسلامية في كل ميادين الحياة ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " (١٥١) ، وإذا كانت بعض أمم الرسالات قد اتخذت من الرهبانية النشاط العملي الذي جسدت به دينها ، فانحصر هذا الدين في الأديرة والمغارات ، فلقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النشاط العملي لأمة الإسلام ليس الرهبنة التي تعزل الدين عن الحياة ، وإنما هذا النشاط هو الجهاد الإسلامي في مختلف ميادين الحياة (١٥٢) ، حيث قال صلى الله عليه وسلم : " رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله " (١٥٣) .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (١٥٤) .

وبادئ ذي بدء يجب علينا أن نعرف بماهية الجهاد حتى لا يظن البعض أنه يرادف القتال ، ولكي لا يتشدد أعداء المسلمين اليوم بأن هذا الدين ما جاء إلا لفرض القتل والعنف والإرهاب ، فالجهاد أشمل وأعم من القتال (١٥٥) لأن الجهاد يكون تارة جهاد النفس ، وتارة جهاد الخارجين علي قواعد الإسلام ، وتارة أخرى جهاد الأعداء (الكفار) والآخر هو الذي يرادف القتال ، يقول صاحب البصائر (١٥٦) : الجهاد : الطاقة والمشقة ، والجهْد (بفتح الجيم) : المشقة (وبضمها) : الوسع ، وقيل الجهاد : ما يجهد الإنسان . قال تعالى : " واقسموا بالله جهد أيمانهم " (١٥٧) أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به علي

أبلغ ما في وسعهم ، والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة ، يقال : جهدت رأيي واجتهدت : أتعبته بالفكر ، والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع في مجاهدة العدو .

والخلاصة : أن الجهاد أقسام ثلاثة :

١- الأول : جهاد النفس : وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله " (١٥٨) والمقصود بجهاد النفس هو ما يشمل دفعها عن غواية الشيطان ، وغرور الدنيا ، واتباع الهوى ، وإلزامها بالوقوف عند حدود الله (١٥٩) ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من الغزو والجهاد يقول : " قد جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس " (١٦٠)

ولله دَرّ الشاعر العربي حين يقول :

يا من يجاهد غازيا أعداء دين	الله يرجو أن يُعان ويُنصرا
هل غشيت النفس غزواً إنَّها	أعدي عدوك كي تفوز وتظفرا
مهما عُنيت جهادها وعنادها	فلقد تعاطيت الجهاد الأكبرا

وقد يطلق الجهاد ويراد به معنى يشمل القتال وغيره ، كالجهاد بالمال في قوله تعالى : " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون " (١٦١) . كما يطلق الجهاد ويراد منه جهاد النفس أيضا ، كما في قوله تعالى : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنَّ الله لمع الحسنيين " (١٦٢) . فالآية ، والسورة التي حوتها مكة ، ولم يفرض قتال في مكة ، والمعنى بالجهاد هنا هو المعنى العام ، المأخوذ من المعنى اللغوي ، الذي هو : بذل الجهد والطاقة لمجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا (١٦٣) التي امتحن الله بها عباده ، والمجاهد هو الذي يخلص نفسه من هذه الابتلاءات الأربع كما قال القائل :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا
إلا لشدة شقوتي و عنائي

إبليس والدنيا ونفس والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

ومثل قوله تعالى : " وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " (١٦٤) .

وقوله : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ " (١٦٥) وقوله أيضا : " لَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ " (١٦٦) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " (١٦٧) .

٢- النوع الثاني من الجهاد : هو مجاهدة الفساق الخارجين عن جادة الدين ، وذلك بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بل تغيير منكرهم لمن يقدر عليه ، لأن ذلك واجب شرعي ، كما قال الله علي لسان لقمان لابنه وهو يعظه : " يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ " (١٦٨) .

وقوله تعالى - أيضا - : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " (١٦٩) ، وقوله : " وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (١٧٠) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من رأي منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فليسهه ، فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١٧١) ، فالجهاد لمنع المنكر باليد إن كان المحتسب سلطانا أو حاكما أو عالما له قوة ومنعة ، وباللسان إن كان عالما بالكتاب والسنة ويبرهن علي كلامه بالأدلة ، وبالقلب إن كان من العوام ، أو يخشي الهلكة إن أمر ونهي ، وهو ما يسمى الجهاد بالكلمة (منطوقه أو مكتوبة) ، ومثله جهاد المنافقين ، كقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " (١٧٢) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " (١٧٣) .

كما بين النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة من تركوا مجاهدة الفساق ، بعدم فهمهم عن المنكرات فقال : " إن أول ما دخل النقص علي بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل

فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم لعناً شديداً فقال تعالى : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون " (١٧٤). ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن علي يد الظالم ، ولتأطرنه علي الحق أطرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم علي بعض ثم يلعنكم كما لعنهم " (١٧٥) ، كما دُلَّ فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه علي وجوب مجاهدة هؤلاء الخارجين عن الطريق المستقيم ، حكاما ومحكومين بكل سبيل (١٧٦) . وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، وهو القسم الثالث من الجهاد وهو :

٣- جهاد الكفار وقتالهم : إن الجهاد في الإسلام درع تحتمي به العقيدة وأصحابها ، كما تحمي به الدولة أرضها ومواطنيها من أي عدوان خارجي في مواجهة أعداء الدين الصادقين عنه (١٧٧) ، وليس وسيلة إرغام ، ولا سبيل قهر لغير المسلمين كما يروج البعض : أن الجهاد كان سبيلا لنشر الإسلام بالسيف ! . لا : إن الإسلام جعل أساس معاملته للآخرين قائما علي الرفق واللين والتسامح ، فهو لم يرغم الآخرين علي اعتناق هذا الدين وإنما أقرَّ حرية التدين : " لكم دينكم ولي دين " (١٧٨) ، وتأكد هذا في قوله تعالى : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (١٧٩) ، وقوله : " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " (١٨٠)

وفي العهد المكي خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (١٨١) .

بل إن الإسلام يؤكد أنه لا يصلح إسلام الناس في الظاهر فقط ، وأنه لابد أن يقوم علي إخلاص صادق ، وقناعة تامة دون إكراه أو ضغط ، ولذا حرّم النفاق ، وجعل المنافقين أشد عذابا من الكفار ، فقال تعالى : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار " (١٨٢) .

ولهذا كانت وسائل انتشار الإسلام هي : الكلمة الطيبة والأسوة الحسنة والإقناع المجرد، وفي مواجهة الإسلام لأعدائه كان القتال هو المرحلة الأخيرة التي كان المسلمون يلجأون إليها مكرهين ، بعد أن تضيق بهم السبل إلى السلم ، ولا يكون أمامهم سواها للدفاع عن أنفسهم ودينهم ^(١٨٣) : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم " ^(١٨٤).

إن الجهاد في الإسلام ورد في القرآن الكريم بلفظه ثلاثين مرة ، وورد كثيراً بلفظ القتال المرادف له ، وكلاهما يرد أحيانا مقرونا بسبيل الله ^(١٨٥)، ومعنى ذلك أن يُقصد به وجه الله، والدفاع عن المثل والكيان والكرامة ، ورفع الظلم ورد العدوان ، فالقتال في الإسلام شرع من أجل غرضين أساسيين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس من الاعتداء عليها ، وكل ما يتعلق بمتطلبات النفس، من الدفاع عن العرض ، والمال ، والأرض التي يعيش عليها المسلمون .

والغرض الثاني : الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتعاليم الإلهية ، حماية لحاملي مشعلها والمستضعفين بسببها ، وإفساح الطرق أمام الدعوة ورسالة الحق للذیوع والانتشار ، ولم يشرع القتال في الإسلام لتثبيت ملك ، أو توسيع سلطان ، أو الغلبة والقهر ، أو استعباد الشعوب واستنزاف خيراتها ، إنما شرع لرد العدوان ، إذ لو ترك المشركون يعتدون علي المسلمين ، ويقاومون الدعوة ، ويصدون الناس عن الدخول في دين الله ، ولم يُشرع القتال لطغي الباطل علي الحق ، وطُمست معالم الدعوة ، وتضررت البلاد والعباد ، وبقي العالم من أقصاه إلى أقصاه يئن ويرزح تحت وطأة الجهل والظلم والاستعباد ^(١٨٦)، والله سبحانه لا يرضي بظلم العباد ، بل يتوعد من يرضي منهم بذلك فيقول تعالى : " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " ^(١٨٧).

أجل .. لقد شرع الله القتال للمسلمين في السنة الثانية للهجرة ، أي بعد أربع عشرة سنة من الدعوة ، تعرضوا فيها للظلم والعذاب ، فأذن الله لهم به للدفاع عن الحق ، وحماية

للدعوة فقط ولم يفرض القتال عليهم حين نزل قول الله تعالى : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله " (١٨٨) .

وهذه الآية هي أول ما أنزل الله في أمر القتال (١٨٩) ، ونجد النبي - صلى الله عليه وسلم - ينبه إلى أن قتاله إنما هو للدفاع ، وأن القتال لمن يقاتلهم دون من لم يقاتلهم ، ليبين أن هذا هو علة الأمر بالقتال ، كما ينبه إلى ترك العدوان ومجاوزة الحد في رد هذا العدوان ، اللهم إلا درء فتنة تحويل المسلم عن دينه ، ولم يطلب مقاتله الكفار حتى يسلموا ، إنما القتال حتى يكون الدين لله ، أي الخضوع كله لله (١٩٠) ، وهذا يحصل إذا علّت كلمة الإسلام ، وكان حكم الله ورسوله غالباً - كما يقول الشيخ محمد الغزالي - (١٩١) . وبعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة (رجب سنة ٢هـ) فرض الله القتال لرد عدوان كفار مكة على المسلمين .

ولقد بين الله ذلك كله بقوله تعالى : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ " (١٩٢) .

ولم يكن الرسول يتعرّض في قتاله إلا لكفار قريش دون سائر العرب ، فلما اتحد مشركو العرب في عدائهم للإسلام ، وجمعهم الحقد على الرسول والمسلمين ، والبغض لدين الله ومحاولتهم القضاء عليه ، أمر الله بقتال المشركين كافة ، بقوله تعالى : " قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " (١٩٣) .

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم وانضموا إلى مشركي قريش لقتال المسلمين - في غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ - ، نزل قول الله تعالى : " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ " (١٩٤).

وهكذا يأخذ الجهاد في الإسلام دور الدفاع عن الحق والنفس ، وإقرار العقيدة ، ونصرة المستضعفين (١٩٥) ، قال تعالى : " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " (١٩٦).

إذن الإسلام لا يحتكر القوة ، بل يسخرها لخدمة الحق ، وحفظ الحياة ، والدفاع عن المستضعفين في الأرض ، ومن ثم فإن ما يردده أعداء الإسلام - قديما وحديثا - من أن الإسلام انتشر بحد السيف هو دعوي باطلة ، فالحقيقة الواضحة هي أن الإسلام انتصر علي السيف ، والثابت أن حروب المسلمين علي عهد النبي صلى الله عليه وسلم فرضت عليهم مكرهين لرد المظالم ، ومنع الفتنة ، وقمع الطغاة ، وكسر الجبابرة ، وحماية الحق .

وقد يبدو من ظاهر هذه المعارك أن المسلمين هم الذين بادروا فيها بالهجوم ، لكن هجوم المسلمين كان علي سبيل المبادرة بالدفاع ، بعد تأكدهم من نكس الأعداء لعهودهم ، وإصرارهم علي قتال المسلمين ، وهو ما يسمي في - لغة العصر - الدفاع الوقائي ، ولو أن الكفار تركوا المسلمين في دعة واطمئنان ، ولم يحولوا بينهم وبين دعوتهم الحسنة ، ما تعرض المسلمون لأحد بحرب ، لان المسلمين كانوا يحبون السلام ويكرهون القتال ، علي الرغم من ضرورته لحماية الحق ، والقضاء علي الباطل (١٩٧) ، وهو ما ذكره الله تعالى بقوله : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (١٩٨).

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : " يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ،

واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال
السيوف" (١٩٩).

ولقد أمر الله بعدم التعرض لمن يسالمون المسلمين فقال تعالى : " فَإِنْ اعْتَرَفَكُمْ فَلَمْ
يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا " (٢٠٠) ، وقال أيضا : " يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا
تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " (٢٠١).

بل أمر الله ببرّ المسلمين ومسالمتهم والعدل معهم ، فقال تعالى : " لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
وظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (٢٠٢).

إن السلام في الإسلام هو الأصل الأصل ، بل إن اشتقاق كلمة الإسلام من السلام فيه
ما يوحي بمنهج الإسلام في الحياة ، وهو عموم السلم والأمان والطمأنينة للناس (٢٠٣) : " يا
أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة " (٢٠٤) ، ولكنه السلام العزيز القادر :
" فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ " (٢٠٥).

إن شريعة الإسلام تجيز لأتباعها المصالحة والمواصلة ، وتحضهم علي إنهاء الحرب ، وقبول
السلام متى طلب أعداؤهم ذلك ، وما دام هذا السلم لا ضرر من ورائه للمؤمنين (٢٠٦) .
قال تعالى : " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ
يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " (٢٠٧) ، لكن إذا
فرض القتال علي المسلمين لردع العدوان والدفاع عن العقيدة والدين ، كان عليهم أن
يعدوا أنفسهم وما استطاعوا من قوة لدفع الخطر ، وإرهاب أعداء الله الظاهرين والمستورين ،
قال تعالى : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ" (٢٠٨).

فالآية تدعو المسلمين إلى الاستعداد بما في الطوق ، للقيام بفريضة الجهاد في سبيل الله ، والإسلام يأمر بإعداد القوة علي اختلاف صنوفها وأسبابها ، وجاءت كلمة " قوة " منكرة للتنوع ، لتشمل كل أنواع القوة ، وأولها قوة العقيدة ، لأنها أسّ الفضائل ، وقوام الضمائر وسداد العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعزاء القلوب إذا نزلت بالإنسان نازلة ، فلا يوجد ما يصون الاستعداد العسكري إلا عقيدة الإيمان بالهدف ، لأنها هي التي تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب ، وقد علمتنا المعارك التي خاضها المسلمون وانتصروا فيها - سواء في غزوة بدر أو القادسية أو اليرموك ، أو حطين ، أو عين جالوت ، وحتى العاشر من رمضان - أن الوسائل المادية ليست وحدها هي القوة التي تفصل في المعارك بل قوة الإيمان هي الأساس ، ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر حتى تتكافأ قوتهم وقوة خصومهم ما قامت للمسلمين قائمة ، إنما القلة المؤمنة بعقيدتها استعدت بقدر ما استطاعت ، ثم خاضت المعركة ، فكان فيها الفرقان والنصر المبين علي أعداء الدين ، وأعداء الحياة المسالمة الهادئة ، ويأتي بعد ذلك قوة الرجال ، وقوة السلاح بما يتناسب مع التقدم العلمي في إعداد مسرح المعارك^(٢٠٩) ، وأدوات الحرب من العتاد والعدد وتوفرها ، وإنفاق الغالي والثمين من أجلها حتى تكتمل منظومة القوة العصرية التي أمر الله رسوله والمؤمنين بإعدادها ، والمرابطة بها ، استجابة لدعوة الجهاد عند أول نداء ، ليتحقق النصر المبين علي أعداء الله ، مصداقا لقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (٢١٠).

ومعنى القوة - أيضا - في قوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " : أن إعداد القوة هو ما يتفق مع استطاعه الأمة الإسلامية ، فلا يستساغ أن ينتظر المسلمون ريثما يتم إعداد قوة تكافئ قوة أعدائهم لأن ذلك قد يطول ، ويعطل فريضة الجهاد ، ويُطمع الأعداء في المسلمين ، وإلا كان المسلمون قد انتظروا حتى يكملوا الاستعداد في بدر، ومؤتة ، وغيرهما .

لقد خطب عبد الله بن رواحة في جنوده يشجعهم علي لقاء العدو حينما فزعوا من كثرة عدد عدوهم في غزوة مؤتة فقال^(٢١١) " يا قوم إن التي تكرهونها هي الشهادة التي خرجتم تطلبونها ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. انطلقوا . فوالله لقد رأيتمونا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد . انطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان " ^(٢١٢).

وروي الواقدي عن أبي هريرة قال : " شهدت يوم مؤتة ... فلما دنا المشركون منا رأينا مالا قبل لأحد به من العدة ، والسلاح ، والكراع ، والحرير ، والديباج ، والذهب .. فبرق بصري : فقال لي ثابت بن الأرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم : قال : إنك لم تشهد بدر معنا ! إنا لم نتصر بالكثرة " ^(٢١٣).

والأمثلة من واقع صفحات التاريخ الإسلامي كثيرة - من غزوة بدر سنة ٢ هـ - إلى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ - وكلها تشهد للمجاهدين المسلمين بالصدق والإيمان، فما كانوا يرهبون الردى ، بل يقدمون غير هيابين ولا وجلين ، إلا أن يحشرهم الله مسلمين مجاهدين ، همّة كل واحد منهم أن يكون علي حد قول القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلما علي أي جنب كان في الله مصرعي

فلم ينظروا إلي كثرة جنود الأعداء ، ولم يعرفوا كم أعدّ لهم الأعداء من العدد ، لكنهم كانوا موقنين بإيمانهم وثقتهم في نصر الله الذي ينصر من ينصره : " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ " ^(٢١٤) ، " وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " ^(٢١٥).

كان لهم إيمانهم الذي يدفعهم إلى الإقدام ، وهم علي حدّ قول الفيلسوف - الشاعر الباكستاني - محمد إقبال :

كُنَّا جبالاً في الجبال وربما	سرنا علي موج البحار بحـاراً
كنا نُقدِّم للسيوف صدورنا	لم نخش يوماً غاشماً جبـاراً
بمعابد الإفرنج كان أذاننا	قبل الكتائب يفتح الأمصاراً
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها	سجداتنا و الأرض تقذف ناراً
وكان ظل السيف ظل حديقة	تبت من حولنا الأزهاراً ^(٢١٦)

من كل هذا نري أن الجهاد يجب أن يستمر، وترتقي أساليبه وتتطور تبعاً لروح العصر ، وأنه لابد أن يمتلك المسلمون - باستمرار - ما يخيف العدو ليظل لواؤنا مرفوعاً، وصوتنا مسموعاً ، لأن من أهم وظائف الجهاد الأمور النفسية ، التي تقوم على المغالبة والمدافعة والاستعداد الدائم لدحر الأعداء ، لأن الأقدار على المغالبة والمدافعة هو الأجدر بالحياة والسيادة^(٢١٧) ، وقد نبه الله عز وجل إلى أن المغالبة أمر ضروري لتحرك المجتمع المسلم ، حتى لا يفسد بالسكون والدعة فقال سبحانه : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " ^(٢١٨) ، ويوم تغفو أمة الإسلام عن أمجادها ، وتجن عن مواجهة أعدائها ، يوم يتليها الله بالذل والخسف والصغار : " فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا " فالجهاد ماض إلى يوم القيامة - " كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم - لأن الصراع قائم بين الخير والشر منذ آدم إلى يوم القيامة، ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف ، سبباً في تفتيت وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم فقدوا الحصانة التي يكفلها لهم الجهاد المقدس ، وإذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فإن توحيد الكلمة هو سر بقائها ، فهل نتحد كلمتنا ، وتلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد ، وتحرير الأرض ، وإرغام العدو علي التراجع ؟ ! إن حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر إلا إذا أمنت عدوها ، ولذا كان

علينا أن نظل مجاهدين ، حذرين، جماعات وأفراد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعاً " (٢١٩) .

ومن واقع التجربة التي خاضها أجدادنا نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلهم ، ولا استناموا علي هذه الأمانى ، بل صبروا وصابروا ورابطوا، وخاضوا معارك ضارية ضد أعداء الله ، ونازلوا أعتى دولتين في العالم - الفرس و الروم - فانتصروا عليهما ، وحكموا بلادهما بعد أن حرروا أهل هذه البلاد . وهكذا عاش المسلمون بالجهاد أعزة كراما ، والمسلمون اليوم في حاجة إلى اجتماع الكلمة علي أساس من الإيمان الصحيح ، لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم ، وينقذوا تاريخهم ، ومن ثم تكن لهم الكرامة في الأرض (٢٢٠) ، وما ذلك علي الله بعزيز ، وإن الجهاد هو نعم السبيل إلى السعادة في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة : " جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم " (٢٢١) .

إن الإسلام دعوة للمسالمة والسماحة والعدل ، لكنه في الوقت نفسه صخرة تتحطم عليها أباطيل الأعداء ، عندما يلوح عدوانهم علي المسلمين ، فإذا ما وقعت الحرب وأصبحت حتمية فإن هناك شروطا وآدابا وتوجيهات كثيرة ، أمر الإسلام أن يلتزم المسلمون بها، وكلها تعكس أخلاق الإسلام وقيمته الرفيعة ، فمن الشروط : النهي عن البدء بالعدوان كما في قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (٢٢٢) ، ومن الآداب التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، بالالتزام بها : الوفاء بالعهود والمواثيق ، وأيضا النهي عن قتل من لا يُقاتل - الآمنين - وتحريم المثلة ، وتحريم قطع الزروع والثمار ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت ، وكذا تأمين من طلب الأمان ، ويبدو ذلك التسامح والنبيل والإنسانية مع الأعداء (٢٢٣) ، فيما كان يوصي به النبي صلى الله عليه وسلم من يرسلهم للقتال فيقول لهم : " قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولا

تقطعوا شجرة ، ولا تعقروا ناقة إلا لماكل ، وستجدون قوما يعبدون الله في الصوامع ، فدعوهم وما خلّوا أنفسهم له" (٢٢٤) .

وفي الصحيحين^(٢٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما - قال : " وَجَدَت امرأة مقتوله في بعض الغزوات فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان " .

كما أوصي أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام لقتال أهل البغي فكان مما قاله : " لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع - وهم الرهبان - فاتركوهم وما فرغوا أنفسهم له " (٢٢٦)

هذا هو موقف الإسلام من غير المسلمين عموماً ، وهو موقف يتسم بالرفق واللين والتسامح ، الذي لا نظير له مع الأعداء المحاربين ، أما موقفه من أتباع الديانات السماوية السابقة - خصوصاً اليهودية والنصرانية - فقد بلغ درجة من التسامح واللين والمودة ، حيث أمر الإسلام أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين ، وبكتبهم المتحلة التي وصفها بالهدي والنور ، بل إن الإسلام دعا إلى الإحسان لأهل الذمة المعاهدين ، الذين لم يدخلوا في الإسلام - بعد دعوتهم إليه بالرفق واللين - وقبلوا دفع الجزية مقابل الحماية الإسلامية ، ولم يكرهم علي الإسلام .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة " (٢٢٧) . وفي هذه المعاملة أكبر دلالة على تسامح المسلمين وعدلهم ورحمتهم ، حتى في الغزوات ومتى كان المسلمون مهاجمين أو معتدين ؟ ! أفي غزوة بدر ؟ ! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطانهم وعوملوا بوحشية فاجرة في مكة . أم في غزوة أحد ؟ ! وقد زحف جيش الشرك علي المدينة يريد أن يستأصل شأفة المسلمين ! أم في الخندق ؟ ! وقد تواطأ الكفر مع النفاق ومع اليهود فكونوا جيشاً ضخماً يريدون غزو المدينة والقضاء علي من فيها ! .

أيّامُ المسلمون إذا هبّوا يدافعون عن بلادهم وعقيدتهم ؟ ! تلك هي حروب الإسلام ، وهذه هي غزوات الرسول : كانت إما لنصرة المظلوم ، وإما للدفاع عن العقيدة وعن النفس وعن الكرامة الإنسانية ، ولم تكن أبدا للظلم أو العدوان (٢٢٨).

أيمكن بعد ذلك أن يقال : إن الإسلام دين القسوة والوحشية والإرهاب ؟ فأين هي الوحشية والإرهاب ؟ وكل أهداف الجهاد هي الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة ابتغاء وجه الله ، وفي سبيله (٢٢٩) " الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا " (٢٣٠).

يبقى بعد ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " (٢٣١) " إنه في شأن المشركين عبدة الأوثان الذين يضعون العوائق في طريق هذا الدين ، ويصدّون عنه ويتآمرون عليه . أفلا يوضع حد لتآمرهم وكيدهم ؟ ! إنه لا يرد العدوان إلا الجهاد ، فالجهد في الحق شريعتنا ، ورد العدوان وكبح جماحه فريضتنا وواجبنا ، وقيمة عليا من قيم حضارتنا ، وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعايش الأديان معايشة طيبة ، وتجد في كنفه كل مودة واحترام ، بل تسامح ذهب مذهب الأمثال في حروب المسلمين ضد أعدائهم . إن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم ، ونشر الأمان والسلم في الأرض ، وتأديب الأشرار حتى لا يعيشوا في الأرض فساداً ، والذين يقولون في الإسلام غير ذلك نردّ عليهم بقوله تعالى : " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " (٢٣٢).

ويكفي لرد علي دعاوي المستشرقين عن وحشية الإسلام بكلام واحد منهم هو المستشرق الفرنسي "رينان" حيث يقول : " لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام بأقمامهم إياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرقة " (٢٣٣).

وما يزال التاريخ يرّد قصة السماحة الدينية التي تحلّي بها الإسلام عندما جاء وفد نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم في المسجد ، فكانوا يصلون في

جانب منه، ورسول الله مع المسلمين يصلون في جانب آخر ، ولما أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم برفق وسماحة ، وصالحهم علي جزية عينية متواضعة ، ناسيا تاريخهم الطويل في الكيد والعداء للإسلام . كما أدخل يهود نجران أيضا في هذا الصلح وأعطاهم الحرية الكاملة في دينهم بعدل وإنصاف ، وفعل نفس الشيء مع يهود بني جنية القريبة من أيلة ، ويهود بني غاديا ، وبني عريض ، وأهل جرباء وأذرح ^(٢٣٤).

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس والبيع دائما ، في ظل حضارتنا ، وتمارس الشعائر المسيحية واليهودية داخل الكنائس والكُتُس من غير تضيق ولا منع ، ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لهم مالنا وعليهم ما علينا " ^(٢٣٥).

ومن أثر تلك السماحة أحب النصارى واليهود حكم المسلمين ، وفضّلوه علي حكم طوائفهم ، لأنهم كانوا يجدون في الإسلام العدالة والإنصاف ، كل هذا جعل كثيرا من الناس يدخلون في الإسلام ، لا خوفا من سيوف المسلمين ، ولا هربا من الجزية - التي هي أقل من الزكاة - وإنما إعجابا بهذا الدين وانبهارا بهؤلاء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا نماذج متألقة، وصورا مشرقة لتعاليم الإسلام ومثله العليا ، وقيمة الحضارية ، ونخص من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام طواعية : القبائل العربية النصرانية في شمال الجزيرة العربية ، وأهل حمص ، وشمال أفريقيا ، ومسيحي الأندلس ^(٢٣٦)، وما ذلك إلا لسماحة الإسلام وعدالة أهله عن حكامهم من الروم ، والقوط الشرقيين .

لكن الطامة الكبرى أن المسيحيين ردّوا جميل المسلمين بالتنكيل بهم زمن الحروب الصليبية ، و اليوم أيضاً الاستعمار الجديد ، والأطماع الصليبية تنكل بالمسلمين في العراق والسودان والصومال والبوسنة والهرسك ، فضلا عن اليهودية الصهيونية التي ما تزال تنكل بالفلسطينيين، والبقية آتية - لا ريب - بسبب نكوص المسلمين عن الحق ، وتعطيهم لشرعة الجهاد ، وعمالة بعض حكامهم المستبدّين لقوي الاستكبار والهيمنة الصليبية والصهيونية .

..... وختاماً

وبعد .. فهذه هي المدينة الفاضلة التي أقامها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وليست " يوتوبيا " يا سير " توماس مور " كما تحلم ؟ أو كما يذهب بك الخيال ، إنكاراً لشمس ساطعة ، لا ينكرها إلا من أصيب برمد في عينيه ، وهي أيضاً ليست مدينة الفارابي الأفلاطونية الطبقيّة الوثنيّة .

إنما هي المدينة الفاضلة التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعتها القويم ودولتها الفتية على الإخاء والحب والتكافل والعدل - حتى - مع غير المسلمين .
دولة كانت مؤسستها الأولى (المسجد) الذي أضحي داراً للعبادة ، ومقراً للتوجيه والقيادة ومصنعاً للرجال في شتى مناحي الحياة .

إنها دولة الإسلام الأولى التي أقامت مجتمع ((الإخاء الإسلامي)) من بين أشتات وركام عرب الجاهلية ، فصنعت منهم " خير أمة أخرجت للناس " حينما اعتصموا بحبل الله ، وأطاعوا الله ورسوله ، فتحابوا وتكافلوا وتوادوا وصاروا " كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله " .

إنها دولة الإسلام الأولى ، التي وضعت أول دستور للعلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين ، ممن يساكنونهم في المدينة وما يجاورها ، وأقامت هذا القانون الدولي على العدل والبر والإحسان ، شريطة أن يلتزم الآخرون بهذه المبادئ .

ومع علم قائدها (المعصوم) صلى الله عليه وسلم أن الآخرين لا يقيمون وزناً لهذه المواثيق الدولية ، لأنهم جبلوا على الغدر والخيانة وكراهية كل البشر - حسبما يصفهم القرآن الكريم - إلا أنه عاهدهم وعاقدهم حتى إذا نقضوا عهودهم ، أخذوا ، بذنوبهم ، وليشهد التاريخ عليهم فيما قدّمت أيديهم ، ولأجل هذا كان لابد من الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الخائنين الغادرين ، وأمثالهم من أعداء الحياة

والدين، فكانت حتمية الجهاد لحماية الدولة الفاضلة وأهلها المسلمين ، وردع عدوان الكافرين .

هل يُطبق المسلمون اليوم هذه المثل والأسس . والله لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ! ، وهو إعمال كتاب الله وسنة رسوله ، وإعلاء شرعة الجهاد ضد الأعداء .. وإلا فالذلّة والهوان.... ! اللهم سلم يا ربنا
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

الهوامش

(١) ومثال ذلك : ما قاله بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " في خطبة له في إحدى الجامعات الألمانية سنة ٢٠٠٦ م من أن : الإسلام لم يقدم شيئاً للإنسانية سوى العنف والإرهاب والعدوان . " كبرت كلمة تخرج من أفواههم " .

(٢) انظر د . محمد أحمد الشحري : العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبة المتنبى الدمام سنة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م ص ١٩ - ٣٦ .

(٣) أنظر : آراء أهل المدينة الفاضلة للمعلم (الثاني) أبي نصر محمد بن محمد الفارابي التركي . (تقديم د . طه الدسوقي حبشي - دراسة وتحقيق القدس للدراسات والبحوث . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة سنة ٢٠٠٢ م) ص ٢١ - ٢٣ من مقدمة المحقق بقلم د . طه حبشي

(٤) من هذه الخصال : أن يكون تام الأعضاء ، حسن العبارة ، جيد الفطنة و الحفظ ، محباً للتعليم ، محباً للصدق وأهله ، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، والشهوات واللذات ، والعب (الشرب الكثير بغير تنفس) ، كما ذكر من خصاله أيضاً أن يكون كبير النفس قوى العزيمة ، حكيماً عليمًا مستسطاً ذا رأي جيد ، ومعرفة بشرائع الأوليس ، وأن يكون المال عنده هين (أنظر الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٩٧ - ٢٠٠) .

(٥) انظر : الفارابي : المرجع السابق : ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٦) أنظر : الفارابي : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٧) أنظر : الفارابي : المرجع السابق ص ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٨) أنظر : تعليقات د . طه حبشي في مقدمته لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١١ - ١٧ (طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٢ م) .

(٩) أنظر د . محمد الشحري : مرجع سابق ص ١٨٣ - ١٨٦ .

(١٠) د . عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٢ - ٣ ، ٢٨ - ٢٩ (طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩ م) .

(١١) أنظر : د . محمد الشحري : مرجع سابق ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(١٢) إن الترجمة الحرفية لهذا الكتاب هي : الكوميديا الممتازة ، وإنما نعتها بالإلهية ليضفي عليها قسطاً من القداسة والمهابة في عيون مواطنيه ، ليدأوا في إصلاح الكنيسة من داخلها ، قبل أن يفرض عليها هذا الإصلاح رغم أنف رجالها ، كما فعل مارتن لوتر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (أنظر د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ص ٤٥ .

- (١٣) د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ص ٤٧ .
- (١٤) يوتوبيا : كلمة لا تينية ، معناها : لا وجود لها " No where " أنظر : د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ص ٦٩ هـ ١ .
- (١٥) أنظر : د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ص ٦٩ - ٨٠ ، و سير توماس مور : يوتوبيا ص ٥٧ - ٢٣١ (ترجمة د . إنجيل بطرس) تقديم د . زكي نجيب محمود ، — طبعة مكتبة الأسرة القاهرة سنة ٢٠٠٠ ، وانظر تقديم د . زكي نجيب محمود لنفس الكتاب ص ٩ - ٥٢ ، وعرضه القيم لموضوعات " يوتوبيا " في مجلة : تراث الإنسانية المجلد الأول ص ٣٦٨ - ٣٨٥ .
- (١٦) سورة الملك : الآية ١١ .
- (١٧) انظر : صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم (طبعة أولى النهى للإنتاج الإعلامي مكة المكرمة ١٤٢٢ هـ) ص ١٨٢ .
- (١٨) انظر : د / محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين (طبعة دار الداعي للنشر . الرياض ١٤٢٧ هـ) ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (١٩) انظر صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٨٣ .
- (٢٠) سورة الجمعة : الآية ٢ ، وانظر : المؤلف : مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة - عدد ٢٣ - في سنة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .
- (٢١) سورة الأنفال : الآية ٢ .
- (٢٢) لقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج وإثارة الشقاق والحروب بينهم ، وآخر ذلك " يوم بعاث " الذي كان قبل الهجرة بخمس سنوات ، وهزمَ فيه الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل ، لتفوق قواهم عليهم عدداً وعدة ، حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود النضير وقريظة — فغلبتهم في بعاث — ولكن الأوس فطنوا لخطورة الإجهاز على الخزرج ، لأن هذا يمكن اليهود من السيطرة على يثرب ، وكان من نتيجة هذا الانتباه السديد أن اتفق الأوس والخزرج على اختيار " عبد الله بن أبي بن سلول " ملكاً للجميع ، لكونه وأهله قد وقف على الحياد في " يوم بعاث " وكان لدى الأوس والخزرج شعور قوي بمرارة الحرب الطاحنة التي استمرت بينهم سنوات كثيرة ، وقضت على كثير من مقاتليهم وثرواتهم ، وأوصلتهم إلى حافة الهلاك والدمار ، وقد رافق شعورهم بالخطر هذا دخول الإسلام في بيوتهم (بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية) ثم هجرة النبي والمسلمين إليهم ، مع بشائر الأخي والسلام بين المسلمين ، فكانت نفوس عرب يثرب على استعداد كامل لقبول دعوة الإسلام رحمة من الله بحالهم ، وشفقة عليهم (أنظر د . محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين ص ٢٨٦ - ٢٨٧) .
- (٢٣) أنظر : صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٨٣ - ١٨٤ .

- (٢٤) أنظر : صفى الرحمن المباركفوري : مرجع سابق ص ١٨٤ ، وأبو الحسن علي الحسيني الندوي : السيرة النبوية ص ٢٠٢ - ٢٠٤ (الطبعة الثانية دار الشروق جدة سنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م) ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين ص ١٢٠ - ١٢١ ، ص ٣١٩ .
- (٢٥) أنظر : د محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين ص ٢٨٥ .
- (٢٦) سورة آل عمران : من الآية ٧٥ .
- (٢٧) أنظر : المباركفوري ، مرجع سابق ص ١٨٤ - ١٨٦ ، و د . محمد السلفي : مرجع سابق ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ، وأبو الحسن الندوي : مرجع سابق ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .
- (٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية (تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلي . طبعة دار المعرفة بيروت ٢٠٠٤ م) ج ١ ص ٤٦٤ - ٤٦٥ ، والبخاري : الصحيح ج ١ ص ٤٥٩ ، (طبعة الهند ١٣٨٧ هـ) .
- (٢٩) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٦٧ - ٤٦٨ ، والبخاري : الصحيح ج ١ ص ٥٥٦ ، و د . السلفي : الصادق الأمين ص ٣١٣ .
- (٣٠) أنظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٨٧ .
- (٣١) كان اسم المدينة المنورة القديم (يثرب) ومعناه : ذميم متشاءم به ، لأن الثرب فساد في كلام العرب ، والتثريب هو : اللوم والتعير (لسان العرب لابن منظور مادة : ثرب) وكانت : " يثرب " اسماً شائعاً تقصد وتعرف به هذه المدينة ، كما ورد ذكره في القرآن الكريم : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " - آية ١٣ الأحزاب وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسمها من يثرب إلى " المدينة " ، ونفى عن استخدام اسمها القديم ، وقال : " هي طابة " ، كما قال : " هذه طابة " (مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٢١ ، ج ٤ ص ٢٨٥) .
- (٣٢) انظر أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٨ م) ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٣٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مكة صحبة أبي بكر الصديق ليلة ٢٧ صفر سنة ١٤ من النبوة متجهاً إلى يثرب للإقامة والحماية ، بعد أن أمر أصحابه بسبقه إليها ، بناء على مبايعة الأوس والخزرج (الأنصار) له في بيعة العقبة الثانية ، في موسم الحج المنصرم سنة ١٣ من النبوة .
- (٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٤٥١ .
- (٣٥) أنظر البخاري : الصحيح ج ١ ص ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ . وابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ . الطبعة المصرية ١٩٢٨ م (الطبعة الأولى) .
- (٣٦) الحديث في : صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٩ .

- (٣٧) الحديث في : صحيح مسلم ج ١ ص ٢٨٥ .
- (٣٨) الحديث في صحيح البخاري برقم ٤٦٣٩ ، و انظر فتح الباري لابن حجر ج ٩ ص ٦٦ (طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م) .
- (٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٥٦٩ ، ٥٩٧ ، والمباركفوري : مرجع سابق ص ٢٣٦ .
- (٤٠) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء ص ٧٧ - ٧٩ .
- (٤١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٧ .
- (٤٢) الحديث في : صحيح البخاري برقم ٤٤٧٤ ، وفي سنن أبي داود برقم ١٤٥٨ .
- (٤٣) الحديث في : سنن النسائي ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- (٤٤) انظر : د . عبد الرحيم السايح : مرجع سابق ص ٨١ ، ٨٣ .
- (٤٥) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ . وانظر نص الحديث في : صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٣٩ ، وسنن النسائي ج ٢ ص ٤٨ .
- (٤٦) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق ص ٩١ - ٩٢ .
- (٤٧) الحديث في سنن النسائي ج ٢ ص ٧٩ .
- (٤٨) الحديث في صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٩٣ ، وانظر القصة في : المباركفوري : الرحيق المختوم ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٤٩) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٤ ، والمباركفوري : مرجع سابق ص ٣٣٠ .
- (٥٠) سورة التوبة الآية : ١٠٢ .
- (٥١) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق ص ٨٩ - ٩٢ ، و توفيق سبع : قيم حضارية ج ٢ ص ٢٢٠ .
- (٥٢) سورة المائدة : الآيات ٨٢ - ٨٤) .
- (٥٣) انظر ما يأتي في هـ ٤ ص ٢٦ .
- (٥٤) الحديث وارد في : سنن أبي داود ج ٢ ص ٣٥٧ .
- (٥٥) انظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٧٢ ، ص ١٩٦ ، ٢١٣ .
- (٥٦) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق ص ٩٤ - ٩٥ .
- (٥٧) الحديث وارد في صحيح مسلم ج ١ ص ٢٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .
- (٥٨) الحديث وارد في ضعيف الحديث للألباني .

- (٥٩) انظر : الألباني : ضعيف الحديث .
- (٦٠) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٢٦٢ طبعة بيروت .
- (٦١) سورة التوبة : الآية ١٨ .
- (٦٢) سورة البقرة : الآية ١١٤ .
- (٦٣) أنظر : دلائل النبوة لليهقي ج ٢ ص ٥٣٨ وما بعدها ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها .
- (٦٤) عبد الحليم الجندي : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (طبعة القاهرة ١٩٨١ م) ص ١٠٦ .
- (٦٥) د. محمد الخطيب : تاريخ العلم في الإسلام ص ١١ - ٢٦ . (طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م) .
- (٦٦) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول ص ١٦ الرياض ..
- (٦٧) سيرة النبي لابن هشام . ج ١ ص ٤٥٥ .
- (٦٨) سورة : الأنفال الآية : ٧٥ .
- (٦٩) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٥٦ ، وانظر د . السلفي : الصادق الأمين ص ٢٩٥ .
- (٧٠) انظر : محمد الغزالي : فقه السيرة ص ١٤٠ - ١٤١ (طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م) .
- (٧١) صحيح البخاري : ج ١ ص ٥٥٣ ، والمباركفوري : مرجع سابق ص ١٩١ ، د . محمد السلفي : مرجع سابق ص ٢٩٤ .
- (٧٢) سورة الحشر : الآية رقم ٩ .
- (٧٣) الدين والحياة . ع ١١٩ ص ٦ . وزارة الأوقاف المصرية ، وأحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة ص ٩٨ - ١٠٠ .
- (٧٤) القرطبي : تفسير القرآن . ج ١٨ ص ٢٤ ..
- (٧٥) المراغي : تفسير القرآن .. ج ٢٨ ص ٣٤ ..
- (٧٦) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . ج ٤ ص ٣٣٨ . بتصرف
- (٧٧) الزمخشري : الكشاف . ج ٤ ص ٨٤ .. (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م) .
- (٧٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . ج ٤ ص ٣٣٨ . والحديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (البخاري : الصحيح ج ١ ص ٥٥٣)
- (٧٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . ج ٤ ص ٣٣٧ . والحديث رواه البخاري في : الصحيح ج ١ ص ٣١٢ .

- (٨٠) سورة الفتح : من الآية ٢٩ .
- (٨١) سورة الأنفال : الآية ٨٥ .
- (٨٢) لم يحصل بعض المهاجرين الفقراء بعد مجيئهم إلى المدينة على عمل يدّر عليهم لقمة العيش ، كما لم يجدوا لهم مأوى خاصة من تدفق منهم - بعد عقد المؤاخاة - على يثرب ، وكثير منهم لم يكن لديه خبرة بالزراعة (حرفة أهل المدينة) ولم يكن لديه مال ليتاجر به ، لم ينس النبي - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء ، فلما تحولت القبلة إلى الكعبة ، وبقي حائطها في مؤخرة المسجد النبوي ، أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتظليله وتسقيفه وأسماء الصُّفّة ، وأنزل فيه الفقراء وغرباء المسلمين ، وكل من طلب حياة الزهد ، وأجرى عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون الأرزاق ، فعاشوا وتفرغوا للعبادة وتحصيل العلم من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فإذا جاء وقت الجهاد أسهموا فيه (انظر د . محمد السلفي : الصادق الأمين ص ١٩٥ - ١٩٦) .
- (٨٣) انظر : الباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٩١ .
- (٨٤) انظر : نص الوثيقة في : ابن هشام السيرة ج ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين ص ٢٩٩ - ٣٠١ .
- (٨٥) انظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٠٧ وما بعدها (طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٢٢هـ) .
- (٨٦) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص ١٤٠ (المطبعة الأميرية ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م) .
- (٨٧) أنظر الحديث في : صحيح مسلم ج ٤ ص ١٦٣٨ .
- (٨٨) الماوردي : مرجع سابق ص ١٤١ .
- (٨٩) الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ١٤٢ ، وأحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق ص ١٠٧ وما بعدها
- (٩٠) الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ١٤٢ بتصرف واختصار .
- (٩١) سورة : الحجرات : من الآية : ١٣ .
- (٩٢) محمد محمود الصواف : نظرات في سورة الحجرات ص ١٤٧ (طبع مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م)
- (٩٣) محمد محمود الصواف : المرجع السابق ص ١٤٨ .
- (٩٤) المراغي : تفسير القرآن . الجزء السابع ص ٢٠١ .
- (٩٥) انظر : الشيخ : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٦١ (طبعة جريدة صوت الأزهر . القاهرة سنة ٢٠٠٠ م) .

- (٩٦) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .
- (٩٧) ابن كثير : تفسير القرآن ص ٢٠٧ .
- (٩٨) الألوسي : تفسير القرآن . الجزء الأول ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
- (٩٩) المسلمون أمة واحدة عدد رقم ١٠١ ص ١٣ مجلة (الدين والحياة) : وزارة الأوقاف المصرية . ١٣٩٣ هـ
- (١٠٠) استراتيجية العالم الإسلامي ص ٩٥ . مجلة وزارة الحج والأوقاف السعودية ذو الحجة ١٣٩١ هـ .
- (١٠١) سورة : المائدة : الآية ٤٨ ، ٤٩ .
- (١٠٢) سورة البقرة : الآية ٢ - ٥ .
- (١٠٣) سورة : المائدة : الآيات ١٥ - ١٦ .
- (١٠٤) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الجزء السادس ص ٣٠٥ (طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٦٩ م) .
- (١٠٥) سورة النساء : الآية : ٥٩ .
- (١٠٦) سورة الحجرات : الآية ٩ .
- (١٠٧) تفسير القرطبي : ج ١٦ ص ٣٢٢ .
- (١٠٨) الحديث وارد أيضاً في : صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٩٦ .
- (١٠٩) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٩٣ .
- (١١٠) الشيخ محمد الصواف : نظرات في سورة الحجرات ص ١٠٧ - ١٠٨ وأنظر ما سبق ص ٢٤ .
- (١١١) سورة النور: الآية ٥١
- (١١٢) سورة النساء: الآية : ٦٥
- (١١٣) سورة الأحزاب: الآية : ٣٦ .
- (١١٤) رواه مسلم ونقله ولي الدين التبريزي في مشكاة المصابيح ج ٢ ص ٤٢٢ طبعة الهند د . ت .
- (١١٥) صحيح البخاري : ج ١ ص ٦١ .
- (١١٦) صحيح البخاري : ج ١ ص ٦١ .
- (١١٧) صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٩٠ .
- (١١٨) صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٩٦ .

- (١١٩) سنن أبي داود ج ٢ ص ٣٣٥ ، و سنن الترمذي ج ٢ ص ١٤ .
- (١٢٠) صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٩٣ .
- (١٢١) الحديث وارد في سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، ومشكاة المصابيح ج ١ ص ١٦٩ .
- (١٢٢) أنظر : سنن الترمذي ج ٥ ص ٩٠ .
- (١٢٣) سورة الأنبياء: الآية : ٩٢ .
- (١٢٤) سورة الممتحنة الآية : (٨ ، ٩)
- (١٢٥) سورة آل عمران : الآية : ٦٤ .
- (١٢٦) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٩٦ ، والدكتور محمد السلفي . الصادق الأمين ص ٣٠١ ، وأحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق ص ١١٩ - ١٢١ .
- (١٢٧) انظر : ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .
- (١٢٨) : د. أكرم ضياء العمري . المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٠٧ - ١١٢ ، و انظر : د . محمد السلفي : الصادق الأمين ص ٢٩٨ - ٣٠١ .
- (١٢٩) أنظر ما سبق ص ٢٨ من هذا البحث .
- (١٣٠) نقلنا نصوص هذه المعاهدة من : المباركفوري : الرحيق المختوم ص ١٩٧ ، و د . محمد السلفي . الصادق الأمين ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، بتصرف ، لوجود اختلاف بين المصدرين في ترتيب هذه البنود وزيادة ونقصان في بعضها ، وفي اعتماد الزيادة رجعنا إلى (ابن هشام : السيرة النبوية ص ٤٥٣ - ٤٥٤ لأنه هو الأصل) ، وانظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٠٧ - ١٣٦ .
- (١٣١) انظر : محمد السلفي : الصادق الأمين ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ، و المباركفوري : الرحيق المختوم ص ٢٠٠ .
- (١٣٢) المباركفوري : الرحيق المختوم ص ٢٠٠ ، و د . السلفي : الصادق الأمين ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
- (١٣٣) المباركفوري : مرجع سابق ص ٢٠٢ نقلاً عن المواهب اللدنية للقسطلاني ج ١ ص ٧٥ (المطبعة الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م) ، وابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥٢٤ .
- (١٣٤) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥٣١ ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٣ ، وإبراهيم العلي : صحيح السيرة النبوية ص ٢١٤ (طبعة عمان الأردن) ، وابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٨٤ (المطبعة المصرية سنة ١٩٢٨ م) .
- (١٣٥) ابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٧١ ، والمباركفوري : الرحيق المختوم ص ٣٥٧ .

(١٣٦) تيماء : قرية تقع إلى الشمال من خيبر وهي إلى الشام أقرب من الحجاز وكانت آخر معاقل اليهود ، وقد أجلاهم عنها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته (د . محمد السلفي : الصادق الأمين ص ٣٢٨ ، ٥٧٠) .

(١٣٧) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٨٠ ، و المباركفوري : مرجع سابق ص ٣٩٣ .

(١٣٨) أنظر في هذا المعنى ما ورد من أحاديث في صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٦٣ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، و المباركفوري : مرجع سابق ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(١٣٩) سورة المائدة : من الآية ٦٧ .

(١٤٠) أنظر سنن الترمذي ج ٢ ص ١٣٠ ، و المباركفوري مرجع سابق ص ٢٠٠

(١٤١) سورة الحج : الآيات ٣٩ - ٤١ .

(١٤٢) أنظر ما يأتي ص ٤٨ - ٤٩ من هذا البحث .

(١٤٣) سورة القرة : الآيات ١٩٠ - ١٩٣ .

(١٤٤) أنظر المباركفوري : الرحيق المختوم ص ٢٠٠ - ٢٠٧ .

(١٤٥) د . محمد عمارة : معالم النهج الإسلامي (طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م) ص ٢٥١ - ٢٥٣ .

(١٤٦) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(١٤٧) انظر : توفيق سيع : قيم حضارية ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ ، د . محمد جبر أبو سعدة : دراسات في تاريخ الحضارة والفكر ص ٨٦ (ط القاهرة ٢٠٠١ م) .

(١٤٨) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء ص ١٢٩ - ١٣٠ ، د . محمد أبو سعده : مرجع سابق ص ٨٦ ، د . عبد الحليم عويس : حقوق الإنسان في الإسلام ص ١٣٤ - ١٣٥ (طبعة جدة ، السعودية ، ١٩٧٨ م) .

(١٤٩) الإمام الصنعاني : سبل السلام ج ٤ ص ٥٤ .

(١٥٠) رواه الترمذي في : السنن ج ٩ ص ٢٠٢ ، والنسائي : السنن ج ٦ ص ٤٢٨ .

(١٥١) رواه أبو داود في : السنن ج ٦ ص ٤٩١ ، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ١٦١

(١٥٢) د . محمد عمارة : مرجع سابق ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(١٥٣) رواه الإمام أحمد في : مسنده ج ٣ ص ٢٦٦ ، وذكره الألباني وضعفه في السلسلة الضعيفة ج ٢ ص ٥٤ .

(١٥٤) رواه مسلم في : صحيحه ج ١ ص ١٦٨ ، والبيهقي في : السنن الكبرى ج ١٠ ص ٩٠ .

(١٥٥) د. محمد عمارة : مرجع سابق ص ٢٥٣ ، وأحمد السايح : مرجع سابق ص ١٣٠ ، و د محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر) : حوار هادئ مع بابا الفاتيكان بعنوان : هذا هو الإسلام (هدية محلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ) ص ٣٤ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٥٦) الفيروز آبادي . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (طبعة المجلس الأعلى للتنوير الإسلامية د.ت) ج ٢ ص ٤٠١ ، و محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر : هذا هو الإسلام ص ٣٣ - ٣٤ .

(١٥٧) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

(١٥٨) الحديث في مسند أحمد ج ٤٨ ص ٤٨٧ ، و صحيح ابن حبان ج ٢٠ ص ٢٤٥ .

(١٥٩) محمد سيد طنطاوي : هذا هو الإسلام ص ٣٤ ، و د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١١٨ ، ١٢٣ .

(١٦٠) رواه البيهقي في الزهد ح ١ ص ٤٢ ، وضعفه الألباني .

(١٦١) سورة التوبة : الآية : ٢٠ .

(١٦٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩

(١٦٣) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة ص ١٣٦ - ١٣٨ ، د . عبد الحليم عويس مرجع سابق ص ١٢٣

(١٦٤) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(١٦٥) سورة فاطر : الآية ٦ .

(١٦٦) سورة لقمان : من الآية ٣٣

(١٦٧) الحديث وارد في . الإبانة الكبرى لابن بطة ج ١ ص ٢٩٨ ، (ط الرياض ، السعودية ١٤١٨ هـ) ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وابن أبي عاصم كتاب السنة ج ١ / ٢١ . (ط بيروت سنة ١٤٠٠ هـ) .

(١٦٨) سورة لقمان . الآية ١٧

(١٦٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(١٧٠) سورة آل عمران : الآية ١٠٤

(١٧١) انظر . صحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ٢١ طبعة القاهرة د ت .

(١٧٢) سورة التوبة . الآية ٧٣ ، وسورة التحريم : الآية ٩ .

- (١٧٣) الحديث أخرجه النسائي : السنن ج ١٣ ص ١٢١ ، ومسنند أحمد ج ٢٢ ص ٢٦١
- (١٧٤) سورة المائدة : الآيتان ٧٨ - ٧٩ .
- (١٧٥) انظر : سنن أبي داود - واللفظ له - ج ٤ ص ٥٠٨ طبعة دمشق ، ولس الترمذي : كتاب التفسير حديث رقم ٣٠٥١ (طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٣٣٧ هـ) والأطرُ : هو الإلزام يأتى الحق والبعد عن الظلم .
- (١٧٦) للمزيد من التفصيل انظر في هذا الموضوع المؤلف : الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) ص ١٥ - ٦٠ ، ص ١١٣ - ١٢٨ طبعة القاهرة ١٩٩٥ م .
- (١٧٧) محمد المبارك : نظام الإسلام (الحكم والدولة) ص ١٢٥ ط . رابعة دار الفكر - دمشق (١٩٨١ م) .
- (١٧٨) سورة الكافرون : الآية ٦ .
- (١٧٩) سورة الكهف : الآية ٢٩ .
- (١٨٠) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .
- (١٨١) سورة يونس : الآية ٩٩ .
- (١٨٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .
- (١٨٣) انظر : توفيق سبع قيم حضارية ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٢١ ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة ص ٢٦٠ - ٢٦١ (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٠ م)
- (١٨٤) سورة البقرة : الآية : ٢١٦ .
- (١٨٥) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة ص ١٣٨ .
- (١٨٦) أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق ص ١٣٥ ، وأنظر : محمد المبارك : مرجع سابق ص ١٢٥ ، د . محمد سيد طنطاوي : هذا هو الإسلام ص ٣٣ ، د . محمد أبو سعدة . مرجع سابق ص ٨٦ .
- (١٨٧) سورة النساء : الآية ٩٧ .
- (١٨٨) سورة الحج : الآيتان ٣٩ - ٤٠ .
- (١٨٩) انظر د : محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة ص ٢٦٧ نقلا عن ابن القيم . زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٣ ص ٧٠ (ط بيروت ١٩٨٥ م) .
- (١٩٠) محمد المبارك : مرجع سابق ص ١٢٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ، ص ٨٦ ، د . محمد فتحي عثمان : حقوق الإنسان بين الشريعة والفكر القانوني ص ٢٢ (ط دار الشروق القاهرة ١٩٨٢ م) .

(١٩١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام ج ١ ص ١٠٨ (ط القاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٨٣ م) ،
وانظر توفيق سبع : قيم حصارية ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ ، ود . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ
الحضارة ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(١٩٢) سورة البقرة : الآيات ١٩٠ - ١٩٤ .

(١٩٣) سورة التوبة : الآية ٣٦٠ .

(١٩٤) سورة الأنفال : الآية ٥٨ .

(١٩٥) محمد المبارك : مرجع سابق ص ١٢٦ ، محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٣٣ - ٣٤ ، د .
عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١٢٢ .

(١٩٦) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(١٩٧) د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، د . عبد الحليم عويس .
مرجع سابق ص ١٢٩ - ١٣١ .

(١٩٨) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(١٩٩) صحيح مسلم : ج ٣ ص ١٣٦٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة بيروت د . ت ، وصحيح
البخاري ج ١٠ ص ١٢٤ .

(٢٠٠) سورة النساء : الآية ٩٠ .

(٢٠١) سورة النساء : الآية ٩٤ .

(٢٠٢) سورة الممتحنة : الآيات ٨ - ٩ .

(٢٠٣) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٣٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص ٨٦ .

(٢٠٤) سورة البقرة : من الآية ٢٠٨ .

(٢٠٥) سورة محمد : الآية ٣٥ .

(٢٠٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٤٠ .

(٢٠٧) سورة الأنفال : الآيتان ٦١ ، ٦٢ .

(٢٠٨) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢٠٩) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة ص ١٣٠ - ١٣٣ ، د . عبد الحليم عويس مرجع
سابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢١٠) سورة الصف : الآيات ١٠ - ١٣ .

- (٢١١) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة ص ١٣٨ - ١٣٩ .
- (٢١٢) أحمد عبد الرحيم السايح . صور من حياة الرسول : (طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م) ص ٥١٧ .
- (٢١٣) أحمد السايح : الهجرة ص ١٣٩ ، وصور من حياة الرسول ص ٥١٦ .
- (٢١٤) سورة محمد : من الآية ٧ .
- (٢١٥) سورة الحج : من الآية ٤٠ .
- (٢١٦) انظر : أحمد السايح : الهجرة ص ١٤٠
- (٢١٧) د . عبد الحلیم عويس : مرجع سابق ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٢١٨) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .
- (٢١٩) سورة النساء : الآية ٧١ .
- (٢٢٠) انظر توفيق سبع : قيم حضارية ج ٢ ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، د . عبد الحلیم عويس : مرجع سابق ص ١٢٦ .
- (٢٢١) الحديث في : مسند أحمد ج ١٩ ص ٤٢٩ عن عبادة بن الصامت .
- (٢٢٢) سورة البقرة : الآية : ١٩٠ .
- (٢٢٣) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٣٩ - ٤١ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص ٩١ .
- (٢٢٤) صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧ ، وانظر فيه أيضا (ج ٣ ص ١٣٥٩ ، ١٣٦٤ ، ١٤٦١) آداب الغزو ، ومسند أحمد ج ٤٧ ص ٤ .
- (٢٢٥) صحيح البخاري ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وصحيح مسلم ج ٩ ص ١٧٥ ، وانظر أيضاً : وسنن ابن ماجه ج ٨ ص ٣٦٥ ، ومسند أحمد ج ١٠ ص ٥٢ .
- (٢٢٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٣٩ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص ٩١ و د محمد فتحي عثمان : مرجع سابق ص ٦٨ ، د . عبد الحلیم عويس : مرجع سابق ص ١٤٠ - ١٤٢ .
- (٢٢٧) الحديث وارد في : سنن : أبي داود ج ٨ ص ٢٩٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩ ص ٢٠٥ ، وانظر : عن معاملة الإسلام لخاريه ، ومعاملته لأهل الذمة ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٦٠ - ٢٩٣ .
- (٢٢٨) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق ص ٣٨ - ٣٩ .
- (٢٢٩) انظر : توفيق سبع : قيم حضارية : ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢٣٠) سورة النساء : الآية ٧٦ .

(٢٣١) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٠٥ ، ج ١٠ ص ٩٧ ، وصحيح مسلم ، ج ١ ص ١١٤ ، وسنن الترمذي : ج ٩ ص ١٨٤ .

(٢٣٢) سورة الكهف : الآية ٥ .

(٢٣٣) توفيق سبع : قيم حضارية ح ٢ ص ٢٢٠ نقلا عن رينان .

(٢٣٤) د . محمد الخطيب : دراسات ص ٢٧٩ - ٢٨١ ، توفيق سع : قيم ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢٣٥) انظر : صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧

(٢٣٦) انظر : سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي طعة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م) ص ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٤ ، وقارن بين ما فعله المسلمون في الأندلس حين خضعت لحكمهم أكثرية غير مسلمة ثمانية قرون من الزمان ، لم يرغموهم على دخول الإسلام ، وبين ما فعله - فرديناند وزوجته إيزابلا - بالمسلمين بعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان سنة ١٤٩٢ م من الذبح والتكيل وإرغام المسلمين على التنصّر من خلال محاكم التفتيش عن العقيدة . (: د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١٣٠) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر .

١ - القرآن الكريم .

البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت : ٢٥٦ هـ) :

٢ - الجامع الصحيح . طبعة استنبول سنة ١٩٨١ م ، وطبعة دار التراث القاهرة . د . ت ، وطبعة الهند سنة ١٣٨٧ هـ .

ابن بطلة (أبو عبد الله عبد الله محمد بن حمدان العكبري ت : ٣٨٧ هـ) :

٣ - الإبانة الكبرى (الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة) تحقيق : حمد التويجري وعثمان الأثيوبي . طبعة دار الراية الرياض سنة ١٤١٨ هـ .

البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين ت : ٤٥٨ هـ) :

٤ - كتاب الزهد . طبعة الهند . د . ت .

٥ - السنن الكبرى . طبعة مكة المكرمة (دار الباز سنة ١٩٩٤ م) .

التبريزي (ولي الدين محمد ت : ٧٣٧ هـ)

٦ - مشكاة المصابيح . طبعة الهند سنة ١٣٧٩ هـ .

الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٩٧ هـ) :

٧ - الجامع الصحيح (وهو المعروف بسنن الترمذي) طبعة الحلبي . القاهرة سنة

١٩٦٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق : أحمد محمد شاكر ، و محمد فؤاد عبد

الباقي ، و إبراهيم عطوة عوض . د . ت .

توماس مور (السير) :

٨ - يوتوبيا . ترجمة إنجيل بطرس ، تقديم : د . زكي نجيب محمود . طبعة

القاهرة (مكتبة الأسرة) سنة ٢٠٠٠ م .

ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الداري ت ٣٥٤ هـ -) :

٩ - المسند الصحيح . طبعة بيروت د . ت .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ -) :

١٠ - فتح الباري (شرح صحيح البخاري) طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

أبو داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت ٢٧٥ هـ -) :

١٢ - السنن (في الحديث) . مراجعة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . طبعة دار الفكر القاهرة د . ت .

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد ت سنة ٤٦٧ هـ -) :

١٣ - الكشاف (في تفسير القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد الفارابي التركي ت ٣٣٩ هـ -) :

١٤ - آراء أهل المدينة الفاضلة . تحقيق ودراسة القدس للدراسات و البحوث . تقديم

د . طه الدسوقي حبيشي . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة سنة ٢٠٠٢ م .

الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧ هـ -) :

١٥ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . طبعة المجلس الأعلى للشؤون

الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي ت سنة ٦٧١ هـ -) :

١٦ - الجامع لأحكام القرآن (في التفسير) . طبعة دار الشعب القاهرة سنة

١٩٦٦ م .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، قيم الجوزية ت سنة ٧٥١ هـ -) :

١٧ - زاد المعاد في هدي خير العباد . طبعة المطبعة المصرية (طبعة أولى ١٩٢٨ م)

وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي ت ٧٧٤ هـ -) :

١٨ - تفسير القرآن العظيم . طبعة المنار . القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ ، وطبعة دار الحديث القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

١٩ - السيرة النبوية . طبعة دار إحياء التراث الإسلامي بيروت سنة ٢٠٠٠ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ت ٤٥٠ هـ) :

٢٠ - أدب الدنيا والدين . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت ٢٦١ هـ) :

٢١ - الجامع الصحيح (المعروف بصحيح مسلم) بشرح الإمام محيي الدين النووي . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٩٧ م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن المكرم ت ٧١١ هـ) :

٢٢ - لسان العرب (معجم لغوي) طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر ت ٣٠٣ هـ) :

٢٣ - السنن . طبعة المكتبة العلمية بيروت د . ت .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري اليمني ت ٢١٣ هـ) :

٢٤ - السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلي . طبعة دار المعرفة بيروت سنة ٢٠٠٤ م .

ثانياً : المراجع .

إبراهيم العلي (الأستاذ) :

٢٥ - صحيح السيرة النبوية . طبعة عمان الأردن سنة ١٩٦٦ م .

أحمد عبد الرحيم السايح (الشيخ) :

٢٦ - صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

٢٧ - الهجرة انطلاقة وبناء . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

أكرم ضياء العمري (الدكتور) :

٢٨ - المجتمع المدني في عهد النبوة . طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٢٢ هـ .

توفيق سبع (الشيخ) :

٢٩ - قيم حضارية في القرآن الكريم . طبعة مجمع البحوث الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

توماس أرنولد (السير) :

٣٠ - الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي . طبعة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٠ .

أبو الحسن على الحسني الندوي (الشيخ) :

٣١ - السيرة النبوية : طبعة دار الشروق . جدة السعودية سنة ١٤٢٦ هـ .

صفي الرحمن المباركفوري (الشيخ) :

٣٢ - الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية) طبعة أولى النهي للإنتاج الإعلامي مكة المكرمة . السعودية سنة ١٤٢٢ هـ .

عبد الحلیم الجندي (المستشار) :

٣٣ - القرآن والمنهج العلمي المعاصر . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

عبد الحلیم عويس (الدكتور) :

٣٤ - حقوق الإنسان في الإسلام . طبعة جدة . السعودية سنة ١٩٨٧ م .

عبد العزيز الشناوي (الدكتور) :

٣٥ - أوروبا في مطلع العصور الحديثة . طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٦٩م

عبد الله إبراهيم محمد راجح (الدكتور) :

٣٦ - الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .

٣٧ - مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٣ سنة ٢٠٠٦ م .

٣٨ - من قيم الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية . (بحث نشر في حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٤ سنة ٢٠٠٧ م .

محمد أحمد الشحري (الدكتور) :

٣٩ - العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبة المتنبى الدمام . السعودية سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد جبر أبو سعد (الدكتور) :

٤٠ - دراسات في تاريخ الحضارة و الفكر الإسلامي . طبعة القاهرة ٢٠٠١ م .

محمد رشيد رضا (السيد الشيخ) :

٤١ - تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

محمد سيد طنطاوي (الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور شيخ الأزهر) :

٤٢ - حوار هادئ مع باب الفاتيكان بعنوان (هذا هو الإسلام) ملحق مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد عمارة (الدكتور) :

٤٣ - معالم المنهج الإسلامي . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

محمد الغزالي (الشيخ) :

٤٤ - فقه السيرة : طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م ، وطبعة مؤسسة عالم المعرفة بيروت د . ت .

٤٥ - مائة سؤال عن الإسلام . طبعة القاهرة (الثانية) ١٩٩٣ م .

محمد فتحي عثمان (الدكتور) :

٤٦ - حقوق الإنسان بين الشريعة و الفكر القانوني . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

محمد لقمان السلفي (الدكتور) :

٤٧ - الصادق الأمين (بحث في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم) طبعة دار الداعي للنشر . الرياض سنة ١٤٢٧ هـ .

محمد المبارك (الدكتور) :

٤٨ - نظام الإسلام (الحكم والدولة) طبعة رابعة . دار الفكر دمشق سنة ١٩٨١ م

محمد محمد الخطيب (الدكتور) :

٤٩ - تاريخ العلم في الإسلام . طبعة القاهرة ١٩٩٨ م .

٥٠ - دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٩٠ م .

محمد محمود الصواف (الأستاذ الشيخ) :

٥١ - نظرات في سورة الحجرات . طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م .

محمد مصطفى المراغي (الشيخ الإمام) :

٥٢ - تفسير القرآن الكريم . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

ثالثاً : الدوريات :

٥٣ - استراتيجية العالم الإسلامي : مجلة تصدر عن وزارة الحج والأوقاف السعودية
عدد

ذي الحجة ١٣٩١ هـ .

٥٤ - مجلة البحوث الإسلامية - العدد الأول . الرياض سنة ١٣٩٦ هـ .

٥٥ - مجلة الدين والحياة - تصدر عن وزارة الأوقاف المصرية . عدد ٤٧ سنة

١٣٩٣ هـ و عدد ١١٩ سنة ١٣٩٩ هـ .

د. الطاهر دراع *

المجتمع العربي بين أهل الوبر وأهل المدر

لقد كانت النظم السياسية والعسكرية والاقتصادية لدى العرب القدامى حصيلة تفاعل مستمر بينهم وبين البيئة الطبيعية التي عاشوا فيها منذ ظهور التجمعات الإنسانية في تلك البقاع الحارة فقد أذعنوا لشروط بيئتهم وتكيفوا معها وتلاءموا مع حاجتهم الاجتماعية الضرورية في أول الأمر ثم الكمالية في مراحل متقدمة.

نعم لقد تميزت ظروف المعيشة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية على مدى قرون موعلة في القدم بالقسوة والإملاق ، سماء شحيحة بالغيث ، وبيئة مناخية حارة متوهجة ، وأرض صحراوية قاحلة في أغلب أرجائها ، فأوجب كل ذلك أن تكون الحياة الأولى والأساس عندهم البداوة خاصة لدى عرب الشمال .

المبحث الأول : المجتمع البدوي : تعنى البداوة قديما وحديثا الحياة القبلية المتنقلة ، أما الأعرابي فهو المتبدى أى الذى سكن البادية وعاش معظم حياته فيها مكتفيا باتخاذ شريكة له قاطعا البوادي الجافة التى يقل فيها سقوط الأمطار ^(١)، إذ أن طبيعة البيئة الصحراوية تجبر سكانها على العيش في حياة قاسية يعانون خلالها من الحر والجفاف وقلة الماء والكأ وعدم الاستقرار في مكان واحد ، مما اضطرهم إلى التنقل والترحال عبر المساحات الشاسعة المكسوة بالرمال المتحركة الخطيرة بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم وخيامهم المتواضعة وحيواناتهم من إبل وضأن وغيرها من الحيوانات بحثا عن غدران وآبار الماء ومساقط ومنابت العشب والكأ .

* أستاذ محاضر - قسم التاريخ - كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية - الجامعة الافريقية العقيد "أحمد ادراية" - ادرار - الجزائر

ولما كانت مناطق العرب الخضراء محدودة فقد كانت تتنازع فيما بينها على الدوام للفوز بهذه المنطقة أو تلك ، فتنشأ بينها سلسلة من العداوات تنجم عنها سلسلة من الثأرات.

ونحن نعرف أنه كلما كان الناس في حاجة إلى عناصر الحياة الأساسية كلما ازداد التنافر بينهم، وكلما توفرت لديهم ظروف الحياة الكريمة كلما قلت المنازعات والخلافات والعداوة وضعف عنصر الشر فيهم فتغلب عليهم الخير وانتشر الأمن والاستقرار والوئام بينهم.

و انطلاقاً من هذا التصور قامت الحياة القبلية في البادية العربية على أساس التضامن بين أفراد العشيرة أو العشائر ، التي تنتمي إلى قبيلة واحدة حتى تستطيع الصمود أمام القبائل الأخرى التي تنافسها ، بسبب غياب المصلحة المشتركة و الوحدة السياسية بين القبائل.

ويقوم التنظيم الاجتماعي عند البدو و الحضر على حد سواء على نظام القبيلة حسب تطور كل الشعوب البدوية الاغريقية الأوائل و الرومان في بدء عهودهم و التتار و المغول كانوا جميعاً ينقسمون إلى قبائل ، وانعدام الارتباط بأرض معينة لأن الحرية عندهم ترفض كل سلطة مركزية قد تقيد من حريتهم .

وللبداوة في الصحراء قوانين عامة لا تقل شأنًا في وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة في المدن .

ومعظم مظاهر التنظيم القبلي هي مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ثم قد تتخلى عنها الأمة بعد تطورها إلى المرحلة المدنية ، فيصبح تنظيم المجتمع إما على أساس الفرد الحر كما هي الحال عند اليونان أو على أساس العائلة كما نجد ذلك عند الرومان أو على أساس الآله كما كانت في مصر القديمة عند الفراعنة .

القبيلة : نستعمل كلمة " قبيلة " بالمعنى العام الاصطلاحي ، لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوي الذي تفوق على الأقسام الأخرى، فهناك ما هو أكبر وأشمل منها وما هو أصغر منها ، ومن الأمثلة على هذا الترتيب نعتمد التقسيم الآتي :

الشعب : مثل "عدنان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر " ، والعمارة مثل : "قريش" والبطن مثل : "عبد مناف ومخزوم " ، والفخذ مثل : "بنو هاشم وبنو أمية، والفصيل مثل : " بنو طالب " .

وكانت الرابطة القبلية تقوم على الدم والنسب لا على العقيدة والمدنية ، وتظهر العصبية القبلية قوية في أقوالهم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وقد استدلوا على ذلك بقول آخر : " لايسألون آخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهان ؟" .

والقبيلة العربية تشبه القبيلة الكورسيكية في تنظيمها إذ نجد رئيس القبيلة أو شيخها يصل إلى زعامتها إما بالنسب أو بالغناء أو بالشجاعة أو بسداد الرأي . وكانت سلطته مطلقة على أفراد المجتمع القبلي إلا في بعض الأمور مثل أمور الحرب والقضاء ، حيث كان ينظر فيها بالاشتراك مع المجلس القبلي المؤلف من كبار أفراد القبيلة ، ونجد لشيخ القبيلة حقوق الرئاسة .

أما العائلة في القبيلة فيحكمها ربها الذي يعتبر مثل الجندي لايملك سوى بيته المنسوج من الشعر أو الوبر ، وهو ذو سلطة مطلقة على أولاده حتى الوأد وحرمان البعض من الإرث، وله الحق في الخلع والتبرؤ من بعض أولاده ، كما له الحق في الطلاق والزواج متى شاء .

أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم ، إلا بعد حفلة تكريس في مراسم كان يقوم الشيوخ في مجلسهم ، فيقلدون الفتى السيف رمزا لإضافة محارب للقبيلة ، وكذلك الفتيات كن يكرسن بالباسهن دراعة بدل المؤصد .

ولعل هذه الاحتفالات التي كانت تقام للشباب والفتيات كانت ذات طابع ديني ، وكانت القبيلة تحتضن الموالى عن طريق الولاء ، وهناك العبيد الذين قد ينسبون إلى قبيلة ما - إما عن طريق الشراء أو الأسر في الحروب أو لتسديد دين .

أما أهل الحضر المستقرون في الواحات فلم يكن التنظيم الاجتماعي يختلف عن تنظيم الأعراب القديمة سوى أن الملكية عندهم كانت موطدة ، بينما كان المرعى والماء والكلأ مشاع بين جميع أفراد المجتمع البدوي .

المبحث الثاني : العناصر المكونة للقبيلة :

كانت القبيلة العربية تتألف من عناصر كثيرة وهي :

١- الصرحاء : وهم أبناء القبيلة الذين يجرى في عروقهم دمها النقي ، وينحدرون

من الجد الذى تنتسب إليه ، ومن ثمة فهؤلاء هم الذين يسودون القبيلة^(٢) ، ويؤلفون بيوتات الشرف فيها ، وهم دعامتها وكانوا يستجيبون لتلبية نداءاتها والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، وبالمقابل كانت القبيلة توفر لهم حمايتها وتمنحهم حق التصرف ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج عن عاداتها وتقاليدها ، فإذا سلك الفرد فيها سلوكا سيئا يشين إلى سمعة القبيلة ، ويجلب إليها العار نبذته ، وعندئذ قد يلجأ إلى قبيلة أخرى^(٣) .

٢- أبناء القبيلة بالنقلة : لقد كان جائزا أن ينقل رجلا نسبه من قبيلة إلى قبيلة أخرى فيصبح من أفرادها^(٤) .

٣- الاستلحاق : وهو أن يستلحق الإنسان شخصا فيلحقه بنسبه ويجعله فى حمايته ورعايته أى فى عصبته ، وقد يكون الرجل صريحا معروفا بالنسب ، وقد يكون أسيرا أو مولى ، أو عبدا فيسميه مولاه ، وينسبه إليه ، فقد تزوج القبيلة عبدا من عبيدها امرأة من القبيلة فيصبح بمرور الزمن فردا منها ، يحمل نسبها وواحدا من أفرادها وذلك لأنه قد ارتبط برابطة الزواج . أما ابن القبيلة الصريح الذى تزوج زواجا شرعيا أو تجارية من جواريات الخيار ، إما أن يلحق أولاده بنسبه أو لا يفعل ذلك ، وإذا فعل وألحقهم بنسبه أصبحوا يحملون نسب القبيلة^(٥) .

٤- الموالى : لقد وردت كلمة "المولى" بمعنى عديدة أهمها بالنسبة لهذه الدراسة أن المولى : يقصد به العبد أى المملوك ، الذى يمن عليه صاحبه بأن يفك رقبتة فيعتقه ، ويصبح المملوك بذلك مولى لسيده الذى فك رقبتة ، والموالى أنواع ، وجاء فى لسان العرب : "المولى الخليف هو من انضم إليك فعز بعزتك وامتنع بمنعتك ... والمولى المعتق انتسب بنسبك"^(٦) .

والموالى العصبة نوعان :

أ- مولى يرث ويورث : وهم ذروا الأرحام .

ب- مولى لا يرث ولا يورث : وهؤلاء الفئة المعتوقة^(٧) .

وأما موالى عتاقة فهو الرقيق أو العبيد أو الأسير ، الذى فك رقبتة بعتقه فقد يشترى الرجل مملوكا ثم يعتقه .

وكان العرب القدامى يشترطون على الموالى إنجاز عمل معين ، فإن قاموا به على أحسن وجه عتقوهم ومن الموالى : مولى المكاتبه ، وهو أن يشترطاً في عقد البيع أن العقد يكاتب على نفسه بثمان محدد فإذا سعى ودفعه لمالكه أعتقه وأصبح حراً ، والأصل في ولاء المكاتبه أن من أعتق عبداً كان ولاءه له ، فينسب إليه وإذا مات كان وريثه ، وقد لا يتحول الولاء للمولى ، بل لمن يؤدي ثمن المكاتبه مثلاً ، وقد يعتق على ألا ولاء عليه فيحق له عندئذ أن يضع ماله ^(٨) . حيث يشاء ، ومن أسباب العتاقة التدبير وهو أن يعلق المالك عتق مملوكه ، وذلك بعد موته فيقول له : "أنت حر بعد موتى وبذلك فلا يرثه أهله" ^(٩) .

أما مولى العقد فيقال له : " مولى حليف ومولى اصطناع ، ويتم بإتباع رجل إلى رجل آخر ، بعقده أو قبيلة إلى قبيلة أخرى ، وهذا الانتماء انتماء ضعيف إلى انتماء شخص أو قبيلة ضعيفة أو إلى شخص أو قبيلة قوية فيكون التعاضد ومساعدة القوى للضعيف في شتى المجالات ، ومقابل ذلك يقوم المولى بأداء ما اتفق عليه من شروط ، ويتسبب المولى عندئذ إلى سيده الجديد ، ومن الأمثلة على هذا ما حدث ليهود يثرب الذين كانوا في ولاية الأوس والخزرج ، فإذا ما وضع عليهم ضيم لجئوا إلى من انتموا له بالولاء للدفاع عنه .

هكذا فإن الموالى إحدى الفئات الاجتماعية من العتقاء الذين اعتقهم ساداتهم من العبودية وظلوا مرتبطين بهم رابطة الولاء .

وبناء على ما جاء في روايات أهل الأخبار ^(١٠) ، فإن عدد موالى قريش كان كبيراً أو أنهم كانوا يشكلون نسبة كبيرة من مجموع مكة ، وقد أعطت قريش مكانة هؤلاء الموالى تماشياً مع سياستها التي قامت على تنشيط التجارة والاستفادة من جهود هذه العناصر وخبرتها .

والحق لقد أخلص بعض هؤلاء الموالى ساداتهم قريش وقتلوا في صفوف المجتمع أو قريش ضد يثرب ، وأغلب هؤلاء الموالى كانوا ممن ارتبطوا بقريش عن طريق الحلف ^(١١) ، وقد تحصل بعض الموالى في مكة على ثروة طائلة وأسهموا في حياة البلد ، عامة وتمتعوا بمكانة رفيعة وبنفوذ كبيرة في المجتمع المكي مثل : "الأخنش بن عمر الشريف بن وهاب الثقفي" ، الذى أثر على حلفائه من " بنى زهرة " فأقنعهم بالرجوع وعدم المشاركة في موقعة "بدر" عندما اجتمعت قريش على الخروج لقتال المسلمين فرجع بنو زهرة مع بنى الأخنش ^(١٢) .

٥- الداعى : يقال للمستحق داعى وهو منسوب إلى غير أبيه وقد كانت هذه الفئسة موجودة فى المجتمع العربى كإحدى العناصر المكونة للقبيلة ، وحكم الداعى من الناحية القانونية هو حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند العرب القدامى ، إذ كانوا يورثونه كما يورثون الأبناء الأصليين^(١٣).

ويقال للداعى اللصيق وهو مقيم فى الحى وليس من أبناء القبيلة ويقال للداعى المخضرم وهو من لا يعرف أبوه أو أبواه ، ويقال له فى النسب هو من آل فلان ، وينتهى النسب بجـد القبيلة الأكبر ، فىكون هذا الجد محور النسب والعصبة القبلية .

٦- الخلعاء : الخليع أو الطريد هو الفرد الذى تبرأت منه قبيلته نتيجة تمردده على أعرافها أو ارتكابه جريمة ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجها ، وفى ذلك يقول ابن منظور^(١٤) : "الخليع الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أوليائه فيتبرؤون منه ومن خياناته فيقولون : "إنا خلعنا فلان فأخذ أحد بجناياته تجنى عليه ولا تأخذ بجناياته التى يجنيها".

ويتم إعلان الخلع رسمياً على أفراد المجتمع فى المواسم والأسواق العامة وقد يبعثون منادياً لذلك أو يكتبون كتاباً فكان الرجل يأتى بابنه إلى الموسم فيقول : "ألا يأتى قد خلعت ابنى هذا فإن جر لم أضمن وإن جر عليه لن أطلب" فلا يؤخذ الأب بجريمة ابنه الخليع ، ومن ثم تتخلى عنه قبيلته وتبرأ من أعماله وتسقط حقوقه عليها ويحرم عليه البقاء فيها فيذهب ملتجئاً إلى غيرها ، وأما إذا كانت شروره كثيرة فنادراً ما يلقي مجيراً له ، ويصبح الأمر خطيراً بالنسبة لوضعيته الاجتماعية ، إذ يجد نفسه فى موقف حرج ووضع شاذ^(١٥) ، ومن الأمثلة على ذلك : أن قبيلة خزاعة خلعت "قيس ابن الحداية" وأعلنت ذلك بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها إياه^(١٦).

وكان بعض الخلعاء يلجئون إلى من يحميهم ويعيشون فى جواره .

ومن أسباب الخلع ما يأتى :

١- إذا قتل فرد "ما" شخصاً آخر من قبيلته ، ورفض ذوو المقتول قبول الدية ، عندئذ تصبح القبيلة المتمثلة بشخص زعيمها مضطرة إلى قتل القاتل . أو خلعه حفاظاً على وحدة القبيلة .

٢- لما كانت القبيلة مسؤولة عن أعمال أفرادها فإنها قد تضطر أحيانا إلى خلع من يسئ منهم إليها بكثرة اعتدائه وجرائره ضد القبائل الأخرى التي تحملها أفعاله على شن الغارات الثأرية ضدها مفضلة أن تضحي بفرد بدلا من جماعات منها ، وتخلع القبيلة كل من يلحق بها العار بأعماله اللاأخلاقية المشينة التي تعتبرها وصمة عار في جبينها .

وقد يتكتل الخلعاء فيؤلفون عصاة تقطع الطرق وتعيث في الأرض فسادا تسلب وتنهب وتلقى الرعب في النفوس ، وقد شاعت تسمية هؤلاء باسم الصعاليك الذين سوف نتطرق إليهم بالتفصيل في دراسة الطبقات الاجتماعية عند العرب .

وتذكر الروايات أن هؤلاء قد اشتهروا الخلعاء بالشجاعة والإقدام وعدم المبالاة بحيث كان بعض الرؤساء والزعماء يستخدمونهم للفتك بخصومهم .

وقد انضم قسم منهم إلى الشاعر " امرؤ القيس الكندي " عندما فُض مع قبيلة بكر للأخذ بثأر أخيه من قبيلة أسد ، كما كانت هذه الفئة قد تخلصت عن العصبية القبلية لاتفرق بين قبيلتها وبقية القبائل الأخرى من حيث الإغارة والسطو على الأموال .

وكانت تتركز في المناطق المجاورة للأسواق التجارية وفي طرق القوافل فيعملون على السلب والنهب لها^(١٧) ، ومنهم أبو الصعاليك العرب "عروة بن الورد" و " الشنفرى" ، و "تأبط شرا" ، السليك بن السليكة .

وهكذا فإن الخلع في المجتمع القديم أشبه ما يكون بإسقاط الجنسية عن المواطن في عصرنا الحالي ، فهذه أهم العناصر المشكلة للقبيلة .

جد القبيلة : كان لكل قبيلة جد تنتمي إليه وتفاخر به ، فقد يكون هذا الجد إنسانا حقيقيا وقد يكون حلفا قد تكون من عدة قبائل مثل قبيلة تنوخ^(١٨) ، وقد يكون اسم موضع أقامت فيه القبيلة ونسبت إليه مثل " غسان" ، وقد يكون اسم حيوان أو نبات ... الخ ، وهذا شيء مألوف وجد عند الشعوب القديمة وليست بدعة ابتدعها العرب وحدهم والذي وصلنا من الاخباريين عن أزمنة أجداد القبائل فيه أخطاء وأوهام ، وفي ذلك يقول المستشرق " بلاشير"^(١٩) Placher : " إن طريقة النسابين بالنسبة للأرهاد هي طريقة إيجابية مقبولة ، أما بالنسبة للقبائل والأحلاف فلا تستند إلى أسس صحيحة ، ويعود السبب في ذلك إلى اسباب تحالف للقبائل وتكتلها ، هذه الأسباب ترجع في أساسها إلى المنافع السياسية والمصالح

الخاصة ، إذن فهي تتغير بتغير تلك المصالح فتتولد بذلك أحلاف موجودة وتموت أحلاف قديمة ، وتظهر قبائل كبيرة ويموت غيرها ، ولهذا التغير فعل قوى في تكوين الأسباب وفي نشوئها إذ تبدل وتتغير الأنساب تبعاً لذلك التغير من ثم لا يمكن الاعتماد على الأنساب الكبرى ، التي دونها علماء النسب وخصوصاً في مجموعات وشجروها حفدة وآباء وأجداد".

والمصالح السياسية للقبائل لا تقيم وزناً للأخوة والنسب ، فإذا ما اختلفت المصلحة يحصل أو يتم الانفصال ولا تجدد القبيلة عند ذلك من غضاضة في ترك قبيلة وإحياء تحالف جديد مع قبيلة أخرى غريبة عنها في النسب ، فقبيلة "بنى عبس" مثلاً تحالفت مع قبيلة "بنى عامر" في حرب البسوس ضد قبيلة "ذبيان" وهي أخت عبس ، وتحالفت ذبيان مع قبيلة تميم على عبس^(٢٠) ، وهكذا وقعت حروب بين أبناء القبيلتين الأختين بسبب اصطدام المصالح .

المبحث الثالث : شيخ القبيلة : تناول في هذا المبحث الرئيس الأعلى للقبيلة ومهامه في إدارة شؤونها والصفات الواجب توفرها فيه ومكانته الأدبية بين أفراد القبيلة .

لقد كانت رابطة الدم والنسب تهيمن على العلاقات القبلية والعصبية المتطرفة والمتجددة تحكم فيها ، فهاتان القاعدتان الأساسيتان أساس الترابط الاجتماعي القبلي عند العرب فكانتا تسيطران على التنظيم السياسي للقبيلة على الصعيدين الداخلي والخارجي فعلى المستوى الخارجي : يحددان طبيعة العلاقات مع سائر القبائل المتواجدة في شبه الجزيرة العربية وخارجها .

وفي الداخل : يكفلان عدم التنازع والتناحر ، لذلك كانت الحاجة ملحة فرضتها ضرورة الحياة الاجتماعية والسياسة وهي ردع الاعتداء ومنع وقوعه وحسن معالجته إذا وقع سواء بالمصالحة أو بمبدأ الأخذ بالثأر وهي ضرورة لولاها لأصبحت البادية العربية دار حرب دائماً ومواطني خلاف قائم ، وانسجاماً مع التوجه وتلبية الحاجات ومصالح المجتمع القبلي ، كان اللجوء إلى قوة تنتقم للفرد من عدوه أو تلزمه على دفع الدية اللازمة المقررة عليه^(٢١) .

ومن هنا كان اللجوء إلى شخص يعمل على إحقاق الحق والفصل في الخصومات وفقاً للتقاليد المراعية للإجراء ، فظهر شيوخ القبائل ، حيث كانت ضرورة العيش تفرض على المرء الخضوع إلى المبادئ والتقاليد القبلية ووضع حد للعدوان غير أن هذه المبادئ مهما بلغ الالتزام بها لا بد من تواجد قوة ذات سلطة تعمل على تنفيذها ، هذه القوة السلطوية يخاف

الجميع قوتها ووطئها ويلتمسون منها تفسيراً لرغبة الظواهر المسماة لديهم بالقوة الخفية أو المجهولة ، وهى ما وقف حائراً وخائفاً منه ولم يجد سبيل خلاص له إلا بشخص قوى فكان الشيخ ، فمن هو الشيخ ؟ هل هو الملك الحاكم ؟ الواقع أن العرب لم يعرفوا هذه التسمية التى كانت تطلق على الحاكم فى كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ، أو سائر الدول المعروفة آنذاك وانتصرت تسمية المالك عندهم على الشعراء والخطباء ، فالشيخ إذن حسب مفهومهم هو الرئيس الأعلى للقبيلة ، هو سيد القوم المقدم على جميع أفرادهم لما يملك من وقار الشيخوخة وتقدم السن ولما يتحلى به من صفات الزعامة والقيادة .

ولعل فى طليعة هذه الصفات انتماءه إلى عصبية تؤديه وتمنعه إضافة إلى صفات شخصية يجب توافرها فيه كالجرأة والقوة والحزم وهى صفات يستحيل على ابن الصحراء فرض سلطانه وسلطته على سواه ما لم يكن متحلياً بها على أن لا يعنى أن فرض السلطان والسلطة قد أدى إلى الرهبة والخوف من قدرات الشيخ على نحو ارتفع بهم إلى مستوى فوق البشر مستوى الآلهة فى هذا المجتمع البدائى .

وهكذا لم تعرف شبه الجزيرة العربية نظرية تأليه الحاكم كما كان شأن مصر القديمة يوم قدست الفرعون الحاكم المستبد وأطاعه الناس خوفاً من بطشه وطغيانه فكان مضرب مثل للظلم والطغيان كما جاء فى القرآن الكريم أو كما عرفته الهند القديمة أيام حكم أبرها وشرية مانو^(٢٢) .

إن ما نريد تأكيده هنا نظرية تأليه الحاكم لم تعرفها شبه الجزيرة العربية كما عرفتھا سائر الشعوب البدائية حيث لم يقتصر الأمر على مصر القديمة أو الهند بل تعدت معرفة هذه النظرية إلى شعوب متعددة كالصين وبلاد ما بين النهرين، عندما كانت الدولة البابلية والآشورية والكلدانية ومن قبلها السومرية والأكاديّة وكلها شعوب عرفت تأليه الحاكم^(٢٣) .

نخلص إلى القول أن ثمة ضرورات أوجدت على رأس النظام القبلى زعيم القبيلة أو رئيسها وهو ليس بملك ولا ياله وأن الأساس الذى تبنى عليه سلطته هى التقاليد القبلية من عصبية وتقديم خدمات ومنافع متعلقة بالأوضاع المعيشية للقبيلة وأفرادها بجانب صفات شخصية يقتضى توافرها ليتمكن بها من الغلبة على منافسيه والسيطرة على الجميع .

إنها سلطة نظام الحكم الأبوي (Regime Patriarcal) القائم على سلطة الأب على جميع أفراد الأسرة ، هذه السلطة يبقى متمتعا بها ما دام قويا قادرا على ضمان ولاء القبيلة له ، أما إذا ضعف وعجز ، اجتمع الأعيان والرؤساء ، سواء كانوا من أفخاذ القبيلة أو من بطونها^(٢٤) ، لاختيار خلفا له ، وليس ثمة مانع أن يكون ابن هذا الشيخ إذا توفرت فيه الشروط التي أشرنا إليها سابقا . غير أن تحولا قد طرأ على هذه السلطة في أواخر هذه المرحلة التاريخية ، "فبعد أن كانت مستمدة من التقاليد القبلية وحدها أصبحت تستمد بدرجة أهم من المكانة الاقتصادية التي يستطيع بها الغلبة على منافسيه والسيطرة على أفراد القبيلة بتقديم المنافع المادية والخدمات المعيشية ، ومن هنا ازداد اهتمام رؤساء القبائل بممارسة كل ما يؤدي إلى تكديس الأموال وإنماء الثروات"^(٢٥) .

صفات شيخ القبيلة : لقد اعتمد العرب في اختيارهم لشيخ القبيلة على مواصفات يجب توفرها في شخصه ، فكان يجب على من يريد أن يكون شيخا أو سيدا للقبيلة أن تتكامل فيه ست خصال : الكرم والنجدة والحلم والصبر والتواضع والبيان^(٢٦) .

وقد سئل قيس بن عاصم : "بما سودك قومك ؟ " فأجاب : " يبذل الندى وكف الأذى ونصرة المولى وتعجيل القرى" .

ويجب أن يتحلى بأخلاق حميدة وسجايا طيبة تجعل الناس يعترفون بسيادته عليهم .

وليست قيادة القبيلة بأمر سهل عليهم ، لاسيما إذا كانت قبيلة كبيرة ذات عشائر وارهاط منتشرة ، وإن يكون شريفا في أفعاله حلما كريما يفض نظره عن أعمال الحمقى والجهلة ويتجاهل السفلة والسفهاء الجاهلين ، فلا يغضب ولا يثور وإن يقضم غيظه جاء في المثل : "احلم تسد" ، وأن يحترم الناس مهما كانت منزلتهم وأن يؤلف بينهم ويكسب محبتهم ويجعل بيته بيتا للجميع ومضيفا لكل من يفد إليه من كبير أو صغير أو حقير وأن يفتح قلبه للجميع^(٢٧) .

وعلى الرئيس أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو وأن يكون شجاعا لا يهاب الموت حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب لأنه رمز القبيلة ورمز النصر وباعث الهمم في نفوس ابنائه وهو أب القبيلة والرئيس ، وهو روح القبيلة وشعرها وهو من أصحاب الإرادة القوية .

وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين الأفراد ، حيث أن العرب كانت ترفض مبدأ الوراثة في الرئاسة ، ولا بد للرئيس من عصبية داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينه على تنفيذ مسؤولياته ، ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية - كما ذكرنا من قبل حسب رأى العلامة ابن خلدون - وعلى الحسب والشرف وعلى نقاوة الدم أيضا ، ولهذا لا تتم الرئاسة إلا للأصول ويحرم منها الموالى لعدم نقاوة الدم .

مجلس القبيلة : كان لكل قبيلة عند العرب القدامى مجلساً هو بمثابة "الندوة" عندهم ، يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعاً وليس هناك وقت محدد لاجتماع المجلس، ولكن من المألوف أن يجتمع القوم يوماً عند المساء أو ينادى في الناس للاجتماع إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك .

فالمجلس في المجتمع البدوى كالبرلمان في عصرنا الحاضر الحديث والذي يدرس في المجلس يتعلق غالباً بمختلف الشؤون الخاصة ، فيبحثون الأمور التي تخص القبيلة ولهم الحق في إبداء وجهة نظرهم ، في الغالب ما كان يسود أقوىاء الرأى والتفكير ، الذين يمتلكون المنطق وقوة الحجة في المناقشات ، وكان هذا مدعاة لهم للافتخار والاعتزاز .

وفي هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم ويظهر الخطباء مواهبهم ، ويسمع الجميع الأحاديث الطريفة الطيبة فيصبح المجلس ندوة أدبية يتمرن فيها الأفراد على قوة البيان ، وتكشف أثناء ذلك المواهب الأدبية والسياسية ، والقرارات كانت تتخذ بعد المناقشات والمحاورات بأصوات الأغلبية وغالباً ما كانت ترفض المعارضة هذه القرارات فلا تلزم بها، لأنه ليس هناك قانون يلزمها بذلك ، فإن اقتنعت بها استجابت لرأى الجماعة وإن لم تقتنع بها أبتطبيقها .

القبيلة والأرض : إن الأرض التي تزل بها القبيلة والتي تعيش عليها تعتبرها ملكاً لها ، تنتشر فيها بطونها وعشائرها فلا تسمح لغريب بالتزول بها أو حتى المرور فيها إلا بموافقتها ، وكل بطن منها يختص بحماية ناحية من الأرض واعتبرها أرضاً خاصة به وتسمى الأرض التي تحمل بها القبيلة منزلاً لها ، ومنازل لأبنائها ، حيث يتزولون بها ويضربون خيامهم فتصبح الأرض وطناً لهم ودار إقامة ما دامت تقيم عليها ، لذلك يعبر عن الأرض هذه بمصطلح "بيوت القبيلة" أو بيوت العشيرة".

تمتد أرض القبيلة إلى المواضع التي تصل بيوتها إليها فما يقع إلى الداخل فهو من مواطن القبيلة وما وقع خارج نفوذ القبيلة خرج عن موطنها .

وكانت تعين الحدود بالظواهر الطبيعية البارزة مثل أودية ، أو رمال أو غير ذلك ، ونظرا لعدم إمكانية تثبيت مثل هذه الحدود صارت سببا من أسباب النزاع المستمر بين القبائل .

أما مواضع الماء في القبيلة فقد تتفق البطون فيما بينها على حقوق السقى الذي يؤدي إلى نزاع في أكثر الأحيان ، إذا لم تراعى فيه هذه الحقوق ولا سيما في أيام القحط والنجاس المطر ، حيث المياه العامة ، أما المياه الخاصة للسادة والرؤساء فلا يجوز الاستفادة منها إلا بأذن من أصحابها .

ولكل قبيلة حق حماية فإذا أراد رجل غريب اجتياز أرضها فلا بد من أن يكون في حماية إنسان منها ، وإذا كان المجتاز جماعة أو قافلة تريد المرور بأرض القبيلة بغية الوصول إلى هدف فعلية أخذ إذن (جواز مرور) وإلا تعرضت للمنع والقتل إذ كان لابد للتجار من إرضاء سادات القبائل للسماح لهم بدفع حق المرور الذي عرف - بالإتاوة .

الهوامش

- ١- الزبيدي ، ج ٣ ، مادة "بدو" ص ٥٣٤ .
- ٢- عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٥٠ ؛ توفيق برو ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .
- ٣- نفسه .
- ٤- توفيق برو ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .
- ٥- الأصفهاني : المصدر السابق ، م ١٧ ، ص ٩٧ ؛ عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
- ٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، م ٢٠ ، ص ٣٢٣ .
- ٧- الطبري : تفسير القرآن المسمى جامع البيان ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ج ٥ ، دار المعارف ، القاهرة . ١٣٧٤ - ١٣٧٩ هـ ، ص ٣٣ .
- ٨- الزبيدي ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .
- ٩- المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .
- ١٠- ابن هشام ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٧-٣٥٥ ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، تحقيق : الأستاذين إحسان عباس وناصر الدين الأسد ، مراجعة الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١١٤-١٣٣ .
- ١١- ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن حزم : جوامع السيرة ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
- ١٢- ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .
- ١٣- أحمد إبراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ٣١-٣٢ .
- ١٤- الأصفهاني ، المصدر السابق ، م ١٣ ، ص ١٣٧-١٣٨ .
- ١٥- الأصفهاني : المصدر نفسه ، م ١٧ ، ص ٩٤ .
- ١٦- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ٩ ، ص ٤٩ .
- ١٧- أحمد إبراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ٣١-٣٦ .
- ١٨- الزبيدي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .
- ١٩- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) : ترجمة إبراهيم الكيلاني ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، د.ت ، ص ٢٥ .
- ٢٠- نفسه .
- ٢١- حسن حليبي ندوات حول نظرية الدولة في الفقهين الوضعي والديني ، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الجامعية (١٩٨٧+١٩٨٨) ، ص ٧٢ .
- ٢٢- حسن حليبي ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

- ٢٣- المرجع نفسه ، ص ٧٤ ، يراجع بهذا الخصوص أيضا : "النظم السياسية" للدكتور "ثروت بدوى"
المرجع نفسه ، ص ٢١ .
- ٢٤- الفخذ أفعاد : هى الرجل والطن : أهل الرجل وخاصته ، المنجد فى اللغة والإعلام ، المرجع السابق.
- ٢٥- حس مروة . "التراعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" ، ج ١ ، دار الفارابى ، بيروت ،
١٩٧٨ ، ص ٢٥ .
- ٢٦- ابن سعد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٠ .
- ٢٧- لا منس : مجلة المشرق ، عدد ٢ ، سنة ١٩٣٢ ، ص ١١٠ .

أ.د. محمد بركات البيلي *

بعض ملامح القرية في مصر الإسلامية

القرية في اللغة هي مصر جامع للمساكن والدور والضياع وتقع في الريف الذي هو ما قارب الماء أو حيث تكون الخضرة والمياه^(١) أو هي كل مكان متصل الأبنية يتخذها الناس قراراً، ومن ثم فاسم القرية في دلالاته التاريخية لا يقتصر في العصر الإسلامي على القرية بمفهومها الحالي ولكنه كان يطلق على القرية والمدينة معاً^(٢). ومن ثم فكم من ناحية ذكرها بعض المؤرخين والبلدانيين على أنها قرى وذكرها البعض الآخر منهم على أنها مدن دون أن يعنى ذلك نمواً عمرانياً في الأولى أو تدهوراً في الأخرى.

ولقد كانت مصر الإسلامية مكتظة بالقرى التي كانت - على حد قول الاصطخرى - "على حافات النيل منظومة متكاثفة"^(٣). فأشاد بها الجغرافيون والرحالة حتى أن الجغرافي أبا عبيد البكري - على سبيل المثال - يعد ضفتي النيل من الفسطاط إلى رشيد من أعجب متزهات الدنيا^(٤). ورأى الرحالة ابن جبير في هذه المنطقة نفسها قرى متراصة على ضفتي النيل يمنة ويسرة لا تحصى كثرة ووجد العمارة متصلة والقرى منتظمة على طول طريق رحلته بمصر^(٥) أما ابن فضل الله العمري فقد رأى "بر مصر ريف ممتد بين حاجزين وعقد منظوم من القرى"^(٦).

وقد بلغ عدد القرى في مصر الإسلامية عند بداية القرن الثاني الهجري مبلغاً عظيماً فقد قيل أنها أحصيت في ولاية الوليد بن رفاعه - الذي تولى على مصر سنة ١٠٩هـ - ٧٢٧م

* أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - جامعة القاهرة

فبلغت أكثر من عشرة آلاف قرية^(٧) لكن هذا العدد - إذا صح - تناقص تناقصاً جسيماً في القرون التالية حتى أن قرى مصر في العصر الأخشيدي (٣٢٣-٣٥٨هـ - ٩٣٥ - ٩٦٩م) لم تزد إلا قليلاً عن ربع هذا العدد الذى بلغته في ولاية الوليد بن رفاعه، فقد نقل عدد من المؤرخين عن القضاعى أنه وقف على جريدة بخط الكاتب أبى عيسى بقطر بن شفا متولى خراج مصر للدولة الأخشيدية جاء فيها أن مجمل قرى مصر حتى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م بلغ ألفين وثلاثمائة وخمسة وتسعين قرية منها تسعمائة وست وخمسون قرية بالصعيد وألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية بمصر السفلى^(٨) ويبدو أن هذا العدد ظل ثابتاً لم ينقص في العصر الفاطمى الأول إذ كان هو نفس عدد القرى الذى نقله المقرئى^(٩) عن المسيحي الذى توفى سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٨م^(١٠)، لكن عدد القرى في مصر الإسلامية أخذ في التناقص مرة أخرى حتى أن المؤتمن أبا المكارم سعد الله صاحب كتاب "الكنائس والأديرة" قدر عدد القرى في مصر في القرن السادس الهجرى بنحو ألفين ومائة وست وثمانين قرية^(١١) أى أنها نقصت في غضون قرن واحد بمقدار مائتين وتسع قرى ثم تناقصت في القرن التالى وحتى نهاية القرن السابع الهجرى إلى ألفين واحدى وسبعين قرية^(١٢) بمقدار نقص مائة وخمس عشرة قرية أخرى.

ولاشك أن تناقص أعداد القرى في مصر الإسلامية كان نتيجة لخراب الكثير منها^(١٣) وقد أرجع ابن ظهيرة خراب ما خرب منها إلى "الظلم وخراب الأرض"^(١٤) أى أنه أرجع خراب تلك القرى إلى عوامل طبيعية وبشرية، ولعل أهم العوامل الطبيعية التى تسببت في خراب قرى مصر الإسلامية هو انقطاع جريان الماء إليها فتفقد بذلك أساس حياتها وتصبح أثراً بعد عين^(١٥) ومن ثم كان اهتمام المصريين كبيراً بتطهير المجارى المائية^(١٦) لتمكين الماء من الوصول إلى كل النواحي، من ذلك - على سبيل المثال - ما روى عن تطهير مجرى خليج القاهرة وتجديد حفره في سنة ٥٠٢هـ - "بأبقار البساتين التى عليه فيحفر بأبقار كل بستان ما يحاذيه فإذا انتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك وأقيم له وال مفرد بجاميكية ومنع الناس أن يطرحوا فيه شئاً"^(١٧).

أما العوامل البشرية التى تسببت في خراب قرى مصر الإسلامية فمنها الظلم - على حد قول ابن ظهيرة ويعنى إرهاب أهل القرى بالمغارم التى تثقل كاهلهم مما يدفعهم إلى هجرة مزارعهم وقراهم، فعلى الرغم من ضبط الإدارة المالية في مصر الإسلامية للجباية وعدم مغالاتها في تقديرها في أغلب الأحيان بل كانت تعهد إلى موازيت القرى ورؤسائها بتقدير ما

على قراهم من ضرائب وتلزمهم بحسن تقدير هذه الضرائب دون زيادة ولا نقصان على نحو ما يستدل عليه من أوراق البردى، وكانت الإدارة المالية لا تتعجل السداد في حالة المسغبة وإنما تؤخر السداد إلى حين ميسرة حتى أن قرّة بن شريك وإلى مصر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٩٠-٩٦هـ) كتب في سنة ٩١هـ إلى أهالي كل من قرية شبرا بسيرو وقرية شبرا أجيّة وقرية هردس أبيرميوس وثلاثهن من قرى كورة أشقوة بما عليهم من متأخرات جزية سنة ٨٨هـ لكن ذلك لم يمنع بعض الجساطيل أو الجبابة من ظلم القرويين ظلما قد يدفع بعضهم إلى الفرار من قراهم مثلما فر مزارع من قرية ذات الساحل من ظلم الجابي ابن دشومة الذي أفقره بعد غنى فقر لا يلوى على شئ فلقية أحمد بن طولون مصادفة وعرف شكايته فأنصفه وأمر له بما يمكنه من عمارة أرضه^(١٨)، وكثيراً ما ثار المزارعون بسبب ظلم الجبابة مثل ثورة أهل الخوف الشرقي وبطن الريف مراراً لأسباب خراجية^(١٩) لاسيما الثورة العنيفة التي اندلعت في خلافة المأمون سنة ٢١٥هـ ويبدو أنه فطن إلى أسبابها فعمر المقياس^(٢٠) الذي كان أساساً لتقدير الخراج.

ومن العوامل البشرية لخراب القرى في مصر الإسلامية نشأة قرى بديلة تحل محل القرى القائمة فيقبل الناس على سكنى القرية الناشئة ويهجرون القرية القائمة فتندثر مثل قرية العباسية التي نشأت في العصر الطولوني وزاد عمرانها حتى أصبحت بلدة طيبة كثيرة المياه والأشجار ومتّرها من متّرات مصر^(٢١) وظلت متّرها سلطانياً حتى العصر المماليكي إلى أن بنى السلطان الظاهر بيبرس قرية بديلة أسماها الظاهرية وأنشأ بها جامعاً بخطبة سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٢م "فمن حينئذ تلاشى أمر العباسية"^(٢٢).

ومن العوامل التي تسببت أيضاً في خراب القرى في مصر الإسلامية ما نزل بها من الشدائد الاقتصادية خاصة العظمى منها - مثل الشدة المستنصرية - والتي كانت تنجلي عن غلاء ووباء كبير وتؤثر على القرى والمدن على حد سواء فتخربها وتهلك سكانها حتى أن عبد اللطيف البغدادي يذكر عن نتائج إحدى هذه الشدائد التي نزلت بمصر عند نهاية القرن السادس الهجري أن "القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تفر عليها فتراها دمنه وربما وجد فيها - أناس - وربما لم يوجد فيها"^(٢٣). وإذا عرفنا أن مصر قد شهدت منذ الشدة المستنصرية عند نهاية العصر الفاطمي الأول وحتى نهاية القرن السادس الهجري نوبات متلاحقة من الشدائد الاقتصادية والغلاء والوباء فلا عجب أن يتناقص عدد القرى المصرية

في هذه الفترة على النحو الذي انتهى إليه عددها الذي سجله المؤتمن أبو الكارم صاحب كتاب تاريخ الكنائس والأديرة.

وقد فرضت طبيعة مصر وظروفها الجغرافية واعتمادها على نهر النيل كشریان رئيسي للحياة أن يكون نهر النيل محور تركز القرى المصرية من ناحية وعاملاً حاكماً لمواضع ببناء هذه القرى من ناحية أخرى فنظراً لفيضان النيل وتهديده للقرى "فقد شيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلّول حتى لا تغرق"^(٢٤) فإذا "فاض الماء وساح وعم الغيطان والبطاح وانظم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل وهي على آكام وربى لا ينتهي إليها الماء ولا يتسلط السيل عليها"^(٢٥)، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وضاف القوارب وزوارقه.

وفضلاً عن الروابي والآكام والتلال الطبيعية فقد كانت بعض القرى تقوم على بعض الكوم الصناعية أو تقوم على ما علا من ضفة النهر إذا وفر لها الموضع أماناً من خطر تهديد الفيضان لها^(٢٦).

وكانت القرى في مصر الإسلامية متفاوتة في عمراتها من حيث البنيان والسكان، فمن القرى ما اتسع بانياتها حتى ضمت كل قرية منها عدة مرافق كالمسجد الجامع والسوق والحمام ومرافق أخرى على نحو ما ذكر ابن حوقل عن عديد من قرى مصر الإسلامية فقد ذكر - على سبيل المثال - أن قرية شبرو آلاو ضيعة كبيرة ذات ثلاث حارات كبار (شوارع) كثيرة الأهل غزيرة السكان وبها حمام وجامع وقاضى وعامل ولها كورة جليلة واسعة"^(٢٧) وذكر الإدريسي نحواً من ذلك عن عديد من قرى مصر الإسلامية وأما ذات أسواق ومتاجر ويعقد لبعضها أسواق في أيام معلومة، فيذكر على سبيل المثال - أنه كان لقرية قد قوس سوق يعقد يوم الأربعاء من كل أسبوع ولقرية دميس سوق يعقد يوم السبت وتجارة الثياب والأمتعة بها نافقة"^(٢٨) وقد مر ابن جبير في رحلته بقرية برمة وقال عنها قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق"^(٢٩). وكانت المرافق العامة للقرى المصرية موضع عناية أولى الأمر خاصة دور العبادة فعلى سبيل المثال لما علم الوزير الفاطمي المأمون ابن البطائحى في سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م "أن جزيرة قويسنا ومنية زفتى ليس فيهما جامع فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه فسار وبني جامعاً على شاطئ النيل بمنية زفتى وقرر فيه خطيباً وأماماً ومؤذنين وفرش وأطلق برسمه نظير ما للجوامع"^(٣٠) ولما علم الوزير نفسه "أن

واحاحات البهنسا ليس بها جمعة تقام فأمر ببناء جامع بها ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومه ومؤذنون وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم^(٣١). ولم تقتصر العناية على الجوامع دون غيرها من دور العبادة بل امتدت أيضا إلى الكنائس التي كانت توجد ببعض القرى التي يقطنها نفر من النصارى^(٣٢) فكانت تلك الكنائس موضع اعتبار عند تقدير الخراج وتخصيص للنفقة عليها بعض الأقدنة^(٣٣).

وكان لبعض القرى ذات النشاط المتميز مرافق خاصة تتميز بها عن غيرها من القرى، فعلى سبيل المثال كانت قرية مشتول كثيرة الطواحين^(٣٤) حتى سميت مشتول الطواحين^(٣٥) وكانت قريتا الصافية ودمى جهول المجاورة لها مختصتين بزراعة قصب السكر فكثرت بهما المعاصر ومعامل السكر^(٣٦) أما قرية زفيتة الواقعة على رأس الدلتا قبالة شطونوف - حيث يتشعب النيل ويتفرع عنه عدة خلجان - فقد كان لها مرفأ نيلى كبير ترسو فيه نحو مائة ونيف من مراكب الصيد التي يصطاد بها الحوت^(٣٧) ووجدت بكثير من القرى معامل للفراريج تجرى فيها حضانة الفراريج بالنزبل واتخذ كثير من القرويين من ذلك : صناعة ومعيشة يتجر فيها ويتكسب منها^(٣٨).

أما عن دور القرية وأبنيتها في مصر الإسلامية فقد كانت تبني غالباً من الطين^(٣٩) أو الطوب اللبن^(٤٠) ويصفها ابن فضل الله العمري بأنها "مبنية بالطوب، سود الظاهر، يحف بها نخيل يقل في بعض القرى ويكثر في الأخرى، وكلها على نموذج واحد من رأى واحداً منها فكأنما رآها كلها"^(٤١). وكانت تلك الدور تسقف بأخشاب الجميز والسنت والنبق^(٤٢) ولم تكن جميع تلك الدور تخص الفلاحين وحدهم بل كان بعضها ملكاً لأفراد من ساكنى المدن، وكان بعضهم حريصاً على بقاء داره وتجديد عمارتها مثل الإمام الليث بن سعد الذى كانت له دار بقرية قلقشندة - وهى قرية - فى ريف مصر حسنة المنظر غزيرة الفواكه على ثلاثة فراسخ من القاهرة، وقد بنى الإمام الليث داره هذه ثلاث مرات إذ كان ينيها كلما هدمها وإلى مصر الوليد بن رفاعه عناداً للإمام^(٤٣) بينما كانت ضيعة الامام نفسه بقرية دية - الواقعة بين فوة ورشيد - فكانت تدر عليه دخلاً كبيراً^(٤٤).

كان الاتصال بين قرى مصر الإسلامية فى غير وقت الفيضان سهلاً ميسوراً أما فى شهور الفيضان الأربعة حينما "تصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابي وقد أحاط بها الماء فلا يتوصل إليها إلا فى المراكب"^(٤٥) فينتقل القرويون من قرية لأخرى فى صغار المراكب

وخفاف القوارب^(٤٦) أو يسرون على الجسور الممتدة التي يصرف عليها - إذا خدمت كما ينبغي - ربع الخراج^(٤٧) وقد رأى ناصر خسرو جسراً من الطين ممتداً على طول شاطئ النيل من أول البلاد إلى آخرها^(٤٨) وكان كل جزء من هذا الجسر يسمى باسم الناحية أو القرية التي تشرف عليه^(٤٩).

وتفاوتت أعداد السكان في قرى مصر الإسلامية فكانوا ينقصون في قرية ويزيدون في أخرى تبعاً لحجم القرية وعمرانها وأهميتها، يدل على ذلك تفاوت مقادير الجباية المربوطة على القرى من قرية لأخرى كما جاء في أوراق البردى إذ كان على أهالى قرية شبرا يسرو من جزية سنة ٨٨ هـ - ١٠٤ دينار بينما كان على أهالى شبرا أجييه من جزية نفس السنة ٣٧ دينار وهلم جرا. ويمكن القول إن الحد الأدنى لتعداد سكان أصغر قرية لم ينقص عن ألف وخمسمائة نسمة، يدل على ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن رجال ابن رفاعه والى مصر أحصوا قرى مصر عند بداية القرن الثانى الهجرى "فلم يحصى فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية"^(٥٠)، والرجال المعيسون فى هذا الصدد "من جرت عليه المواسى" حسب تعبير ابن عبد الحكم نفسه^(٥١). فإذا قدرنا أن هؤلاء الذين جرت عليهم المواسى كانوا نحو ثلث سكان القرية وأن الثلثين الآخرين كانوا ممن لا تجب عليهم الجزية من الولدان والنساء، فإن سكان أصغر قرية لن يقل - كما ذكرنا - عن ألف وخمسمائة نسمة، أما الحد الأقصى لسكان القرية فيبدو أنه كان - حسب تقدير عبد اللطيف البغدادى - نحو عشرة آلاف نسمة^(٥٢)، وعلى وجه العموم فقد كانت مصر مكتظة بالسكان حتى أن عمرو بن العاص هبى عن كثرة العيال^(٥٣) وأشار ابن حوقل إلى حصوبة المرأة المصرية حتى أنها ربما ولدت "الولدين والثلاثة والأربعة فى بطن واحد يحمل واحد" وأضاف أنهم يبررون ذلك بأن ماءهم أنيث يريدون ماء النيل وفيه خاصية لذلك على قولهم^(٥٤).

وكان للقرويين فى مصر الإسلامية عادات خاصة بهم منها أنهم كانوا يتجهزون لشهور الفيضان الأربعة التى يحاصر فيها الفيضان قراهم فيقومون بتخزين كافة احتياجاتهم الضرورية اللازمة لحياتهم طيلة هذه الشهور الأربعة "ويخبز كل شخص فى الريف ما يكفيه من الخبز هذه المدة ويقده حتى لا يعفن"^(٥٥)، ويبدو أن هذا الخبز المقدد كان يسمى كعكاً فقد ذكر المقرئى أنه "عند فلاحهم نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها"^(٥٦).

واعتماد القرويون في مصر الإسلامية أن يناموا على أسطح دورهم وقت القيظ^(٥٧) وكان من عادات القرويين في مصر الإسلامية الاغتسال في النهر وكثيراً ما كانت ثيابهم تتعرض للسرقة من قبل المساحين - كما يسميهم النابلسي - الذين كانوا يمشون "على أطراف الشطوط يرتقبون من يتعري ثيابه ويترل الماء ليغتسل فيمشي اللص كأنه مار في شغله ويعبر على ثياب الذي نزل في الماء فيأخذها ويمر كالبرق الخاطف فلا يلحق"^(٥٨) وكانوا في العصر الفاطمي لا يركبون الخيول^(٥٩). بل كان أكثر اعتمادهم على الجمال والحمير، إذ تساعدهم هذه الحيوانات على نقل أثقالهم وعلى عمارة أرضهم فقد كان فلاح قرية ذات الساحل المشار إليه في العصر الطولوني يستعين على عمارة أرضه بحمار عوضه عنه أحمد بن طولون بعشرين ديناراً^(٦٠) وأشار النويري إلى أن القصب كان ينقل من المكسر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير^(٦١) وربما كان عدم ركوب القرويين الخيول في العصر الفاطمي عادة اعتادوها منذ صدر الإسلام في مصر وقت أن كانت غالبية القرويين من أهل الذمة الذين لا تسمح لهم أحكام الذمة بركوب الخيل فاعتادوا على ذلك حتى بعد تحول أكثرهم إلى الإسلام لاسيما وأن غلاء أسعارها لا يتناسب مع قدرة القرويين الشرائية ومستواهم المعيشي المنخفض.

وكان المزارع المقيم بالقرية يسمى فلاحاً قرارياً^(٦٢)، لكن الفلاحين القرارية لم يكونوا وحدهم جل سكان القرى وإنما كان يقيم معهم في القرية أناس آخرون منهم من كان من أصحاب الضياع كمارية القبطية التي كانت تقيم هي وأبنائها بضيعتها بقرية طاء النمل وقامت بضيافة الخليفة المأمون العباسي على أحسن وجه حين مر على قريتها رغم استهانتها^(٦٣) بها وكان يقيم في الضياع والبساتين التي بالقرى عمال يقومون على خدمتها والعمل بها كالوكيل والخولى والعمال والسياس والحرس وغيرهم، ويمدنا ابن مماتي في قوانين الدواوين بالعديد ممن يباشرون أعمالاً داخل القرية كالوقافين الذين يحولون المياه إلى الأراضي التي تحتاج إليها والحراثين الذين يحراثون الأراضي والنجارين الذين يصنعون الآلات الزراعية والمساحين والقصابين الذين يقومون معاً بمسح الأراضي وقياسها والحايير الذي يكتب ما تحتويه الأجران ويمنع المزارعين من التصرف فيها قبل استيفاء ما عليهم^(٦٤) وأغلب الظن أنهم كانوا يسكنون القرية إما سكنى دائمة أو موسمية على الأقل، وكان يسكن بالقرية أيضاً بعض حفظة القرآن وصغار رجال العلم ممن يقومون على خدمة جامع القرية والخطبة فيه وغيرهم.

وإذا كان الفلاحون القرارية يحصلون على دخولهم مما تغله الأرض التي يزرعوها فقد كان عمال الضياع وأجراؤها يحصلون على بعض أجورهم نقداً وعلى بعضها الآخر عينا بجزء من المحصول، وعلى الرغم من إشارة ابن ممتى إلى محاسبة العمال بأيام البطالة^(٦٥) فقد كانت الدخول منخفضة ومستوى معيشة القرويين منخفضاً^(٦٦) ولذلك غلب عليهم سوء التغذية فلم يزد غذاء أهل صعيد مصر كثيراً عن التمر والحلاوة التي يصنعونها من قصب السكر بينما غلب على غذاء أهل أسفل الأرض القلقاس والجلبان، وكان كثير من أهل مصر يأكلون الألبان ومنتجاتها ويأكلون السمك طرياً ومالحاً^(٦٧)؛ ويمدنا النويرى بوصف للطريقة التي كان القرويون يستخدمونها في صيد الأسماك عند هبوط نيل مصر ورجوع الماء من المزارع إلى مجرى النيل إذ كانوا يسدون أفواه الترع وأبواب القناطر التي عليها حتى يتجمع الماء ثم ينصبون شباكاً ويصرفون الماء إليها فيجتمع السمك بتلك الشباك فيخرج منها إلى البر ويجفف على نخاخ (حصر) ثم يملح ليؤكل مالحاً أما ما كان يؤكل منه طرياً بعد قليه فيسمونه الإيسارية^(٦٨).

وعلى الرغم من سوء التغذية التي كانت تجعل القرويين عرضة لكثير من الأمراض والأوبئة فقد كانوا أصبح أبداناً من أهل المدن إذا كان القرويون أكثر حركة ورياضة فتصلب الرياضة - على حد قول المقریزی - أعوادهم وتقويها^(٦٩).

واتسم القرويون بالسذاجة التي يسميها النابلسي "سخف عقل أهل الريف"^(٧٠)، ووصفوا بالمكر الذي كان فيما يبدو وسيلة لتجنب ظلم رجال الإدارة لهم على مر العصور ومع ذلك لم يسلم القرويون من قذح القادحين ومخزية المستهزئين كالشربيني صاحب هز القحوف إذ يقول : الحاصل أن الفلاح على قسمين : قسم ناجي ناحب وقسم خائن خائب فأما الأول فهو صاحب عقل وسياسة وحسن تصرف ورياسة عقل تدين ملازم للصلاة والدين والزرع والغيط تارك للسند حيث الحيط، له على جماعته الحماسة متجنب الرزالة والخساسة، يباشر الزرع ويعف عند الحصيد والقلع ولا يتكل على خولى ولا مرابع ولا يركن لثوار ولا مزارع بل يباشر الأمور كلها ..

وأما القسم الثانى : لا عقل ولا معروف، عريان منتوف ، لا صلاة ولا دين ولا طاعة لرب العالمين ولا ذوق ولا معرفة، فائق للشر والفرقة، بالنهار فى لعب المنقلة وبالليل صاحب القبلة، لا يلازم الغيط، يحب اللطعة جنب الحيط، نافش الشوارب، قليل المكاسب، عويل مهذار، سفلا من فشار، إن دخل فى يده فلوس مزقها على العتورة والتيوس^(٧١).

لكننا نميل إلى القول إن أهل القرى في مصر الإسلامية كانوا يغلب عليهم الميل إلى المصادقة والسكينة وقلما ينجحون إلى التمرد والهيج، إلا أن الأمر لم يخل أحيانا من بعض حالات القلاقل والاضطرابات التي كانت لأسباب خراجية - كما سبق أن ذكرنا - كما تعرضت بعض القرى في مصر الإسلامية لمخاطر أمنية في بعض الأحيان لم تقتصر فقط على دهم المتسلطين لهم وإنما تعرضوا أيضا لاغارات العصابات المسلحة الذين يدعوهم المسيحي النهابة الجواله، ويذكر أن أعدادهم تزايدت في بعض فترات القلاقل والاضطرابات إلى عدة آلاف وعهدت الدولة بالتصدي لهم إلى جماعات من الجند السيارة يقودهم كبار القادة مثل رفق الخادم القائد الفاطمي الملقب "عدة الدولة وعمادها" وقد عهد إليه بملاحقة النهابة الجواله في سنة ٤١٤هـ لكنه عجز عن القضاء عليهم فاستبدل بقائد آخر في سنة ٤١٥هـ هو "سني الدولة عهد التاهرتي" فلم يستطع هو الآخر أن يردع النهابة الجواله بل تمادى خطرهم وامتد من الريف حتى هدد الفسطاط نفسها^(٧٢).

هكذا كانت بعض ملامح القرية في مصر الإسلامية ولعلها تشير إلى أن الموضوع من الأهمية بدرجة تستوجب مزيد من البحث والتقصي.

الهوامش

- (١) انظر لسان العرب عن معنى القرية والريف في مادتيهما.
- (٢) عبد العال الشامي، مدن الدلتا في العصر العربي، رسالة دكتوراه ص ٦.
- (٣) الاصطخري : مسالك الممالك، ص ص ٥٠-٥١.
- (٤) البكري : جغرافية مصر ، تحقيق عبد الله الغنيم ، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٦.
- (٥) ابن جبير : رحلته ص ١٧.
- (٦) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار المجموعة الكمالية ص ٢٣٨.
- (٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٥٨ ؛ وابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١١.
- (٨) المقرئ : خطط جـ ١ ص ١٣٥ ؛ السيوطي، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦.
- وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ص ٤٣ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة مصر.
- (٩) المقرئ : خطط جـ ١ ص ١٣٤.
- (١٠) المقرئ : المقفى الكبير، جـ ٦ ص ١٦٣.
- (١١) شاعت نسبة تاريخ الكنائس والأديرة إلى أبي صالح الأرمني ولكن الصواب أنه للمؤتمن أبي المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود الذي عاش في القرن السادس الهجري / ١٢ م.
- (١٢) عبد العال الشامي : مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين ص ٣٦٦.
- (١٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان، مادة مصر.
- (١٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣.
- (١٥) عبد العال الشامي : المرجع السابق ص ٣٧٦.
- (١٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١.
- (١٧) المقرئ : اتعاظ الخنفا جـ ٣ ص ٤٣.
- (١٨) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ص ١٩٠.
- (١٩) الكندي : ولاية مصر، ص ٧٣ ، المقرئ خطط جـ ١ ص ١٤٥ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨٧، ص ١٣٥، ص ١٤٤.
- (٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٥.

- (٢١) القزويني : آثار البلاد، ص ٢٢٠.
- (٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، ص ٢٣.
- (٢٣) عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ، ص ١٣٧
- (٢٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٩٧ ؛ راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١١٦.
- (٢٥) أبو الصلت أميه، الرسالة المصرية (من نواذر المخطوطات) ص ٢٧.
- (٢٦) عبد العال الشامي : المرجع السابق ص ٣٦٨.
- (٢٧) ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٣٢.
- (٢٨) الادريسي : نزهة المشتاق، جـ ١ ص ٣٣٣-٣٣٤.
- (٢٩) ابن جبير : رحلته، ص ١٧.
- (٣٠) المقرئزي : إتعاظ الخفاء ، جـ ٣ ص ٨٨.
- (٣١) نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٥١٦.
- (٣٢) الإدريسي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٥.
- (٣٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٢ ؛ محمد حمدي المناوي : قمر النيل في المكتبة العربية ص ١٧٨.
- (٣٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.
- (٣٥) ياقوت الحموي : المشترك وضعاً ، ص ١٩٧.
- (٣٦) ابن حوقل : المصدر السابق، ص ١٣٢.
- (٣٧) الادريسي : المصدر السابق جـ ١ ، ص ٣٣٠.
- (٣٨) عبد اللطيف البغدادي : المصدر السابق ص ٨٧.
- (٣٩) المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٩٥.
- (٤٠) راشد البراوي : المرجع السابق، ص ١١٦.
- (٤١) ابن فضل الله العمري . المصدر السابق ص ١٢٣٨ ؛ عبد العال الشامي، المرجع السابق ص ٣٦٥.
- (٤٢) راشد البراوي : المرجع السابق ص ١١٦.
- (٤٣) ياقوت الحموي . معجم البلدان ، مادة مصر ، القلقشندي . صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ١٩٨.

- (٤٤) البكري . المصدر السابق ص ٩٦ .
- (٤٥) المقرئى : خطط، جـ ١ ص ١١١-١١٢ .
- (٤٦) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٩٧ ؛ أبو المحاسن : السجود الزاهرة جـ ١ ص ٣٣ .
- (٤٧) المقرئى : خطط جـ ١ ص ١١٢ .
- (٤٨) ناصر خسرو : سفر نامه، ص ٩٧ .
- (٤٩) ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص
- (٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٥٨ .
- (٥١) نفس المصدر، نفس الصفحة .
- (٥٢) عبد اللطيف البغدادي : المصدر السابق، ص ١٣٨ .
- (٥٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص ١٤٠ .
- (٥٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٠-١٥١ .
- (٥٥) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ٩٧
- (٥٦) المقرئى : خطط، جـ ١ ص ٨١ .
- (٥٧) ابن بطوطة، رحلته ص ٤٧ .
- (٥٨) النابلسى : لمع القوانين المضيه ص ٦٣ .
- (٥٩) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ١٢١ .
- (٦٠) البلوى : المصدر السابق ص ١٩٠ .
- (٦١) النويرى : نهاية الأرب، جـ ٨ ص ٢٦٧ .
- (٦٢) المقرئى : خطط جـ ١ ص ١٥٧ .
- (٦٣) نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤٩ .
- (٦٤) ابن ممتى : قوانين الدواوين ص ٢٧٧ .
- (٦٥) نفس المصدر نفس الصفحة .
- (٦٦) البراوى : المرجع السابق ص ١١٠-١١٥ .

- (٦٧) المقرئى : خطط جـ ١ ص ٨١.
- (٦٨) الوبرى : فهارى الأرب، جـ ٨ ص ٢٦٢.
- (٦٩) المقرئى : خطط، جـ ١، ص ٨١.
- (٧٠) النابلسى : المصدر السابق، ص ٦٣.
- (٧١) هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، ص ٢٠١.
- (٧٢) المسبحى، أخبار مصر، ص .

د . أحمد إبراهيم على

الهجرات العربية الهندية وآثارها الاجتماعية

(القرنين الأول و الثاني الهجريين)

التمهيد:—

العلاقات العربية الهندية :-

العلاقات العربية الهندية قديمة قدم الشعبين ، وقد لعبت الجغرافيا دوراً في تطوير تلك العلاقة علي مر القرون ، وكان للتجار العرب الفضل في ترويج السلع والمنتجات الهندية ، حتى أطلق علي المحيط الهندي قديماً بحر العرب ، و كان الطريق البحري من شبه الجزيرة العربية إلي الهند من أكثر الطرق التجارية استخداماً ، وكثر ذكر موانئه وسبل السير فيه في كتب الرحالة والجغرافيين اليونانيين و العرب وهو يبدأ من ميناء الأبله ، وينتهي عند جزيرة ثار التي تعد الحد الفاصل بين إقليم السند وفارس ، وعلي مسيرة ثماني أيام منها يقع ميناء الديبل ^(١) أهم ميناء هندي في العهد الإسلامي ، ومنه تنطلق السفن إلي ساحل الهند الغربي حيث إقليم الكجرات .

وبرغم طول مسافة السفر البالغة مائة واثنين وسبعين فرسخاً ، إلا أن مناسبة الظروف المناخية ساعدت البحارة علي قطعها بسهولة ويسر فكانت الرحلة من عمان إلي الكجرات تستغرق ثلاثة أشهر ذهاباً و إياباً ^(٢) ، ولم يكن الطريق البحري هو الوحيد الذي ربط العرب بالهند بل كان للطريق البري عبر فارس - خراسان - أهمية لكنها كانت ثقل أو ربما تنعدم أثناء الحروب الطاحنة بين الفرس والروم ، حيث ترتفع الأسعار في شبه الجزيرة العربية

* دكتوراه في التاريخ الاسلامي - كلية دار العلوم جامعة الميا

ويعم الغلاء^(٣) وخصوصاً إذا كانت القوافل قادمة من الصين عبر الهند بما عرف بطريق الحرير .

هذه وقد عرف الجغرافيون والرحالة العرب بلاد الهند جيداً، وكانوا أول من أطلق علي نهر هندهو اسم السند، وعرفت الأراضي الواقعة بين فروع نهر السند بإقليم السند، وأطلقوا علي ما يقع خلفه بلاد الهند ، وكانت مدينة قامهل هي الحد الفاصل بين إقليمي السند والهند^(٤) ، ونتيجة لعمق العلاقات العربية الهندية فقد حاول الإخباريون العرب ربط التاريخ السياسي بين البلدين فزعموا أن أحد ملوك العرب الجنوبيين ويدعي الحارث الرئش غزا الصين والهند وحملت إليه هدايا جلية وعظيمة منهما^(٥) ألا أن الثابت هو أن الحروب العربية الفارسية كانت البداية الحقيقية في ربط التاريخ السياسي العربي بالهند بعدما أخذت جموع من الفرس تلجأ للهند فراراً من وجه الغزاة العرب .

ومن ابرز مظاهر التعاون العربي الهندي هو التبادل التجاري وتعود تلك العلاقات إلى عام ألف وثمانمائة قبل الميلاد حيث لعب عرب حضرموت دور الوكلاء بين تجارة الهند ومصر^(٦) ، ووجد مجموعة من التجار العرب علي ساحل الهند الغربي منذ زمن الاسكندر المقدوني كانوا ينقلون محاصيل الهند إلى مدن الحجاز واليمن والإسكندرية وأشهرها أوراق التنبول وجوز الهند - النار جبل -^(٧) هذا وقد جاءت بعض ألفاظ القرآن الكريم بلغة هندية كانت رائجة في الجزيرة العربية في عهد الرسالة المحمدية مثل كافور ، مسك ، وزنجبيل الذي زاد استعماله نظراً لرائحته الطيبة^(٨) واعتبرت القرفة من اشهر التوابل التي استخدمها العرب بجانب القرنفل^(٩) و الحبهان والفلفل ونبات الصبر^(١٠) .

وكان للعطور الهندية متزلة عظيمة عند العرب واشهرها الكافور والعود الهندي ، بأنواعه القماري ، والصنفي ، والمندلي ، والكلهي^(١١) ، ومن الأخشاب الساج الذي استخدم في صناعة الأبواب والنوافذ والسقوف ، والصندل واستخدم في صناعة السفن منها البارحة و الباتامارس و العويسة والباركات وهي من اشهر السفن العمانية^(١٢) ناهيك عن دور الهند في نشر النباتات في الأراضي العربية . مثل النارجيل ، ولأرز الذي حرف عن كلمة الرز في اللغة التاميلية^(١٣) كذلك القطن وقصب السكر الذي عرفت بعض الدول العربية زراعته مثل العراق ومنها نقل إلى الشام ثم صقلية وقبرص و أسبانيا^(١٤) ، ونقلت أشجار الليمون

من الهند إلى عمان ، و منهما صدرت إلى البصرة والشام ، هذا بخلاف شجر الأترنج وورق التنبول وكان سعر الرطل منه في مصر والمغرب دينار^(١٥).

ومن الحيوانات الهندية التي عرفها العرب الفيل ، وقط الزباد ، والطاووس ، وكلاب الصيد ، والدجاج الهندي الذي عرفه العرب بالدجاج السندي لانه كان يجلب من إقليم السند^(١٦). ومن المعادن الماس و البلور والرصاص و السيوف الهندية التي عرفت بالهند ، والرماح المعروفة بالخطي التي انتشرت صناعة في عمان والبحرين^(١٧) واستوردت الهند من البلدان العربية الخيول والذهب والماس والتمر .

أدي تطور العلاقات التجارية بين الهند والعرب إلى تطور التبادل الثقافي ولعل من أهم أسباب ذلك وجود عدد من أطباء الهند في مدرسة جنديسابور الساسانية تخرج علي يدهم فريق من أطباء العرب أشهرهم الحارث بن كلده الثقفي^(١٨) ، ناهيك عن وجود قواسم مشتركة بين الثقافتين العربية والهندية أبرزها في الدين ، حيث ساد الاعتقاد في البيوت السبع للأصنام المشتركة بين العرب والهند^(١٩) ، و يتضح في الأساطير الأدبية عمق تلك الروابط الثقافية حيث تشير الروايات التاريخية أن سيدنا آدم هبط علي قمة جبل في سيلان سمي بأثر آدم وذلك قبل أن ينتقل إلى مكة ليقابل زوجته حواء التي هبطت علي جبل جده^(٢٠) ، وظل مهبط آدم مزاراً عربياً شهرياً حتى القرن السابع البحري ، بينما اعتقد الوثنيون الهنود أن هذا المكان يحتوي علي قبر سوجو مونيوار كهان مؤسس نظامهم الديني^(٢١).

كان للحكم والأمثال الهندية أثرها في تشكيل فكر الأدباء العرب و يتضح ذلك مما ذكره أبو سعيد عبد الملك بن قريش المعروف بالأصمعي في كتابه ملوك العرب من بني هود وغيرهم عن الوصايا التي دونها للحليفين المأمون ت(٢٠١هـ/٨١٧م) شارحاً كيف صاغها من الأدباء الفرس والهنود ،^(٢٢) ونظم الخليل بن أحمد الفرهدي كتابه العين علي ما يخرج من الخلق و اللهوات وهو ترتيب يري بعض المستشرقين احتمال اقتباسه في ترتيب الأبجدية السنسكريتية ، كما كان الهنود يقدرون الشعر ونظمت كتبهم الدينية شعراً ، وعرفوا التفعيلات ووصفوا أرقاماً للمتحرك والساكن وهي أقدم عهداً من تفعيلات الخليل^(٢٣).

وتأثر العرب بالأدب الهندي فترجمت للعربية أشهر الأعمال السنسكريتية مثل كليلة ودمنة واشتملت الترجمة العربية لها على أربعة عشر ألف بيتاً ، وكتاب بوذاسف و بلوهر وهو المعروف في السنسكريتية باسم بودهي ستوبر وهيتير وهو يحتوي على مجموعة من القصص الخاصة بأحوال الناسك الكبير بوذا ، وأهم تلك الكتب كتاب شاناق الهند وموضوعه آداب الحرب ^(٢٤) وكلها كتب وأعمال تدل على عمق العلاقات الثقافية بين العرب والهند .

تأثرت اللغة العربية نتيجة لانتشار الجاليات الهندية فدخلت عليها مفردات هندية عديدة مثل صندل ، كافور ، قرنفل ، هيل ، زنجبيل ، ليمون ، ومن مفردات الأقمشة شاش ، شيت ، وفوطة ^(٢٥) ، وكلمة بارجة وجمعها بوارج ، ودونج وجمعها دوانج - مركب صغير - وكلمة طوبي المذكورة في القرآن الكريم يقول بعض المفسرين إنها اسم للجنة في بعض لغات الهند ^(٢٦) ، وهناك يد أخرى للهنود على العرب وهي الأعداد التي عرفت بالهندية و نقلت إلى بغداد عام (١٥٧هـ / ٧٧٣م) وقام بشرحها والتعليق عليها بعد ذلك محمد بن موسي الخوارزمي أوائل القرن التاسع الميلادي ، ناهيك عن نظام الفلك وكان أول كتاب ترجم فيه السند هند بواسطة العلامة الفزاري ت (١٥٤هـ / ٧٧٠م) ، وكتب الطب التي كانت معروفة عند العرب مثل استانكر الجامع و سيرك و سندستان وقد ترجم أغلبها في العهد العباسي ^(٢٧)

وانشأ العرب في ساحل مليبار مرا كز طبية في مدينتي بكلم و جاليم وشرعوا في تعلم الأهالي قواعد وأصول الطب الحديث ، ^(٢٨) وانتشرت الثقافة العربية في الهند وأطلق علي بعض المدن أسماء عربية مثل أبي سرور وهي أول مدينة في إقليم مليبار ، وكانت مركزاً عربياً عظيماً حتى القرن السابع الهجري وكان كبير المسلمين بها يعرف بالشيخ جمعه ^(٢٩) ناهيك عن المؤثرات العربية في العمارة والفنون ، والمفردات العربية في الاقتصاد والاجتماع ، أضف لذلك إن اللغة الأردية التي تعد اللغة الأساسية لمسلمي الهند وباكستان يظهر فيها بوضوح مدي تأثير العربية في حروفها ومفرداتها .

أولاً: دواعي الهجرات العربية الهندية في القرنين الأول والثاني الهجريين :-

أدى الصراع العربي في العهد الأموي إلى فرار العديد من أعداء بني أمية إلى الهند منهم بنو سامية بن لؤي ، حيث تغلب الأخوان محمد ومعاوية علي إقليمي السند و مكران عام (٦٥هـ/٦٨٥ م) وظلا كذلك عشر سنوات استقداً خلالها قومهم من عمان ،^(٣٠) وكان يؤازرهم في تلك المرحلة راجا داهر بعد إن نصره علي أعدائه وقدموا له خمسمائة جندي من قومهم ،^(٣١) ونظراً لاتساع نفوذهما فقد كونوا لأنفسهم دويلة عربية صغيرة اعتبرت أحدي أكبر المستوطنات العربية في الهند ، متخذين من جندوارة مقراً لهم^(٣٢).

كان للمهالبة دوراً في تنشيط الهجرات العربية إلى الهند ، ويعزي للمهلب بن أبي صفرة قيامه بغزو الهند مع بني قومه عام (٤٤هـ/٦٦٤ م) فاستوي علي طول المنطقة الممتدة من كابل ، إلى الملتان ، ومن ثم ازداد نفوذ قبائل الأزدي في تلك المنطقة وكان من ولاية الهند منهم روح بني حاتم ، يزيد بن حاتم ، داود بن حاتم ، وعمر بن حفص^(٣٢) ، واشتد نفوذ المهالبة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وأصبحت الهند مأوي وملأذا آمناء لهم فأردوا تقسيمها بين القبائل العربية و يكون للأزد النصيب الأكبر منها^(٣٣).

لا زالت الهند تستقبل أعداداً وفيرة من المهاجرين العرب وكان أكثرهم من قبيلة ربيعة حيث أدى التنافس السياسي بين أحد رجالهم وهو عبد الرحمن بن الأشعث والحجاج بن يوسف الثقفي إلى انفراد الأول بالسيطرة على منطقة كال ثم سجستان ، وامتد نفوذه حتى بلاد الهند بعدما نجح في الانتصار على راجا رتبيل وحتى بعد أن هزمه الحجاج في معركة دير الجماجم عام (٨٢هـ/٧٠١ م) فر باقي رجاله ، واتخذوا من الهند مأوي لهم ،^(٣٤) وهو ما سيفسر لنا لاحقاً سبب هذا التواجد العظيم لقبيلة ربيعة في الهند.

أدى الصراع العباسي العلوي إلى إشعال ثورة العلويين عام (١٤٥هـ/٧٦٣ م) في المدينة والبصرة بقيادة الأخوين محمد بن عبد الله بن الحسن و أخيه إبراهيم فقضي عليهما أبا جعفر المنصور ، وكان ممن نجا من تلك الواقعة عبد الله بن محمد المعروف بالأشتر وهو الذي قاد جماعة من العلويين وهاجر بهم إلى الهند عند وليها عمر بن حفص المعروف بـ هزار مرد - ألف رجل - وكان عدد الشيعة الذين فروا إلى الهند أربعمئة رجل ، وقد أستقر عبد الله وجماعته بالهند ، واتخذ لنفسه السرايري ، وولد له فيها ابنه محمد بن الأشتر ، وذلك قبل أن

يقتله الوالي هشام بن عمرو التغلبي^(٣٥) ، ومن ثم تكونت في الهند جماعة من المهاجرين المؤيدين للشيعة مما يوضح لنا سبب رواج هذا المذهب في الغرب والوسط الهندي.

و إذا كان بعض الخارجين على الحكم الأموي العباسي فر إلى الهند طواعية فإن البعض الآخر اضطر لذلك ممن تعرضوا للنفي مثل المحدث معاوية بن قره المزني الذي نفاه الخليفة عبد الملك بن مروان نظراً لرأيه في شخصية الحجاج بن يوسف ، أما الشاعر أحمد بن أبي نعيم البغدادي فقد نفاه الخليفة المأمون إلى الهند بعدما انشده قائلاً .

لا احسب الجور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس^(٣٦)

وعلى الجانب الآخر فنظراً لحركة الفتوح الإسلامية في الهند فقد زاد عدد السبي الهندي في البلدان العربية ونبع منهم العديد من الشعراء والأدباء والمحدثين أشهرهم الشاعر أبو عطا السندي ، والمحدث ابن معشر نجيح السندي، وابن الأعرابي اللغوي الشهير^(٣٧) ، واشتركت جاليات منهم في خدمة الأسطول الإسلامي ، وجذبت الهند أعداداً من المرتزقة العرب الذين خدموا في الجيش الهندي و خصوصاً في جزيرة سيلان الذين كان أهلها يستغيثون بهم كلما دعت الحاجة لذلك^(٣٨) ، وقد كان للمهاجرين العرب دوراً عظيماً في تلك الجزيرة قبل البعثة الحمديدية وفي العهد الأموي.

تساوي العرب والهنود في الهجرة لأسباب اقتصادية ، حيث عمل الهنود المهاجرون في مجال الصرافة ، وذكر أنه لم يوجد في البصرة صيرافياً إلا وصاحب كيسه سندي ، و أثناء الفتنة بين الإمام على ومعاوية بن أبي سفيان كان على صرافة البصرة مائة وعشرين صيرافياً سندياً من السياجة^(٣٩) ، وقد أدى النظام الطبقي الهندي ذو الأصول الاقتصادية إلى هجرة أعداد همة من المواطنين الهنود إلى الأراضي العربية وخصوصاً من طبقة الويش أو المنبوذين وكان منهم قبائل الزط^(٤٠) ، وقد شكل الزط عماد الجاليات الهندية وسرعان ما كانوا يحصلون على مكانه اجتماعية واقتصادية رفيعة وواحد منهم الشاعر أبو عطاء السندي أحد الشعراء المخضرمين في العهدين الأموي والعباسي ومولي بني أسد^(٤١) وكان نجاح مثل هؤلاء الرجال يلهب حماس الآخرين للقدوم إلى البلدان العربية.

جذبت الهند بثروتها التحار العرب وبدلاً من رحلات الذهاب والعودة استقر عدد منهم فيها وخصوصاً على الساحل الغربي ، وفي مدينة صيمور وجد بها ما يقرب من عشرة آلاف

من البياسرة وهم أبناء التجار العرب الذين تزوجوا من هنديات غير السيرافين من عمان والبصرة وبغداد^(٤٢)، ناهيك عن المجموعة الكبيرة من التجار العرب في جزيرة سيلان وكان خطف نساؤهم على يد القراصنة الهنود سبباً في المواجهة العسكرية بين الأمويين وراجا داهر حاكم إقليم السند^(٤٣).

انتشرت المستوطنات العربية للتجار العرب على ساحل الكجرات وخصوصاً في مواني كنبات ، بهروج ، سومنات و جولكنده ، وكانوا يعاملون آنذاك من جانب حكام أسرة راشراكوتا معاملة حسنة ، ومنحوا امتيازات مالية و تسهيلات تجارية خاصة نظراً للربح الوفير الذي كان يجنيه هؤلاء الحكام منهم^(٤٤) ، ونفس الأمر تكرر مع التجار العرب في مليبار ، وقد أطلق على أبنائهم لقب مابلا - ابن العظيم - وشكلوا لأنفسهم مستوطنات في مناطق ككن و تراونكور^(٤٥)، و حصلوا على أرباح عظيمة خلال تجارتهم في منتجات البلاد واشهرها التوابل والأقمشة والعطور.

كانت الدعوة الإسلامية أحد أسباب استقرار المهاجرين العرب في الهند ، ويذكر أن جيش المهدي الموجه إلى الهند عام (١٥٩هـ / ٧٧٦ م) كان فيه عدد كبير من رجال الدين والحديث منهم احدث الربيع بن صبيح البصري^(٤٦) ، وزادت أعداد الجاليات العربية العامل أفرادها في مجال الدعوة على يد الداعية مالك بن دينار و اخيه شرف بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب الذي زار الهند لهذا السبب ونشر الإسلام على ساحل مليبار ، وقد استقر مالك بن حبيب في مقاطعة كلور وترك بعض أولاده في مقاطعة كولم ، و بنا أكثر من سبع مساجد في مليبار^(٤٧) ، وقد أثر التواجد العربي في سواحل مليبار وسيلان حتى أن أغلب مسلمي هاتين المنطقتين ينتمون لأصول عربية^(٤٨)، أضف إلى ذلك فرار الدعاة الشيعة منذ عام (١٥١هـ / ٧٦٨ م) بقيادة عبد الله بن محمد الأشتر.

ازدادت الهجرات الشيعية للهند في القرن الرابع حيث استوطن الداعية أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن الإمام جعفر الصادق جنوب الجزيرة العربية عام (٣١٣هـ / ٩٢٥ م) ثم انتقل إلى ساحل مليبار ، وعرف بالشيخ عيسى المهاجر، ومنها انتقل أعقابه إلى اندونيسيا ويذكر أن أول أسرة حاكمة هناك كانت علوية يرأسها حاكم لقب بالشيخ ، وفي كمبوديا وصل احد أبنائه ويدعي الحسين الملقب بجمال الدين الأكبر ومن أبنائه إبراهيم الذي تزوج الأميرة باني ولاق من أهل سيام^(٤٩).

وعلي الجانب الهندي أدى اهتمام العباسيين بالعلم والعلماء إلى قدوم جالية هندية كبيرة إلى بغداد من أدباء وعلماء وأطباء وكان أحدهم يحمل معه كتاب السند هند في الفلك وصل به بغداد عام (١٥٦هـ/٧٧٣م)^(٥٠)، ومن اعتنى بهذا الأمر أكثر يحيى بن خالد البرمكي الذي نشأ في كشمير وتلقى تعليمه في الفلك والطب والحكمة فيها^(٥١)، فقام بدعوة كبار الأطباء لبغداد مثل منكه الذي نقل كتاب شاناق الهندي في السموم، وابن دهن الذي عهد إليه بإدارة دار الشفاء، وابن بهله الذي عالج إبراهيم بن صالح عم الرشيد، والطبيب بازيكر وسندباد وقليرقل^(٥٢)، وكان مثل هؤلاء العلماء يحصلون على منزلة اجتماعية رفيعة في المجتمع الإسلامي وخصوصاً بعد إسلامهم فيؤثرون في المجتمع ويتأثرون به.

وبأمر الخلفاء كان بعض كبار العلماء يتوجهون إلى الهند، وقيمون فيها لاكتساب العلوم والمعارف مثل أحمد الحاسب البغدادى الذي أرسله الخليفة المعتصم إلى الهند لهذا الغرض، كما أدى استقرار المهاجرين العرب من قبائل الأزد وربيعه إلى قدوم المثقفين والأدباء العرب إلى حواضر العرب في الهند ومنهم الشاعر مطيع بن إياس الكنانى الذي مدح الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأبي جعفر المنصور ثم رحل إلى الهند ومدح وليها هشام بن عمرو التغلبي، وقد أبكته ابنته حتى يرغب عن الرحيل للهند فقال لها.

اسكتي فقد حززت بالدمع قلبي	طالما حز دمعكـن القلوبا
ودعي أن تقطعي الآن قلبي	وتريني في رحلي تعذيباً
فعسى الله أن يدفع عني	ريب ما تحذرين حتى أعوبا ^(٥٣)

ثانياً : عناصر السكان من المهاجرين العرب والهنود :—

(أ) القبائل العربية في الهند:—

تمركزت قبائل الأزد في منطقة عمان التي تعتبر قاعدة الخليج العربي، وفي نفس الوقت تطل على اخطأ الهندي، أي أنها تقع على الطريق الرئيسي للتجارة العربية الهندية^(٥٤) أما قصبتها فهي مدينة صحار مستودع السلع الهندية. كل ذلك ربط بين قبائل الأزد والحاليات الهندية المتمركزة في الخليج العربي، ومن الأزد كان آل مهلب الذين كان لهم علاقة خاصة

بالهند ، وتولي عدد منهم أمانة الهند، أشهرهم المهلب بن أبي صفرة الذي غز البلاد عام (٤٤هـ/٦٦٤م) ففتح مناطقتي قنديل و لاهور^(٥٥) و انتشرت قبائل الأزدي في خراسان وزحفت منها على الهند بقيادة راشد بن عمرو الحديدي الذي فتح مدينة القيقان ، وتمركز بقواته في إقليم السند^(٥٦) ليصبح لتلك القبيلة مكاناً متميزاً في هذه المنطقة إبان الحقبة الأموية.

مما يدل على مكانة قبيلة الأزدي في السند أن الخليفة سليمان بن عبد الملك اسند الإقليم لواحد منهم وهو سليمان بن حبيب ليتصدى لرجال بني عقيل معتمداً علي بني عمومته، وانتهى الأمر إلى مقتل الفاتح العربي محمد بن القاسم على يد معاوية بن المهلب الأزدي دون أن يحرك ذلك لبني عقيل في الهند ساكناً^(٥٧) ، و تعرض الأزدي عام (١٠٢هـ/٧٢١م) لحنة شديدة عندما اشتد نفوذهم فأرسل إليهم الخليفة يزيد بن عبد الملك حملة عسكرية بقيادة هلال بني أحوز التميمي فقضي عليهم في خراسان، ومن بقي منهم فر إلى السند فاستقبلهم راجا راتيل ، واستعان بهم في تثبيت عرشه والتصدي لمنافسيه^(٥٨) ، وبرغم ذلك ظلت جماعة من قبائل الأزدي متمركزة في مدينة براهما باد وكان يتزعّمهم وداع بن حميد الأزدي^(٥٩).

زاد نفوذ الأزدي في إقليم السند وفي مائة وعشرين عاماً تولى الإقليم خمس ولاية من الأزدي، منهم داود بن يزيد الذي حكم الهند عشرين عاماً، واستعان بهم العباسيون لإعادة سيطرتهم على السند فانتدب الخليفة أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص المعروف بهزار مرد - الألف رجل - مع جماعة من الأزدي لطرد الهواري المتمرد عيينه بن موسي عام (١٤٣هـ/٧٦١م)^(٦٠) ، وآثار التواجد الكثيف للأزدي في السند الزعماء العرب الذين رغبوا في تقسيم البلاد ثلاثة جزء لقيس وآخر لربيعة وثالث لقريش وطرد الأزدي الذين اتحدوا تحت راية المغيرة بن يزيد وحاصروا مدينة المنصورة عشرين يوماً حتى استسلم زعماء العرب^(٦١) ثم قضى المغيرة بن يزيد على بني تميم في الهند وذكر تلك الواقعة الأليمة الشاعر عبد الله الأزدي فقال .

بالسند قتل مغيرة بن يزيد

افني تميماً سعدها ورباً بها

جعلت لهم يوم كيوم ثمود

صعقت عليهم صعقة عتكية

قدنا الجياد من السعراق إليهم مثل القطا مستنة لورود

يحملن من ولد المهلب عصبة خلقت قلوبهم قلوب أسود^(٦٢)

لبنى تميم مآثر في الهند جعلتهم يحتلون مكاناً متميزاً بين المهاجرين العرب برغم قلة عددهم فكان منهم عبد الله بن سويد القشيري وهو أول من غزا الهند، و عمر بن عبيد الله القرشي الذي فتح مدينة أرمائيل وبني مسجداً عظيماً في منطقة خاشك وانزل بها عدداً من المستوطنين العرب^(٦٣)، أما عمارة بن تميم فقد غزا مدينة باميان وعاقب راجا راتيل الذي استقبل بقايا الأزدي، كل ذلك جعل الخليفة المنصور يثق في القائد معبد بن خليل المزني فيوليه السند عام (١٥٧هـ/ ٧٧٤م) فاستقدم من قومه من أعانه على مد النفوذ العربي في هذا الإقليم^(٦٤) وكان هو الوالي الوحيد للهند من بني تميم.

لعب بني تميم دوراً في تثبيت ملك بني العباس في الهند بعدما حاول بني ربيعة الإنفراد بالإقليم بزعامة منصور بن جمهور فوجه إليه الخليفة أبو جعفر المنصور موسى بن كعب التميمي مع أربعة آلاف من عرب خراسان وستة عشر ألفاً من بني تميم فتمكن من هزيمة ربيعة^(٦٥)، وكانت تلك البداية الحقيقية لتوطين ستة عشر ألف تميمي في إقليم السند، وقد تمركزوا في مدينة المنصورة بعدما أعاد بناءها موسى بن كعب وجدد مسجدها الرئيسي^(٦٦)، وقد لفت الانتباه زيادة هجرة بني تميم إلى الهند وكانت نساء العرب ينشدن رؤساء بني تميم رد أبناءهم إليهم مثل تلك المرأة من بني يربوع التي ناشدت تميم بني زيد العتيبي على لسان الشاعر الفرزدق لرد ابنها خنيس فأرسل إليه يقول:

أتني فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة الساقى عليها تراها

فهب لي خنيساً واتخذ فيه منة لحوبة أم ما يسوغ شرابها

وقد دفع العرب إلى محاولة إرجاع أبناءهم ما تعرضت إليه قبائل تميم في السند جراء مرض الطاعون الذي قضى على أغلبهم في منطقة ماء الجواميس القريبة من نهر مهران مما أدى إلى تراجع أغلبهم إلى مراكزهم القريبة من نهر السند^(٦٧). وفي عام (١٤٢هـ/ ٧٦٠م) تحامل التميميون بزعامة عينية بن موسى على بني ربيعة، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وساقه طموحه إلى السيطرة على إقليم السند وإعلان انفصالة عن الدولة العباسية^(٦٨)، وهنا اضطر الخليفة المنصور إلى الاستعانة بقوة ونفوذ قبائل الأزدي في الهند

فأرسل إلى عينية بني موسى القائد عمر بن حفص ، ودارت بين الطرفين معارك عنيفة كانت في الأصل بين المستوطنين التميميين و الأزديين، وقد بلغ هذا الصراع الدامي ذروته عام (٢٠٥هـ / ٨٢١م) عندما قتل هلال ابن أحوز التميمي زعيم الأزد بشر بن داود فاندلعت نار الحرب بين الطرفين و فيها قضي على بني تميم في الهند^(٦٩).

يعد سعيد بن اسلم الكلبي أول قائد من بني ربيعة يتولى إمارة السند عام (٧٨هـ / ٧٤٧م) ، أما سفيان بن الأبرد فكان من أبرز قواد جيش محمد بن القاسم الثقفي، وفي عام (٨٠هـ / ٧٤٩م) تمركزت قبائل ربيعة في الهند في منطقة أرماتيل بزعامة محمد بن هارون النمري وهو الذي توفي في قرية قبل السندية^(٧٠)، وفي أواخر عهد بني أمية سادت الاضطرابات والفتن في السند ، وتغلب الهنادكة على المسلمين، وهنا ظهر الزعيم الحكم بن عوانه الذي جمع العرب من بني ربيعة وشيد لمسلمي الهند مستوطنة عظيمة اسمها المحفوظة^(٧١) كانت من أكبر مراكز العرب المهاجرين في الهند.

يبد أن جهود الحكم بن عوانه الكلبي أتت ثمارها فارتفع شأن بني ربيعة بين المستوطنين العرب ، وسيطروا على مدينة المحفوظة في عهد ولي الإقليم منصور بن جمهور الكلبي زعيم بني ربيعة الذي أعلن استقلاله بالسند فدخل في صراع رهيب مع موسى بن كعب التميمي الذي تتبع بني ربيعة في السند ، وطرده بعضهم خارج البلاد ففر من بقي منهم إلى بلاد الخزر وكان منهم زوجات وأطفال لمنصور بن جمهور الكلبي^(٧٢).

بجانب مآثر بني ربيعة في الهند السياسية فقد كان لأبنائها بخلاف باقي القبائل العربية دوراً في تنشيط الحياة الثقافية وذلك بمجرة العديد من شعرائهم للهند و أبرزهم الشاعر الدهمسي اليربوعي الذي كان معاصراً لجرير وهجاء فيمن هجا ، والشاعر الصمة بن عبد الله القشيري وهو من أشهر شعراء الغزل ، أما ذو الرمة - غيلان بن عقبة - فقد زار الهند زمن الحكم بن عوانه الكلبي فمدحه فأعطاه مائة رأس من سبي الهند، أما الشاعر عمرو بن خالد الكلبي فوصف في شعره حرب المسلمين ضد راحا داهر ودوره كواحد من بني ربيعة في قتل رجلا داهر فقال:

الخيل تشهد يوم داهر و القنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
إني خرجت الجمع غير ممرد	حتى علوت عظميهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً	متعقر الخدين غير موسد ^(٧٣)

من القبائل العربية التي اتخذت لنفسها موضع قدم بين المستوطنين العرب في الهند بني تغلب وكانت بداية أمرهم عام (١٥٧هـ/ ٧٧٤م) عندما اقنع واحد منهم وهو هشام بن عمرو التغلبي الخليفة أبا جعفر المنصور بتوليته إقليم السند وقدرته بمساعدة بني قبيلته في القضاء على عبد الله العلوي المعروف بأبي الأشتر^(٧٤) ، وعقب الانتهاء من تلك المهمة ظل سبع سنوات يكافح لأجل مد النفوذ العربي في الهند ففتح مدينة باربد ثم قندهار ، وكانت أشهر حملاته على مدينة الملتان، واسترد مدينة قنڊايل وكان بها مستوطنة عظيمة للعرب المهاجرين ، وقد تقلص نفوذ بني تغلب في الهند بسبب قلة عددهم مقارنة بالمهاجرين العرب من القبائل الأخرى وربما ذلك كان سبباً في فشل الزعيم ابن عمرو التغلبي في القضاء على الصراع الذي دار بين القبائل العربية في الهند فيما بعد^(٧٥).

كان لقبيلة قريش نفوذاً عظيماً في الهند ومنهم ولد سامية بن لؤي ، ويعتد سيدهم الخريت بن راشد الناجي أشهرهم وهو الذي لقي الرسول (ص) مع عدد من رجاله وأهله، فأشار الرسول (ص) لأصحابه وقال (هؤلاء قومكم فانزلوا عليهم) ، وقد اختلف الخريت مع سيدنا علي فترل مدينة مكران الخراسانية واستقر فيها^(٧٦) ، وسرعان ما انتشر المستوطنون العرب من بني لؤي على طول الطريق بين مكران والسند وذلك عام (٦٥هـ/ ٦٨٥م) بعدما تزعمهم الأخوان محمد ومعاوية أبناء الحارث العلامي واستقدموا قومهما من عمان إلى السند ، واستمرت تلك الهجرات لعشر سنوات . تقلص نفوذ بني لؤي على أثر الحرب التي دارت بينهم وبين الأمويين واضطر زعيمهم حيم بن سامية إلى الانتقال مع بني جلدن إلى الجنوب الكشميري^(٧٧) ونتيجة للصراع القبلي العربي استغل بني لؤي اضطراب أوضاع إقليم السند فمدوا نفوذهم حتى مدينة الملتان عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) وجعلوها مستوطنة خاصة بهم، واتخذ زعيمهم محمد بن القاسم السامي من جندوار مركزاً لحكمة ، وبلغت تلك الإمارة أوج عظمتها في عهد أسد بن الهاز عام (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) حتى قضى عليها القرامطة^(٧٨).

مرة أخرى ومع ازدياد وتيرة الصراع الأموي مع عبد الله الزبير اضطرت جماعة كبيرة من القرشيين للهجرة إلى السند قادمين من المدينة المنورة ، واستوطنوا ساحل الهند الغربي - الكجرات - وكونوا جذور جالية عربية كبيرة عرفت بقبائل النوات ، وظهر منهم كبار العلماء وأشهرهم ملا علي المهايمي الذي ينسب إلى مدينة مهايم في بومباي و أجداده من القرشيين العرب^(٧٩).

و من أهم القبائل القرشية التي كان لها دور في الهند بني ثقيف التي كانت منازلها تمتد من جبل الحجاز بين مكة والطائف ^(٨٠) ، وظهر منهم القائد محمد بن القاسم الذي قاد جيوش الفتح وعمره سبعة عشر عاماً فاستولي على مدن السند مثل بيرون ، و سيهان ، وضم مقاطعتي السند والهند للحكم العربي ^(٨١) وجذب بنشاطه و شاعريته قلوب المستوطنين العرب و الهنادكة الذين رسموا له صورة لطيفة واحتفظوا بها ^(٨٢) تقدير لهذا البطل العظيم وتخليداً لتسامحه وتعاطفه معهم.

برغم تلك الضربة الموجهة التي تعرض لها المستوطنون الثقفيون في الهند أثر موت الحجاج بن يوسف الثقفي ثم محمد بن القاسم إلا أن زعيمهم عمرو بن محمد شيد لهم مستوطنة عظيمة في مدينة المنصورة التي اعتبرت مقراً قرشياً في الهند ^(٨٣) ، ولم ينجح الوالي الجديد منصور بن جمهور الكلبي في السيطرة على الهند ألا بعد أن كسر شوكة المستوطنين القرشيين واغتيال زعيمهم عمرو بن محمد ^(٨٤) ، وقد أدرك الخليفة هارون الرشيد مدي مكانة وجهاء العرب القرشيين في الهند فوقع اختياره على بعضهم ليتولى شأن الإقليم مثل علي بن عبد الرحمن بن سليمان ، واسحق بن سليمان ، وعندما عزل الأخير وولي مكانه طيفور الحميري ، هاج الهاشيمون في السند ، وأردوا قطع دابر الحميريين ، وطرحوا مشروع تقسيم الهند بين القبائل التريه - العدنانيون - الشمالية دون الحميريين الجنوبيين ^(٨٥).

كان نفوذ القرشيين يتسع يوماً بعد يوم في السند وخصوصاً ولد هبار بن الأسود القرشي الذين اتخذوا من مدينة بانه الكجراتيه مستوطنة عظيم لهم ^(٨٦) ، ورويداً اخذ نفوذ الهباريين يصل إلى مدينة المنصورة التي انتقل إليها زعيمهم عبد الله بن عبد العزيز الهباري ، وكانت تلك المدينة بها مستوطنون كثيرون من نسل سيدنا علي بن أبي طالب ، فتعاونوا مع الهباريين في السيطرة على المدينة ^(٨٧) ، واحتفظ العرب القرشيين بميزة رفيعة في ساحل الكجرات ، وكان منهم أعداد غفيرة من قبيلة بكر بن وائل في مدينة كبايت وكان أغلب رجالهم من العلماء الصالحين المعروفون بورعهم وتقواهم ^(٨٨).

(ب) صراع المهاجرين القبلي وأثره على العنصر العربي في الهند:-

حملت القبائل العربية المهاجرة للهند معها عصبيتها مما أثر سلباً على المستوطنين العرب ، فكان الأخذ بالثأر أحد أهم أسباب هذا الصراع القبلي البغيض ، فبعد أن قتل الحجاج أناساً

من آل المهلب استغل المهالبة وفاته و نلكوا بني عقيل في الهند وكان أكبر ضحية لهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي ، وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك سبياً في تركية هذا الصراع بعدما كتب إلى صالح بن حبيب المهلي وإلى السند بأخذ بني عقيل ومحاسباتهم^(٨٩). وعلى جانب آخر استغل بعض الولاة التنافس القبلي بين المهاجرين العرب لبسط سيطرتهم على الهند من خلال أشعال نار الفتنة بينهم وهذا ما فعله محمد بن عدي التغلبي في عهد هارون الرشيد ، وكان ذلك سبباً في قتله على يد وجهاء العرب أثناء رحيله من المنصورة إلى الملتان، أضف لذلك اختلال توازن القوي بين المتنافسين العرب مما تسبب في طغيان أحد القبائل حيث تعرضت قبيلة تميم لنكسة عظيمة عندما ضرب الطاعون أبناءها في منطقة ماء الجواميس^(٩٠) مما رجح كفة منافسيهم من الأزد حتى انتهت الحرب بينهم إلى فناء المستوطنين التميميين.

ومن أسباب الصراع القبلي العربي السيطرة على المدن الرئيسية في السند ويذكرنا ذلك بصراعهم في الجاهلية على المراعي و الكلاً، وقد شكلت مدينتي المنصورة والملتان مركز هذا الصراع حتى حسمه القرشيون فسيطر بني سامية على الملتان، و الهباريون على المنصورة^(٩١)، ولعل أي محاولة لرصد الصراع القبلي العربي في الهند خلال فترة البحث ربما تحتاج منا بحثاً مفصلاً ، ولكن بشكل غير مسهب فإن أول شرارة لهذا الصراع كان ما قام به هلال بن أحوز التميمي من قتل آل المهلب في السند إبان حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك ف ضرب عنق كل من بلغ الحلم منهم حتى كاد أن يفينهم ووصف الشاعر جرير تلك الواقعة فقال:

فلم يبق منهم راية يعرفونها ولم يبق من آل المهلب عسكرياً^(٩٢).

علي أثر تلك الحادثة ازداد نفوذ المستوطنين التميميين فدارت بينهم وبين بني ربيعة حرب طاحنة بلغ فيها جند التميميين عشرون ألفاً حتى قضوا على منافسيهم عام (١٣٤هـ/٧٥١م)^(٩٣). وكان الصراع القبلي خارج الهند يؤثر سلباً على استقرار المهاجرين العرب داخلها فمن ضمن وقائع عام (١٧٦هـ/٨١٥م) حدوث صدام عنيف بين التزرية واليمانية في الشام حتى كاد زعيم التزرية أبو الهيثم المري أن يستولي على دمشق^(٩٤) ، وقد انتقل هذا الصراع إلى الهند مما دفع الخليفة المهدي إلى توليه سبع ولايات على الهند عسي أحدهم أن يقضي على نار الفتنة ، واقترحت التزرية تقسيم الهند ثلاث ربعاً

لقريش و آخر لقيس وثالث لربيعة و طرد اليمانية نهائياً ، وبلغت المواجهة بين الطرفين أشدها عندما استطاع عمر بن عبد العزيز الهباري قتل الوالي عمران بن موسى البرمكي بعدما اتهمه بمحاباة اليمانية واستولى على مدينة المنصورة^(٩٥) وعندما حاول الخليفة المتوكل قهدة أوضاع الهند أرسل إليها عام (٢٣٢هـ / ٨٤٧م) هارون بن خالد المروزي فلم يمكث سوى أربع سنوات حتى قتل أثناء الصراع القبلي^(٩٦).

أثر هذا الصراع على المستوطنين العرب في الهند تأثيراً سلبياً ففي احد عشر عاماً وهي فترة حكم الخليفة المهدي تعاقب على البلاد سبعة ولاة مكث بعضهم اقل من عشرين يوماً ، وظهرت فكرة تقسيم الهند بين المستوطنين العرب تلك الفكرة التي اختمرت بعد القرن الثاني فتم تقسيم البلاد فعلاً بين الساميين و الهباريين ، فاشتد عود الشيعة ، وأخذوا يسيطرون على الهند شيئاً فشيئاً ، وتجددت ثورات الزط ، وانشغل الولاة فقط بمحاولة فض هذا النزاع الأزلي دون تدعيم النفوذ العربي في الهند^(٩٧) وأصبحت المستوطنات العربية شبه قلاع عسكرية وضع على كاهل ساكنيها صد الهجمات المتكررة من جانب الهنادكة.

اضطر المستوطنون العرب للحفاظ على مستوطناتهم المتواضعة التنازل عن مبادئ دينية فنجد ملوك الملتان يقولون على الصنم الكبير في المدينة ليضعفون به في الوقت المناسب على المهاجمين عليهم من الهنادكة فيهددونهم بتدميره^(٩٨) ، وضاعت الهوية العربية المتميزة وأخذ ملوك العرب يقلدون الهنادكة في ملابسهم و زينتهم بل و ألقابهم ومن ثم أصبح تاريخهم في تلك الحقبة مشوهاً ، وأصبح جلياً مدى الصعوبة التي تكتف البحث في تاريخ المستوطنين العرب في الهند بعد القرن الثاني الهجري حتى أن اغلب أمهات كتب التاريخ الهندي تفتتح عهد الإسلام في الهند بالحقبة الغزنوية وليست العربية مثل فرشته و البدواني وهماوندي صاحب موسوعة مآثر رحيمي وغيرهم.

فقد المستوطنون العرب منزلتهم الاجتماعية المتميزة ، واندمجوا مع القبائل الهندية الأخرى ، و أسندت إليهم أعمال كان يقوم بها طائفة الشودر أو المنبوذين من الهند مثل العمل كمرتزقة أو قصابين^(٩٩) ، و انيط بهم العمل في حقول القطن مثل قبيلة السدودي كولاً^(١٠٠) ، وكل ذلك بلا شك أضعف من مسيرة انتشار الإسلام في الهند على حساب النفوذ الهندوكي المتصاعد ، وكان لابد من إعادة الإسلام إلى سالف عهده وتلك المرة على يد الغزاة الأتراك من الغزنويين ثم الغوريين.

(ج) عناصر السكان من المهاجرين الهنود :-

كان يقيم في البلاد العربية منذ القدم جماعة اشتهروا ولقبوا بالأحامرة أو الحمير ، وكانوا في البداية من الهنود فقط ، ولكن شمل هذا اللقب مواليتهم من فارس الذين اسلموا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وعرفوا بحمر الديلم^(١٠١) وترجع تلك التسمية إلى ارتدائهم الملابس الحمراء الدالة على الديانة البوذية^(١٠٢) وكان الهنود الأحامرة قد تميزوا باستخدام الصبغة الحمراء التي مصدرها النيلة ، وهذا لا يجب أن يحدث لبساً عندنا وخصوصاً إذا علمنا أن العرب أطلقوا على العجم الحمراء لغلبة الشقرة عليهم . كما أن الأحامرة تمثل عند العرب متع الحياة الثلاثة وهي الخمر واللحم و الخلق ، وذكر الأعشي ذلك موضعاً أثر الزعفران الذي كان الأحامرة يستخدمون في صبغ ملابسهم.

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها قديماً مولعاً

الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعاً^(١٠٣)

كان الأحامرة من سكان إقليم السند، وقد نزلت جاليات كبيرة منهم الأراضي العربية وسكنوا مدينة البصرة، واشتهروا بطول قاماتهم^(١٠٤) ، وكثر تواجدهم بين قبيلة الأزدي التي كانت تسكن منطقة عمان ، وانضم جزء آخر منهم إلى قبيلة بني تميم وهم بنو زهرة ، وصاروا حلفاء لهم، ولما قررت لهم الوظائف صار لهم نقيب عرف بديلم ، ووجدت جماعة منهم في منطقة العمران الممتدة بين الشام والمدينة وكانوا من حلفاء بني غفار، وحتى عهد الخلفاء الراشدين كان عدد من الأحامرة يخدمون في جيش الفرس، وبلغ تعدادهم أربعة آلاف جندي^(١٠٥).

السيابجة قوم من الهنود الذين استوطنوا الأراضي العربية و السيابجة تعني قوماً ذو بشرة سوداء^(١٠٦) ، وربما قصد بتلك اللفظة أطفال السيابجة - اللفظة منقسمة إلى سياه بمعنى اسود وبجه وبمعني أطفال - الأمر هنا يرتبط أكثر باللون الأسود سواء في البشرة أو الملابس - الكلمة مأخوذة من كلمة سبيج ومعناها ثوب صوف أسود - ونظراً لكون السيابجة من المنبوذين فقد أطلق عليهم أحياناً البرابرة أو علوج السند، حيث احترق بعضهم السرقة وحراسة السجون^(١٠٧).

سكن السياجة مناطق شرق شبه الجزيرة العربية في الخط و هجر و القطيف بجانب عمان وقطر والبحرين^(١٠٨) وقد انضمت جموع منهم للمرتدين بقيادة حطم بن ضيعة وكانوا حتى ذلك الوقت لا يزالون متمركزين في منطقتي القطيف والهجر ، ثم انضموا بعد الإسلام إلى قبيلة بني حنظلة في البصرة ، وكان لأبي موسى الأشعري دوراً في نشر الإسلام بينهم ،^(١٠٩) و بلغ تعدادهم على بيت مال البصرة في عهد الخليفة على بن أبي طالب أربعون و قيل أربعمئة، وفي جيش المهدي الذي سيره لبلاه الهند عام (١٥٩هـ/ ٧٧٦م) كان فيه أربعة آلاف من السياجة و الأساورة^(١١٠). مما يدل على عمق الدور الذي لعبه السياجة في الحياة الاجتماعية والسياسية.

من أقل الجماعات الهندية انتشاراً في البلدان العربية البياسرة وهم قوم من السند و قيل جيل من السند يؤجرون أنفسهم للخدمة في السفن^(١١١) وعرفوا بأنهم قوم نتجوا من زواج العرب التجار بالهنديات^(١١٢) ، وقد اعتاد العرب إطلاق هذه اللفظة على الذين يرافقونهم من الهنود في سفنهم التجارية، ثم أطلقت على طائفة من شيعة الهند المعروفين بالبواهرة وأغلبهم تجار^(١١٣) وتلك أحادي التفسير المقبولة عن لفظة البواهرة.

انتشر البياسرة على ساحل الهند الغربي وكانت لهم علاقات متميزة مع العرب، واكتظت مدينة صيمور الكجراتية بأعداد همة منهم ، وشاركوا المسلمين في احتفالاتهم ورسومهم الاجتماعية^(١١٤) ، وانتقلت جماعة منهم إلى البلاد العربية مثل يزيد بن عبد الله البيسري وكان واحداً من رواة الحديث الثقات^(١١٥) ، و التكاثر يقصد بهم القواد العسكريين من الهنود الخالص، وكان أغلبهم يعمل في جيش راجا داهر الذي تصدى للقائد المسلم محمد بن القاسم الثقفي^(١١٦) ، ولا شك أن أعداد منهم انضمت لجيش المسلمين بعد الاستيلاء على إقليم السند مثل الأساورة والنزط و الميد.

الأساورة من أكثر الجاليات الهندية في المدن العربية ، وبالعكس باقي المستوطنين الهنود كان الأساورة من عليه القوم ، وقد جمعهم البيروني^(١١٧) مع أبناء الملوك الفرس في طبقة واحدة ، حيث كانت فرقة منهم في الجيش الفارسي يطلق عليها جند شاه ، وقد شكلوا ركناً أساسياً في جيش رستم الذي تصدى للمسلمين في معركة القادسية ، وذكر أنه تقدم للقتال مع جمهرة الأساورة^(١١٨).

حكم الأساورة مناطق عربية شاسعة باسم الإمبراطورية الفارسية من العراق إلى اليمن وكانت الأبله مركزاً عظيماً لهم ، وكانت حضرموت تحت حكم وهرز الأساوري ناهيك عند تواجدهم في البصرة التي حفروا خلالها نفراً بأسماءهم^(١١٩) . و انتشر الإسلام بين الأساورة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وانضمت جموع منهم إلى بني سعد واسلم قبل ذلك قائدهم باذان حاكم اليمن أثناء البعثة المحمدية ، وظهر منهم رجال إجلاء مثل العالم موسي بن سيار أحد كبار علماء العربية والفارسية وقيل أن سلمان الفارسي أصله أساوري^(١٢٠) . واعتبر الأساور بطناً من بني مالك بن جهينة بالحجاز^(١٢١) ، و انضم أربعة آلاف منهم إلى جيش المهدي الموجه للهند ، وكانوا قبل ذلك قد اتفقوا مع أبي موسي الأشعري أن يقاتلوا الفرس بجانب العرب شريطة أن يتساوا معهم ويحتفظوا بكيانهم^(١٢٢) ، فكان لهم دوراً عظيماً في فتوح خراسان.

الميد و الزط من الهند ، والفرق بينهما واضحاً حيث كانت مدينة القيقان مركز الزط بينها تركزت الميد في قنديل ، وعرف الزط بقراصنة البحر^(١٢٣) ، وانتشرت جاليات زطية في شبه الجزيرة العربية وعرفوا بلباسهم وضخامة أجسادهم وطول شعورهم، لون بشرتهم الأسود، وكان المسلمون يشبهون كل قوم سواد البشرة بالزط وخصوصاً إذا كانوا من أهل الهند^(١٢٤) ، ألا أنه مع كثرة أعداد العناصر المستقرة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي لم يصبح اللون الأسود هو المميز للزط الذين ازدادت ثورتهم فاضطر عمران بن موسى البرمكي إلى ختم أيديهم وأخذ الجزية منهم^(١٢٥) ، وليس معنى ذلك ضعف منزلة الزط الاجتماعية حيث تشير الدلائل ارتفاع شأنهم بعدما تزوج أسياذ العرب من نسائهم مثل محمد بن هارون الذي تزوج سيدتين من الزط وسيطر ابناؤه على مدن مكران حتى الكجرات في العهد الأموي^(١٢٦).

لعب الزط دوراً كبيراً في سير الأحداث السياسية في الأراضي العربية فانضمت جموع منهم إلى المرتدين في البحرين واليمامة ، وفي عهد سيدنا علي بن أبي طالب اسند إلى أبي سلمه الزطي زعامة قومه المهاجرين في البصرة ، وسمح لهم باستخدام لغتهم التي أثرت سلباً على فصاحة قبيلة بني عبد قيس ولأزد في عمان^(١٢٧) . وقد قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان بنقل أعداد من زط البصرة إلى أنطاكية لصد هجمات البيزنطيين ، فانضم من بقي منهم إلى عبد الرحمن بن الأشعث فقطع عنهم الحجاج الوظائف وأغلق بيوتهم^(١٢٨).

أكمل العباسيون طريق الأمويين فجرد عليهم المهدي جيشاً كثيفاً في منطقة البصرة بعدما قتلوا وليه ليث بنى طريق، وفاشتدت ثورتهم في عهد الخليفة المأمون ثم المعتصم فقطعوا طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن، واستمرت المواجهات العسكرية بينهم وبين جند الخلافة عامين حتى استطاع القائد غجيف بن عنبسه عام (٢٢٠هـ/٨٣٥م) من قتل قاداتهم واسر سبعة وعشرين ألفاً من المستوطنين الزط^(١٢٩).

ثالثاً : المستوطنات الحضرية للمهاجرين العرب والهنود :—

(١) مليبار : من أقدم المراكز التي استقر بها العرب في الهند ، حيث كشفت الحفريات الحديثة وجود عدة مقابر لمستوطنين عرب يعود بعضها للعام الخامس الهجري ، وأخري تعود لعام (١٦٦هـ/٧٨٢م) ، وعثر على قطع نقود تعود للحقبة الأموية^(١٣٠) ، وقد غير المستوطنون العرب اسم الإقليم من كيرلم بمعنى سلسلة الجبال إلى مليبار بمعناه المعروف ببلد الجبال، وأول من استعمل هذا الاسم الإدريسي ثم ياقوت الحموي و أبو الفداء^(١٣١) ، وكانت أولى المستعمرات العربية في مليبار تلك المعروفة باسم موبلا^(١٣٢) ، ومن الموبلا امتداد النفوذ العربي علي مناطق أخرى وكان لقبيلة النوات القرشية دوراً في نشر الإسلام في هذا الإقليم (١٣٣) ، وكان أغلب المستوطنين العرب قد قدموا من العراق، و عملوا في تجارة الثياب وصناعة السفن^(١٣٤) وظل النفوذ العربي في مليبار متواجداً حتي القرن التاسع الهجري عندما اخذ البرتغاليون ينافسونهم في السيطرة علي الإقليم .

استوطن المهاجرون العرب عدة مدن في إقليم مليبار واشهرها قاليقوط حيث استضاف حاكمها ساموتري أسرة عربية بعد إسلامه في القرن الثاني الهجري وكان أهمها أسرة مالك بن دينار الذي يعد زعيم المهاجرين العرب في مليبار^(١٣٥) ، ومن ثم جذبت قاليقوط عرب آخرين من العراق واليمن وحتى القرن الخامس الهجري كانت قاليقوط مركزاً عظيماً للعرب المصريين وخصوصاً الجاريات اللاتي فضلن التجار العرب والصينيين ، واشتهرت مدينة أبي سرور بكونها مركزاً عربياً وإسلامياً عظيماً في مليبار^(١٣٦) ، كما استوطن العرب في مراكز خاصة في مدينة بكلم ، وكانوا يداوون المرضى بالجنان^(١٣٧). مما اكسبهم منزلة اجتماعية متميزة.

وفي مدينة هيلي جالية عربية إسلامية كان أغلبهم قد قدم من مقديشو، وكان عليه القوم في مدينة جرفتين من العرب البغداديين وكان لهم دوراً في إسلام ملك مدينة فستن الراجا كوبل منذ زمن بعيد ، وفي مدينة منجرور محله عظيم للعرب تغلق عليهم دون غيرهم ، وساد بينهم المذهب الشافعي^(١٣٨) ، ناهيك عن حي العرب في كولم^(١٣٩) وبشكل أساسي استوطن العرب ثلاثة وعشرين مركزاً ، و نشروا في تلك المدن المساجد التي يعود بعضها إلى عام (١٢٠ هـ / ٧٠٠ م) .^(١٤٠)

(٢) الكجرات : استوطن العرب مراكز عدة في إقليم الكجرات قبل البعثة الحمديّة ، وتزوجوا من نسايتهم فأنجبوا لهم الأبطال المعروفون بالبياسرة^(١٤١) وقد جاء ذكر إقليم الكجرات لأول مرة في عهد هشام بن عبد الملك ، حيث استطاع عاملة على السند الجنيد بن عبد الرحمن المري غزو منطقة الجزار - كجرات - وحصل منها على غنائم عظيمة^(١٤٢) و غطي النفوذ العربي سواحل الإقليم حتى لم يكن هناك ميناء يخلى من المستوطنين والبحارة العرب ، وكانوا يعاملون من قبل حكام الإقليم معاملة حسنة نظراً لما يدفعونه من ضرائب ، وأصبحت تلك البلاد مركزاً عظيماً للمستوطنين الشيعة المعروفين بالبواهرة^(١٤٣)

من مراكز الكجرات الهامة كمباي - كنبات - التي كانت مركزاً للمستوطنين العرب ، وكانت السفن العربية تحمل إليها الخيول الأصيلة ، فاستقرت بها جماعة من ديار بكر^(١٤٤) ، وكانت كمباي مركزاً للدعوة الإسلامية لذا انتقل الإسلام منها إلى إندونيسيا^(١٤٥) ، وتعد مدينة تانه أكبر المراكز العربية في الكجرات دخلها العرب عام (١٥ هـ / ٦٣٦ م)^(١٤٦) ، وفي مدينة سومنات استوطن العرب و تأثروا بفكرة تناسخ الأرواح ، وقد تأثر المستوطنون العرب عام (١٩١ هـ / ٨٠٦ م) عندما هاجم راجا شيم السفن العربية التي كانت تحمل بضائع لهم قيمتها مليون وسبعة آلاف روبية^(١٤٧) مما يدل على مدى حجم التبادل التجاري بين الهند والعرب ودور المستوطنين في ذلك .

أما مدينة صيمور الواقعة قرب بمباي حالياً فقد استوطنها العرب بكثرة وبلغ تعداد منازلهم عشرة آلاف منزل يقطنها تجار من عمان والبصرة وبغداد^(١٤٨) ، وهذا العدد الضخم دفع بعض الباحثين المعاصرين للجزم بأن سكان مدن كنكي و صيمور منحدرين من أصول عربية ومتشربون الثقافة والتقاليد الإسلامية^(١٤٩) ، بجانب ذلك استوطن العرب مناطق أخرى مثل بهروج و كجه التي تركز بها أبناء القائد العربي جمال الدين بن محمد بن

هارون النمري وهو والد خمسين أخ توزعوا على مدن الهند في العهد الأموي ، وكيان البياسرة من الزط و البلوص من أبنائه وقد تزوج من هاتين القبليتين. (١٥٠).

(٣) السند : قسم الجغرافيون العرب الهند إلى إقليمين عظيمين الهند والسند الذي اعتبرت مدينة الملتان قاعدته الرئيسية ، وهي أول المدن التي سقطت في أيدي العرب ، و أطلق عليها محمد بن القاسم المعمورة ، (١٥١) وادي تزايد أعداد المستوطنين العرب فيها أن أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأساسية فيها وكان أكثرهم من بني سامية بن لؤي الذين أقاموا في حي خاص بهم عرف باسم جندوارة (١٥٢) ، وقد سيطر الشيعة على مدينة الملتان أواخر القرن الثالث الهجري حتى استخلصها منهم السلطان محمود الغزنوي.

والمقر العربي الثاني في السند مدينة المنصورة التي كانت تعرف باسم برهمناباد ، (١٥٣) ، وقد أهتم المستوطنون العرب بتلك المدينة وجعلوا لها أربعة أبواب رئيسية هي باب طوران، سندان، الملتان وباب البحر ، و أقيم المسجد الجامع في وسط السوق، وكانت اغلب رسوم أهلها الاجتماعية تقارب أهل العراق . وجه العرب أنظارهم إلى مدينة الديبل السندية وكانت من قبل مركز قبائل الميد ، فسكنها مستوطنون من قبيلة بني تميم، والواضح أن التواجد العربي في الديبل كان مقتصرأ على قلب المدينة ، وقد أحاط بتلك المنطقة مائة قرية أكثر أهلها من الهنادكة، وكان الغالب عليها اللسان العربي (١٥٤) ، واتصل عرب الديبل بأهل البصرة واعتمدوا في غذائهم على تمرها وكان من أكثر السلع رواجاً في الديبل (١٥٥).

تعد مدينة القفص أول المدن التي سكنها العرب عام (٣١هـ / ٦٥٢م) وحددوا مساحتها، واقطعوا لهم القطائع ، ومن المدن الأخرى بيرون - نيكركوت - ثم مدينة الرور ، وكذلك أصبحت السندان مركزاً عربياً في عهد الخليفة المأمون وكان يسيطر عليها أبناء الفضل بن ماهان من بني لؤي (١٥٦) ، وعمر العرب مدن أخرى أشهرها الخفوفة التي شيدها الحكم بن عوانه الكلبي واسكنها جند العرب (١٥٧) ، وفي مدينة بيانه استوطنت جالية عربية في نسل الصحابي الجليل الزبير بن العوام (١٥٨).

(٤) سرنديب : عرف العرب جزيرة سرنديب باعتبارها معبراً أساسياً لصيد اللؤلؤ، واستوطنتها عدد من التجار العرب وعقب وفاة بعضهم أرسل ملكها عدد من النسوة المسلمات إلى الحجاج ، وكانت جماعة من العرب اعتادوا زيارة قدم سيدنا آدم فيها (١٥٩).

وفي جزيرة ذبية الهيل وجدت جالية عربية كبيرة اغلبهم من مقديشو، وكان عليه القوم بها من عرب اليمن والمغرب وانتشر بينهم مذهب الأمام مالك^(١٦٠)، أما ساحل الهند الشرقي - كروماندل - فقد استوطنه جماعة كبيرة من سكان سواحل شبه الجزيرة العربية وكانوا يتاجرون في الخيول في عهد أسرة بانيا وكان أكثرهم من عدن، وكانت مراكز استيطانهم في مدن كاييل، كيزكر، و ملاي فتن، وانتشرت الأسماء العربية بين أبناء الملوك والوزراء مثل محمد، عبد الرحمن، تقي الدين، وغلب على مساجدها التأثير العربي فهي تشبه تماماً مساجد بغداد^(١٦١).

ولعب تجار كنيات العرب دوراً نقل الإسلام إلى جزر الهند الشرقية - إندونيسيا - التي استقر بها عدد منهم ويدل ذلك على كثرة المقابر في العاصمة سومطره وقد سطر عليها عبارات باللغة العربية، وكثر المستوطنون العرب في مدن سومطره، بورنيو، وجزائر السيلان، وذلك منذ عام (٥٤ هـ / ٦٧٤ م)^(١٦٢)، ويذكر أن أول أسرة حاكمة في جاكرتا كانت عربية عرف رئيسها بلقب الشيخ وهم من بقايا العلويين من أتباع المهاجر أحمد بن عيسي بن محمد بن علي، وقد بلغ ابناؤه كمبوديا وتزوج احدهم ويدعي الحسين من الأميرة باني ولاق من أهل سيام^(١٦٣).

(٥) الدكن وكشمير : استوطن العرب هضبة الدكن في الوسط الهندي وخصوصاً مدينة بتان التي رحب حاكمها جياسنها من أسرة راشتركوتا بالعرب وأنزلهم منزلة رفيعة^(١٦٤)، أما كشمير فقد ظلت بسبب موقعها الجغرافي المنيع عاتية على الغزاة العرب ألا أن الضغط الشديد الذي مارسه محمد بن القاسم الثقفي على إقليم السند أدّى إلى فرار أحد رجال العرب المخالفين لبني أمية وهو حميم بن الحارث إلى الجنوب الكشميري مع راجا جي سنك^(١٦٥)، وامتد النفوذ العربي في كشمير حتى طال مدينة راجوري، وزاد أعداد المستوطنين العرب مع قدوم طائفة من الهاشميين العرب إلى كشمير عرفوا باسم السادات^(١٦٦)، كان منهم كبار الوزراء والولاة والعلماء.

(٦) مراكز المستوطنين الهنود : كانت العراق مركزاً هاماً للمستوطنين الهنود في البلدان العربية وخصوصاً مدينة البصرة، التي سكنها أعداد جمة من الزط، ونظراً لتمردهم على الأمويين فقد نقل الخليفة معاوية أسر عديدة منهم إلى أنطاكيا، ونتيجة لازدياد عددهم في البصرة وانخفاض مستواهم الاجتماعي فقد كانت نساؤهم جوارى للمسلمين، واشتهر أحد

التجار ببيعه الرقيق الزطي فأطلق عليه ميسرة يباع الزط^(١٦٧)، واستوطنت جاليات من السياجة البصرة وكانوا يعملون على بيت مال المدينة، وأطلق على مدينة الأبله نتيجة لكثرة الهنود بها فرج الهند^(١٦٨) وجذبت بغداد عدداً من الأطباء الهنود مثل منكه و بازكر وسندباد.

وفي الخليج العربي انتشرت الجاليات الهندية في البحرين وعمان ومنطقة دارين التي نسب إليها المسك الهندي المعروف بالديني، وتمرکز الهنود في سوق دبا العماني، وكان الأساورة قد فرضوا سيطرتهم على المدينة، ونقل المهاجرون الهنود إلى عرب الخليج محاصيل هامة منها النارج والقطن إلى العراق^(١٦٩)، وكانت اليمامة مركزاً للرقيق القادم من الهند واشترك بعضهم مع السياجة والزط في حروب الردة، ونتيجة لكثرة الهنود في تلك المنطقة فقد أثروا سلباً على اللغة العربية التي دخلتها لهجات وكلمات هندية عديدة.

وكان الزط قد استوطنوا مناطق عدة في الحجاز مثل مكة وخصوصاً في بطائعها، وعمل بعضهم في مجال الطب وفك السحر في المدينة، وتأثر سكان نجران بملابس الهنود المقيمين بينهم وطائفة منهم نزلت منطقة تبوك مثل أبي هجم^(١٧٠) أما اليمن فقد كانت مركزاً للأساورة وخصوصاً منطقة ظفار، وفي حضرموت توفي ملك مليار جيرمان وهو في طريقة مع طائفة من الهنود إلى الجزيرة العربية، وقد جذب قبره عدداً من الهنود إلى اليمن^(١٧١). وفي الشام أنشأت مستعمرات هندية وخصوصاً في أنطاكية التي نقل إليها عدداً من زط البصرة، ووجد فيها حي خاص أطلق عليه حي الزط وفي بوقا من عمل اللاذقية قوماً من أولادهم^(١٧٢)، وفي مصر حط الهنود المهاجرين رحالهم في وقت متأخر من القرن الثاني وكان أغلبهم يسكن في الرباطات والزوايا الصوفية، وكانت لهم مقبرة خاصة عرفت بمقبرة الهنود، وأشهر زواياهم زاوية الخلاوي بالقرب من الأزهر، وفي القيروان استوطنت فئة قليلة من الهنود، كان أغلبهم من ذوي المال والجاه حتى بني أحدهم مسكناً لطلاب العلم على ضريح الصحابي الجليل أبي زمعة البلوي وجعلها وقفاً لله تعالى^(١٧٣)، وبذلك تكون الجاليات الهندية غطت في ترحالها وأقامتها أغلب مدن الوطن العربي.

رابعاً : الآثار الاجتماعية المترتبة على الهجرات العربية الهندية:—

(أ) منزلة المهاجرين بين طبقات المجتمع الهندي والعربي:—

للهند نظام طبقي خاص فهم يطلقون على طبقاتهم برن أي الألوان وهي أربع البراهمة أو رجال الدين و الكشتر و هم رجال الحرب و الجيش والشودرا أو الحرفيون ^(١٧٤) وفي مليبار ذات الأغلبية العربية توجد طبقتين فقط ناير وهي العليا وبلين وهي الدنيا ^(١٧٥) ، ومنهم جماعة مكهرون أي السماكين و تشرومن أي حرات الأراضي الزراعية ^(١٧٦) ، وفي كشمير نظاماً آخر حيث قسم المجتمع إلى زمرة الأشراف ومنهم طبقة العرب بجانب الأمراء والسادة، وطبقة الرعاع وهي التي تضم باقي أبناء الشعب الكشميري الذين يعملون في الوظائف المتدنية ^(١٧٧).

احتل العرب قمة النظام الطبقي الهندي لعدة عوامل كان أهمها تشبههم الواضح براجات الهند في ملابسهم و ألقابهم وحتى استبدادهم الخيول بالفيلة التي أطلقوا عليها ألقاباً خاصة مثل منفرقلس و جيدر و تولوا أهم الوظائف مثل رئاسة الجالية العربية المهاجرة وعرف صاحبة بالهنرمة وكان يلجأ إليه لحل المشاكل بين الهنود والعرب ^(١٧٨) ، وتولى العرب قيادة الجيش الهندي مثل أبناء قبيلة مركار العربية في مليبار وهم الذين قادوا جيش راجا ساموتري، ناهيك عن دور المستوطنين العرب في إنشاء المشاريع الخيرية الكبرى مثل المستشفيات المجانية في مناطق بكلم و جاليم و اختلطوا بالأهالي وبادلوهم الاحترام والتقدير وخير مثال على ذلك قبيلة رشيد ذات الأصول العربية والهندوكية في السند ^(١٧٩).

كسب العرب ود الهنود واحترامهم وخاصة المنبوذين الذين ابكو رحيل محمد بن القاسم عن الهند ورسموا له صورة ووضعوها في مدينة الكيرج، وفي مناطق قنوج و مالوه و الكجرات كان للعرب منزلة اجتماعية عظيمة حيث استقبلهم الحكام واحتفوا بهم وتقلب راجا المليبار بعد الرحمن، و ساد اعتقاد بين هؤلاء الحكام انه بحسب العرب تطول حياتهم ^(١٨٠). وفي كرومندل حصل العرب على منصب الوزارة مثل الوزير تقي الدين الذي لقب بالملك الأعظم ، أما في بيانه فأن كبار الأئمة والفقهاء فكانوا من أبناء الجالية العربية وكانوا يتوارثون هذه المناصب باستمرار ^(١٨١)

تتضح المكان الاجتماعية المتميزة للمستوطنين العرب في الهند من خلال الألقاب الفخرية العامة التي حصلوا عليها مثل السادات في كشمير و مابللا - لأبن العظيم - في مليبار ، واعز الناس و الأعزة في كوكم ، بالإضافة للقب مهاراج - الحاكم الأعظم - في السند وغيرها من الألقاب الأخرى، وفي المقابل حصل المستوطنون الهنود على ألقاب أخرى تدل على تدني منزلتهم الاجتماعية مثل الميد - الرائحة التينه - و السياجة - الأطفال السود^(١٨٢) ولاشك فإن تلك الألقاب كانت تدل على منزلة المستوطنين العرب الهنود وتعكس تقدير المجتمع لهم.

حاول المستوطنون الهنود الوصول للطبقة العليا في البلدان العربية عن طريق عدة وسائل فوجد الزط يحالفون بني باهله وحالف الأحامرة بني اسلم وبني تميم و الأساورة حالفوا بني سعد واعتبروا جزءاً من القبائل العربية، وتزوج بعضهم في عليه القوم مثل التاجر إبراهيم بن مقسم القيقاني الذي تزوج من عليه بنت حسان وكانت من اشهر نساء البصرة ، و ابنها المحدث المشهور إسماعيل بني إبراهيم المعروف بأبن عليه، أما شيرباميان الذي اسلم على يعد مزاحم البسطامي فقد زوج ابنته من ابنه محمد ويكنى أبا حرب وبذلك وصل بعض الهنود للمناصب الكبرى مثل أبو حارثة الهندي صاحب بيت المال في عصر الخليفة المهدي^(١٨٣).

وتتضح المكانة الاجتماعية للمستوطنين الهنود من خلال سطوع نجم البرامكة الذين كانوا بوذيين هنود وليس مجوس فارسيين وهم الذين جلبوا إلى بغداد كبار العلماء الهنود، وكان يحيى بن خالد البرمكي قد تلقى تعليمه في كشمير و أراد أن ينقل علومها إلى بغداد^(١٨٤) ، و ممن تولوا مناصب رفيعة محمد بن شاهيك قائد حرس الخليفة المنصور والرشيد وهو والي مدينة واسط في عهد المأمون وعهد إليه بنقل جثة جعفر بن خالد البرمكي ونصبها على جسر واسط^(١٨٥).

برزت عائلات هندية في العراق أشهرها القيقانية و رأسها هو التاجر الهندي إبراهيم بن مقسم الذي تزوج من السيدة عليه البصرية فولدت له المحدث المشهور إسماعيل وكان معاصراً للعلامة وكيع بن الجراح وتولى صدقات البصرة ت(١٩٣هـ / ٨٠٩م) ، والابن الثاني هو ربعي الذي اشتغل أيضاً بعلم الحديث وكان من ابرز شيوخه، و لإسماعيل بن إبراهيم ولدان هما إبراهيم ويكنى بأبي إسحاق وكان من كبار المتكلمين وله مناظرات مع الشافعي في مصر وبغداد ، والآخر هو حماد الذي ورث علم الحديث عن أبيه وهو آخر من

توفي من أبناء تلك العائلة عام (٢٤٤هـ/٨٥٨م) ناهيك عن العائلة الشاهيكية وظهر منها محمد بن شاهيك قائد الحرس في عهد الخليفة الرشيد ومن أبنائه العلامة إبراهيم الذي اعتبر حجة العلوم والفنون ذكره الجاحظ في البيان والتبيين واثني عليه و الآخر هو نصر وكان من ابرز دعاة العباسيين^(١٨٦).

احتل الهنود مكانة عظيمة بين أبناء الطبقة الوسطى في المجتمع العربي فكان منهم الشعراء مثل أبو عطاء السندي من مخضرمي شعراء الأمويين والعباسيين وهو مولى بني أسد ، و نجيح بن عبد الرحمن أبو معشر السندي مولى أم سلمه وهو من رواة الحديث ، وله كتاب بعنوان المغازي ، وقد أمر له الخليفة المهدي بألف دينار ت (١٧٠هـ/٧٨٦م) ، ومن اللغويين ابن الأعرابي صاحب كتاب الأنواء و أسماء الخيل و أسماء البئر، ومن الأطباء صالح بن بهله و كنهه صاحب كتاب النمودار في الأعمار ، و أسرار المواليد . ومن ابرز أبناء تلك الطبقة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الزطي ، و الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزعي السندي ت (١٥٧هـ/٧٧٤م) إمام أهل الشام والأندلس وصاحب كتاب السنن في الفقه والمسائل في الفقه^(١٨٧) وقد ارتفعت منزلة هؤلاء العلماء ونالوا الحظوة عند العامة والخاصة.

ومن أبناء الطبقة الدنيا من الهنود أصحاب الأعمال المتدنية مثل السياجة الذين عملوا مرتزقة في الأسطول العربي، والزط الذين اشتغلوا بحراسة بيت مال البصرة ، وكان بعض السياجة يعمل في رعي الأغنام في البحرين وعمان ، واحترف بعضهم تربية الماشية ، وقد أهمل شأن أبناء تلك الطبقة فنجد الحجاج يعلق عليهم بيوهم في البصرة ويمنع عنهم الوظائف وكان يتم بيع أغلبهم في سوق الرقيق^(١٨٨) ، وفي المقابل وبالرغم من أن العرب المستوطنين مليار علموا في أعمال متدنية تخص طبقة الشودرا مثل الزراعة ، إلا أن تراثهم الديني والثقافي جعلهم من طبقة أشرف مليار^(١٨٩) عكس المستوطنين الهنود.

(ب) الطوائف والمذاهب الدينية :-

أثر المستوطنون العرب والهنود في وجود قواسم مشتركة بين أديان الهند والعرب مثل تقدير البقرة التي كان العرب يعتقدون في قدرتها على جلب المطر إذا ما علقوا في عراقيها و إذناها السلع والشعر ويشعلون فيها النار وفي ذلك يقول الشاعر الورل الطائي

أجاعل أنت يبقوراً مسلعة وسيلة منك بين الله والمطر

وكان للبقرة منزلة عظيمة عند طائفة الهندوس وهم يحرمون لحمها و يتعففون عن ذلك نهائياً ، والمسوخ كعقيدة في الأديان الهندية وجد لها صدى عند العرب فيما ذكر عن عمرو بن لحي في الرجل الصالح الذي كان يلت السوق عند صخرة الطائف فلما مات ادعى أنه دخل إلى جوف الصخرة فبعدها الناس، وما قيل عن أساف ونائلة من أنهما كان رجل و امرأة قاما بعمل قبيح فمسحا صخرتين عند الكعبة ، وعرف العرب الجوسية وكان رئيسهم يعرف بالموبدان وهى تقابل لفظة الهرايدية وهم قوم بيت النار في الهند^(١٩٠)، وهناك فرقة دينية تأثرت فيما تدعى بالملة الإبراهيمية — الخفية — وقد اتبع أصحابها أصليين مدبرين يقسمان الخير والشر والنفع والضرر والصالح والفساد ، ويعرفون بالثناوين، ناهيك عن طائفة الأحامرة البوذيين في الأراضي العربية^(١٩١).

وبالنسبة للدين الإسلامي فإن له صدى كبير في أديان الهند فأغلب الهنود يؤمنون بآله واحد أزلى من غير ابتداء ولا انتهاء و للمرأة الهندية صداق لا يجوز أخذ شئ منه دون موافقتها ، وكان يحق للبرهمنى الزواج من أربع ، وعرفوا النكاح غير الشرعي^(١٩٢) ، ونقل الهنود المسبحة للعرب، وكانوا قبل ذلك يسبحون بالخصى أو نوي البلح، أو الخيوط أو الأشجار ، وجاء أقدم ذكر للمسبحة في عهد الخليفة الأمين على لسان الشاعر أبو نواس في قصيدته التي خاطب بها الوزير ابن الربيع من سجنه^(١٩٣) وكان أغلب المستوطنين العرب من الكجرات يستخدمون المسبحة^(١٩٤) ، وكل ذلك كان سببه النشاط الاجتماعي للمهاجرين العرب والهنود.

السمنية : ينسب المذهب السمني إلى صنم سومنات الواقع في نفس المدينة التي تحمل اسمه على ساحل الكجرات ، وقد اعتقد الهنود فيه بشده ، واعتبروا القمر خادماً له لان يقع قرب ماء البحر فيغمره الماء في حال المد والجزر ، وهم يحملون إليه الماء المقدس من نهر الكنك و ورود كشمير واعتقدوا أنه يشفي من العلل والأمراض ، وبه ارتبطت عقيدة التناسخ حيث يزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشئها فيمن يشاء، وهذا الاعتقاد هو علم النحلة الهندية مثل الإخلاص في الإسلام والأسباب في اليهودية ، و التثليث في المسيحية^(١٩٥)، وقد أثر هذا المذهب في العرب تأثيراً شديداً.

كان للسمنيين نفوذاً عظيماً في إقليم السند، ويذكر أن عدداً منهم توسط لعقد الصلح بين العرب وأهل السند إبان غزو محمد بن القاسم للإقليم^(١٩٦) ، وكان المستوطنون السوط

يعتقدون في التناسخ حيث خاطبوا سيدنا علي قائلين أنت أنت معتقدين أن الذات الإلهية تناسخت وحلت فيه ^(١٩٧) ، وتأثرت الشيعة بالسمنية وخصوصاً فرقة عبد الله بن معاوية ذي الجناحين الذي ادعى أصحابه أن روح الله تناسخت في آدم ثم صارت إليه ، وفرقة الخطابية أصحاب ابن الخطاب بن زينب واعتقدوا أنهم لا يموتون وإنما يرتفعون بأبدانهم إلى السماء وأدعي آخرون منهم الإلهية لأبناء علي على التناسخ ^(١٩٨) .

وقبل هؤلاء كان الشيعة أصحاب عبد الله بن سبأ فقد رووا عنه أنه قال لسيدنا علي أنت أنت ، و أنتشر هذا المذهب في البصرة وكان من المروجين له رجل يدعي جريير بن حازم الأزدي ، وقال بعضهم أن أرواح الذين لا يؤمنون بعلي تحل في أجساد الكلاب والحمير عكس المؤمنين ^(١٩٩) ، أثر مذهب السمنية على فرق الروافض ومنهم من أنكر القيامة و الآخرة و قال إنما هي أرواح تتناسخ وأن الدنيا لا تفني إيداً (٢٠٠) ودفع كل ذلك بعض رجال السنة الغيورين إلى تدمير صنم سومنات وتم ذلك على يد السلطان محمود الغزنوي ، وقد عرض عليه سدة الصنم أخذ وزنه ذهب فرفض ^(٢٠١) .

مذهب شانكار : أدي الصراع بين البوذية والهندوسية في مليبار إلى حدوث ارتباك شديد بين الأهالي الذين انتشرت بينهم الخزعبلات والخرافات في العقيدة، في وقت كان العرب قد أخذوا يفرضون سيطرتهم الدينية و الثقافية على أهالي مليبار ^(٢٠٢) وفي إطار ذلك ظهر الفيلسوف الديني العظيم شانكار ماجاريار مؤسس مذهب ويشنوت (٢٠٤هـ / ٨٢٠م) ولم يعمر شانكار سوى اثنتين وثلاثين عاماً وضع من خلالها شروحه علي كتب الهندوس المعروفة بالفيدا ، وصور الوضع الديني للهندوسية متأثر بالمفاهيم و الأفكار الإسلامية ^(٢٠٣) وكان ذلك بلا شك أثر تأثرة بالمستوطنين العرب المقيمين في مستوطنة الموبلا.

اعترض شانكار على طبيعة الشرك في الهندوسية وتعدد الآلهة واعتبر أن هناك خالق واحد يعبد في إطار نظام توحيدي يعتمد على كتاب منزل من خلال وحي معلم وكل تلك الأفكار لها مطابقة شديدة في الإسلام ^(٢٠٤) ، وقد تأثر شانكار بالمستوطنين العرب أصحاب النشاط البارز في نشر الإسلام في مليبار و إقامتهم العديد من المساجد فيها، ناهيك عن وجود نظام توحيدي ربط بين الإسلام والهندوسية عرف بالنظام البختي، ووجود كلمة الله ذات الأصل العربي في المؤلفات الدينية الهندوسية آنذاك ^(٢٠٥) . ومما يزيد من يقيننا بتأثر شانكار بالفكر العربي الإسلامي ، إسلام راجا كالادي المحل الذي ولد فيه شانكار، ورفض

طائفته لأفكاره الدينية التي رأوا فيها ثورة ضد الهندوسية وتمرداً على الفكر البرهمي ومن ثم تم استبعاده عنهم^(٢٠٦) وقد امتد تأثير أفكار شانكار فيما بعد على أتباعه ونشأت عشرين جماعات دينية تحمل اسمه ، وأصبحت موسوعته موهامودجار - مطرقة الحماقة - من أشهر المؤلفات الفلسفية الدينية واعتبر هو أعظم فلاسفة الهند^(٢٠٧).

الطوائف الإسلامية : أحرز العرب تقدماً في نشر الإسلام في الهند حيث أسلم راجا سرنديب عام (٤٠هـ/٦٦١م) الذي أرسل وفداً إلى الحجاز لمعرفة أحوال المسلمين وكانت سرنديب أول الجزائر الهندية التي انتشر فيها الإسلام^(٢٠٨) وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز أسلم راجا حليشه بن داهر ، وفي الدكن استطاع أحد الدعاة العرب ويدعي بيرمهاير - الشعر الطويل - نشر الإسلام بين قبائل الجين ، وفي وقت مبكر أسلم عدداً عظيماً من قبائل ساون داري في السند^(٢٠٩) ، واستطاع الحكم بن العاص نشر الإسلام في منطقة تانه وعبد الرحمن بن سمره في منطقتي خج و دادن وهو الذي حطم صنم زور^(٢١٠).

اقنع الدعاة العرب راجا مدينة ده فتن بالإسلام ، وكان حفيده راجا كوتل محباً للمستوطنين العرب في ملييار ، وسار الإسلام في جزيرة زية الهيل بفضل الداعية أبي بركات البربري^(٢١١) ، وأعظم نجاح هو الذي حققه الداعية مالك بن دينار الذي أسلم على يده راجا جيرمال بيرمال واخذ منه تفويضاً بتشيد أول مسجد في ملييار . وأثر ذلك علي انتشار المذهب الشافعي في الجنوب الهندي والكجرات ، وانتقل إلى المستوطنات العربية في اندونيسيا وهذا بخلاف المذهب الحنفي الذي ساد في الشمال الهندي مع الغزاة الأتراك^(٢١٢).

وكان المذهب الداودي قد انتشر بين المستوطنين العرب في المنصورة ، وكان قاضي المدينة أبا محمد المنصوري أماماً لهذا المذهب، وله أعمال فقهية منها المصباح الكبير، الهادي ، والنير وكان له نسب في بني تميم^(٢١٣) ، وكان للشيعة مكانة عظيمة في الهند وأول من وصلها منهم الداعية عبد الله بن الأشتر في عهد الخليفة المنصور ، وتطور هذا النفوذ أكثر بظهور الداعية أبو عبد الله القرشي الذي لقب بملك الملتان، وكان له ثمانين ولداً^(٢١٤) وربما ذلك يفسر لنا ما ذكره المقديسي^(٢١٥) من أن أهل الملتان شيعة يهو علون في الأذان.

ومن الخوارج في الهند حسان بن مجاهد الذي رحل إليها في عهد أبو جعفر المنصور ولكنه لم يجد لدعوته سوقاً رائجاً ولا حظ ميل الأهالي للتشيع^(٢١٦) ، ولم يكن حسان ليختار الهند

بلا مغزى ونعود بالأحداث لعام (١٢٦هـ/٧٤٤م) عندما فر إلى الهند سليمان بن هشام أبو الغمر الأموي مع أتباعه من الخوارج ، واستقر في إقليم السند ولم يعد منه إلا بعد أن آمنه الخليفة العباسي ثم قتله^(٢١٧) برغم ذلك وجدت جاليات عربية من الخوارج في مدينة كولم وكان زعيمهم علاء الدين الأوجي من العراق^(٢١٨) وعلى الجانب الآخر نشط المستوطنون الهنود في البلدان العربية فظهر منهم موسى بن سيار أحد رموز المعتزلة وهو كبير رجال الأساورة وكان عالماً باللغات و يفسر القرآن بأكثر من لغة، وكان إبراهيم بن إسماعيل القيقاني من أبرز المتكلمين في مسألة خلق القرآن، وله مناظرات عظيمة مع الشافعي^(٢١٩).

عمل المستوطنون العرب علي نشر علم الحديث بالهند مثل الربيع بن صبيح السعدي ت(١٦٠هـ/٧٧٧م) وهو أول من ألف في هذا المجال بالهند ، وقد جذبت البلاد المحدث إسرائيل بني موسى البصري وهو من أتباع التابعين وهو ثقة من الطبقة السادسة وعنه أخذ سفيان الثوري وابن عينة^(٢٢٠) ، ومن المستوطنين الهنود نجد المحدث يزيد بن عبد الله القرشي البصري ، والعلامة الكبير إسماعيل بن إبراهيم القيقاني المعروف بابن عليه.

(ج) العادات والتقاليد بين المهاجرين العرب والهنود :-

نظراً للسيطرة العربية المتمثلة في المستوطنين العرب في مليبار فقد حاول الهنادكة تقليد العرب وخصوصاً في مجال المساواة والأخلاق حتى ولو بقوا على وثنتهم وادي ذلك لتحقيق وحدة في العادات التي ادخلها العرب للهند في الطعام والأزياء وغيرهما . وهذا ما دفع أبناء طبقة ناير إلى الدخول في الإسلام حتى يعاملوا بشكل طيب من أبناء طبقة بلين العليا^(٢٢١) ، وفي المنصورة تشابهت عادات العرب و الهنادكة تماماً فكان من الصعب التمييز بين الطائفتين، و يرصد لنا البيروني^(٢٢٢) ظاهرة مماثلة وضح من خلالها تعاقد العرب و الهنادكة من أبناء قبيلة رشيد التي ساد بين أبنائها نظاماً اجتماعياً عريقاً يلزم الجميع باحترام العادات والتقاليد ولا يحقر احد دين الآخر ، ولا يزدري عاداته ومن يخالف ذلك يعاقب بشدة.

اثر المستوطنون العرب في تغير عادات الهنود المستقبحة وخصوصاً تلك المتعلقة بالتضحية بأنفسهم أمام الأوثان إذا لم يجد الواحد منهم ما يقدمه من الخراف ، وانتشر بينهم التضحية بها في حال ولد لهم مولود جديد وهي تشبه العقيدة^(٢٢٣) ، كذلك القضاء على عادة

الدربستان وهي اختفاء الملك واحتجابه كحالة من الاعتراض السلمي و أظهر غضبه من الأهالي ، إلا أن ملوك العرب من بني لؤي و الهباريين امتنعوا عن تنفيذ تلك العادة ، وأصبح من عادات راجات مليبار الخروج للأهالي باستمرار، يلاحظ أن راجا مدينة كلم كانت له عادة مخالفة لذلك حيث كان يوكل أمور المملكة إلى الأمناء ويقضي معظم وقته في منطقة كاتشي أو مدهر للبحث في أمور الزهد ، واعتاد مقابلة الرحالة المسلمين ومناظرهم^(٢٢٤).

كافح المستوطنون العرب لأجل القضاء على عادة السوتي وهي حرق الأرملة نفسها عقب وفاة زوجها ، ومارست تلك العادة لأول مرة زوجة راجا داهر الذي خر صريعاً بعد هزيمته علي يد محمد بن القاسم ، وقد شجع العرب الأرامل الهندوكيات على محاولة العيش مرة أخرى^(٢٢٥) ، وعلى الجانب الآخر تأثرت المرأة العربية بالنساء الهندوكيات في عادات الزينة فاستعملن أغلى الثياب الهندية الموشاة بالذهب والفضة، وزينت يوقن بالزهريات الهندية، وملأت بماء يطيب لها من بنات الزعفران ، وقد حفظ الهنود بتغير عاداتهم وتقليد العرب على أعراضهم وكرمهم فحرمت الأغراض على الغرباء الأبالزواج^(٢٢٦) بينما كانت المرأة الهندية تفتخر إذا باعت شرفها مقابل الحصول على فيل.

وبفضل العرب هذب الهنود في الجنوب من عاداتهم المميتة ففي جزيرة ذيبة الهيل اعتاد الأهالي تزيين فتاة بكر ثم إدخالها إلى بدخانه - بيت الضم - المبني على حافة البحر، وتبقى هناك ليلة كاملة قبل ان تلقي حتفها في الصباح بهدف اتقاء شر جن البحر، وبفضل جهود المهاجرين العرب وعلى رأسهم الشيخ بركات تم القضاء على تلك العادة^(٢٢٧). نتيجة للهجرات العربية الهندية المتبادلة ساد في المجتمعين العربي والهندي عادات واحدة منها الوشم على اليدين والوجه وقد أخذت تلك العادة تقلص في الحجاز بعدما شدد الرسول (ص) على منع الوشم في حديثه - لعن الله الواثمة والمستوشمة - ، كما ساد اعتقاد عربي هندي في الاستنجاد بالكواكب لأجل المطر^(٢٢٨) ، وتأثر العرب بعادات الهنود الغذائية وخاصة تحريم أكل اللحوم وخصوصاً البقر وكان أشهر العرب المتأثرين بذلك أبو العلا المعري^(٢٢٩) وإن كان ذلك من باب الزهد وليس اعتقاداً وثياً كما كان عند الهنود.

قلدت النساء العربيات النساء الهنديات مثل تحريم الأذن حتى وإن لم يلبس فيها الحللي ، واشتهرت النساء الهنديات بمهارتهن في تحريم الأذن ومنهن السيدة سكر الهندية . ومن العادات العربية التي سادت في المجتمع المليباري تلك المتعلقة بالوفاة فإذا مات كبير العائلة

فان زوجاته تمكثن سنة كاملة لا يأكلن اللحم ولا يمضغن التبول ولا يراعون زينة ولا يقلمن أظافر^(٢٣٠) وكان النساء العربيات يفعلن ذلك مع إضافة لبس الثوب الأبيض.

نقل العرب للهنديات عادة البردة - الحجاب - حيث اعتادت النساء الهندوكيات الخروج سافرات متبرجات ، وساد في المجتمع نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي أثرت على المنبوذين من الرظ و السيابجة وطائفة ناير المليبارية^(٢٣١) . واعتاد الهنود زيارة المقابر والتبرك بالرموز الدينية مثل قبر الملك جيرمال في منطقة الشحر باليمن واحتفلوا بيوم إسلام الملك، واشترك العرب والهنود في مليبار في عادة وضع سراج موقد فوق ضريح السوالي بجانب الطعام والشراب و الحلوي^(٢٣٢) ويتعلق بهذا الأمر اشتراك كبار رجال الصوفية مع الأهالي في مليبار أثناء الاحتفال بالأعياد فيحملون المصابيح والحبوب ويوزعونها على الحضور، وأصبح يوم الجمع في الإقليم يوم عيد رسمي تلغي فيه الأعمال ويتفرغ الناس ليوهم سواء المسلمين أو الهنادكة^(٢٣٣).

تأثر هنود المليبار من طائفة ناير بالمستوطنين العرب فحددوا للزواج أياماً مثل الخميس والجمعة وكانوا قبل ذلك على العموم^(٢٣٤) ، ومن أشهر العادات المتعلقة بهذا الموضوع الحلف بالطلاق بدلاً من القسم وقد انتشرت تلك العادة بين الجند العرب في السند، وكان الذي اقر بها القائد سنان بن سلمه في عهد معاوية بن أبي سفيان وقال الشاعر في ذلك

رأيت هذيلاً أحدثت في يمينها طلاق النساء ما يسوق لها مهراً
لهان على حلفه أبى محبق إذا رفعت أعناقها حلقاً صفراً^(٢٣٥)

انتشرت في مناطق المستوطنين العرب بالهند بعض العادات القديمة ففي مدينة صيمور مركز البياسرة وهم أبناء التجار العرب سادة عادة الانتحار المعروفة بالجوهار ويمارسها الرجال حزناً على وفاة حاكمهم^(٢٣٦) ، وساد وضع علامة القشقة على الجباه وهي خاصة برجال الدين البراهمة، وترسم بالدم باستخدام بصمة الأصبع^(٢٣٧) وفي مليبار أيضاً سادت عادة التضحية بالنفس وفيها يستخدم الرجل اثني عشر سكيناً ويظل يطعن نفسه بواحدة تلو الأخرى بقصد التعذيب قبل قتل نفسه تقريباً للآلة^(٢٣٨).

كان العرب سبياً في إبراز عادات مليبارية خاصة بالطعام والشراب حيث ساد بين طبقتي بلين ونائر عادة بضرورة استحمام البلين إذا لامسه واحد من النائرين وتحطم الأواني التي

يأكل فيها المستوطنون العرب ، ووضع الطعام لهم على أوراق الموز^(٢٣٩) ، وإذا رغب السلطان الكافر منع عمليات البيع والشراب لسبب ماء فإنه يأمر غلمانه بوضع أغصان الأشجار على حوانيت التجار العرب^(٢٤٠) ، وفي الميراث كانت طائفة نائر تورث الأولاد من الأرحام ولا تورث من الأصلاب وورث مستوطني كتور العرب تلك العادة فهم يورثون كل من له صلة قرابة من الأم والأخوات ويكتفي الرجل بوضع خيطاً حول رقبة خطيبته كدليل على الرابطة بينهما^(٢٤١).

(د) أثر المهاجرين الهنود على الطعام العربي:—

يعتبر السمك من أهم الأغذية الهندية التي نقلت للعرب، وقد أعجب أمراء العرب بالسمك الهندي الذي نقله إليهم الزط مثل الأمير محمد بن سليمان زوج ابنة الخليفة المهدي وكان يملك في بيته خمسمائة سمكة من النوع كنعدة ، هذا وقد سطر الكثير عن السمك الهندي في الأراضي العربية ، وقيل أن بعض السمك كانت في حجم الجدي، وكان بعض المشاهير يشخصون لنهر السند جلب السمك مثل الطبيب إبراهيم بن قزارون ، واعتبر لحم الطواويس الهندية من اللحوم المميزة ، وكان الطعام المفضل للأثرياء العرب^(٢٤٢).

وعرفت الجاريات الهنديات بجودة طعامهن ومنهن السندية الطحانة البغدادية ، وعرف العرب صناعة الخل من ماء الأرز من الهنود الذين كانوا يطبخون الأرز^(٢٤٣). و حتى الأواني العربية المعروفة بالغضارة أصلها هندي كانت تصنع في مدينة كولم المليبارية^(٢٤٤) ، وتأثر الهنود بالمستوطنين العرب فكانت طبقة الجاويين تأكل باليد اليمني ، و خصصوا اليسري للأغراض المنحطة والمتدنية^(٢٤٥) ، واشهر الأكلات الهندية البهط وهي عبارة عن الأرز المطبوخ في الماء ويأكل بجانب لحوم السمك ، وقد أصيب الشاعر غالب بن عبد القدوس بعد أكله البهط فكتب يقول:

فأما البهط وحيثانكم فمازلت عنها كثير السقم^(٢٤٦)

اعتاد المستوطنين العرب في مليبار على نظام الهنادكة الغذائي حيث تنظم المائدة المعروفة بخونجة وفوفها طبق نحاسي كبير يعرف بالطالم وفيه يوضع الأرز وفوقه السمن وعناقيد الفلفل و الرنجبيل الأخضر والليمون المملح و العنبا ، ويوضع بجانبه طبق آخر يسمى الشكرجة وبدخله دجاجة ، وهم يختمون الطعام بشرب الكوشان — اللبن الرائب — وهي عادة

منتشرة أيضاً بين عرب المغرب^(٢٤٧) ، واعتاد العرب على خمر الهند المصنوعة من البلح، و استورد المستوطنون الهنود الخمر وسوقوها في بغداد مثل السيدة دوم السندي، وعرف نوع من الخمر الهندية باسم سكر الهند كان ولاية العرب يتناولوه بعد الفراغ من الغزو ، وهناك شراب الداذي وهو يضع خصيصاً من النارجيل^(٢٤٨) ، وتعاطي العرب حشيشة القنب الهندية وكان أول من ادخلها لليمن رجل هندي يعرف ببيرزطن وكان ممن اسلموا في العهد النبوي،^(٢٤٩) ، وقد بذل مستوطني مليبار العرب جهداً في التصدي لشرب الخمر، وطبق حد شراها بالضرب ثمانين جلده ، والسجن ثلاثة أشهر ، وأصبح تناولها عند قبائل المرهتا في الكجرات من أعظم المعائب^(٢٥٠).

(هـ) الملابس الهندية في البلدان العربية :-

كان للمستوطنين الهنود اثر في انتشار الأقمشة الهندية في البلدان العربية ومنها الململ و جهينط و روجال وتلك أسمائها السنسكريتية وعربت إلى قرض وشيت وقوطة وعلى الأخيرة أطلق أيضاً الإزار أو المنديل وكان الهنود يرتدون قوطتين بجانب ملاحف الحرير والكتان^(٢٥١) ، واشتهرت مراكز هندية بصنع الملابس التي كانت تصدر للعرب مثل الكجرات وفيها تصنع النمارق - الشلت - المحلاة بخيوط الذهب ، و أغطيـت الفراش الناعمة^(٢٥٢) ، أما مدينة تانه أحدي كبري المستوطنات العربية فكان يصدر منها الملابس التاشنية ، وبعض تلك الملابس صنعت في اليمن وصحار و نجران و أطلق عليها برد يمانية وحلل سحولية و أثواب نجرانية ، وكان بعض المستوطنين الهنود قد تميز بالتجارة في تلك الملابس مثل أحمد بن محمد الكرايسي وكان من كبار علماء الفقه^(٢٥٣) ، وكان للمستوطنين العرب في كيرله دوراً في تنشيط عمليات بيع الأثواب لعرب العراق والحجاز.

تأثر المستوطنون العرب في مدينة المنصورة والمثلتان بأثواب الهنود و أهمها القراطق والقمصان والأردية ، و عرفت الملابس الهندية المصنوعة من القطن الجيد بالسينسات وكانت تصدر من الهند إلى فارس ،^(٢٥٤) ومنها إلى الجزيرة العربية ، وكان للمهاجرين الهنود ثياباً خاصة بهم فالملابس السوداء كانت رمزاً للسياسة واشهر الملابس الكرتة - الجلباب - وعرفت عربياً بالقرطق ، وكانت شائعة عند ملوك العرب و امراءهم^(٢٥٥) ، وكان بعض تلك الملابس يتم صبغها بألوان هندية مثل القرمز والذي أطلق عليه أيضاً البقم،

وكان يأتي به من مدينة مليبار^(٢٥٦) ، واستخدم العرب عطر الكافور لتعطير الملابس الهندية، ولاستكمال الأناقة استخدم النيليج الهندي في دق الوشم على الوجه واليدين وهو يعطي اللون الأخضر المطلوب ، و حتى حلق الشعر فقد كان للزط قصة خاصة عرفت باسمهم وكان تشبه رسم الصليب^(٢٥٧).

أما النعال فكان أغلبها يستورد من الهند ، واستخدمها المهاجرون والمستوطنون العرب وعرفت بالكنباتية ، وكان واجباً على وإلى الهند أن يقدم ضمن خراج البلاد ألف نعل كنباتي في العصر العباسي ، وكانت تلك النعال تستخدم بكثرة في مناطق المستوطنين العرب في مكران^(٢٥٨) ، واشتهر عدد من المهاجرين الهنود بصنعها ومنهم غلام الأديب العربي الجاحظ وعرف باسم نفيس السندي ، وكان الجاحظ كثير التندر به^(٢٥٩).

(و) الموسيقى والألعاب و الأمثال الشعبية:—

انتشرت الموسيقى الهندية في الأراضي العربية في العصر العباسي بعد وصول مجموعة من المهاجرين الهنود حمل بعضهم كتاب يافر ومعناه ثمار الحكم فيه جوامع الأنغام و أصول الألحان . ولعب المستوطنون الزط دوراً في تطور موسيقاهم و أضافوا إليها نوعاً من النعم يشبه صوت البعوض^(٢٦٠) ، و بفضل جهود عائلة الموريا في الهند وجد المستوطنون العرب الغناء شائعاً فيها وكان هناك عدداً من المؤلفين و الملحنين ومن أشهر كتبهم في المستوطنات العربية ناتيا ساستي وفيه شرحاً وافياً للرقص والموسيقى الهندية ، والكتاب الآخر سلبا ديكرام كان شائعاً في إقليم السند^(٢٦١) ، ولاشك أن العرب عرفوا تلك الكتب وترجموها بعضها وخصوصاً مع ازدياد حركة الترجمة في العصر العباسي.

انتشر المغنين والمغنيات الهنود في بغداد وكان منهم المطرز السندي الذي كان له مكاناً في بلاط الخليفة المهدي، و المغني السندي بن علي الوراق البغدادي الذي كان وراقاً لإسحاق الموصلي وينسب إليه تأليف كتاب في الأغاني عرف باسم الشركة في احد عشر جزءاً ، أما خمار القندهارية فكانت تغني ما غناه إبراهيم الموصلي من شعر أبي حفص الشطرنجي وكانت تردد

إذا سرها أمراً وفيه مساءتي قضيت لها في ما تريد على نفسي

وما مر يوم ارتجى فيه راحة فأذكره حتى بكيت على أمسي^(٢٦٢)

ومن الألعاب الهندية التي دخلت البلدان العربية مع المستوطنين الهنود الشطرنج الذي أجازته الإمام الشافعي لتمرين العقل بخلاف باقي الفقهاء ، وقد ساد لعبه في مجالس مكة وأنديتها في القرن الأول الهجري ، وخصص له عبد الحكم بن عمرو الجمحي مكاناً للشطرنج في ناديه وكان الداخل إليه يعلق ثيابه على أوتاد خارجه ، وانتشرت مصطلحاته في أدبياتهم ، وضرب به المثل فقالوا إذا تكبر الصغير تفرزق البيدق ومن أمثالهم زاد في الشطرنج بغلة^(٢٦٣) ، وكان هارون الرشيد محباً للشطرنج ، وأهدي ملك العرب شارلمان شطرنجاً ، ونسب إليه قوم من العرب مثل أبو بكر محمد بن محمد الصولي الشطرنجي صاحب كتاب الشطرنج ، وكان من أهل البصرة ، وللجلال أبو الفرج محمد بن محمد عبد الله ت (٣٦١هـ/٩٧٢م) كتاب منصوبات الشطرنج ، ومن أبرز أشعارهم من ما ذكره ابن الرومي في أي القاسم الثوري الشطرنجي

تهزم الجمع أو حديا وتلوى بالصناديد أيما إلقاء

وتحط الرخاخ بعد الفرازين فتزداد شدة و استعلاء^(٢٦٤).

بجانب الشطرنج ساد بين العرب لعب النرد وهي هندية الأصل ولكنها لم تكن ذو شهرة نظراً لحرمتها ، وصدرت الهند للعرب الكلاب المعروفة بالسلوقية وهي نتاج الكلاب والثعالب ، وكان ميناء بروص مركزاً لها ، وقد تأثر العرب بحكم الهنود و منهم الأصمعي الذي سطر كتاباً بعنوان ملوك العرب الأوليين من بني هود وقدمه للخليفة المأمون وهو يشتمل على عدد من الحكم والأمثال الهندية المتعلقة بالحكم والسلطة^(٢٦٥) ، ومن الحكم والأمثال الشعبية التي راجت في المجتمع العربي وهي هندية الأصل - عدل السلطان انفع للريعية من خصب الزمان - ، شر مال مالا ينفق منه ، وشر الأخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البرئ - من التمس من الأخوان الرخصة عند المشورة ومن الأطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبهة أخطاء الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر - ، ستة أشياء لا ثبات لها ظل الغمام ، وخلة الأشرار وعشق النساء ، المال الكثير ، السلطان الحائر ، والثناء^(٢٦٦).

(ز) التصوف :-

إن التصوف الإسلامي بمعناه الكلي الذي يقتضي ضرورة تجرد الإنسان من متع الحياة والزهد في الدنيا حتى يتسنى له معرفة الذات الإلهية والوصول لمرحلة الاتحاد والحلول يجد له

صدي ممائل في التصوف الهندي الذي يبدأ بأخذ الإنسان قدر حاجته في المأكل والملبس وترك ما دون ذلك من الفضول وعدم قتل الحيوان ، وهنا يشير السيروني^(٢٦٧) إلى بعض كلام متصوفي المسلمين الذي يدل على الاتحاد بما ورد في كتب باتنجل المقدس فيقول - مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة . وبرغم هذا التشابه فإن الباحث المعاصر أي رحمان^(٢٦٨) يري فرفاً جوهرياً بين التصوف الهندي والعربي يتلخص في قدرة الثاني على الاندماج في المجتمع للقيام بدوره الايجابي في الحياة في أي وقت بينما الأول فإن حياة النسك يستطيع ان يؤجلها بعد التزاماته الأسرية وذلك بالانقطاع التام عن المجتمع.

بين هذين الرأيين كان للمهاجرين العرب والهنود دوراً هاماً في مجال التصوف إذ برز منهم أبا علي السندي ت (٢٦١هـ/٨٧٥م) الذي عرف بكونه واحداً من أشهر المستوطنين الهنود في مجال التوحيد والحقائق ، وتبني الرأي القائل بأن المعرفة إذا تغلبت على قلب العبد يري جميع الأشياء من الله بالله معلومة لله مردودة إلى الله^(٢٦٩) وبه تأثر أبو موسى الديلمي الذي داوم على الترويج لمقامي المحبة والرضا ومن أقواله الشهيرة ولم أزل ثلاثين عاماً كلما أردت أن اذكر الله اتمضمض وأغسل لساني إجلالا لله. وقوله : ما ذكروه الا بغفلة ولا خدموه الا بالفترة وأكثر الناس إشارة إليه أبعدهم منه^(٢٧٠) ، وكان لمثل هؤلاء الرجال أثر عظيم في الحياة الاجتماعية.

وتأثر المستوطنون العرب بالمتصوفة الهنود وخصوصاً الجوكيين في إقليم الكجرات، حيث وجدت طائفة عظيمة منهم في مدينة كجرا وتميزوا بطول شعرهم حتى تصير طولهم، وغلبت عليهم الصفرة و التقشف ، وساد اعتقاد بينهم أن من كان به عاهة أو مرض أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرأ بإذن الله . ونال المتصوفة العرب منزلة عظيمة في مليبار ، ولم تقتصر مسئوليتهم على الوعظ بل عملوا في مجال الطب^(٢٧١) ، وشيدت الزوايا العظيمة لهم ففي قاليقوط أقيمت زاوية كان المسئول عنها الشيخ أبي إسحاق الكازورني وإليه تجي نذور الهند و الصين ، وفي ذبية الهيل أقيمت زاوية باسم الشيخ الصالح نجيب وكان كل وارد يجب عليه زيارتها ، وفي جزيرة سيلان أقيمت زاوية للشيخ العربي عبد الله بن خفيف الذي أطلق عليه الأهالي الشيخ الكبير وهو أول من فتح الطريق أمام الزوار العرب لزيارة أثر سيدنا آدم^(٢٧٢).

ارتبطت نظرة الهنود للمتصوفة العرب بمكانتهم الدينية والاجتماعية المتميزة ومن هنا عظموا قبورهم ، وعلقوا على حناجر آبائهم صورهم بهدف التبرك بها ، وساد تقليد عربي قديم في مليبار يقضي بوضع الطعام والشراب و الحلوى فوق ضريح الوالي مع وجود سراج ليضي ليلاً للاعتقاد أنه يحتاج مثل تلك الأشياء ^(٢٧٣) ، وكان يشارك في تلك المراسم الاجتماعية الهنود والعرب.

(ج) المرأة المهاجرة بين المجتمعين الهندي والعربي :-

عانت المرأة الهندية قبل مجي العرب معاناة شديدة حيث نزلت النساء في المجتمع منزلة الإماء ، وكان الرجل يخسر أمراته في القمار ، وكان للمرأة في بعض الأحيان عدة أزواج فإذا مات زوجها صارت كالمثوودة وتكون هدفاً للإهانات والتخريج ^(٢٧٤) ناهيك عن انتشار عادة السوتي حيث فرض عليهن المجتمع حرق أنفسهن عقب وفاة أزواجهن ، وبس دخول العرب واستقرارهم انتشر بين نساء الهند عادة الحجاب وكن قبل ذلك يمشين في مناطق المنصورة والمثلثان متبرجات سافرات ^(٢٧٥) ، واعترف بحق النساء وبكرامتهن في المجتمع ودورهن الريادي فيه ^(٢٧٦) ، وكان ذلك تغييراً جذراً لوضع المرأة في الهند.

نشطت المستوطنات الهنديات في البلدان العربية مثل السيدة أخت السندي بن شاهيك والتي للأسف لم نعرف اسمها بالضبط ولكن كان أخيها عبد الجبار هو الموكل بالإمام موسي الكاظم في محبسه في عهد الخليفة الرشيد ، وقد اسند إلى أخته مراقبة الإمام في أيامه الأخيرة مما أتاح لها الفرصة لنقل المزيد من أخباره قبل وفاته ، وفي مجال الحضارة الإسلامية نجد السيدة خوله أم محمد الأكبر بن علي بن أبي طالب وكانت امة لبني حنيفة فصارت للإمام علي ، أما الإمام الحسين فقد تزوج إحدى المستوطنات الهنود وتدعي سلامة - غزالة - أحياناً فأنجبت له الإمام زين العابدين ^(٢٧٧) وكان لمثل هؤلاء السيدات منزلة اجتماعية عظيمة وهيبة دينية من جانب العرب والهنود.

وعلى الجانب الآخر لعبت المرأة العربية في الهند دوراً دينياً عظيماً وأشهرهن السيدة قمرية زوجة الداعية الإسلامي مالك بن حبيب التي نشرت مع زوجها بنشاط الدين الإسلامي في مليبار، وكان لها منزلاً في مدينة كولم كانت تستقبل فيه النساء الهندوكيات ،

وتستمر في إقناعهن بالإسلام ثم توضح لهن شرائع الدين ، وقد انتقلت إلى مئدن بـاكفور ، منجلور ، و كنجركوت لهذا الغرض^(١٧٨).

وكان للجاريات السنديات شهرة في تربية الأولاد والقيام على خدمة المنزل ومن هنا رغب العرب فيهن ومنهن السيدة حبابه جارية الخليفة يزيد بن عبد الملك و أم والى العراق يزيد من هيرة الفزاري ، أما السيدة خمار القندهارية البغدادية فقد عرفت بحسن صوتها و أنشادها الشعر غناءً وقد حظيت بمكانة رفيعة بين اهالى بغداد وحازت السيدة دوم السندية على منزلة رفيعة عند تجار بغداد واستطاعت أن تنمي تجارتها وتتحول من بيع النبل إلى تصنيعه فازدادت ثروتها و أصبحت تدين عليه القوم^(٢٧٩).

الحواشي

(١) قاضي أظهر المباركوي : العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت ، ط، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٣م ص ١٦ ، ١٧ - الأبله. بلدة علي شاطي فر دجلة في زاوية الخليج الداخل إلى البصرة ، وهي أقدم من البصرة ، وكانت تعتبر إحدى جنات الدنيا مع دمشق و بلخ (ياقوت الحموي : شهاب الدين أبي عبد الله الحموي ت (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) معجم البلدان ، ط دار صادر ، بيروت ١٩٨٤م / ٧٧) أما الدليل فهي تقع علي شاطي البحر ضمن حدود جمهورية الباكستان وتعرف حالياً بكراتشي.

(٢) شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ط عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠م ، ص ٩٢ :

الكحرات: تبلغ مساحة إقليم الكجرات ٤٨٥ كم طولاً، و ٤٣٥ كم عرضاً، ويحتوي الإقليم علي تسعة سرकारات ، و ١٨٨٨ بركانة ، طبقاً للتقسيم الإداري الهندي، ويقع الإقليم علي البحر العربي المحيط الهندي - ومن أشهر مدنه سورت، بروج، كمباي ، و سومنات وكانت مدينة محمود آباد هي حاضرتة في العهد الإسلامي Hakim Syed Abdul Hai: India Durin Muslim Rule. Lucknow 1997 .P 69,68

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م ، ١١٦/٤ .

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٤٠٠ .

(٥) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤/ ١٦٤ .

(٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين العرب والهند ، ثقافة الهند ٢/ ١٩٦٠م ، ص ١٠٣ .

(٧) محي الدين الألوني : ما بلا ، ثقافة الهند ، ٤/ ١٩٥٥م ، ص ٣٥ .

(٨) ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت (٧١١هـ / ١٣١١)، لسان العرب ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ٥٤/٦ .

(٩) الفلقشندي : أبو العباس أحمد ت (٨٢٠هـ / ١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الانشا، ط الهيئة ٤/ ٢٠٠٤م ، ٦٢/٥ .

(١٠) ابن منظور : لسان العرب ، ٥/ ١٥٩. مقبول أحمد: العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٤ .

(١١) ابن منظور : نفس المصدر، ٥/ ١٩٤ .

(١٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ٥/ ٦٣ ، شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي ، ص ١٣٦ ، ١٣٩ .

- (١٣) الألوآتي : مابلا ، ص ٣٧ .
- (١٤) أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى ، المؤرخ العربي، ١٣/١٩٨٠م، ص ١١٨ .
- (١٥) ، السيد أبي النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مأرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند ١٩٥٥/٤ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
- (١٦) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٥ .
- (١٧) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤٢٤/٥ ، ٤٢٥ .
- (١٨) أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، ط دار نهضة الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٤٧ .
- (١٩) المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر العربي ، بيروت ، ١٩٤٨م ٢/٢٣٦، ٢٣٧ . وهذه البيوت هي بيت فارس على جبل أصفهان ، وسومناات في الهند ، وتوهار في بلخ ، بيت غمدان في اليمن على كوكب الزهرة ، وهيكل الشمس في فرعانه وهيكل الصين ، والكعبة في مكة على كوكب زحل حيث أعتقد الهنود أن سبب بقائها أنها بنيت على اسم وطالع كوكب زحل فكان لها منزلة عندهم، ولزيت من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع (المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٩٣ ، ٩٤) .
- (٢٠) المقديسي : شمس الدين البشاري ، ت (٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤ ، ص ١٣ ،
- (٢١) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو : ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ومنها للعربية عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م ، ٦٢/٣ . والمعروف أن هذا الجبل يعرف بجبل السرهن ، وأن أول من أطلق عليه جبل آدم هم البرتغاليون وقبل ذلك عرف بأثر آدم ، والمقصود بقبر سوجر هو المعلم بوذا مؤسس نظام السنجالين البوذي وكان من ضمن أسمائه سوجر موني أي الحكيم الأريب، وكلمة بركهان المضافة هنا معناها الإله في لغة التار وهم الذين اعترفوا بالوهية بوذا (أنظر تعليقات وليم مارسدن ٢٠٣/٣) .
- (٢٢) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢١٧/٥ .
- (٢٣) جواد على : نفس المرجع ، ٢١١/٩ .
- (٢٤) ابن النديم: محمد بن اسحق البغدادي : ت (٣٨٥هـ/٩٩٥م) الفهرست، ط دار المعرفة ، بيروت، ١٩٧٨م ، ص ١٧٢ . عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة الهندية في اللغة العربية ، مجلة صوت الشرق، عدد ٤٢٣ ، ٢٠٠٤ ، ص ٦١ ، ٦٠ .

(٢٥) ابن منظور : لسان العرب، ١٧١، ٤١٩/٥.

(٢٦) زيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي ، طهضة مصر ١٩٩٥ م.

(٢٧) ابن السديم : الفهرست ، ١١٨، ٣٨٠، ٣٨٣، ٤٢١.

(٢٨) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦/١ ، ص ٤٥ ، مليار: يطلق عليها ماآبار و موآبار و مالابار و معناها حيزة أو معبر وعرفت قديماً باسم هيبالوموسري وحالياً أطلق عليها كيرله ، وطرحت في المصادر العربية باسم منيار وهي تقع في الشرق من بلاد الكجرات وهي مركز الفلفل وأهم موانئها كولام ، سيل، شول — كوتش، سورات، كراتور (الألواني مليار ، ثقافة الهند، ١ ، ١٩٥٦/٢م، ص ٣١، ٣٥) . وانظر في نفس المعنى (ماركوبولو : الرحلة ، ١٨٤/٣)

(٢٩) ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م، ص ٥٦٨، ٥٦٩ ، لمزيد من التفاصيل حول المفردات العربية في اللغات الهندية ، راجع مقالتي السيد محمد أجمل حان بعنوان الكلمات العربية والفارسية في اللغات الهندية ، ثقافة الهند سبتمبر ، ١٩٦٠ ، يناير ١٩٦١ م.

(٣٠) البلاذري - أحمد بن يحيى بن عبد جابر البعادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م) ، فتوح البلدان ، مراجعة وتحقيق رضوان محمد رضوان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٤١٩

(٣١) الاصطخري: أبي إسحاق الفارسي الكرخي ت (٣٠٩هـ/٩٥١م) ، المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبد العال ، ط وزارة الثقافة ، ١٩٦١م ص ١٠٤ . السادتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ، ص ٤٩ . جندواره تقع على بعد نصف فرسخ من مدينة الملتان راجع أحمد إبراهيم علي . إقليم الهند الإسلامي من الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة ممالك الهند ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، المنيا ٢٠٠٠م، ص ١٧، ١٥.

(٣٢) اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) ، تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت ب ، ت ، ٤٠٩/٢ . الملتان " تبلغ مساحة إقليم الملتان ٦٤٨ كم. يحدها من الشرق فيروربور ومن العرب سيوستان، وقاعدة الإقليم مدينة المعروفة بنفس الاسم وكان يطلقه العرب عليها بيت الذهب لما وجدوه فيها من ذهب وإليها تسب الملابس الملتانية وتقع على خط طول ١٢، ٣٠ شمالاً و ٧١، ٣٩ شرقاً . Hakim: O p.Cit.p.64

(٣٣) اليعقوبي : نفس المصدر، ٤٠٩/٢.

(٣٤) الحسيني . عبد أخي الحسيني ، نزهة الخواطر وهمة المسامع و النواظر ، ط دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٣٣/١ ، ٣٤

(٣٥) ابن الأثير : عز الدين بن الحسن على بن أي الكرم محمد الشيباني، ت (٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ، ط مكتبة العرب ، الفجالة، ب/ت أحداث سنة ١٥١هـ/٥٠٠، ٢١١، ٢١٢.

(٣٦) المباركوري : رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ط دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ ، ٣٥٣/١.

(٣٧) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية ، ص ٦١.

(٣٨) ماركوبولو : رحلات ماركوبولو ، ٤٢/٣.

(٣٩) المسعودي : مروج الذهب ، ٣٦٧/٢.

(٤٠) اللاهوري : مفتي على الدين ، عبرت نامة ، ط لاهور ١٩١١ م ، ٣٤/١.

(٤١) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١٠.

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، صيمور : أحد أهم موالي إقليم الكجرات على ساحل الهند العربي وتعرف أحياناً باسم شول Chool عنها انظر (أي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ثقافة الهند ، ١٩٦٦م ، ص ٥٣).

(٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٢٣.

(٤٤) E.B.Havell. Aryan Rule in India. London N.D. p.253.

(٤٥) الألواني : مابلا ، ص ٣٢.

(٤٦) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧م ، ٢٤٩/٢.

(٤٧) فرشته : محمد قاسم هند رشاه ، ت في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري ، كلزار إبراهيمي ، ط بمباي ١٨٣١م ، ٧٠١ / ٢. باختلاف المؤرخين ذكر فرشته أن ذلك الأمر وقع في عهد الرسول (ص) بينما يذكر المؤرخ العربي زين الدين المعبري أن هذا وقع في القرن الثاني الهجري ، ولكن الأبحاث الحديثة تؤكد وصول مالك بن دينار للهند عام (٢١٩هـ/٨٢٤م) ، (الألواني : مابلا ، ص ٤٧).

(٤٨) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن و آخرون ، مكتبة النهضة المصرية ب/ت ، ص ٢٢٧.

(٤٩) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية، بيروت ، ٢٠٠٦م ، ٣٠٩/٦ ، ٣١٠.

(٥٠) ابن القفطي : جمال الدين أبي الحسن على ت (٦٤٦هـ-١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتنبي ، القاهرة ، ب/ت ، ص ١٧٧.

(٥١) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ، ٢٠٠٣ م ، ص ٤٤٠ ، كشمير : تمتد مساحة إقليم كشمير لتصل إلى ١٩٣ ك.م طولاً في ٩٧ ك.م عرضاً ويحد الإقليم شمالاً الصين وتركستان وجنوباً البنجاب والتبت شرقاً وأفغانستان غرباً واشهر مدنه سرنجان

- (٥٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٨٤، ٤٢١، ٣٤٢ . ابن القفطي : أخبار العلماء ، ص ١٧٥ .
- (٥٣) المباركوري : رجال السند والهند ، ٣٤٩/٢ ، ٥١٦ .
- (٥٤) أحمد الشامي العلاقات التجارية بين دول الخليج والشرق الأقصى ، ص ٨٨ .
- (٥٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤١٧ . قنديل ، تقع في إقليم السند ، وهي قصبة ولاية البدهة ومنها إلى المنصورة ثمان مراحل اليوم يقال لها كنداوة وهي ولاية في منطقة قلات (المباركوري، رجال السند والهند، ٣٧/١). لاهور : قاعدة إقليم البجانب يحدها شرقاً دهلي وغرباً الملتان وكشمير شمالاً و راجستانا جنوباً بطول ٢٨٣ كم وعرض ١٣٨ كم وأشهر مدن الإقليم سيالكوت، ونكر كوت و امرتسار
Hakim:O p.C it.p.p 61
- (٥٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢٣٤/٢ . القيقان . هي من بلاد السند مما يلي خراسان مباشرة ضمن ولايات إقليم قلات و اشتهرت بالخیل البراذين ، فاحت في عهد علي بن أبي طالب وفتحها الحارث بن مرة العبدي(المباركوري : رجال السند والهند ٣٨/١).
- (٥٧) اليعقوبي : نفس المصدر ، ٢٩٦ ٢٠ .
- (٥٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥١/١ .
- (٥٩) المباركوري : رجال السند الهند ، ٤٥٥/٢ ، برهمناباد : وهو الاسم القديم لمدينة المنصورة قاعدة الحكم العربي في إقليم السند وقد غير اسمها إلى بهاكر على قمر السند . Hakim Op .C it. p.64.
- (٦٠) المباركوري : نفس المرجع ، ٤٥١/٢ .
- (٦١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢ ، ٣٧٣ .
- (٦٢) المباركوري : رجال السند والهند ، ٥٢٣/٢ .
- (٦٣) المباركوري : نفس المصدر ٤٦٠/٤٦١ . أرمانييل : هي اليوم مدينة رمن بيله التي تقع في كورة قبيلات وهي قصبة لمديرية تسي بيله على ستين ميلاً في كراتشي حالياً (المباركوري . رجال السند والهند، ٤٦١/٢)، وكانت مراكز بني تميم في البصرة والبحرين و اليمامة و الكوفة وهي من القنائل التي قاتلت الحسين وشيعته، وحاربت المهالبة عام (٦٥هـ)، وحاربت ربيعة المتمركزة في خراسان في نفس العام ، وغزة الترك في أعوام (١٠٢، ١١٠، ١١٢هـ) (عمر رضا كحالة:معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٤ م، ١/١٢٧، ١٢٦، ١٢٥).
- (٦٤) ابن الأثير :.الكامل ،أحداث ١٠٢هـ-٣٣/٣٢، وأحداث ١٥٧هـ-٥/٥.

- (٦٥) الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة ، ب / ت ، ٤٦٥/٧ .
- (٦٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٣١ .
- (٦٧) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٢/١ .
- (٦٨) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي / ٣٧٢/٢ .
- (٦٩) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٨/١ .
- (٧٠) المباركوري : رجال السند والهند ، ٤١٤/٢ ، ٤١٥ ، ٤١٩ .
- (٧١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٣ ، ١٣١ .
- (٧٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٤٦٥/٧ .
- (٧٣) المباركوري : رجال السند والهند ، ٣١٨/٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٤ .
- (٧٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٣٣/٨ ، ٣٧ .
- (٧٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨،٣٧٣/٢ باريد هي الآن بما بهاموت الكجرات - وذكر أن ولاية قندهار يقصد بها كندها الواقعة أيضاً في إقليم الكجرات على ساحل الهند الغربي (المباركوري . رجال السند والهند ، ٥٤٦/٢) ولا يجب اعتبارها مدينة قندهار الأفغانية .
- (٧٦) الاضطخري: المسالك والممالك ، ص ١٠٤ .
- (٧٧) الحسيني: نزهة الخواطر، ٤٤/١، ٣٤ .
- (٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٩٩/١ ، ١٩٧ ، أنظر أيضاً أحمد إبراهيم على : إقليم الهند الإسلامي منذ الفتح الغزنوي حتى نهاية دولة ممالك الهند ، ص ١٦ .
- (٧٩) أي. رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٦٧/٤ ، ص ٣٢ .
- (٨٠) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ١٤٨/١ ن ١٥٠ .
- (٨١) Havell: Op.Cit. p.250
- (٨٢) أي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ص ٣٣ .
- (٨٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٢٨/٨ . المنصورة مدينة مقدرها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ، يحيط بها خليج فخر مهران وهي شبيهة بالجزيرة (الاضطخري، مسالك المالك، ص ١٠٣) .
- (٨٤) المباركوري : رجال السند والهند ، ٤٦٥/٢ ، ٤٦٦ .
- (٨٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٤٠٩/٢ .

- (٨٦) المباركوري : رجال السند والهند ، ١/١٦٧ .
- (٨٧) المسعودي : مروج الذهب ، ١/٩٩٩ ، ٦٧ .
- (٨٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦١ ، كتابت : أحدي مدن ساحل الكجرات تضاف إليها النعال الكسائية ويطلق عليها أحيانا كهمناب وتزداد أهميتها الاقتصادية كمرفيء بحري بالإضافة لإشرافها على ممر نربدا (المباركوري : رجال السند والهند ١/٤٠) .
- (٨٩) Havell: Op. Cit. p.252
- (٩٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ١/٤٣ .
- (٩١) المسعودي : مروج الذهب ، ١/٩٩ .
- (٩٢) المباركوري : رجال السند والهند ، ٢/٥٤٨ .
- (٩٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٧/٤٦٥ .
- (٩٤) ابن الأثير : الكامل ، أحداث ١٧٦ هـ - ٦/٤٦ ، ٤٥ .
- (٩٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢/٣٩٨ ، ٤٠٩ .
- (٩٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ١/٥٨ .
- (٩٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢/٣٩٨ ، الساداني : تاريخ المسلمين ، ص ٥٩ .
- (٩٨) الاصطخري : المسالك و الممالك ، ص ١٠٣ .
- (٩٩) ماركو بولو . الرحلة ، ٣/٤٢ .
- (١٠٠) توماس اربولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٨ .
- (١٠١) المباركوري : العرب في عهد الرسالة ، ص ٦٧ .
- (١٠٢) Kaummab Phil. Kashmir its cultural Heritage Bombay 1952. p.155.
- (١٠٣) حواد علي : الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٤/٣٠٨ ، ٦٦٤ .
- (١٠٤) ابن منظور : لسان العرب ، ١/٣٣٣ .
- (١٠٥) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
- (١٠٦) ابن منظور : لسان العرب ، ٣/٣٦٣ ، ٣٦٢ المباركوري نفس المصدر ، ص ٦١ .
- (١٠٧) المباركوري : نفس المرجع ، ص ٦١ ، ٦٣ .
- (١٠٨) علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٨٨ .

- (١٠٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٦٢.
- (١١٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٦/١.
- (١١١) المباركوري: العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٧٩.
- (١١٢) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١/١.
- (١١٣) أحمد شودري : فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري ، موقع إسلام أون لاين ، ص ٥.
- (١١٤) المسعودي : مروج الذهب ، ١٢٠/١.
- (١١٥) المباركوري : رجال السند والهند ٢٦٢/١.
- (١١٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٥/١.
- (١١٧) أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . ط الهيئة ٢٠٠٣م ، ص ٢٤ . وأصل الكلمة. شو بمعنى حصان و وار بمعنى مرتفع في السنسكريتية ، و ربما تكون أسب سوار بمعنى الحصان المرتفع في الفارسية واستعمل العرب اللفظة بمعنى قائد الجيش (المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٧٢).
- (١١٨) المسعودي : مروج الذهب ، ٣١٩/٢.
- (١١٩) البلاذري : فتوح البلدان . ص ٣٦٤، ٣٦٥.
- (١٢٠) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ص ٧١ ، ٧٧.
- (١٢١) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ص ١٩/١.
- (١٢٢) علي منصور نصر : الجماعات الزطية ، ص ١٩٠.
- (١٢٣) S.M.Jaffar: Medieval India undar Muslims Kings New Delhi 1972. p.83.
- ويطلق على الزط أحياناً الجت ، وجاء لفظ الميد من عملهم المستمر في البحر ، ويقال ماد به البحر يميند فتعفن نفسه من نتن ماء البحر ن وتنطق الزط بكسر السين في دمشق ، وزط فارس أطلق عليهم كات، يظهر لهم تسميات أخرى مثل النور أو زيكان أو الكاولية والتسمية المتداولة حالياً الفجر (علي منصور نصر: الجماعات الترطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٨٥ ، ١٨٦).
- (١٢٤) جواد علي : الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٨٩/٤.
- (١٢٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١ . وعندما فرض العباسيون لس السواد قال أبو عطاء انسـ ي ، وكان من المهاجرين الهنود وصاحب بشرة سوداء. كسيت ولم اكفر عن الله نعمة سواداً إلى لوبي ودناً ملهوجاً (أحمد أمين صحي الإسلام ، ٢٥٠/١).

- (١٢٦) المباركوري : رجال السند والهند ، ٨٣/١
- (١٢٧) المباركوري : العقد الثمين في فتوح البلد الأمين ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين ، ط دار الأنصار ، القاهرة ، ص ٤٣.
- (١٢٨) على منصور نصر : الجماعات الشرطة ، ص ١٩١.
- (١٢٩) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣٩٨/٢ / البلاذري . فتوح البلدان ، ص ٤٣٣.
- (١٣٠) هماميون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٥/٣ ، ص ١٤
- (١٣١) الألواتي : مابلا ، ص ٥٨/٥٩. وينقسم اسم مليار إلى مل العربية وهي احتصار ملئ بمعنى كثير وبار الفارسية بمعنى جبل وهو اسم أطلقه التجار العرب والفرس على إقليم كبير له
- (١٣٢) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦.
- (١٣٣) أي رحمان : التأثير العلمي العربي في الهند ، ص ٣٢
- (١٣٤) محمد أبو الصلاح : البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٦ ، ٤٥.
- (١٣٥) الألواتي . مابلا ، ص ٣٤.
- (١٣٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧٣ . ٥٦٨ ، ويطلق عليها القلقشندي بأسرور وهي أول بلاد المليار من الغرب (صبح الأعشي ، ٧٤/٥).
- (١٣٧) محمد أبو الصلاح . البيروني يسيح في الهند ، ص ٤٥.
- (١٣٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ وتقع مدينة هيلي جنوب مليار وتعرف باسم مقلور ، و جرفتين في جنوب هيلي وبينها ثلاثة فراسخ ، أما فتن فهي تقع على حور كثير البساتين وبها النارجيل والفلفل. و منجرور تقع شرق بأسرور وهي أكبر بلدان المليار (القلقشندي ، صبح الأعشي ، ٧٤/٥).
- (١٣٩) القلقشندي : صبح الأعشي ، ٧٥/٥ . وتقع كولم أو كولام و أحيانا أو كولم في منطقة ترافنكور حالياً (شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص ١٨٩).
- (١٤٠) فرشته : كلزار إبراهيم ، ٧٠٢/٢. وهذه المراكز هي جوا ، كويلون ، كرانغلور ، بلي برم ، ويب ، كوجين ، كوشتن ، جاليم ، بربنغادي ، ترورنغاوي، ثانور ، برون ، فنان ، وليكود ، ، فاكثور ، منغلابرم، فاسركود ، نادا برم، دليطنم، كنور ، و هرمندم ، جملود ، و ترويكادي (الألواتي : مليار، ص ٥٨).
- (١٤١) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١ / ١.
- (١٤٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٣١٦/٢.

(١٤٣) Aziz Ahmed: An intellectual History of Islam in India Edinpdgrh. U.S.A. 1958. p.22.

(١٤٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦١ . وتقع تلك المدينة على خط عرض ١٩,٢٢ درجة شمالاً ٧٢,٣٨ شرقاً وتعرف حالياً بكومباني وهي تشتهر بمساجدها العريقة Hakim:O p.Cit.P77

(١٤٥) فيصل السامر : الإسلام في اندونيسيا ، عالم الفكر سبتمبر ١٩٧٩م ، ص ٤٨٠ .

(١٤٦) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ١٣٠ ويطلق عليها قنانه والنسب إليها تانتي حيث الطول مائة وأربع عشر درجة وعشرون دقيقة والعرض تسع عشر درجة وعشرون دقيقة ، وهي على مشارف الكجرات (القلقشندی : صبح الأعشي ، ٧١/١ ، ٧٢) .

(١٤٧) أبي ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٥٣/٢ ، وتقع تلك المدينة على ساحل الكجرات على خط عرض ٢١,٤ شمالاً و ٧٠,٢٦ شرقاً .

Hakim :Op .Cit. p. 68

(١٤٨) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ .

(١٤٩) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١١ .

(١٥٠) المباركوري : رجال السند و الهند ، ٨٣/١ .

(١٥١) البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، ط المتني ، ص ٤٨ .

(١٥٢) الاضطخري : المسالك والممالك ، ص ١٠٤ .

(١٥٣) Havell: Op .Cit. p.25

(١٥٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، المقديسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٧٩ .

(١٥٥) المباركوري : رجال السند والهند ، ٣٢/١ .

(١٥٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ٤٣٢ .

(١٥٧) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٢٤/١ ، ٥٦ .

(١٥٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٥٤٥ ، ٥٥٧ .

(١٥٩) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٢٣ ، يطلق عليها حالياً سيلان في جنوب الهند .

(١٦٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٨٠ ، ٥٨٤ وتسمى حالياً جزر المالديف وتكون ١٠٨٧ جزيرة

(١٦١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٥٦٣ . الألواناني : مابلا ، ص ٤٩ : ٥١ .

(١٦٢) فيصل السامر . الإسلام في اندونيسيا ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

- (١٦٣) محسن الأمين : دائرة المعارف الشيعية ، ٣٠٩/٦ .
- (١٦٤) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١١٠ .
- (١٦٥) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٤/١ ، ٤٤ .
- (١٦٦) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٦٦٧/٢ .
- (١٦٧) علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٣ .
- (١٦٨) مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ص ١٠٩ .
- (١٦٩) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢٠٠/٤ .
- (١٧٠) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٨٥ .
- (١٧١) الألواني : مابلا ، ص ٤٦ ، ٤٧ .
- (١٧٢) علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٣ .
- (١٧٣) المباركوري : رجال السند والهند ، ١٨٠/١ ، ٢٦٢ ، ٢٩٤ .
- (١٧٤) اللاهوري : عبرت نامه ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
- (١٧٥) الألواني : مابلا ، ص ٣٨ .
- (١٧٦) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٢٩ .
- (١٧٧) ميرزا قتيل ت (١٢٣٣هـ - ١٨١٨م) ، هفت تماشا، ثقافة الهند ، ١٩٦٤/٤ ، ص ٢٧ .
- (١٧٨) المسعودي : مروج الذهب ، ١٠/١ ، ١٦٧ .
- (١٧٩) محمد أبو الصلاح : البيروني يسبح في الهند ، ص ٤٥ ، ٤٦ .
- (١٨٠) محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١٩٦٠/١ ، ص ١١٧ .
- (١٨١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٥٤٥ ، ٥٥٧ ، الألواني : مابلا ، ص ٥١ .
- (١٨٢) انظر ملحق رقم (١) .
- (١٨٣) المباركوري : العرب والهند ، ص ٥٦ ، ٧٤ ، ورجال السند والهند ، ٦٢/١ ، ٦٨ .
- (١٨٤) محمد يوسف النجرمي : بدء العلاقات العملية بين الهند والعرب ، ص ١٠٣ .
- (١٨٥) المباركوري : رجال السند والهند ، ١٣٨/١ ، ١٤٤ .
- (١٨٦) ابن النديم : الفهرست ، ٣١٨ ، ٣١٧ . المباركوري : المرجع السابق ، ٦٢/١ ، ٩٨ ، ١٣٨ .

(١٨٧) ابن النديم : نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ٦٩ ، ٢٨٤ . المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة . ص ٥١ ، رجال السند والهند ١/١٦٤ . والإمام أبو حنيفة فأسمه النعمان كان بديلاً عن الروطي . وأيضاً كان يضاف لاسمه ماه شاه أو مرزبان وهو لقب لنائب الحاكم في فارس ، و الأوزاعي قيل أنه من أهل السند طبقاً للذهبي في تذكرة الحفاظ ، وفي بعض الروايات الأخرى ينسب إلى الأوزاع وهي بطن من ذي الكلاع باليمن أو همدان ، أو قرية من دمشق ، واعتمد المباركوري علي رواية الذهبي في نسب الأوزاعي إلى الهند .

(١٨٨) علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، ص ١٨٨ ، ١٩٣ .

(١٨٩) الألواتي : ما بلا ، ص ٤٨ .

(١٩٠) جواد علي : الفصل في تاريخ العرب ، ٦/٦٩٥ ، ٧/١٤٣ ، ١٤٤ ، ٦٩٦ .

(١٩١) المباركوري : الهند في عهد الرسالة ، ص ٦٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(١٩٢) البيروني : الهند ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٨٣ .

(١٩٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسان الاقتصادية ، ثقافة الهند . ٣/١٩٥٥ م ، ص ٢٨ ، قال الشاعر العربي أبو نواس وهو في سحره المسابيح في ذراعي و المصحف ف في لبي مكان القلادة .

(١٩٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٣ .

(١٩٥) البيروني : الهند ، ص ٢١ ، ٢٢ . وللمزيد ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٨٦ : ٤٨٤ .

(١٩٦) الحسيني : نزهة الخواطر ، ١/٣٦ .

(١٩٧) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٥٣ .

(١٩٨) الأشعري : الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ / ٩٣٦م) ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تصحيح هلموت ، ريتز ، ط الذخائر ٢٠٠٠ م ، ص ٦ ، ١١ ، ١٤ .

(١٩٩) أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ١/٢٥٨ .

(٢٠٠) الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ص ٤٦ .

(٢٠١)

Jaffar: Op. Cit.p.156

(٢٠٢) الألواتي : مليار ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٠٣) هاميون كبير : المسلمون في الهند ، ص ١٤ .

(٢٠٤) همايون كبير : نفس المرجع ، ص ١٣ ، ١٤ ولمزيد من التفاصيل حول هذه الأفكار بالتفصيل راجع ، ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الهند وجيرانها ترجمة ذكرى نجيب محمود ، ط القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢٠٥) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ص ١١٤ ، ١١٥.

(٢٠٦) همايون كبير ، المسلمون في الهند ، ص ١٥.

(٢٠٧) ديورانت : الهند وجيرانها ، ص ٢٢٨ ، ٢٧٦.

(٢٠٨) فرشته : كلزار إبراهيمي ، ٧٠١ / ٢.

(٢٠٩) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ٢٣١ ، ٢٣٤.

(٢١٠) الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ٢١١ ، ٢١٢.

(٢١١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧١ ، ٥٨٤.

(٢١٢) Aziz : Op. Cit.p.1

(٢١٣) المباركوري : رجال السند والهند ، ٥٠/١.

(٢١٤) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤٥/١ ، ٥٣ ، ٥٤.

(٢١٥) أحسن التقاسيم : ص ٣٨١.

(٢١٦) الساداتي : تاريخ المسلمين ، ص ٥٨.

(٢١٧) المباركوري : رجال السند والهند ، ٤٢٢/٢ حيث قال الشاعر سديف للعباس في قالب شعري.

لا يغرنك ما تري من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا تري على ظهرها أموياً

(٢١٨) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٧٥.

(٢١٩) المباركوري : الرسالة ، ص ٧٧ ، رجال السند ، ٦٢/١.

(٢٢٠) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٤١/١ ، ٤٥.

(٢٢١) الألواني : مابلا ، ص ٤٩.

(٢٢٢) أبو الصلاح : البيروني يسبح في الهند ، ص ٤٦.

(٢٢٣) اللاهوري : عبرت نامه ، ص ٥١.

(٢٢٤) أبو الصلاح : البيروني : يسبح في الهند ، ص ٤٤ ، ٤٥.

- (٢٢٥) Hasan Ali Nadwi Muslims in India. Lucknow.1970 p.10.
- (٢٢٦) أحمد الشامي: العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص ١١٤، ١١٥.
- (٢٢٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٨٥.
- (٢٢٨) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ١٢٦.
- (٢٢٩) البيروني : الهند ، ص ٢٣
- (٢٣٠) زبيد أحمد : ما تبرع به الهند للآداب العربية ، ثقافة الهند، ١٩٥٤/٢، ص ٢٠.
- (٢٣١) Hasan..Ali:Op.Cit.p.6
- (٢٣٢) أي رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ص ٤٩.
- (٢٣٣) الألواني : ما بلا ، ص ٤٨.
- (٢٣٤) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٣١.
- (٢٣٥) المباركوري : رجال السند والهند ، ٣٣٣/٢.
- (٢٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، ٢١٠/١ ، ٢١١.
- (٢٣٧) اللاهوري : الرحلة ، ص ٤٨ ، ٦٢.
- (٢٣٨) ماركوبولو : الرحلة ، ص ٤٧/٣ ، ٤٨.
- (٢٣٩) الألواني : ما بلا ، ص ٤٨ ، ٦٢.
- (٢٤٠) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٥٦٨.
- (٢٤١) زبيد أحمد : ما تبرعت به الهند للآداب العربية ، ص ٢٠ ، ٢١.
- (٢٤٢) ابن القفطي : أحبار العلماء ، ص ٥٣ ، ٥٤.
- (٢٤٣) المباركوري : رجال السند والهند ، ١٤٨/١ ، ٤٨٨/٢.
- (٢٤٤) عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الأردوية ، ص ٥٩.
- (٢٤٥) ماركوبولو : الرحلة ، ٤٧٣/٣.
- (٢٤٦) المباركوري : رجال السند والهند ، ٤٧٣/٢.
- (٢٤٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ٥٦٥ ، ٦٠٧.
- (٢٤٨) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٥٦/١.
- (٢٤٩) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ١٠٢.

- (٢٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٦٠ .
- (٢٥١) أبو ظفر الندوي : أسطول كجرات ، ٩٥/١ .
- (٢٥٢) ماركوبولو : الرحلة ، ٧٢/٣ .
- (٢٥٣) المباركوري : العرب والهند ، ص ١٢٤ ، رجال السند ، ٥٢/١ .
- (٢٥٤) الاضطخري : المسالك و الممالك : ص ١٠٥ .
- (٢٥٥) المباركوري : العرب والهند في عهد الرسالة ، ص ٤٠ ، ٦٢ .
- (٢٥٦) الفلقشندی : صبح الأعشي ، ٧٤/٥ ، ٧٥ .
- (٢٥٧) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في اللغة الأردية ، ص ٥٧ ، ٥٨ . المباركوري : رجال السند والهند ، ٢٥٤/١ .
- (٢٥٨) المقديسي : أحسن التقاسم ، ص ٤٨٢ .
- (٢٥٩) المباركوري : رجال السند ، ٢٥٤/١ .
- (٢٦٠) ابن القفطي : أحبار العلماء ، ص ١٧٥ ، المباركوري : العرب والهند ، ص ٥٣ .
- (٢٦١) دهر بمانو : الموسيقى عند الملوك الأتراك و الأفاغة في الهند ، ثقافة الهند ، ١٩٥٨/٣ ، ص ٧٩ .
- (٢٦٢) المباركوري : رجال السند والهند ، ١٠٨/١ ، ١٤٣ ، ٢٣٤ .
- (٢٦٣) أبو النصر أحمد الحسيني : مساهمة الهند في تحقيق مآرب الإنسانية الاقتصادية ، ثقافة الهند ، ١٩٥٤/٣ ، ص ١١٠٧ ، و تفرق البيدق و تفرق من فعل فرزين وهو في اصطلاح الشطرنج - الملك - و البيدق وهو العسكر ، واصل الشطرنج على احتلاف هو هتت رنج أي الثماني صفح وهي عدد خانات الشطرنج ، أو صدرتك أي مائة حيلة أو شد رنج أي من اشتغل وذهب عاؤه ، سط رنج بمعنى التعب الأخير ، و آخر تلك التفسيرات ساطورانجا بمعنى أربعة أعضاء وهو مصطلح خاص بالجيش الهندي المكون من الفيل والعربة والراكب والراجل .
- (٢٦٤) ابن النديم : الفهرست ١٢٥ . أحمد أمين . ضحي الإسلام ، ٢٦٩/١٠ .
- (٢٦٥) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٢١٧/٥ .
- (٢٦٦) عبد المجيد الندوي : تأثير اللغة العربية في الأردية ، ص ٦١ .
- (٢٦٧) الهند ، ص ٢٣ .
- (٢٦٨) التأثير العلمي وتطور الصوفية في الهند ، ص ٣٩ .
- (٢٦٩) الحسيني : نزهة الخواطر ، ٣٩/١ .

- (٢٧٠) المباركوري : رجال السند والهند ، ٢٧٩/١ ، ٢٨٠ .
- (٢٧١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٥٦ ، ٥٨٨ ، وهنا أيضاً تبرز طائفة التجوي وهم شديدي التقشف ، و يعيشون شبه عراة لا يسترون أي جزء من أجسامهم ولا يعتبرون ذلك عاراً لأنهم أتوا إلى الدنيا هكذا ، وهم يعبدون الثور ويحملون معهم صنم صغيراً له يعلقونه على جباههم وهم يحرقون عظامه ، و يصنعون به مرهماً ويضعونه على مناطق معينة من أجسادهم (ماركو بولو: الرحلة ، ٦٠/٣ ، ٦١) .
- (٢٧٢) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٩ .
- (٢٧٣) ابن رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند، ص ٤١ .
- (٢٧٤) أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ط القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٧٥ ، ٧٦ .
- (٢٧٥) المقديسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٠ .
- (٢٧٦) Abul Hasan. Op. Cit. p.10
- (٢٧٧) المباركوري : رجال السند والهند ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٣٨ .
- (٢٧٨) الألواني : مابلا ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
- (٢٧٩) المباركوري : رجال السند والهند ، ٨٦/١ ، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١٤ .

ملحق رقم (١)

اللقب	اللغة	المعنى	عام/خاص	المنطقة	صاحب اللقب	المصدر
الصدر الأعظم وسيف السنة	عربية	—	خاص	الروور	قاضي القضاة العهد في الأموي	الحسيني ، نزهة، ٥٠/١
ملك الملتان	عربية	—	خاص	الملتان	جعفر بن محمد	الحسيني: نزهة، ٥٣/١
السادات	عربية	—	عام	كشمير	وزراء ووكلاء أسرة شاه ميرز من العرب	فرشته : كلزار، ٦٥١/١
لبي	عربية	أجاب	خاص	السند	أبناء الحارث العلاف	الصدريقي : أول من عرف الإسلام، ١١٥
مهارج	سنسكريتي	الحاكم الكبير	خاص	السند و مكران	سلاطين الأسرة المعديّة العرب	الاصطخري : مسالك الممالك ص ١١٧
مايلا	المليبارية	أبن العظيم	عام	مليبار	التجار العرب	الألواني : مايلا، ص ٣٢/٣١
مرزبان الهند	فارسية	الملك العظيم	خاص	المعبر	الوزير تقي الدين عبد الرحمن	الألواني : مايلا ص ٥١

اعز الناس	عربية	—	عام	مليار	السكان المدنيين من العرب	الألواني : مابلا ص ٦٣
مركار	المليارية	أصحاب المركب	عام	مليار	العرب العاملين في الجنديّة	الألواني : قبيلة مركار ، ص ٦٣
الأعزة	عربية	—	عام	كولم	ساكني المستوطنات العربية	ابن بطوطة : الرحلة ص ٥٧٥
الاساورة	سنسكريتية	الحصان المرتفع	خاص	فارسي و جزيرة العرب	قادة الجيش من الهنود	المباركوري العرب والهند ص ٧٢
الميد	سنسكريتية	الرائحة النتينة	خاص	ساحل الهند	قراصنة البحر العربي	المباركوري : رجال ٢ / ٥٨٠
السياحة	سنسكريتية	الأطفال السود	خاص	الحجاز	—	المباركوري : العرب والهند ٦١

ملحق رقم (٣)



. دداتور - اقدم المساجد في القاهرة الحديثة بناء مالك بن دينار في مدينة كدلتور بليبيا

الاولاني : قبلة ماركار النجباء ص ٦٩



خادم القضاة لأمير مصر - هكس الأول

(نموذج من الديانة البوذية في المناطق العربية في الهند محمود علي خان : كهوف الجيتا ص ٥٣)

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:—

ابن الأثير : عز الدين بن الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني
ت (٦٣٠هـ/١٢٣٨م) ، الكامل في التاريخ ، ط مكتبة العرب ، الفجالة ،
القاهرة ، ب . ت

ابن بطوطة : محمد عبد الله إبراهيم اللواتي ت (٧٩٩هـ/١٤٠٢م) ، تحفة النظار في
غرائب الأمصار ، شرح وتحقيق طلال حرب ، ط دار الكتب العلمية ،
بيروت ١٩٨٧م.

البلاذري : أحمد بن يحيى بن عبد جابر البغدادي ت (٢٧٩هـ/٨٩٣م) فتوح البلدان ،
تحقيق رضوان محمد ، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.

البيروني : أبو الريحان بن أحمد ت (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ، تحقيق ماللهند من مقولة
مقبولة في العقل أو مرزولة ، ط الهيئة ، الزخا نر ، ٢٠٠٣م.

الحسيني : عبد الحي الحسيني الندوي : نزهة الخواطر وبهجة المسامع و النواظر ، ط دار
بن حزم ، بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)

الأشعري : الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل ت (٣٢٤هـ/٩٣٦م)، مقالات
الإسلاميين واختلاف المصلين ، صحيح هلموت ريتز ، د الزخائر ٢٠٠٠م.

الاصطخري : أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي ت (٣٠٩هـ/٩٥١م)
المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، ط دار وزارة
الثقافة، ١٩٦١م.

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك تحقيق
أبو الفضل إبراهيم ، ط دار المعارف ، القاهرة.

فرشته : محمد قاسم هندوشاه ت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري ،
كلزار إبراهيمي ، ط بمباي ١٨٣١م.

ابن القفطي : جمال الدين ابن الحسن على ت (٦٤٦هـ/١٢٨٣م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط المتني ، القاهرة.

القلقشندي : أحمد بن علي ، ت (٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صنع الشعر والكتابة و الإنشاء ، ط الهيئة ٢٠٠٥م.

اللاهوري : مفتي علي الدين ، عبرت نامہ ، ط لاهور ١٩١١م.

ماركو بولو : رحلات ماركو بولو : ترجمة عبد العزيز جاويد ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين ت (٣٤٦هـ/٩٥٦م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٤٨م.

المقديسي : شمس الدين البشاري : ت (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم ، ط ليدن ١٩٠٤م.

أبن منظور : جمال الدين محمد بن حزم الأنصاري ت (٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب ، ط دار صادر ، بيروت، ١٩٩٧م.

ابن النديم : محمد بن إسحق البغدادي ت (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، الفهرست ، ط دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

اليقوي : أحمد بن ابن يعقوب بن جعفر ت (٢٨٤هـ/٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي ، ط دار صادر ، بيروت .

ثانياً : المراجع العربية :—

- أحمد إبراهيم علي : تاريخ كشمير الإسلامية ، ط دار الفادي ، المنيا ، ٢٠٠٦م
- أحمد أمين : ضحي الإسلام ، ط الهيئة ١٩٩٧م.
- أحمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ط، نهضة الشرق، ٢٠٠١م.

- جواد على ، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠م.
- زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية ، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي، ط نهضة مصر ١٩٩٥م.
- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : بلاد الهند في العصر الإسلامي ، ط دار الفكر العربي ٢٠٠٢م.
- المباركوري : قاضي اطهر: العرب والهند في عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت، ط الهيئة ١٩٧٣م.
- ----- رجال السند والهند إلى القرن السابع ، ص دار الأنصار ، ١٣٩٨هـ

ثالثاً : الدوريات :-

- أحمد الشامي : العلاقات التجارية بين دول الخليج العربي وبلدان الشرق الأقصى واثـر ذلك على بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى ، المؤرخ العربي ، ١٢/١٩٨٠م.
- أي . رحمان : التأثير العلمي العربي وتطور الصوفية في الهند ، ثقافة الهند، ٤/١٩٦٧م.
- عبد المجيد الندوي : نماذج من تأثير اللغة العربية في الهندية ، صوت الشرق ٢٣/٤٢٠٠١م.
- علي منصور نصر : الجماعات الزطية في الدولة الإسلامية ، التاريخ والمستقبل يناير ١٩٩٨م.
- فيصل السامر : الإسلام في إندونيسيا ، عالم الفكر ، ٢/١٩٧٩م.
- محمد أحمد الصديقي : أول من عرف الإسلام إلى أهل الهند ، ثقافة الهند ١/١٩٦٠م.

- محيي الدين الألواني : مابلا ، ثقافة الهند ، ٣ / ١٩٥٥ م.
- مقبول أحمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، ثقافة الهند ٣ / ١٩٦٠ م.
- همايون كبير : المسلمون في الهند ، ثقافة الهند ، ٣ / ١٩٥٥ م.
- رابعاً : المراجع الانجليزية :—
- Aziz Ahmad : An intellectual History of Islam in India. Edinburgh. U.S.A. 1969.
- E. B. Havell. The History of Aryan Rule in India London
- Hakim Siyed: India during Muslims Rule. Luknow. 1977.
- Hasan Ali Nadui : Moslims in Indian luknow. 1970.
- S. M. Jaffar: Medieval India under Muslim kings. New Delhi 1972.

د. عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين*

مكانة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي الأول

المقدمة :

لعل أهل الذمة وتعامل المسلمين معهم في المجتمعات الإسلامية من الموضوعات التي تحتاج إلى مزيدٍ من الدراسات الجادة العميقة حتى تكثف الصورة عن أوضاع هذه الشريحة في المجتمع الإسلامي .

ذلك أن لبساً بيناً يحيط بهذه العلاقة وذلك التعامل ، يبدأ هذا اللبس بفهم المصطلح الذي وصف به الإسلام غير المسلمين من أهل العهد الذين شاركوا المسلمين العيش في المجتمع الإسلامي ، أعني بذلك مصطلح أهل الذمة ، فيذهب الكثيرون إلى فهم هذا المصطلح فهماً خاطئاً ، فيرون الذمة قرينة المذمة والمذلة والمهانة والانتقاص ، في حين أنها في حقيقة الأمر تنطوي على الإكرام والإحسان والأمان والحرمة ، بل هي في أصلها مأخوذة من أن هؤلاء بحكم العهد الذي أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده بالأمان وحسن المعاملة وأن على المسلمين مراعاة هذه الذمة ، فهم على ذلك ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقلت بعد وفاته إلى المسلمين ، الذين هم أولى الناس بإنفاذ عهده ومراعاة ذمته ، قال صلى الله عليه وسلم " ويسعى بذمتهم أدناهم " ^(١).

*أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة تعز

ويتناول هذا البحث مكانة هذه الشريعة من المجتمع الإسلامي ، بين المسلمين ، كيف نظر إليها المسلمون ؟ وكيف تعاملوا معها ؟ هل التزموا بتعاليم الإسلام في ذلك التعامل أم انساقوا مع أهوائهم ورغباتهم ؟ هل تعايشوا معها أم عزلوها وأقصوها ؟ هل مكنت هذه الشريعة من ممارسة حياتها وإقامة شعائرها بحرية ، أم ضيق عليها ، واضطهدت ؟ هل شهد التاريخ الإسلامي تجارب تصفيات عرقية على أساس الدين والجنس ؟ هل شهد تهجير وتشريد للمخالفين دينياً خارج حدوده الجغرافية ؟ أم ان العدل والتسامح والتعايش والرفق هو الذي ميز علاقة المسلمين بأهل الذمة ؟

مفهوم الذمة :

من الأخطاء التي وقع فيها الكثيرون وترتب على هذا الفهم مواقف وتصورات وأحكام، مفهوم أهل الذمة ، ففهمت الذمة على أنها قرينة المذلة والمهانة ، والانتقاص ، والحق أن هذا الخلط ناتج عن توجهات سلبية إزاء الإسلام بوصفه عقيدة وشرعية وإزاء المجتمع الإسلامي، الذي عاش لهذا الدين وبه حياته ، مؤثراً ومتأثراً بالحياة والأحياء من حوله ، فالذمة كما هي في القاموس اللغوي ، وفي الاصطلاح الفقهي وكما فهمها المجتمع الإسلامي بمسلميه وذمته، الحرمة والرعاية والحماية لكل من دخل في كنف الدولة الإسلامية من غير المسلمين بعهد ، توفى إليه حقوقه ما وفي للمسلمين ما عليه من واجبات .

وعلى هذا فأهل الذمة هم الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانة في أعناق المسلمين ، وبموجب هذه الأمانة يكون الإحسان إليهم والرفق بهم ، قال صلى الله عليه وسلم : " ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " ^(٢) ، بل أنه وجه المسلمين إلى حرمة مال أهل الذمة ، ونهاهم عن الزيادة عليهم فوق ما صولحوا عليه ، فقال : " لعلكم تقاتلون قوماً فتنظرون عليهم فيتقونكم دون أنفسهم وأبنائهم وتصالحوهم على ذلك ، فلا تصيبوا منهم بعد ذلك شيئاً " ^(٣) .

التزم الصحابة بهذه التوجيهات القرآنية والنبوية التي تأمر بالإحسان إلى أهل الذمة ، والوفاء لهم بحقوقهم ، وعدم الإفتيات عليهم ، وهو توجهاً عاماً لمسناه من تعاملهم مع أهل الذمة ، قال تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " ^(٤)

ومن هذا قول (عبد الله بن رواحة) لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخبر على أهل خير ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: "والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنزير وما يحملني حيي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض" هذا الفهم للذمة ارتبط برؤية الإسلام للإنسان وبالمكانة التي منحها الله للإنسان بوصفه خليفته في الأرض^(٥)، وقد ضل هذا الفهم للذمة في عهد الخلفاء الراشدين وفي العصور الإسلامية اللاحقة.

نظرة الإسلام إلى الإنسان

أولاً : وضع الإنسان في الحضارات القديمة :

إذا ما أردنا أن نعرف وضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، يتوجب علينا أولاً أن ننظر إلى وضع الإنسان في ظل الحضارات السابقة ، ما معايير التمايز بين الناس .

فالبراهمية مثلاً تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى^(٦)، أما قدماء اليونان فكانوا يعتقدون أنهم شعب متميز عن غيرهم بقدراتهم العقلية ، وأنهم لذلك المؤهلون الوحيدون للقيام بالأعمال العقلية ، ومن ذلك مهام القيادة والإدارة والتخطيط ، ويعتقدون بأنهم عنصر مفضل عن غيره ، وأنهم خلقوا من عنصر مختلف عن العناصر التي خلقت منها الشعوب الأخرى ، التي كانوا يطلقون عليها البربر ، وأنهم وحدهم كاملوا الإنسانية ، وقد ميزوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان ، وأن الآلهة قد خلقت فصيلين من الناس ، فصيلة زودتها بالعقل والإرادة ، وهي فصيلة اليونان ، وفصيلة لم تزودها إلا بقوة الجسم وما يتصل به ، وهؤلاء هم البرابرة ، أي ما عدا اليونان من الناس ، وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة ، ومن واجب اليونان أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزل التي خلقوا لها ، وهي الرق ، وكل حرب يشنها اليونانيون لهذه الغاية فهي حرب مشروعة^(٧)

وكانت الدولة الرومانية تقسم رعاياها بحسب العنصر ، فالروماني الأصل مواطن من الدرجة الأولى ، يتمتع بحقوق وامتيازات عن غيره من الرعايا غير الرومان ، الذين يأتون في الرتبة الثانية ، وكذلك الأمر بالنسبة للفرس فالملوك هم كما يزعمون أبناء الآلهة مقدسون ،

وما سواهم عبيد مسخرين لخدمتهم ، وغير الفرس أقل شأنًا من الفرس ، وقد يتعرضون للظلم والازدراء من الفرس .

وقريب من ذلك وضع غير العربي في القبائل العربية قبل الإسلام ، فأبناء القبيلة متميزون عن غيرهم من منتسبي القبيلة من الموالي والعبيد ، الذين توكل إليهم الأعمال الوضيعة .

نظرة الإسلام إلى الإنسان :

ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق مكرم محترم ، قال تعالى : " ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّات وفضلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً " ^(٨) ومن هذا التكريم أنّ خلق الإنسان كان أحسن خلق وأكمله ، خلقه في أحسن تقويم ، قال تعالى : " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " ^(٩) ، خلقه وأوجده من العدم ، فلم يكن قبل ذلك شيئاً ، قال تعالى : " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً " ^(١٠) .

ثم أن الله تعالى ميز الإنسان بالعقل وجعله مناط تكليفه بمهمة العبادة والاستخلاف في الأرض ، فاستخلفه في الأرض ومكنه مما ادخره له فيها من طاقات ، بل وعلمه أسرار هذه الأرض لينتفع بها وليسخرها لمصلحته بما علمه من معارف وعلوم لم يكن يعلمها ، قال تعالى : " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون " ^(١١) ، وقال في موضع آخر : " خلق الإنسان ، علمه البيان " ^(١٢) .

كما وهبه العقل ، الطاقة الخلاقة التي استطاع الإنسان بها أن يتغلب على قسوة الحياة ويعوّض بها إمكانياته الجسمانية الضعيفة نسبياً مقارنة بغيره من الحيوانات التي زودها الله تعالى بوسائل لمواجهة قسوة الطبيعة ومتغيرات الحياة .

وكرم الله النفس البشرية ، وحافظ عليها من الإعتداء ، أو التعرض لها بأذاً ، فسن التشريعات الكفيلة بحمايتها وردع من يعرض لها بسوء ، قال تعالى : " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (١٣) ، وقال عز وجل : " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (١٤) ، وقال تعالى : " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا " (١٥) ، وقال أيضاً : " وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا " (١٦) .

والرب في الإسلام ليس رباً عنصرياً ، بمعنى أنه ليس رباً للعرب ، أو حتى للمسلمين فحسب ، بل هو رب للعالمين ، قال تعالى : " إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (١٧) ، وقال عز وجل : " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (١٨) ، وقال في موضع آخر : " قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ " (١٩) ، وقال تعالى : " تَتَرَى لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢٠) وقال أيضاً : " وَإِنَّهُ لَتَتَرَى لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " (٢١) .

ورسالة الإسلام ليست مقصورة على قوم من الأقوام أو عنصر من العناصر ، بل هي للناس كافة ، كما أن شريعة الإسلام ليست كذلك لتنظيم حياة المسلمين فحسب ، بل منهج لتنظيم حياة الإنسان على الأرض ، لأن الله أراد الخير بهذا الدين للناس كافة .

وتتلخص نظرة الإسلام إلى الإنسان في وحدة الأصل ووحدة التكوين ووحدة المصير ، قال تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَآحَدَةٍ " (٢٢) ، كما بين أن ما حدث من توزيع للناس على الأرض وتقسيمهم إلى شعوب وقوميات وقبائل لم يكن للمباعدة فيما بينهم بقدر ما كان للتعارف والتقارب ، قال تعالى : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا " (٢٣) ، وليس من مقتضيات الإيمان بالإسلام القطيعة مع غير المسلم ، بل أن الفقه الإسلامي نص على أن من مقتضيات الحياة ومن سنن الكون أن الإنسان يحتاج إلى أخيه الإنسان ، ولذلك وضع أسس العلاقات مع غير المسلمين سواء في دولة الإسلام أم في خارجها .

واجبات الدولة إزاء أهل الذمة :

يترتب على عقد الذمة حقوق وواجبات على المتعاقدين ، وهما الدولة الإسلامية وأهل الذمة ، وبموجب هذا العقد تمنح الدولة الإسلامية أهل الذمة جميع الحقوق التي أقرها الشرع لهم ، وتصبح هذه الحقوق ملزمة على المسلمين ، من هذه الحقوق حفظ النفس ، فدم الذمي مثل دم المسلم له حرمة ، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه ، فقد رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة ، فأمر بالقصاص منه قائلاً : " أنا أحق من وفي بدمته " (٢٤) ، وسلم عمر بن الخطاب رجلاً من بني بكر بن وائل قتل ذمياً إلى أولياء الدم فقتلوه " (٢٥) ، وأوصى الخليفة بعده بحسن معاملة أهل الذمة ، بعدم تكليفهم فوق طاقتهم ، حيث قال : " أوصي الخليفة بعدي بدمية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى إليهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفون فوق طاقتهم " (٢٦) .

حسن معاملة أهل الذمة :

لعل من القيم الإسلامية الأصيلة ، التي أكدت عليها تعاليم الإسلام ، قيمة الرفق ، والرفق في الإسلام قيمة مطلقة ، بمعنى أنها ليست مقيدة على تعامل المسلم مع المسلم ، بل في تعامله مع الناس ، كافة ، بل مع الحيوان والكائنات الأخرى ، بل أن هذه القيمة تتناسب تناسباً طردياً مع قوة المسلمين ، ومع مدى التزامهم بتعاليم دينهم .

أثبت ذلك الرصد التاريخي لمراحل التاريخ الإسلامي بين القوة والضعف الاستقامة والسقوط ، وأكدت هذه القيمة أدبيات الإسلام ومصادره التشريعية ، قال تعالى : " إذهبوا إلى فرعون إنه طغا ، فقولا له قولاً لينا " ، وقال تعالى ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلى الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم " (٢٧) ، وقال عز وجل : " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله .. " (٢٨) ، وقال عز من قائل : " وجادلهم بالتي هي أحسن " (٢٩) وقال تعالى : " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " (٣٠) ، وقال تعالى : " فيما نعمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " (٣١) .

كما حفلت السنة النبوية بكثير من التوجيهات إلى هذه القيمة الدينية ، حتى يجعل منها المسلم معياراً للتعامل مع الناس ، فاتخذ النبي صلى الله عليه وسلم الرفق منهجاً لدعوته ، فتدرج في أبلاغ الدعوة رفقاً بالناس ، وكان رفيقاً بقومه من مشركي مكة عندما فتحها ، وكان رفيقاً بأهل الطائف عندما آذوه ومكنه الله من الانتقام منهم ، ولن نتمكن من إحصاء كل المواقف التي تبين تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق مع المسلم وغير المسلم.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بالكثير من المواقف التي تجلت فيها حسن معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل ، فعندما سأل عبد الله بن ربيعة عبد الله بن عمر عما يفعل مع أمه النصرانية ، أمره بالإحسان إليها ، قائلاً : " أحسن ولايتها وكفنها " (٣٢) ، وكان لعمر بن الخطاب مولاً نصرانياً يدعى (أسق) عرض عليه الإسلام فأبى فقال له لا إكراه في الدين ، ثم أعتقه لدى وفاته (٣٣).

ورفض معاوية بن أبي سفيان أن يقتل من لديه من رهائن الروم عندما غدر الروم به ونكثوا عهده ، وقال : " وفاء بغدر خير من غدر بغدر " (٣٤) .

وفي الأندلس اتسمت معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة بالتسامح الذي أشاد به غير المسلمين قبل المسلمين ، (٣٥) ، تمثل هذا التسامح مع غير المسلمين في المعاملات والمعاملات ، فلم يتدخل المسلمون في شئ من عقائدهم وعاداتهم وأساليب عيشهم . (٣٦) وقد أتاح هذا التسامح من قبل المسلمين إلى زيادة التأثيرات الاجتماعية بين المسلمين والأسبان ، لدرجة أن الدول المسيحية المناوئة للدولة الإسلامية في الشمال الأسباني لم تجد مبرراً ، للمطالبة بحماية الرعايا المسيحيين ، وكذلك لم تفعل الدولة الفرنجية التي كانت تربص أحياناً بالأندلس (٣٧) .

هذا التسامح لم ينله المسلمون من الأسبان بعد أن سقطت دولة الإسلام في الأندلس ، بل ووجهوا بأساليب القمع والتطهير العرقي ، وأجبر من نجا من القتل على ترك دينه ، والانسلاخ من قيمه وعاداته ، وتغيير لسانه وإسمه وأساليب حياته .

معاملة أهل الذمة أمام القضاء الإسلامي :

ينظر الإسلام إلى الإنسان بوصفه خليفة الله في الأرض ، خلقه الله وكرّمه ، وإلى الرسائل السماوية أنها استهدفت هداية هذا الإنسان إلى السبيل القويم من خلال رسم الخطوط العامة لحياة الإنسان في الأرض حتى تسير الأمور فيها إلى غايتها ، وحتى يحقق

الإنسان الغاية التي خلق من أجلها العبادة والعمارة ، وينظر إلى العدل بوصفه الضابط الذي يكفل استقامة حياة الإنسان على الأرض ، وهو لذلك يطلبه ويشدد على إرساء دعائمه في الأرض بين الناس ، وهو لذلك يساوي بين المسلم وغير المسلم من رعايا الدولة الإسلامية أمام القانون المدني والجنائي ، فحمى حقوق أهل الذمة كما حمى حقوق المسلم ، وعاقب الذمي على الجرائم التي اقترفها كما عاقب المسلم ، وحرّم دم الذمي وعرضه وماله كما حرّم دم المسلم وعرضه وماله .

هذه القيم النظرية لم تكن بعيدة عن الواقع ، لا بل كانت الممارسات العملية التي شهدتها السياق التاريخي الإسلامي تصديقاً ، وتؤكد على واقعيتها ، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يعدل في تعامله مع يهود خيبر عندما أعطاهم الأمان دون أن يلتفت إلى ما فعله بعضهم به ، فقد كان فيهم أهل بيت فيهم شدة على الرسول صلى الله عليه وسلم وفحش ، فقال : " يا بني الحقيق عرفت عداوتكم لله ولرسوله ، ثم لم يمنعني ذلك من أن أعطيكم ما أعطيت أصحابكم " (٣٨) ، وعندما تقاضاه يهودي وأساء التقاضي فأغلظ للنبي في القول ، ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن عفا عنه وتسامح معه ، قائلاً لأصحابه بعد أن هموا به : "دعوه فإن لصاحب الحق يداً ولساناً " (٣٩) .

واختصم الإمام علي بن أبي طالب في خلافته مع يهودي إلى قاضيه شريح في درع له وجدها عند اليهودي ، فطلب منه القاضي أن يثبت بالشهود ملكيته للدرع ، فأتى بالحسن وبأحد نواليه ، فلم يقبل شهادة الحسن لأبيه ، قائلاً : " يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين " ، ثم إنه أعطى الدرع لليهودي ، فقال اليهودي : أمير المؤمنين مشى معي إلى قاضيه وحكم قاضيه عليه ، هذه والله أحكام أنبياء ، صدقت يا أمير المؤمنين الدرع درعك سقطت منك وأنت عائد من صفين فالتقطتها ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (٤٠) .

وبالرغم من كل هذا التوخي للعدل ، والتحري للحق والحذر من الوقوع في الجور ، ظل القضاء والحكام يحاسبون أنفسهم ويؤنبونها ، لعلها أن تكون قد حدثتهم في يوم ما في الميل مع الهوى ، أو التمييز بين الخصوم ، على أساس الشرف والجاه والسلطان ، ولنستمع إلى هذا الاعتراف من القاضي أبو يوسف ، في اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت ، وهو يحاسب نفسه في آخر عهدها بالدنيا وأول عهدها بالآخرة ، قائلاً : " لئن جُرت في القضاء بين

عباده لم أجره إلا مرة واحدة ، ادعى فيها يهودي على هارون الرشيد دعوى ، فأحضرت هارون الرشيد واليهودي ، فلما حضرا قلت لليهودي قم واجلس حيث يجلس خصمك ، وما قلت لهارون قم واجلس حيث يجلس خصمك ^(٤١) .

بهذه الحاسة المرفقة ، وبهذا الشعور العالي بالمسؤولية ، بهذه العبارات التي تقطر تقوى وتشع إيماناً وتندى صلاحاً ، بين القاضي أبو يوسف الأخطاء التي يمكن أن يكون قد وقع فيها ووقع منه الجور في أقضيته ، وبين مع ذلك المستوى الحضاري الراقي الذي تعامل به المسلمون مع غيرهم عندما تسيدوا الأرض وكيف نَعَمَ غيرهم بالعدل والإنصاف في دولة الإسلام ، بين أن ثمة فرق بين مدنية حملت للإنسانية الحروب والدمار ، وبين حضارة جاءت رحمة للعالمين .

حماية أموال أهل الذمة :

نظر المجتمع الإسلامي إلى أموال أهل الذمة على أنها ملكيات خاصة محترمة ، لا يجوز حيازتها بدون حق ، أو إلحاق الضرر بها ، تتضح هذه النظرة من خلال نظرة الشرع لأموال أهل الذمة ، ومن خلال تعامل الدولة والناس معها ، فقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودي بمال أخذه منه ، وعندما أجلى عمر بن الخطاب لدواعي أمنية يهود الحجاز عوضهم عن أرضهم ودورهم ونخيلهم في الشام وفي العراق ^(٤٢) وبلغت درجة تحري المسلمين في التعامل مع أموال أهل الذمة أن الخلفاء والولاة كانوا يحذرون القادة والجنود عندما يمرون بقرى وبأراضي أهل الذمة من إلحاق الأذى بأهلها أو بممتلكاتهم أو لأن أنفسهم وأموالهم محترمة ومحروزة ، وإذا اضطرو المسلمون لأخذ بعض هذه الأموال يعرض أصحابها ، فقد شكوا ذمي لعمر ابن الخطاب عندما كان بالجابية أن الناس قد أسرعوا في عنبه ، فنهاهم عن ذلك ، لكن الناس اعتذروا إليه بأنهم في مجاعة ، فأمر لصاحب العنب بقيمة عنبه ^(٤٣) ، وكان خالد بن الوليد ينهى جنوده عن الإعتداء على أموال أهل الذمة حيث يقول : " ولا ترزأ معاهداً إبرة فما فوقها " ^(٤٤) ، ونهى عبد الله بن عباس عن أن يؤخذ من أموال أهل الذمة فوق ما صولحوا عليه ^(٤٥) ، وكان الناس في جيش علي عندما خرج لملاقات الخوارج يتناهون فيما بينهم عن أخذ شيء من مال أهل الذمة ، فيذكر أن أحدهم تناول ثمرة ساقطة من بستان لبعض أهل الذمة فألقاها في فيه فقال له بعضهم : " ثمرة معاهد

فيم استحلتها ؟ فألقاها من فيه ، ثم مروا بخزير فقتله أحدهم بسيفه فقال له بعضهم خذوا
معاهد ، فبم استحلتته ؟^(٤٦) ، وحذر أبو هريرة رجلاً ذهب للجهاد من العبث بمال أهل
الذمة ، قائلاً : " لا تطأ حرثاً وإياك والمخللة والمخلاتين من أموال أهل الذمة ثم تقول أنا
غازٍ " ^(٤٧) ، وكان أبو الدرداء يعزل القرى من قرى أهل الذمة فلا يزيد على أن يشرب من
مائه ويستظل بظلهم وترعى دابته من مراعيهم ، فيأمرهم بالشئ أو بالأفلاس " ^(٤٨) .

وأمر عمر بن عبد العزيز برد مظالم أهل الذمة إن وجدت في عهد أسلافه ، عندما
كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قائلاً : " استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور
جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فردة عليه ، فإذا كان أهل المظلمة قد ماتوا فادفعه
إلى ورثتهم " ^(٤٩) .

وكان من حماية أموال أهل الذمة والرفق بهم وعدم تكليفهم فوق ما صولحوا عليه من
الجزية والخراج ، فقد درج بعض الولاة على فرض زيادة على ما يؤديه أهل الذمة من مال
لإعانة موظفي الدولة الذين يعمرون بقرى أهل الذمة ، مثل أجور الفيوج ، ودراهم النكاح ،
أو تلك الأموال التي اعتاد أهل الذمة على أدائها لحكامهم مثل هدايا النيروز والمهرجان ،
فأدبت للدولة في بعض الأقاليم ، ويظهر ذلك من موقف الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما
منع أخذ هذه الأموال الزائدة على ما صولح عليه أهل الذمة ^(٥٠) ، وأعاد خراج أهل قبرص
إلى القدر الذي صولحوا معاوية عليه وألغى الزيادة التي فرضها عليهم عبد الملك بن
مروان ^(٥١) .

ومع كل هذا التيسير والرفق ، فلم يكن كل ذمي ملزم بالجزية مهما كانت حالته
الاقتصادية ، وإنما كان المسلمون يأخذونها من الأغنياء ، والقادرين على الكسب ، ولذلك
كان يعفى من أدائها الفقراء والمعوزين من أهل الذمة ، بل إن الدولة في حالات كثيرة كانت
تنفق على العجزة والزمى من أهل الذمة من بيت مال المسلمين فقد أجرى عمر بن الخطاب
على شيخ من أهل الذمة وجده يسأل الناس من بيت مال المسلمين ، قائلاً له : " والله ما
أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك " ^(٥٢) .

وقد تكرر هذا الموقف في العصر الأموي من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، إذ
كتب إلى واليه على البصرة ، عدي بن أرطاة يأمره بكفالة الضعفاء من أهل الذمة من بيت
مال المسلمين ، حيث قال : " انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته
وولت عنه المكاسب فاجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه " ^(٥٣) .

أساليب جباية الخراج والجزية :

مما يدل على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، أساليب التعامل معهم في جباية الخراج والجزية ، فقد حرصت الدولة الإسلامية في مراحلها المختلفة على تسوخي الرفق واللطف في تحصيل هذه الأموال منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الخلفاء الراشدون وكثير من أتى بعدهم يختارون لهذه المهمة أشخاص يمثلون القيم الإسلامية ونظرة الإسلام إلى أهل الذمة على أنهم جزء من المجتمع الإسلامي توفى إليهم حقوقهم ما أدوا التزاماتهم إزاء الدولة ، بل أن المجتمع عاملهم بنوع من الرحمة والإحسان ، اقترن هذا الرفق والإحسان بالتزام المجتمع الإسلامي بقيم وتعاليم الإسلام ، فالكتاب والسنة يدعوان إلى الإحسان إلى غير المحاربين من غير المسلمين ، قال تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " (٥٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً دون طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " (٥٥) .

قسمت الجزية في عهد عمر بن الخطاب بحسب القدرة المالية لأهل الذمة ، فعلى الأغنياء ثمانية وأربعون درهماً وعلى متوسطي الدخل أربعة وعشرون درهماً وعلى الفقير المعتمل إثنا عشر درهماً (٥٦) ، ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء يُعفون منها إذا عجزوا عن أدائها .

وكان الخلفاء يحذرون عمالهم من القسوة والبطش في جمع الجزية والخراج ، ويعاقبون من يثبت عليه سوء معاملة أهل الذمة ، ومن ذلك أن عمر بن الخطاب أتاه مال كثير من الجزية ، فقال لمن أتاه به من عماله : " إني لأظنكم قد أهلكم الناس ، قالوا والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً ، قال بلا سوط ولا نوط ، قالوا نعم قال الحمد لله " (٥٧) ، وكان يتمسك بالولادة الذين يرفقون بالناس في جمع الخراج ، فعندما تأخر سعيد بن عامر عن إيصال الخراج علاه عمر بالدرة ، فقال سعيد : " سبق سيلك مطرك إن تعاقب نصبر وإن تعف نشكر وإن تستعجب نعجب ، فقال له عمر : مالك تبطئ بالخراج ؟ ، فقال سعيد : أمرتنا أن لا نزيد على الفلاحين على أربعة دنائير ، فلسنا نزيدهم ، ولكننا نؤخرهم إلى غلاتهم ، فقال عمر : لا عزلتك ما حييت " (٥٨) .

وكان علي بن أبي طالب يحذّر عماله من البطش والشدة في جباية الجزية والخراج ، فيروى أنه استعمل رجلاً من ثقيف على عكراء فقال له : " لا تبعن لهم في خراج حماراً ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيف وارفق بهم " (٥٩) وكان إذا بلغه عن بعض نوابه شدة على الناس في طلب الخراج ، قال : " اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك ولا يتركوا حقك " (٦٠).

بل إن العلماء كانوا يتدخلون أحياناً لدى الولاة للتخفيف عن أهل الذمة من الخراج ، فيروى أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل ، ليشفع له عند والي بعلبك ليخفف عنه مقدار الخراج ، فقال الأوزاعي : إن شئت رددت الجرة وكتبت لك ، وإلا قبلت الجرة ولم أكتب لك ، فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين ديناراً (٦١).

وكان من مجالات الرفق في جباية الجزية والخراج ، أن تأخذ من عين ما ينتجه أهل الذمة ، فكان علي بن أبي طالب يأخذ الجزية من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسان مساناً ، ومن صاحب الحبال حبالاً ، رغبة في التخفيف على أهل الذمة ، (٦٢) ، كما روعي فيه خصوبة الإقليم وثرأه وسهولة الري ، ونوع المحصول والقرب من الأسواق . (٦٣)

وهكذا فقد كان الرفق هو المنهج المتبع والسياسة النافذة في تعامل المسلمين مع أموال أهل الذمة ، في الجباية ، وكان الرفق يصل إلى أن يعاقب الولاة ويعزلون لإساءتهم في التعامل مع أهل الذمة.

مشاركة أهل الذمة في المناسبات الاجتماعية :

لعل مما يؤكد على المكانة التي تمتع بها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، وعلى روح التسامح التي عامل بها المسلمون غيرهم ممن عاشوا في دار الإسلام ودخلوا في نسيجه الاجتماعي ممن عرفوا بأهل الذمة ، فعاش عدد كبير منهم إلى جانب المسلمين في مدنها وقراهم ، مما أدى إلى تأثرهم بالثقافة الإسلامية ، وإلى سريان روح التعايش بينهم وبين المسلمين ، فشاركهم المسلمون مناسباتهم الاجتماعية وفي أعيادهم الدينية والقومية ، بل ودخل معهم المسلمون في مصاهرات ، وفي تعاملات مالية ، وكان لكل هذا الاحتكاك والتسامح أثره في التعايش بين المسلمين وأهل الذمة ، وفي بقاء أهل الذمة إلى هذه اللحظة يمثلون جزءاً من نسيج المجتمع الإسلامي ، محتفضين بكنائسهم ومعابدهم وبكل خصوصياتهم.

فساكن النبي صلى الله عليه وسلم اليهود في المدينة ، وكان يبادر إلى حسن معاملتهم والتودد إليهم علّ ذلك يحملهم على مبادلته هذا السلوك ، وجامل عمر بن الخطاب النصارى في أذرعَات في رحلته إلى بيت المقدس عندما قابله أهلها بالسيوف والريحان وقد هم بردهم لولا أنه نزل عند رأي أبا عبيدة عندما نبهه إلى أنه إن ردهم يروا أن في نفس الخليفة نقضاً لعهدهم فتركهم يعبرون بطريقتهم^(٦٤) ..

ومن مظاهر التسامح والتعايش بين المسلمين وبين غيرهم ممن عاش في المجتمع الإسلامي ، عياد مرضاهم ، واتباع جنازهم ، والأكل من أطعمتهم وذبائحهم ، والزواج منهم .

فقد زار النبي صلى الله عليه وسلم يهودياً في مرضه^(٦٥) ، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور يعود جورجوس الطبيب في مرضه^(٦٦) ، كما شهدت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ، ألوان من التعاطي الإيجابي ، من ذلك قننتهم في المناسبات السعيدة مثل الزواج ، والولد ، وقدوم الغائب ، أو الشفاء من مرض ، أو السلامة من مكروه ، وغيرها من المناسبات الطيبة ، بل أن مسلمي الأندلس كانوا يشاركون النصارى في أعيادهم واحتفالاتهم المختلفة^(٦٧) .

وفي المقابل واسى المسلمون أهل الذمة في المناسبات الحزينة ، فعزّوهم في موتاهم ومصائبهم ، وعادوا مرضاهم ، واتبعوا جنازهم ، فقد أجاز الإمام أحمد بن حنبل زيارة مرضى النصارى ، واتباع جنازهم^(٦٨) ، وتعزيتهم، حيث قال: " إذا عزيت الذمي فقل له: لا يصيبك إلا خير "^(٦٩) .

كما شارك المسلمون أهل الذمة في أطعمتهم وأشربتهم المباحة للمسلمين ، فأكلوا من ذبائحهم ، لأن الله تعالى أحل ذلك ، حيث قال : " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم " ، وعندما سئل الإمام أحمد عن ذبائح أهل الكتاب قال : " لا بأس بها "^(٧٠) .

وكان من مجالات التعايش بين المسلمين وأهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، المصاهرات التي ربطت أهل الذمة بعلاقات اجتماعية وثقت صلت هذه الشريحة بالمجتمع الإسلامي ، فلا يوجد ثمة مانع في التشريع الإسلامي من زواج المسلم بكتابية^(٧١) ، فتزوج رسول الله بمارية القبطية ، وتزوج عدد من المسلمين بكتابيات ، وفي الأندلس تزوج عدد من المسلمين

بمسيحيات ، فتزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة لذريق ، (أم عاصم) ، كما تزوج المنصور بن أبي عامر بأميرة نافارية^(٧٢).

وهكذا ففي ظل هذا التسامح والتعايش الذي نعم به أهل الذمة في المجتمع الإسلامي مارسوا طقوسهم وأنشطتهم في حرية تامة ، كما تبنى غير المسلمين نتيجة لهذا التسامح العادات والثقافة الإسلامية ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية ، بل قاد البعض منهم إلى اعتناق الإسلام .

كفالة الحرية الدينية لأهل الذمة :

لم تلق أقلية دينية عبر التاريخ مساحة من الحرية في ممارسة شعائرها الدينية ، وأمان على ممتلكاتها الدينية، ما لقاه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، فقد كفلت لهم الدول الإسلامية المتعاقبة حرية ممارسة شعائرتهم الدينية، والاحتفال بأعيادهم ، وحافظت على كنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ، وأتاحت لهم ممارسة العادات التي درجوا على القيام بها برغم مخالفتهم لتعاليم الإسلام وقيمه ، مثل شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وهو السلوك الذي تعامل به المجتمع الإسلامي معهم .

ولعل وجود غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة حتى الآن محتفظين بحريتهم الدينية وبكنائسهم وكافة مرافقهم الدينية ، في وقت كان بإمكان المسلمين أن يجبروهم على ترك دياناتهم واعتناق الإسلام ، كما حدث في أسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها ، لأؤكد دليل على مدا ما تمتع به غير المسلمين في المجتمع الإسلامي من حرية دينية .

فقد كفل النبي صلى الله عليه وسلم لليهود المدينة واليمن حريتهم الدينية ، وفعل ذلك الخلفاء الراشدون مع أهل البلاد المفتوحة في الشام والعراق ومصر ، فتحرك الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة إلى الشام ليتسلم مفاتيح مدينة بيت المقدس ، ثم رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مصلاً فيسلمون بذلك حق النصارى في كنيستهم ، وعندما خاصم نصارى دمشق بعض المسلمين في كنيسة كانت أقطعت لهم ، ردها عمر بن عبد العزيز إلى النصارى^(٧٣) ، ونهى عن توسعة مسجد دمشق على حساب كنيسة للنصارى ، وسمح العباسيون لرعاياهم من المسيحيين ببناء عدد من الكنائس الجديدة مثل كنيسة أبي سرجة في الحصن الروماني بمصر ، وفي عهد المهدي بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين أسروا خلال الحملات العسكرية ، وسمح الرشيد ببناء كنيسة أخرى في البصرة^(٧٤) .

الاستعانة بأهل الذمة :

إن مما يدل على المكانة الكبيرة التي تبوأها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي استعمال العديد منهم في وظائف الدولة ، ووصول البعض منهم إلى أماكن مرموقة في أجهزة الدولة خصوصاً في الحقتين الأموية والعباسية ، الأمر الذي يدل على مقدار التسامح الذي تعامل به المسلمون مع أهل الذمة ، للحد الذي جعل البعض منهم يصل إلى مراكز حساسة ، أساء بعضهم استخدامها وألحقوا الضرر بالدولة وبالناس .

كما استعان بهم الناس في كثير من الأعمال التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية ، بل أن مجالات من العمل قد أوكلت إليهم .

شملت الاستعانة بأهل الذمة مجالات مختلفة منها ما كان حكومياً فعملوا في الدواوين ، وفي جباية الخراج ، وفي الكتابة للخلفاء والأمراء والولاة ، وفي الترجمة وفي المهمات الخاصة للخلفاء والأمراء ، فكان منهم أطباء الخلفاء ومستشاريهم في بعض القضايا ، ومنها ما كان شعبياً اقتصادياً فاستعان بهم المجتمع في القيام بكثير من الحرف والأعمال ، مثل السياغة والحدادة والنجارة والطب والبناء ، بل إنهم احتكروا كثير من الحرف اليدوية ، الأمر الذي كون لديهم فوائض مالية ، جعلتهم يتمتعون برغد العيش مما لم يتوفر لكثير من المسلمين .

ففي عصر الدولة الأموية تبوأ أسرة رومية من أهل الذمة مكانة كبيرة في الدولة ، فكان سرجون ابن منصور الرومي كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان^(٧٥) ، واستمر سرجون بعد ذلك مستشاراً ليزيد بن معاوية^(٧٦) ، ثم أصبح ابنه منصور بن سرجون كاتباً على ديوان خراج الشام حتى تم نقل الديوان إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان^(٧٧) . واستعمل عبيد الله بن زياد على الخراج رجلاً من أهل الذمة^(٧٨) .

كما استعمل المسلمون عدد من أهل الذمة في أعمالهم الخاصة ، فكان لأبي عوانة وكيل نصراني يجبي غلته^(٧٩) .

وشهد العصر العباسي تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة وصل معه بعضهم إلى بلاط الخلفاء ، واصبحوا من خواصهم وإن كانوا من ناحية أخرى قد مثلوا خطراً أمنياً على الدولة ومستودع أسرارها من خلال وجودهم إلى جانب الخلفاء والوزراء لعملهم في تطبيقهم وفي بعض الأعمال الأخرى .

— عمل أهل الذمة في تطبيب الخلفاء :

اشتمل البلاط العباسي ، ابتداء من عهد المنصور حتى خلافة المتوكل ، على عدد كبير من أهل الذمة ، لتطبيب الخلفاء والأمراء العباسيين ، وقد حازوا لذلك مكانة مرموقة لدى الخلفاء ^(٨٠) وأتاح لهم ذلك من ناحية أخرى ، الإطلاع على ما يدور في البلاط العباسي .

استعمل المنصور عدداً من أهل الذمة كأطباء خصوصيين له أمثال (جورجيوس ابن جبريل) ^(٨١) الذي اهتم به المنصور ومكّن له ، فأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل ^(٨٢) ، وبلغ من شدة تعلقه به وحبّه له ، أنه رغب في أن يسلم ، فيذكر أنه عرض عليه الإسلام عند احتضاره قائلاً : " يا جورجيوس اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة ^(٨٣) إلا أنه رفض ، وقد حزن عليه المنصور بعد أن توفي ^(٨٤) رشح جورجيوس أحد تلاميذه ويدعى عيسى بن شهلا ^(٨٥) لتطبيب المنصور قائلاً : " إني أخلف بين يدك عيسى ، وهو تربيتي ^(٨٦) ، وأصبح عيسى بن شهلا في خدمة المنصور ، فقربه وأكرمه ، ومكّن له ، إلا أنه استغل ذلك في ابتزاز بعض المطارنة ^(٨٧) والأساقفة ^(٨٨) أموالهم ، وهو ما نلمحه فيما كتبه إلى مطران نصيبين ^(٨٩) ، ما يدل على خطورته على الخلافة في رمزها ، حيث قال : " ألم تر أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته " ^(٩٠) ، وبغض النظر عن مدى جديته ، إلا أننا نلمح منه إضمار الخيانة للمسلمين ، وعدم الإخلاص لهم رغم ما أحاطوه من عناية ، وما حظي به من مكانة لديهم ، ومهما يكن من أمر ، فإن المنصور عرف من عيونه فحوى تلك الرسالة ، فأمر بنفيه بعد أن جرّده من كل ما أعطاه ^(٩١) ، واتخذ المهدي بختيشوع ^(٩٢) لتطبيبه ، فظل في خدمته وفي خدمة ولديه الهادي والرشيد ، وقد حظي بمكانة مرموقة في بلاط الرشيد ، فعينه رئيساً للأطباء ^(٩٣) ، إلا أن ذلك لم يثنه عن التآمر على الخليفة وكبار رجال دولته ، فقد آمنه على الإسلام وأهله ، فلم يستطع إخفاء رغبته في النيل منهم ، وقد ظهر ذلك عندما أكد للرشيد وفاة أحد أركان دولته إبراهيم بن صالح بن علي ^(٩٤) ، فكاد الرشيد أن يدفنه لولا أن جعفر البرمكي أشار عليه باستشارة طبيب آخر ، فأتى بطبيب هندي فكشف خيانة بختيشوع ، عندما أعاد الكشف على إبراهيم فوجده حياً ، فعاش إبراهيم بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين ^(٩٥) ، ثم خلفه جبرائيل بعد ذلك ، فعمل لدى الرشيد والمأمون ، ثم خلفه ابنه بختيشوع الثاني حتى نفاه المتوكل ^(٩٦) ، وقد اكتسب بالطب ما لم يكتسبه غيره ^(٩٧) وكان يوحنا بن ماسويه ^(٩٨) طبيباً لكل من المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وله عدد من المصنفات ، واختص ميخائيل الطبيب ^(٩٩) بتطبيب الواثق ^(١٠٠) .

– استعمال أهل الذمة في خدمة الخلفاء وفي الوظائف المالية والإدارية :

كما استعمل أهل الذمة في عدد من المجالات ، مثل خدمة الخلفاء ، وفي الترجمة ، وفي بعض الوظائف المالية فخدم الفضل بن مروان ^(١٠١) في بلاط كل من المأمون والمعتصم ، وكان حظياً لديهما ^(١٠٢) ، وجعل الرشيد يوحنا بن ماسويه مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ، من اليونانية والسريانية ^(١٠٣) واتخذ المأمون من سهل بن مروان ^(١٠٤) ، والياً على بيت الحكمة ^(١٠٥) ، وكان من جملة من يخدم المعتصم أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية لديه هما سلمويه وإبراهيم ^(١٠٦) .

إجراءات بعض الخلفاء ضد أهل الذمة

اتخذ عدد من الخلفاء إجراءات عقابية ضد أهل الذمة مثل عزل البعض منهم عن الوظائف التي كانوا يشغلونها ، أو مصادرة أموالهم ، أو النفي والسجن ، وغيرها من وسائل العقاب ، إلا أن هذه الإجراءات كانت في أوقات محدودة ، ونتيجة لإساءات بعض هؤلاء استخدام الوظائف والسلطات التي عملوا بها .

فقد أدى إفراط بعض الخلفاء العباسيين في التسامح مع أهل الذمة إلى التفريط في حقوق المسلمين ، من جهة ، لأنهم فضلوا أهل الذمة عليهم في الاستئثار بالوظائف والأعمال ، خصوصاً وقد أساء بعض أهل الذمة استخدام هذه الوظائف وألحقوا الضرر بالمسلمين وبأهل الخراج ، من ناحية ، وبالمال العام من ناحية أخرى ، وهو ما نلمسه من الشكايات التي كانت تصل الخلفاء من المسلمين ضد بعض موظفي الدولة من أهل الذمة خصوصاً في العصر العباسي الذي شهد وصول عدد كبير من أهل الذمة إلى مراكز مؤثرة في جهاز الدولة ، فشكا الناس إلى المنصور ظلم موظفيه من أهل الذمة الذين كلفهم بتبع أموال بني أمية ^(١٠٧) ، وعبر عن هذا الاستياء ، أحد العلماء عندما نبه المنصور إلى المظالم التي اقترفها عماله من أهل الذمة ، قائلاً : " يا أمير المؤمنين سلطت أهل الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوا أموالهم وجاروا عليهم " ^(١٠٨) ، وقويت شوكة أهل الذمة في خلافة المهدي حتى تضرر منهم المسلمون وتوجهوا إلى العلماء ليتدخلوا لدى الخليفة حتى يرفع عنهم سطوة موظفيه من أهل الذمة ^(١٠٩) ، وكان له كاتباً نصرانياً في البصرة ظلم الناس في معاملته ، فشكوه إلى قاضي البصرة سوار بن عبد الله ^(١١٠) .

وأوهم طبيباً نصرانياً الرشيد بموت أحد قادة جيشه عندما كشف عليه وكادوا يدفنونه، فأتوا بطبيب هندي فبين لهم أن الرجل لم يمُت ، فعاش بعد ذلك وتزوج وولي فلسطين^(١١١).

ولما زار المأمون مصرأ أتاه الناس يشكون عمال الخراج من أهل الذمة^(١١٢) ، واكتشف المتوكل أن موظفيه من أهل الذمة يسعون إلى إفساد ما بيته وبين القادة والموظفين من المسلمين ، وأن بعضهم ينتهبون المال العام^(١١٣) ، فأقصاهم عن الوظائف الحساسة ، وحاسبهم على الأموال التي استحوذوا عليها من المال العام ، فأمر في سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٨ م) بمحاسبة إبراهيم بن الجنيد النصراني ، وكان كاتباً حتى أقر بسبعين ألف دينار ، فاستخرجها منه ، وأودعه السجن^(١١٤).

وهكذا فإن تصرف الخلفاء المسلمين مع بعض أهل الذمة على نحو من الإقصاء من الوظائف المهمة في الدولة لم يكن إلا بسبب إساءتهم استخدام هذه الوظائف على نحو ألحق الضرر بالمسلمين .

الهوامش

- (١) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الديات ، باب يقاد من القاتل ، حديث رقم ٤٥٢٧ ، جـ ٤ ، ص ١٨٠ ، دار الفكر ، د.م .
- (٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب التشديد في جباية الخراج ، حديث رقم : ٣٠٥٢ ، جـ ٣ ، ص ١٧٠ .
- (٣) رواه الترمذي في سننه ، كتاب السير ، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً ، جـ ٩ ، ص ٢٠٤ .
- (٤) سورة :المائدة ، آية : ٨
- (٥) أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، جـ ٣ ، ص ٣٦٧ .
- (٦) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١١ .
- (٧) حقوق الإنسان في الإسلام ، ص ١٢ .
- (٨) الإسراء ، الآية ٧٠ .
- (٩) التين ، الآية ٤ .
- (١٠) الإنسان ، الآية ١ - ٢ .
- (١١) البقرة ، الآيات ، ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ .
- (١٢) الرحمن ، الأيتان ٣-٤ .
- (١٣) المائدة ، الآية ٤٥ .
- (١٤) الأنعام ، الآية ١٥١ .
- (١٥) الإسراء ، الآية ٣٣ .
- (١٦) الفرقان ، الآية ٦٨ .
- (١٧) البقرة ١٣١ .
- (١٨) البقرة ، الآية ٢٥١ .
- (١٩) الجاثية ، الآية ٣٦ .
- (٢٠) الواقعة ، الآية ٨٠ .
- (٢١) الشعراء ، الآية ١٩٢ .

- (٢٢) النساء ، الآية : ١٠ .
- (٢٣) الحجرات ، الآية : ١٣ .
- (٢٤) رواه الشافعي في مسنده ، كتاب القصص والديارات ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، انظر كذلك ، نظرية الإسلام وهدية ، ص ٣٤١ .
- (٢٥) الإسلام وهدية ، ٣٤٢ .
- (٢٦) يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٤ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعرفة بيروت .
- (٢٧) فصلت ، الآيتان : ٣٤ - ٣٥ .
- (٢٨) آل عمران ، الآية : ٦٤ .
- (٢٩) النحل ، الآية : ١٢٥ .
- (٣٠) البقرة ، الآية : ١٣٣ .
- (٣١) آل عمران ، الآية : ١٥٩ .
- (٣٢) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٢ .
- (٣٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٦ ، ص ١٥٨ .
- (٣٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
- (٣٥) الحجي ، أندلسيات ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، عن رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٥٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ . ، لين بول ، قصة العرب في أسبانيا ، ص ٧٢ .
- (٣٦) أندلسيات ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، عن عمر فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، ص ١٧٩ .
- (٣٧) الحجي ، أندلسيات ، ص ٣١ ، التأثيرات الاجتماعية المتبادلة ، ص ٣٩٢ .
- (٣٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٧٨ .
- (٣٩) الماوردي ، نصيحة الملوك ، ص ٢٦٩ ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، دار شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ م .
- (٤٠) ابن الجوزي ، العلل المتناهية ، ج ٢ ، ص ٨٧١ ، ٨٧٢ ، تحقيق ، خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ .
- (٤١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ ، الموصلي : حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، ص ٩٤ ، ٩٥ . .

- (٤٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤١ .
- (٤٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥ .
- (٤٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ .
- (٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٦٢-١٦٣ .
- (٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٧ .
- (٤٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
- (٤٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .
- (٤٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
- (٥٠) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٥ ، الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ٣٧٤ .
- (٥١) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .
- (٥٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .
- (٥٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٤٠ .
- (٥٤) المتحنة ، الآية : ٨ .
- (٥٥) رواه أبو داود في سننه ، كتاب الخراج والإمارة والفقه ، باب التشديد في جباية الجزية ، حديث رقم ٣٠٥٢ ، ج ٣ ، ص ١٧٠ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٥-٧٦ ، انظر كذلك عبد المنعم أحمد بركة ، الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، ص ٩ ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ط ١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- (٥٦) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٠ ، ٣١ .
- (٥٧) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .
- (٥٨) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٢-٥٣ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ .
- (٥٩) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ ، يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٧٤-٧٥ ، أحكام أهل الذمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، الرناج المرصد على خزائن كتاب الخراج ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
- (٦٠) ابن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- (٦١) محاسبين المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
- (٦٢) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٥٣ .

- (٦٣) أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٧١ ، الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .
- (٦٤) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .
- (٦٥) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ١٥٠ .
- (٦٦) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٠ .
- (٦٧) راوية عبد الحميد ، لتأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسبان في الأندلس ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، بحث منشور في مجلة المورخ العربي ، العدد (١١) ، مارس ٢٠٠٣ .
- (٦٨) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ١٥١ .
- (٦٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ١٨١ .
- (٧١) ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص ٢١٩ .
- (٧٢) عبد الرحمن الحجي ، أندلسيات ، ج ٢ ، ص ٣١ .
- (٧٣) الأموال ، ص ١٦٦ ، انظر : بدران . عبد القادر ، تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لابن عساكر ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ ، أبو زهرة ، العلاقات الدولية في الإسلام ، ص ٢٨ .
- (٧٤) توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨٥ ، ٨٦ .
- (٧٥) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٢٤٦ .
- (٧٦) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ ، المزي ، تهذيب الكمال ، ج ٦ ، ص ٤٢٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠ ، ١٩٨٠ .
- (٧٧) ابن النديم ، الفهرست ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ، دار المعرفة بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ .
- (٧٨) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ١٠٩ .
- (٧٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٢٦٣ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٦ ، ٣٦٩ .
- (٨٠) يؤكد ذلك جورجى زيدان ، حيث يقول : كان الأمراء يستخدمونهم (يعني أهل الذمة) كأطباء ومترجمين وكتاب ، وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويخالسونهم ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .
- (٨١) جورجىوس بن جبرائيل : هو طبيب سريان مسيحي ذو خبرة بصناعة الطب وتركيب الدواء ، خدم المنصور ، فكان يطيعه ، وحظى لذلك بمكانة لديه ، ونال منه أموالاً جزيلة ، كما استخدمه المنصور في ترجمة بعض كتب اليونان إلى العربية ، وابتداء في خدمة المنصور منذ سنة (١٤٨ هـ / ٧٦٥ م) ،

واستمر حتى سنة (١٥٢ هـ / ٧٦٩ م)، حيث مرض جورجوس فعاده المنصور وحزن عليه وعرض عليه الدخول في الإسلام ، إلا أنه توفي على نصرانيته سنة (١٥٢ هـ / ٧٦٩ م) ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ج ٢ ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٨٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٣٨ ، اليوزبكي : توفيق سلطان تاريخ أهل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٣٨٤ .

(٨٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٤٠ .

(٨٤) المصدر نفسه

(٨٥) عيسى بن شهلا (لم أعثر له على ترجمة) .

(٨٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) المطارنة : جمع مطران ، والمطران رئيس الكهنة ، وهو فوق الأسقف ودون البطريرك ، ويجمع أيضاً : مطارين ، وهو لفظ أعجمي معرب ، البستاني : الوافي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٥٩٢ .

(٨٨) الأساقفة : جمع أسقف ، والأسقف رئيس النصارى في الدين ، فيقال أسقفه إذا جعله أسقفاً وهو اسم سرياني قصد به علماء النصارى والمتقدمين لهم في الدين ، ابن منظور : لسان العرب ، ج ٣ ص ٢٠٤١ .

(٨٩) نصيبين : هي مدينة عامرة في بلاد الجزيرة (الفراتية) على طريق القوافل بين الموصل والشام فتحها عياض بن غنم سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) صلحا ، ونصيبين كذلك قرية من قرى حلب وهناك نصيبين ثالثة على شاطئ الفرات ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٩٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٤٠ .

(٩١) المصدر نفسه .

(٩٢) بختيشوع بن جورجوس ، ومعنى بختيشوع ، عبد المسيح ، لأن البخت في اللغة السريانية بمعنى العبد ، ويشوع عيسى عليه السلام ، تعلم مهنة الطب على يد أبيه جورجوس فبرع فيها ، واشتهر ، فاتخذته الرشيد ، والأمين والمأمون والمعتصم والوائق والمتوكل طبيباً خاصاً ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٤١ ، الفهرست ، ص ٣٥٨ .

(٩٣) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ، ص ٣٨٥ ، ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ج ١٣ ، ص ١٩٠ .

(٩٤) إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ، ولي دمشق للمهدي ، ثم ولي له مصر مرتين ، وولي الجزيرة لموسى الهادي وظل عليها حتى ولي الرشيد الخلافة فعزله ، ثم أعاده الرشيد سنة (١٧٢هـ / ٧٨٨م) على دمشق فظل والياً عليها حتى سنة (١٧٥هـ / ٧٩١م) ، ثم توفي بعدها بعام ، أي في سنة (١٧٦هـ / ٧٩٢م) ، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق، ج ٦ ، ص ص ٤٤٥ ، ٤٤٧ .

(٩٥) ابن وادران : تاريخ العباسيين ، ص ص ٩١ ، ٩٢ .

(٩٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٢ ، ص ٣٨ .

(٩٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٦ ص ٥٢٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ٩ ، ص ٦٤ .

(٩٨) يوحنا بن ماسويه، خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق حتى عزله المتوكل، وهو مسيحي سرياني قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وجد في بلاد الروم التي افتحها المسلمون ، وجعله أميناً على الترجمة وجعل تحته كتاباً يساعده ، وكان مع ذلك طبيباً نارعاً ، فتذكر بعض المصادر أنه كان يشرف على طعام الخلفاء وكان لذلك معظماً ببغداد ، ابن جليل: طبقات الأطباء والحكماء ، حققه فؤاد السيد ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٨م ، ص ٦٥ .

(٩٩) ميخائيل الطيب (لم أقف له على ترجمة) .

(١٠٠) ابن دحية : البراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ص ٧٦ .

(١٠١) الفضل بن مروان بن ماسرجس ، يكنى بأبي العباس ، استوزره المعتصم ، وهو نصراني من البردان بالشام إختان المال العام فنكبه المعتصم واستخرج منه عشرين مليون درهم ، توفي سنة (٢٥٠هـ / ٨٦٤م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٠ ص ٢٩٣ ، ج ١٢ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٠٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٦٠ .

(١٠٣) خضر أحمد عطاء الله : بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٤) سهل بن مروان بن رامنوي الدستيميسي ، انتقل إلى البصرة ، فارسي الأصل شعوبي المذهب ، له كتب في مثالب العرب ، ذا حكمة وقصاحة ، التحق بخدمة المأمون ، فولاه خزانة بيت الحكمة ، له مصنفات عديدة منها : كتاب ديوان الرسائل ، ثلثة وعفراء ، على غرار كليلة ودمنة ، كتاب الهذلية والمخزومية ، كتاب النمر والثعلب ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، ابن النديم الفهرست ، ص ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(١٠٥) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥١ ، انظر كذلك خضر الله ، بيت الحكمة في العصر العباسي ، ص ٦١ .

(١٠٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٨١ ، هما سلمويه وإبراهيم ابنا بنان ، فعندما استخلف المعتصم سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ ، اختار لنفسه سلمويه الطيب وأكرمه وقربه منه ، حتى انه اتخذته كاتبه الخاص فكانت كتب المعتصم إلى الدواوين تصدر بيد سلمويه ، وقد ضم سلمويه إليه في خدمة المعتصم أخاه إبراهيم ، وهما نصرانيان ، توفي سلمويه سنة (٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م) ، فحزن عليه المعتصم حزناً شديداً ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١٠٧) النقاش النقاش : المذمة في استعمال أهل الذمة ص ٨٤ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، مصور عن دار الكتب العربية ، القاهرة ، ميكروفيلم (٥٠) .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(١٠٩) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥ ، حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١١٠) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(١١١) تاريخ العباسيين ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(١١٢) المذمة في استعمال أهل الذمة ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(١١٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ، ص ٣٤٧ ، المذمة في استعمال أهل الذمة ،

(١١٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٧ ، ص ٣٤٧ .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً المصادر :

- أحمد بن حنبل الشيباني . ت ٢٤١ هـ .
- ١- مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، د.ت .
- ابن آدم . (يحيى القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .
- ٢- كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ط ٢ ، د.ت .
- ابن أبي أصيبعة .
- ٣- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الثقافة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م
- البلاذري . (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) .
- ٤- أنساب الأشراف ، تحقيق إحسان عباس ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- الترمذي . محمد بن عيسى بن سليمان . ت ٢٧٩ هـ .
- ٥- سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .
- ابن تيمية . تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م .
- ٦- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص ٤٥ ، تحقيق محمد إبراهيم البناء ، محمد أحمد عاشور ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ابن جليل . (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) .
- ٧- طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- (ابن الجوزي . عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ .

٨- العلل المتناهية ، ، تحقيق ، خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ .

ابن خلكان . (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٨١ هـ — / ١٢٨٢ م)

٩- وفیات الأعیان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت .

أبو داود . سليمان بن الأشعث السجستاني ت . ٢٧٥ هـ .

١٠- سنن أبي داود ، دار الفكر ، د.م ، د.ت .

الذهبي . (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)

١١- سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرتؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

ابن سعد . (محمد بن سعد بن منيع ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) .

١٢- الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت . الشافعي . محمد بن إدريس ت ٢٠٤ هـ

١٣- مسند الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت .

شهاب الدين . أحمد بن محمد الحلبي ت ٨٧٠ هـ / ١٤٦٦ م

١٤- محاسن المساعي في مناقب الأمام الأوزاعي ، تحقيق ابراهيم مهدي ، مؤسسة المارد الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٩١ م .

الطبري . (محمد بن جرير ت ٣١٠ / ٩٢٢ م) .

١٥- تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ — / ١٩٨٧ م .

ابن عساكر . (أبو القاسم علي بن الحسين ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) .

١٦- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سكيئة الشهابي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ

ابن النديم

الماوردي . (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠ هـ — / ١٠٥٨ م) .

١٧ — الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت .

١٩٥ — نصيحة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

المزي . (جمال الدين أبو الحجاج يوسف ت ٧٤٢ هـ / ١٧٤١ م) .

١٨ — تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٧ ، ١٩٨٧ م .

الموصللي . (محمد بن عبد الكريم الشافعي ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

١٩ — حسن السلوك الحافظ لدولة الملوك ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

أبو عبيد . (القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م) .

٢٠ — الأموال ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، دار الحداثة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

ابن قيم الجوزية . شمس الدين محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ .

٢١ — أحكام أهل الذمة ، تحقيق : سيد عمران ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م

ابن النديم . (محمد بن إسحاق ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م) .

٢٢ — الفهرست ، تحقيق إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م

النقاش . (أبو أمامة محمد بن علي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦٢ م) .

٢٣ — المذمة في استعمال أهل الذمة ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، برقم (٥٠)

ابن وادران . حسين بن محمد ، كان حياً سنة ١١٧٢ هـ / ١٧٥٩ م

٢٤- تاريخ العباسيين ، تحقيق النجى الكعبى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

ياقوت . (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) .

٢٥ - معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ .

يحيى بن آدم . (القرشي ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م) .

٢٦ - كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، القاهرة ، د.ت .

ثانياً المراجع :

بدران . عبد القادر .

١- تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير لابن عساكر ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

البستاني . عبد الله

٢ - الوافى معجم وسيط اللغة العربية، مكتبة لبنان ، بيروت ، هـ ١٤٠٠ / ١٩٨٠م .

الحجى ، عبد الرحمن علي (الدكتور)

٣- أندلسيات ، دار الإرشاد ، د.م ، ط ١ ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

راوية عبد الحميد

٤- التأثيرات الاجتماعية المتبادلة بين المسلمين والأسيان فى الأندلس ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد (١١) ، مارس ٢٠٠٣ .

خضر أحمد عطاء الله (الدكتور)

٥ - بيت الحكمة فى عصر العباسيين ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط ١ ، د.ت .

وافى . علي عبد الواحد (الدكتور)

٦- حقوق الإنسان فى الإسلام ، ، نضلة مصر ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٩ م .

المودودي .أبو الأعلى

٧- نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور ، نقله إلى العربية جليل حسن الإصلاحي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص ٣٤٢ .

اليوزبكي : توفيق سلطان

٨- تاريخ أهل الذمة في العراق (١٧ / ٢١٨ هـ - ٦٣٨ / ٨٣٣ م) (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٣٨٤ .

٩- ول ديورانت :

قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ج ١٣ ، ص ١٩٠ .

دكتورة آمال حسن عبد الحافظ الخطيب *

السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية

١٣٢ - ٣٠٥ هـ / ٧٤٩ - ٩١٧ م

العلاقات الإسلامية البيزنطية

لم يهتم العباسيون بالفتوحات الإسلامية وضم أراضي جديدة للدولة، وإن لم يتوقف الصدام العسكرى بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية، إلا أن العباسيين لم يخططوا لإسقاط الدولة البيزنطية كما خطط أسلافهم الأمويون، واتخذ الصدام العسكرى بين الدولتين صورة غارات إنتقامية تخريبية، الهدف منها إنزال كل فريق بالآخر أكبر قدر من الخسائر فى الأرواح والعمران والأموال، وكانت كلا من الدولتين العباسية والبيزنطية تنتهز فرصة الإضطرابات الداخلية فى أى منهما للقيام بمثل هذه الغارات التخريبية، ولم نجد فى المصادر التاريخية ما يدل على أن العباسيين خططوا لفتح القسطنطينية^(١).

فسياسة العباسيين إنما قامت على أساس الدفاع عن الحدود، لاضم أراضي جديدة، ثم الانتقام لكل عدوان يقع على أراضيهم، فغزواتهم كانت وقائية دفاعية تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين بدليل إنهم فى حالات إنتصاراتهم وتوغلهم فى الأراضي البيزنطية ووصولهم أسوار القسطنطينية عادوا وتركوا الأرض واكتفوا بأخذ الجزية كما فعل هارون الرشيد فى عام ١٦٥ هـ / ٧٨١ م، فى خلافة أبيه المهدي^(٢).

ومن الملاحظ أن علاقة العباسيين والبيزنطيين لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد، بل كانت أقرب إلى الحياد على المستوى العلمى والتجارى والحضارى بصورة عامه، وكانت

* أ.م. عصور وسطى بقسم التاريخ - جامعة الملك عبد العزيز - كلية التربية - الأقسام الأدبية .

الصلات - فيما عدا فترات الحرب- قائمة دائما وذلك ينسجم إنسجاماً مطلقاً مع عقلية القرون الوسطى ونستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمى والودى للعلاقات بين هاتين القوتين من خلال الرسائل التى تبادلها كبار رجال الدولتين ، فحرص كلا منهما على التمسك بأهداف حسن الجوار ، فأودت الدولة الإسلامية سفرائها منذ أيامها الأولى إلى بلاط القسطنطينية ، كما بعث الأباطرة البيزنطيون بسفرائهم إلى عاصمة الدولة الإسلامية رداً على التمثيل الدبلوماسى الإسلامى^(٣).

أنواع السفارات :

كانت هناك سفارات حربية أو سياسية أو عسكرية أو سلمية، وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلى واتبعوها فى العهد الأموى، ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا منذ بداية دولتهم سفراء الروم والفرنجة وغيرهم، استقبلت الخلافة العباسية سفارات لإنهاء حالة حرب، أو عقد معاهدة تجارية أو ثقافية أو للتنهئة بتولى حاكم جديد للعرش ، أو بطلب صلح أو لتوثيق الروابط العلمية بين الطرفين، كما كانت هناك سفارات الغرض منها التجسس لمعرفة إستعداد الأعداء الحربى والمادى ، وهناك جانب آخر استهدفته السفارات الإسلامية ألا وهو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولتين، فكان الخلفاء والأباطرة يتبادلون السفارات الخاصة بطلب الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين أو فى مكتبتهما العامة ، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمة فى الحركة العلمية فى بلادهما أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم المسلمين والبيزنطيين^(٤).

وكانت بغداد فى أرض الرافدين والقسطنطينية على البسفور حقائق للمعرفة والعلم والفنون، كلا منهما تسابق الأخرى فى ميدان البحوث والدراسات والابتكارات، ولذا كثرت السفارات بينهما لنقل ثمار المعارف والعلوم، ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب وطلب العلماء ، ودراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث إسلامية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، وكانت هناك سفارات لتبادل الأسرى (الفداء) الذين ازداد عددهم نتيجة كثرة الغارات بين المسلمين والبيزنطيين^(٥).

صفات السفراء وقواعد اختيارهم :

كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد ، فالسفير الإسلامى كان يمثل الخليفة ويتكلم باسمه ويفاوض عنه ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه ، فكان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة، وكان فى الدولة الإسلامية فى صدرها الأول ديوان يسمى ديوان الرسائل يختص بالمكاتبات بين الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة للدولة الإسلامية .

وطلب الخلفاء فى السفراء صفات هامة أولها هى الصفات الجسمانية فقليل فى صفات الرسول : يستحب فى الرسول إمتداد الطول وعبالة الجسم وقام القد، فلا يكون قميئاً أو ضئيلاً، وأن يكون جهر الصوت وسيما لا تقتحمه العيون ولا تزدرية النواظر ، وأكد الخلفاء والسلاطين المسلمون على أهمية الصفات الجسمانية مع ما يتحلى به السفير من الفصاحة وقوة الجنان، لأن تلك المواهب لا تظهر من أول وهله، فقالوا « وإن كان المرء بأصغريه مخبوءاً تحت لسانه ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان ، وينبغى أن يجمل الرسول بكل ما أمكن لأن العامة ترمى الزى أكثر مما ترمى الكفاية، ثم إن أعين الملوك تسبق إلى ذوى الرداء من الرسل وتطلب ذلك فى رسلها لثلاً ينقص إختيارها خطأ من خطوط الكمال ولذا كان لابد من أن يكون السفير وسيما جسيماً يملأ العيون المتشوقة إليه، ويشرف على تلك الخلقة المتصديه له فلا تستصغره » (٦).

ولفت نظر الأباطرة البيزنطيين ما كان عليه سفراء الدولة الإسلامية من مهابة فى الجسم وأبهة فى المنظر، وإلى جانب الصفات الجسمانية التى اشترطتها الدولة الإسلامية فى سفرائها الصفات الخلقية ، فإذا تجمعت فى إنسان صار جديراً بالسفارة والرسالة وأن يمثل رأس الدولة فى الخارج ، ومن تلك الصفات الخلقية أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ رأى وحصافة العقل التى تجعله يستنبط غوامض الأمور، ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينه ويدع ما لا يستحب عمله عن خبره ، وقد راعت الدولة الإسلامية أن يتحلى السفير كذلك بالفصاحة وذكاء العقل وقوة القلب والقدرة على فهم الإيماء حتى يدرك حجة خصمه قبل النطق بها (٧).

وينبغى ألا يخلو السفير من جرأة وإقدام ، لأن الجرأة أقوى معين على النجاة وأضمن سبل لبلوغ الهدف، كما يحتاج السفير إلى كثير من الحلم وكظم الغيظ مثل ما يحتاج إلى الصبر

وللتأني مكانه في صفات السفير، لأنه إذا لم يكن متأنياً وقابل حاكماً حازماً اندفع إلى إبرام أمور تضر بدولته بسبب العجلة وتكوين الرأي دون بصيرة وآناة، والرسول يحتاج إلى ترك الإفراط في الإنقباض والحشمة لأن الإنقباض يوجب الوحشة والإنبساط يوجب المؤانسة والمؤانسة تجمع القلوب، وفطنت الدولة الإسلامية إلى أمرين لهما شأن كبير في التعليمات التي زودت بها سفرائها :

الأول : حذرت السفير من شرب الخمر والإفراط فيه، لأن الخمر تفضح شاربها وتطلع على ما في نفسه من الأسرار، وألا يميل إلى النساء لأن للنساء حيلة بارعة يستخرجون بها الأخبار.

الثاني : أوصت الدولة الإسلامية سفرائها بعدم التدخل في شؤون المرسل إليه وأمر مملكته، وأن لا يحرش الحاكم على الرعية، أو يتصل بشخصيات مشتبها في أمرها لدى سلطان الدولة المرسل إليه .

ساعدت هذه الصفات الخلقية الرقيقة على خلق طبقة ممتازة من السفراء المسلمين الذين كانوا عنواناً كريماً على سمر الدولة الإسلامية، وعجز جكام الدول الذين قابلوا السفراء المسلمين على التأثير عليهم أو خداعهم بالخمر أو النساء، كما وجدوا فيهم رجالاً على جانب كبير من الأدب الجم والروح الخفيفة الظل والتأني وكظم الغيظ^(٨).

وأضيف إلى مؤهلات وصفات السفير الثقافة العامة التي تجنب السفير الزلل في القول وتقويه في محاوراته ومحادثاته فعليه أن يكون ملم بكل علم وأبلغ تعبير عن هذا المعنى قول الشعبي «العلم أكثر من أن يحصى فخذ من كل شيء أحسنه»، وجمعت الدولة الإسلامية ما يجب أن يتحلى به السفير من علم في هذه العبارة «ينبغي أن يجمع الفرائض والسنن، والأحكام والسير ليحتذاً بها مثال من سلف فيما يورده ويصدره، وأن يعلم أصول الخراج وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطأه»^(٩).

ولاحظ المسلمون ما للنسب من أثر عند إختيار السفراء، ففضلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره، لأن النبيل لا يصدر عنه إلا العمل النبيل ولا يجروء على ما يجروء عليه السافل الوضع، وجرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة في مهام محلية بسيطة لإختيار مدى ما عندهم من مواهب، وعندما يتم السفراء تدريبهم ويتأكد أولى الأمر من صفاء معدنهم وقوة مواهبهم يرسلونهم إلى خارج البلاد، وكان في ذلك

يزودون بتعليمات تقضى التأكد من صحة طلب الفريق الآخر للصلح أو المهادنة أو تبادل الأسرى ، إذ كثيرا ما يعمد الجانب المعادى للدولة الإسلامية إلى إتخاذ مطالبه السلمية وسيلة لتدعيم قوته الحربية استعدادا لاستئناف القتال، وقد أدت الاحتياطات العظيمة التي اتخذتها الدول الإسلامية لمرسحيتها للسفارة الى تمتعها بالمكانة الأولى فى عالم الدبلوماسية فى عالم العصور الوسطى، وكانت الدولة الإسلامية على خبرة واسعة بشؤون الدبلوماسية والأغراض التي قد يستهدفها جيرانها بإيفاد الرسل إليها، وحفلت دور المحفوظات والوثائق فى الدولة الإسلامية بتقارير مسهبة عن أراضى الدولة البيزنطية وطرقها ومعاقلها وغير ذلك من مرافقها الهامة وساعدتها تلك المعلومات على معرفة طرق التجارة والطرق الحربية ، واتخذت الدولة الإسلامية من جانبها كل الوسائل لمنع سفراء الدول الأخرى من التجسس على مرافقها، وترك الخلفاء المسلمون نماذج عالية يحتذى بها الخلف عن السلف فى اختيار ممثليهم الدبلوماسيين^(١٠).

أمثلة على أنواع السفارات بين العباسيين والبيزنطيين :

أولا :التبادل العلمى والثقافى : استهدفت السفارات الإسلامية جانب هام هو تدعيم الروابط الثقافية بين الدولة العباسية وجاراتها ، فاستفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلامية عن طريق رحلات المسلمين إلى القسطنطينية سواء كانوا أسرى حرب أو تجارا أو رحالة، فقد لعبوا دوا هاما فى التأثير والتأثر بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وكان الميدان الثقافى بداية التعاون بين الدولتين ، فكان يسمح للعلماء المسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية واستخراج الكتب النادرة التي يحتاجها المسلمون فى دراساتهم فى ميدان الطب أو الكيمياء أو الفلسفة ، وغيرها من المواد التي برع فيها البيزنطيون^(١١).

ومن أمثلة تلك السفارات العلمية ما بعث به الخليفة العباسى (أبو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) إلى القسطنطينية طالبا كتب نادرة، وعاد العلماء المسلمون محملين بالكتب النادرة ، من بينها كتاب (إقليدس) ، ويرجع إلى المنصور أولى المحاولات لترجمة اليونانية إلى العربية^(١٢).

وفى زمن الرشيد حاول الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقره وعمورية وغيرها ، فيذكر القفطى فى أخبار الحكماء أن الرشيد ولى (يوحنا بن ماسويه) ترجمة الكتب الطبية

القديمة لما وجدها بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة ورتب له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه (١٢).

وفي عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٢ م) (١٤) الذي تميز عهده بأنه كان عهد العلم والعلماء ، فقد كان عصره أرقى عصور آل العباس علماً وفهماً ، وتطلعت نفسه إلى علوم الأولين، وعلم أن بالقسطنطينية أستاذا مشهوراً في الرياضيات يدعى ليو العالم الرومي المهندس والفلكي فرغب في استدعائه إلى بغداد للاستفادة من علمه الواسع في الرياضيات ، فأرسل إلى الامبراطور البيزنطي ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢ م) (١٥) سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للعالم ليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة وقال المأمون في رسالته « إنه يعتبر ذلك عملاً ودياً » ، وعرض على الإمبراطور البيزنطي صلحاً دائماً ، وألقى قطعة ذهبية ، غير أن الإمبراطور البيزنطي رفض هذا العرض السخي لأن بعض أبحاث العلماء لاسيما إذا كانت تتعلق بالناحية الحربية من الأسلحة والعتاد تعتبر من أسرار الدولة وبذلك ضنت الدولة البيزنطية بهذا العالم على بغداد ، ومنح الإمبراطور العالم ليو وظيفة في إحدى الكنائس ومرتباً دائماً ، ولم ييأس المأمون فكتب إلى الإمبراطور البيزنطي يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونه ببلاد الروم فأجاب إلى ذلك بعد إمتناع ، فأرسل المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا من كتب ، وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم (١٦).

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب ، وإنما شملت دراسة الأماكن التاريخية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ومن هذه السفارات العلمية السفارة التي أرسلها الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ / ٨٤٢-٨٤٧ م) برئاسة العالم العربي المشهور محمد بن موسى المنجم إلى مدينة إفسوس بآسيا الصغرى لزيارة الكهف الذي حفظت فيه أجساد الشباب السبعة الذين استشهدوا أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠ م) والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، وقد منح الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧ م) (١٧) تلك السفارة تفريضا خاصا لزيارة ذلك الكهف ، كما بعث معها رجلاً ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدي دور الدليل أثناء تجوال السفارة ، ووصف السفير الإسلامي محمد بن موسى المنجم مشاهدته عن أهل الكهف قائلاً « عندما وصلنا إلى المدينة شاهدنا جبلاً يؤدي إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته ، فإذا بئر محفورة

لها سعه وتبين الماء فى قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرداب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه ، فإذا رواق فى الجبل وفيه عدة بيوت منها بيت مرتفع العتبه مقدار قامه ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم - وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم - ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من الشمس ذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم فقلت له دعنى أنظر إليه وانت برئ فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى فنظرت إليهم فى مسرح تفرك فى اليد ، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير إنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته» (١٨).

ثانيا : السفارات للتهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين :

وفد على الخليفة المنصور العباسى (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) رسول من قبل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٢٠-٧٤٠م) ليهنئه ببناء عاصمة ملكه بغداد عام ١٤٩هـ / ٧٦٦م ، فكلف المنصور بعض ثقاته بأن يرافق السفير فى جولة طواف فى بغداد وكانت قد تم بنائها منذ فترة يسيرة ويوقفه على مبانيها ومجتمعاتها وعندما عاد السفير إلى الخليفة قال له المنصور: كيف رأيت ما شاهدت ؟ فقال السفير: كل ما رأيت جليل نبيل إلا ثلاثة أشياء ، قال الخليفة : ما هى ؟ فقال السفير : النفس خضراء ولاخضرة لك ، والماء حياة ولا حياة لك ، وعدوك معك (يعنى السوقه) لأن الأسواق كانت قريبة من القصر ، فأجاب المنصور قائلا : أما الخضرة فإنى خلقت للجد لا للهزل ، وأما الماء فحسبى منه بل الشفاه وروى الصدى ، وأما مجاورة العوام ، فما أبالى أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لا أقصر فى شؤون ملكى.

وبعد أن أنصرف السفير البيزنطى ، راجع الخليفه نفسه لأن رده كان تصرفا دبلوماسيا بارعا حتى لا يظهر أمام السفير بمظهر المعترف بما فى مدينته من عيوب ، وبادر الخليفه العباسى إلى الإهتمام بالحدائق ولاسيما فى حى العباسية الذى كان يطل عليه القصر ، وشق قناة إلى بغداد ونقل العامة وأسواقهم إلى حى يعرف بالكرخ خارج بغداد (١٩).

كان تولى الخلفاء والأباطرة العروش مناسبات طيبة لتبادل سفارات التهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين ، فحين تولى الخلافة الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٥-٧٨٥م) وفدت عليه رسل الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع الخزرى (٧٧٥-٧٨٠م) بالتهنئة ، فقال

السفير فى حديثه : « إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض ، إنما قدمت شوقا إليه وإلى النظر إلى وجهه » فسر الخليفة المهدى سرورا عظيما بلباقة السفير البيزنطى وأمر بإكرامه (٢٠).

ثالثا : السفارات التى تهدد بالحرب :

فى عام ١٦٥هـ / ٧٨١م توجه هارون بالصائفة إلى الدولة البيزنطية وكان قد أرسله الخليفة المهدى ، فتوغل هارون فى أراضى الدولة البيزنطية ووصل إلى البسفور وهدد القسطنطينية ، وكان الإمبراطور البيزنطى ليو الرابع قد توفى وترك ابنا صغيرا لزوجته إيرين فأصبحت وصية على ابنها وهى التى تدير شؤون البلاد نيابة عن الإمبراطور قسطنطين السادس ، فأضطرت إلى طلب الصلح وجرى بينها وبين الرشيد كتابات على المودعة والصلح ، واشترط عليها : ١- أن تدفع جزية قدرها تسعون ألف دينار ٢- أن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ٣- وأن تعيد إليهم أسراهم ، وأرسلت معه رسولا يحمل الجزية التى اتفقوا عليها على أن تؤدى منها ما تيسر من الذهب والفضة وأن تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنوات (٢١).

ونستطيع أن ندرك خطورة هذه الحملة إذا عرفنا أن قتلى البيزنطيين أربعة وخمسين ألفا وأسراهم كانوا خمسة آلاف وقد رفعت هذه الحرب من قدر هارون فلقب منذ ذلك الوقت بالرشيد ، وكانت هذه آخر غزوه حاول فيها المسلمون محاصرة القسطنطينية ، وظلت إيرين تفى بشروطها إلى أن خلعتها نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) وما كاد أن يتولى العرش حتى امتنع عن دفع الجزية ، بل أنه طالب حسب ما ورد فى المصادر العربية بإعادة ما دفعته إيرين من الجزية وأرسل نقفور إلى الرشيد كتابا فى أوائل عام ١٩٠هـ / ٨٠٦م يقول فيه : « من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتدى نفسك بما يقع من المصادرة لك .. وإلا فالسيف بيننا وبينك (١٢) ».

وصل الكتاب إلى الرشيد ، فلم يسبق أن خاطبه أحد بمثل هذه اللهجة فغضب غضبا شديدا ودع بدواة وكتب على ظهر رسالة نقفور الجمل التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، والجواب ما

تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من إتبع الهدى» ، وجهاز جيشا يزيد على مائة وثلاثين ألف جندي ، وانطلق على الفور نحو أراضي الدولة البيزنطية فتوغل فيها ووصل إلى مدينة هرقله فحاصرها ورمها بالنار والنفط حتى فتحت أبوابها له وتوغل في قلب البلاد ودمر وأحرق ، عند إذن طلب نقفور المهادنة والأمان على أن يدفع له الجزية كل عام فأجابته الرشيد إلى ذلك وعاد إلى الرقة ، ولكن نقفور هذا كان مراوغا فانتظر حتى اشتد البرد وأمن نقفور عودة الرشيد فنقض العهد ، فجاء الخبر إلى معسكر الرشيد بأن نقفور اخترق الحدود وقتل ونهب ولم يجرؤ أحد أن يذكر ذلك للرشيد إلا شاعرا من أهل جده (٢٣) ، أعطاه يحيى البرمكي مائة ألف درهم ، ودخل على الرشيد وأنشده:

نقض الذي أعطيته نقفور	فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنـه	فتح أتاك من الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية إذ أتى	بالنقض منه وافد وشير
أعطاه جزيته وطأ طأ خـده	حذر الصوارم والردى محذور
إن الإمام على اقتسارك قادر	قربت ديارك أو نأت بك دور

عندئذ انتبه الرشيد وقال أوقد فعلها ، فكر في الحال راجعا إلى الأراضي البيزنطية في شدة الثلج وقاتل جيوش نقفور ثانية وشتتها وخرب مدينة هرقله وسبى أهلها وغنم ما بها من مستودعات الحبوب ، واستولى على طوانة وجعل منها قاعدة يرسل منها سرايا والجنود إلى سائر الجهات ، ولما تبين للإمبراطور نقفور أنه لن يستطيع مقاومة الرشيد عرض أن يدفع خمسين ألف دينار عن رأسه وولى عهده ويطارقتة وسائر أهل بلده منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه دينارين ، وتعهد أن يحمل إليه أيضا ثلثمائة ألف دينار كتعويضات حريه ، وشرط الرشيد أن لاتعمر مدينة هرقله بعد هذا فأجيب طلبه (٢٤) .

ومن طرائف ما حدث في هذه الغزوة التاريخية النادرة ما حدثنا عنه الطبري فقال: بينما كان الرشيد مع جيشه في طريق العودة ورده كتاب من نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقتهم يطلب فيه جارية من سبى هرقله هذا نصه: «لعبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين . من نقفور ملك الروم، سلام عليك، أما بعد أيها الملك، فإن لي إليك حاجة لاتضرك في دينك ولا دنياك،

هينة وسيرة أن تهب لإبنى جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على إبنى، فإن رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» (٢٥).

رابعاً : السفارات الخاصة بإنهاء حالة الحرب وتبادل الأسرى (الفداء) :

كانت هناك مراسم تتم لتبادل الأسرى بين الطرفين فكانت تتم وسط احتفال كبير يقام فى الدولة الإسلامية ويحضره كبار الشخصيات العسكرية ومختلف الناس بالإضافة إلى أعداد غفيرة من أهالى الأسرى المسلمين، أما الموضع الذى كان يتم فيه الفداء بينهما فهو المكان المعروف باللامس ، يقول بن حوقل : «هى قرية على شط بحر الروم كان الفداء يقع فيها بين المسلمين والروم، فيكون الروم فى مراكزهم والمسلمون فى البر يتفادون» (٢٦).

وكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التى أسرته حيث وجدت أماكن خاصة وثكنات لإيواء الأسرى، وكانت هذه المعسكرات تنقسم إلى قسمين: أحدهما لكبار رجال الجيش ، والآخر لعامة الجنود ، ورسم الرحالة المقدسى صورته عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية فيقول: «إن عظماء الأسرى كانوا يعاملون معاملة حسنة ولم يكلفوا بأداء أى عمل، أما عامة الأسرى من المسلمين فكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعة التى يجيدونها، ويوزعون بناءً على ذلك فى مختلف المصانع للعمل بها وكانت هناك دار خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط تشتمل على غرف واسعة يقيم فيها الأسرى» (٢٧).

وكانت الدولة البيزنطية تراعى مبادئ التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين، فلم تكره أحدا منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شئ يخالف الشريعة الإسلامية ، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى فلم يشقب أنف، ولاشق لسان، ولاسملت عين أسير، إذ لجأت الدولة البيزنطية لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية كالصقالبة (السلاف ، المجر) ولعل هذه المعاملة الممتازة التى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين ، فقد سمحت الدولة البيزنطية للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعاً من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح ، ومن الطريف ما يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحية ، واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن أنفسهم وتفاؤلاً باقتراب تحسن مصيرهم (٢٨).

فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكة لها درج يجتمع

فيه الأسرى للعب (٢٩)، ولم يحرم الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة، فكان لهم في طرسوس مكان خاص يسمى المناخ ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطي جزءا منهم للخليفة، وجزء يوزع على كبار رجالات الدولة، ولم يقض الأسرى كل أيامهم في الاعتقال وإنما كان هناك نظام دقيق للفداء بين المسلمين والبيزنطيين، ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا في عهد الدولة العباسية بسبب كثرة الغارات بين الطرفين، وكانت تسبق التبادل إيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقدير عدد الأسرى ووضع أسس الفداء، يتضح مما سبق أن تبادل الأسرى كان يجري طبقا لقواعد مرسومه ونظم خاصة، فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للاحتفال بالتبادل، فتروى المراجع أن سفن البيزنطيين كانت تذهب إلى اللامس وهي مزينة حاملة أسرى المسلمين الذين تقرر إطلاق سراحهم، وإذا اقتربت هذه السفن من الشواطئ الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل دقوا الطبول إيذانا بحضور السفن وهنا يخرج كبار الحكام في أبهى زينة وعليهم اللباس الحربي لمقابلتها، وكذلك أهالي القرى المجاورة للسواحل يخرجون زرافات ووحدانا مهولين نحو الشاطئ لمشاهدة التبادل (٣٠).

وكان أول فداء للأسرى في عهد الخليفة المنصور عام ١٣٩هـ / ٧٥٨م وكان الفداء في أسرى قاليقلا وغيرها من الحصون الذي استولى عليها الامبراطور قنسطنطين الخامس وهي ملطيه وحصن بلخ (٣١).

والفداء الثاني : في العصر العباسي تم عام ١٨٧هـ / ٨٠٣ م وتولاه القاسم بن الرشيد وافتدى من المسلمين ثلاثمائة وعشرين رجلا من أسارى المسلمين، وخرج معه طرسوس الخادم، وقيل أنه تم عام ١٨٩هـ (٣٢).

والفداء الثالث : كان في عهد الخليفة المأمون فقد بلغه أن الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل قتل من المسلمين ألف وستمائة رجل فعاد من فوره إلى الأراضى البيزنطيه ودخلها عام ٢١٦هـ / ٨٣١م فكتب الإمبراطور ثيوفيل إلى المأمون كتابا بدأ بنفسه «من ثيوفيل بن ميخائيل إلى عبدالله بن هارون» فلما جاء الكتاب غضب المأمون ولم يقرأه ورمى الكتاب من يده ثم أقبل على الرسول فقال له : خبروني ما الذي حمل صاحبكم على أن يكتب إلي وبدأ بإسمه قبل أسمى ؟ فقالوا : لانعلم إنما نحن رسل وما علينا إلا البلاغ المبين ، فقال المأمون : صدقتم وليس أكلفكم مالا طاقة لكم به ولكن قد علمتم إنى أسن منه بل بعض ولدى أسن منه ؟

فقالوا : قد علمنا ذلك ولاشك فيه فقال المأمون: كان يجب عليه لو كنا متساويين فى الدين أن يقدمنى على نفسه والأخرى إنى خليفة وأبى الرشيد وجدى المهدي خليفة وجدى المنصور خليفة وأنا ابن الخلفاء فكيف يكتب إلى بكتاب يبدأ فيه بإسمه قبل اسمى ؟ قال الرسل : إن أعطيتنا الأمان تكلمنا فقال: لكم الأمان ، فقالوا : من قعد على سرير الملك فقد ساوى غيره من الملوك كائنا من كان ، فغضب المأمون وقال: لولا ما أعطيتكم الأمان لما رجع إلى صاحبكم منكم أحد ولكن إرجعوا بغير جواب وإن كان ملكا يساوى غيره كما تقولون « ، فرجعت الرسل إلى ثيوفيل فأخبروه بما كان من كلام المأمون (٣٣).

وتوجه المأمون غازيا إلى الأراضى البيزنطية، فجاءه رسول الإمبراطور البيزنطى حنا النحوى أحد علماء بيزنطة الذى يعرفه المأمون حق المعرفة وقال له إن الإمبراطور ثيوفيل يسألك أن تقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم خمسة وعشرون ألفا) وأن يدع لهم ما افتتحه من حصون الروم ويكف عن الحرب خمسة أعوام (٣٤).

وأكد المسعودى رواية قدوم رسول الإمبراطور البيزنطى فقال: «إن الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولادرهم ولادينار، وبين أن يعمر لك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان ، وترجع عن غزاتك» (٣٥).

قام المأمون ودخل خيمته وصلى ركعتين واستخار الله تعالى وخرج فقال للرسول : قل له أما قولك ترد على نفقتى فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابه حاكيا عن بلقيس : «وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون، فلما جاء سليمان قال أقمدوننى بما أتانى الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون» (٣٦).

وأما قولك أنك تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم، فما فى يدك إلا أحد رجلين: إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد، وأما رجل يطلب الدنيا فلافك الله أسره ، وأما قولك إنك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربه الروم، فلو إنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عشرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه ، عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف ، وكتب المأمون كتابا إلى ثيوفيل : «أما بعد؛ فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنه ودعوت إليه من الموادعه وخلطت فيه من

اللين والشده مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في قلب الفكر ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبله لا فى استصلاح ما أوتره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم اظماً إلى مورد المنايا منكم إلى السلامه من مخوف معرفتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسينين : عاجل غلبة ، أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوجدانية والشرعية الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب ذمه وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفه والسلام على من اتبع الهدى» (٣٧).

الفداء الرابع : كان فى عهد الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ / ٨٤٢-٨٧٤ م) كان عهد الواثق عهد ساد فيه السلم وتوقف الصدام العسكرى بين المسلمين والبيزنطيين وذلك لأسباب وعوامل هى :

- ١- تمزق الجيش العباسى خلال الفتنة فى بغداد بين الأمين والمأمون .
- ٢- أسقط الخليفة المعتصم العرب من الديوان واعتمد على الأتراك فهو أول خليفة أدخلهم فى الديوان ووصل عددهم إلى أكثر من سبعين ألف وهو أول من مكنهم من السيطرة فى الدولة واعتمد عليهم تماما فتكاثروا عددهم وتغلغلوا فى الجيش والحكومة.
- ٣- تدمر العرب من وضع الأتراك فقامت ثورتهم فى الحجاز والشام ولكنها فشلت.
- ٤- زاد نفوذ الأتراك فى عهد الواثق بالله ولم يقم بأية محاولة لإبعادهم عن السلطة.
- ٥- أما الدولة البيزنطية فقد مات ثيوفيل وخلفته زوجته ثيودورا كوصية على ابنها ميخائيل التى تركت تربيته لخاله باراداس فجعله يغرق فى الملذات والخمر فلما شب أصبح يعرف بميخائيل السكير ، وانشغلت الإمبراطورة بمشكلة محاربة الأيقونات والعودة إليها.
- ٦- نتيجة استمرار الحرب بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد المأمون والمعتصم وقع كثير من الأسرى فى يد الجانبين ولم يقتصر الأسر على الجند فقط ، وإنما تعداه إلى سائر طوائف السكان من علماء وتجار وحرفيين وأعداد كبيره من النساء والأطفال والشيوخ ، لأن الغارات

التي كان يشنها الطرفان كانت توجه عادة إلى المدن والقرى الواقعة عبر الحدود لتعذر مهاجمة الحصون لمناعتها (٣٨).

وقد توجت هذه الهدنة بين الطرفين بعمل سلمي إنساني له معناه الكبير بالنسبة للعلاقات الإسلامية البيزنطية ، وإن لم يكن بالجديد في تلك الفترة فقد سبقه أكثر من فداء ولكنه أول فداء كامل لكافة من لدى المسلمين والبيزنطيين من الأسرى ، وهو في الواقع تبادل أسرى وإن كان المؤرخين القدامى يسمونه فداء ، وكان توقف الصراع الدموي بين الطرفين ، الذي استمر أكثر من تسعين عاما منذ عهد الخليفة السفاح حتى عهد الخليفة المعتصم (٣٩).

ففي عام ٢٣١هـ / ٨٤٥م كانت المفاداة بين المسلمين والبيزنطيين ولم يجر فداء بين الطرفين منذ سبعة وثلاثين عاما أي منذ عهد الأمين بن الرشيد ، فوصل إلى بلاط الخليفة الواثق وقد بيزنطى يعرض رغبة الإمبراطور ميخائيل الثالث (ذكر ابن العبري: «أن الروم أرسلوا سفيرا عنهم للعرب للتفاوض في موضوع الهدنة وتبادل الأسرى» أي أنه لم يحدد بوضوح شخصية الإمبراطور البيزنطى في ذلك الوقت، فنجد الطبرى يذكر أن الخليفة الواثق تلقى «رسل صاحب الروم وهو ميخائيل توفيل بن ميخائيل بن اليوم بن جرجيس يسأله أن يفادى بمن في يده من أسارى المسلمين» ومن الممكن أن الطبرى اعتمد على أنه ذكر في أحداث ٢٢٧هـ أن «تذورا» ملكت بعد زوجها توفيل ومعها ابنتها ميخائيل التي كانت وصية عليه أي أنه يفهم أن سفير الروم مبعوثا من طرف ثيودورا وعلى ذلك يتفق الطبرى وابن العبري في أن البيزنطيين هم الذين طلبوا الصلح وتبادل الأسرى، وكان الوفد البيزنطى ينقل رغبة الإمبراطور شفويا فليس هناك نصا مكتوبا بهذا الشأن في المصادر الإسلامية، وتم الإتفاق على الفداء دون تفرقه بين كبير وصغير وفتى وشيخ (٤٠).

ظلت ثيودورا تسير أمور الإمبراطورية طول مدة أربعة عشر عاما (٨٤٢-٨٥٦م) قبل أن تسلم الحكم لابنها ميخائيل الثالث في عام ٨٥٦م (٤١).

وأرسل الواثق أحمد ابن أبي قحطبة أحد أحفاد مسلم بن قتيبة إلى البلاط البيزنطى ليعرف معلومات دقيقة عن عدد الأسرى المسلمين في الدولة البيزنطية ، ومدى استعداد الدولة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء ، ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وولد، أكثر من عدد أسرى البيزنطيين (هذا العدد ذكر عند الطبرى والمسعودى) (٤٢) وقيل أربعة آلاف وثلاثمائة وإثنين وستين أسيرا، وذكر السيوطى

عددهم فقال : « فى هذه السنة استفك من الروم ألفا وستمئة أسير مسلم » (٤٣).

وقد ذكر خليفة بن خياط المتوفى حوالى عام ٢٤٠ هـ ، أن عدد من شملهم الفداء كان أكثر من ذلك بكثير فقال : « فدى من المسلمين نحواً من أربعة آلاف رجل وستمئة من النساء والصبيان » وهذا مما يضى على ذلك الفداء أهمية كبيرة (٤٤).

قام الوثائق بجمع عدد من البيزنطيين ليوازي عدد الأسرى المسلمين لديهم، فأخرج من قصره الجوارى الروميات العجائز ، واشترى الرقيق من الروم مما يباع فى بغداد والرقه، ليتكافئ العدد وعين الوثائق أحمد بن سعيد بن سليم بن قتيبة الباهلى واليا على الثغور والعواصم ، وأمره أن يحضر الفداء ومعه خاقان الخادم، وتقرر إجراء التبادل على ضفاف نهر اللامس وحضر الفداء أمير الثغور ومعه سبعة عشر فارساً كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين قيل تتألف من سبعين ألف من حملة الرماح فى حين يذكر الطبرى أنها بلغت أربعة آلاف رجل (٤٥).

وكان بين الأسرى رجل من أكابر طرسوس (محمد بن عبدالله الطرسوسى) أمضى فى الأسر ثلاثين عاماً، وكان بين المفتدين كذلك أسرى زبطره وعموريه من الجانبين، وعقدوا هدنه مدتها أربعون يوماً حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم ، واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى يوم عاشوراء عام ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر ووقف البيزنطيون على الجانب الغربى، ونصب المسلمون جسراً ونصب البيزنطيون جسراً وكادت عملية الفداء تفشل لإختلاف رسل المسلمين مع البيزنطيين ، فاشتراط البيزنطيون ألا يأخذوا فى الفداء امرأة عجوز ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً مقابل من فى أيديهم من الأسرى، ولكن تم الاتفاق أخيراً على فداء كل نفس بنفس، فكان المسلمون يطلقون أسيراً ممن فى أيديهم ويطلق البيزنطيون بدورهم أسيراً ممن عندهم، فإذا اقترب المسلم من المسلمين كبر وكبروا، وإذا صار الرومى إلى الروم تكلم بكلامهم وما يشبه عبارات التهليل واستمر هذا الفداء أربعة أيام، ثم فيه إطلاق سراح نحو أربعة آلاف وأربعمئة وستين أسيراً مسلم من الرجال والنساء (٤٦).

واشتهر هذا الفداء فى التاريخ بالمفاجئة التى فرضها الوثائق من إمتحان من يفتدى من المسلمين بالقول بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة، فمن قال بأن القرآن مخلوق وأن الله عز وجل لا يرى يوم القيامة يفادى ويعطى دينارين ومن رفض تركوه فى أيدي البيزنطيين ، ورفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا إلى الأسر، والقول بخلق القرآن هو مذهب المعتزلة الذى أصبح مذهب الدولة الرسمى فى عهد الخليفة المأمون ثم الخليفة المعتصم وازدهرت

تعاليم المعتزلة في العصر العباسي الأول، وبلغت قمة إزدهارها في عصر المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن، ورغم جهود الثلاثة الخلفاء (المأمون، المعتصم، الواثق) فإن الجماهير اعتبرت هذه الفترة محنة وكان (أحمد بن أبي دؤاد) أكبر مؤيدي مذهب الاعتزال وفي ذلك يقول المسعودي « غلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعتب عليهما فيما رأياه وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » (٤٧).

كما أكد الخطيب البغدادي ذلك وذكر أن أحمد ابن أبي دؤاد كان قاضي القضاء زمن المعتصم والواثق وأنه هو الذي كان يمتحن العلماء في أيامهما ويدعو إلى القول بخلق القرآن (٤٨).

وتميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامة في التاريخ الإسلامي، وهو مسلم بن أبي مسلم الجرمي وكان ذو مكانة في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأراضيها، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك، وقد استطاع أثناء إقامته بالقسطنطينية أن يؤلف كتابا في جغرافية الدولة البيزنطية، تحدث فيه عن بلادها وطرقها ومسالكها وبحارها، وما يذكر عنه أنه لما جرى به مع غيره من الأسرى في فداء عام ٢٣١هـ رفض القول بخلق القرآن فأصابه من جراء ذلك كثيرا من الضر (٤٩).

أهمية هذا الفداء : ١ - أدت الحروب المستمرة بين المسلمين والبيزنطيين إلى بقاء أسرى المسلمين سنين طويلة في الدولة البيزنطية، فقد مضى على بعض الأسرى المسلمين ثلاثون عاما، وكذلك أقام أسرى البيزنطيين بالبلاد الإسلامية فترة طويلة فتأثر كلا من هؤلاء الأسرى بالحياة العامة في هاتين الدولتين (٥٠).

٢ - كما أن الجغرافي مسلم بن أبي مسلم الجرمي نجح في تأليف كتاب عن جغرافية الدولة البيزنطية لطول الفترة التي قضاها فيها، فذكر معلومات كثيرة في كتابه ليست معروفة لسكان الدولة البيزنطية أنفسهم.

٣ - جاء هذا الفداء بعد أن اطمأن العباسيون على سلامة أوضاعهم في البحر المتوسط وبلاد الشام، في حين كانت الدولة البيزنطية راغبة فيه بعد هزيمة عموريه وفقدانها أغلب قواعدها في البحر المتوسط خاصة جزيرتي كريت وصقلية (٥١).

الفداء الخامس : فداء عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م ، كانت مبادرة الفداء هذه المرة من قبل

الإمبراطورية البيزنطية فقد أرسلت الإمبراطوره ثيودورا رسل إلى الخليفة المتوكل محملين بالهدايا (٥٢)، ورسول الإمبراطورة يقال له جورجس بن قريافس يطلب الفداء لمن فى أيدي البيزنطيين من المسلمين، وهو الذى قام بترجمة المحادثات بين ثيودورا وسفير المتوكل ، وكان المتوكل قد أرسل (نصر ابن الأزهر الشيعى) إلى بلاط القسطنطينية لينظر إلى عدد الأسرى والشروط، وقد وصف هذا السفير مراسم استقباله وما جرى له فى مقابلة الإمبراطوره (٥٣).

ويذكر ابن الأزهر أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرون ألفا وهو لاشك فيه رقم مبالغ فيه، لاسيما بعد فترة الهدوء الطويل التى سبقت مشروع الفداء الجديد، وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التى أعقبت زبطه وعموريه والتى لم تتجاوز كثيرا أربعة آلاف ، ويبدو أن الرقم الأصح فى هذا الفداء هو ألفان لاعشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير قصة أن ثيودورا تحت تأثير الخصى المسيطر على العرش فى عهدا والذى يسميه الطبرى قنقله أو تنقلا «ويقصد ثيوكتيستوس المعروف يومئذ بنفوذه الواسع» ، قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الأسرى لديها التنصر فوافقها إثنى عشر ألفا تحت التعذيب ، وفودى سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومائة وخمسة وعشرين امرأة ، ويقال أنه بمجرد رحيل المسلمين شعرت ثيودورا أن الإثنا عشر ألفا ممن عمدوا يميلون إلى المسلمين فقتلهم أحد خصيانها المسمى تنقلا بدون أمرها وهذا ما ذكره الطبرى (٥٤).

جرى الفداء فى ١٢ شوال عام ٢٤١هـ / ٨٥٥م فى المكان نفسه الذى جرى فيه فداء الواثق وبالمراسم نفسها، ولكن دون إمتحان خلق القرآن، وعقدت هدنة امتدت عدة أشهر واستمرت عملية الفداء سبعة أيام، يذكر المسعودى أنه تم فداء مائة ذمى، وقيل أن عدد أسرى البيزنطيين لدى المسلمين كان حوالى تسعمائة وعشرة شخصا (سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة) (٥٥).

الفداء السادس : عام ٢٤٥ - ٢٤٦هـ / ٨٦٠ - ٨٦١م من أشهر السفارات العباسية الخاصة بإقرار السلام بين العباسيين والبيزنطيين سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية ، وكانت تلك السفارة العباسية ردا على سفاره بعثها الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث عام ٢٤٥هـ / ٨٦٠م طلب فيها إقرار السلام بين الدولتين ، وإجراء تبادل للأسرى بينهما ، فيذكر الطبرى «بعث يسأل المفاداه بمن عنده وكان الذى قدم من قبل صاحب الروم رسولا إلى المتوكل شيخا يدعى اطروبيليس» (٥٦).

كان على رأس سفارة الدولة البيزنطية أعظم دهاثها الدبلوماسيين إذ ذاك هو أطروبيليس الذى وفد على الخليفة المتوكل العباسى ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين دليلا على حرص البيزنطيين على إظهار حسن نيتهم ، وصادق رغبتهم فى إعادة المودة والسلام وتبادل الأسرى ، وأجاب الخليفة المتوكل العباسى طلب سفارة البيزنطيين ورحب بما عرضه البيزنطيون من تبادل للأسرى ، وبعث مع سفيرهم أحسن سفراء العباسيين إذ ذاك وهو نصر بن الأزهري الشيعى الذى سبق أن مثل الدولة العباسية فى بلاط البيزنطيين ، وأصبح خبيرا فى شؤون تبادل الأسرى وتقاليده ، وخير من يحافظ على حقوق المسلمين ويرعى سمو تقاليدهم الدبلوماسية ، وتجلت مواهب نصر بن الأزهري واعتداده بالتقاليد الدبلوماسية الإسلامية حين وصل إلى القسطنطينية فروى ما حدث له هناك (٥٧).

فيقول : لما صرت إلى القسطنطينية حضرت ميخائيل الملك بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى فجرت بينى وبين خال الملك بطرناس - بتروناس - مناظره وهو القيم بشأن الملك ، وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى ، فقلت انصرف ، فأنصرفت فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحو من ألف ناقجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وحملت الهدايا التى معى فدخلت عليه فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هينى لى مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وكان بين يديه ثلاثة تراجمه فقالوا لى : ما نبلغه ؟ قلت : لاتزيدوا على ما أقوله لكم شيئا ، فأقبلوا يترجمون ما أقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشئ وقربنى وأكرمنى ، وهينى لى منزلا بقربه فخرجت فنزلت فى منزلى .

وأظهر نصر بن الأزهري كياسة دبلوماسية رائعة تمت عن حسن استعداده السياسى ، حين أمر المترجمين بتوخى الدقة فى نقل كلامه ، كما أنه كان حريصا على أن يظهر احترام البيزنطيين له ، حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير ، حيث يجلس الإمبراطور وأنه بذلك كان مقدما على سائر سفراء جيران الدولة البيزنطية الذين شهدوا هذا الاستقبال الرسمى ، وكانت الدولة البيزنطية تراعى التقاليد الدبلوماسية مع الدولة الإسلامية وتخصص للسفراء المسلمين مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال .

وبدأ نصر بن الأزهري مهمته الرسمية بعد انتهاء مراسم الاستقبال من حيث إعداد التقارير عن حالة الأسرى لدى الدولة البيزنطية وعددهم ، وكان يروح عن السفراء المسلمين وأعبائهم

المضنيه برنامج الحفلات والزيارات التى تعده لهم السلطات البيزنطيه ، فكان فى القسطنطينية ميدان سباق : (Hippodrome)^(٥٨) الهيدروم يعتبر مرآة صادقة لحياة العاصمة الاجتماعية وليس مقصورا على حفلات السباق فحسب ، فتجرى فيه الألعاب البهلوانيه التى يقدمها أشخاص متخصصون فى إجادة هذا الفن الشعبى، وتجرى فيه كذلك شتى المباريات، فكان السفراء المسلمون يدعون إلى الهيدروم، وتخصص لهم مقصوره إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه إمعانا فى إكرامهم وحرصت السلطات البيزنطيه على إتاحة الفرصه للسفراء المسلمين لمشاهدة كنيسة (آياصوفيا) حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء غايته فكانت الدلائل والمباخر تأخذ بالألباب وتثير الروعه فى النفوس^(٥٩).

وظل السفير الإسلامى نصر بن الأزر موضع إجلال سلطات الدولة البيزنطية واحترامهم ولكن حدثت واقعه عارضه أوقفت المفاوضات بشأن إطلاق سراح الأسرى مؤقتا ، وهو حضور وفد من أهل حصن اللؤلؤه يعرض تبعية سكان هذا الحصن على السلطات فى القسطنطينية ، وكان لحصن اللؤلؤه أهمية استراتيجية عظمى بسبب وقوعه فى منطقة الأطراف الفاصلة بين أراضى المسلمين فى الشام وأراضى البيزنطيين فى آسيا الصغرى، إذ سيطر هذا الحصن بفضل موقعه الهام على الطريق الرئيسى الممتد عبر سلسلتى جبال طوروس والذى يصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى، وكان للمهتمين على هذا الحصن المقدرة على منع الغارات التى شنها أى فريق من المسلمين أو البيزنطيين على البلاد المجاوره لهما^(٦٠).

ورحب الإمبراطور البيزنطى بحضور وفد حصن اللؤلؤه لأن هذا الحصن كان دائما فى قبضة المسلمين، عدا فترات يسيرة استطاع البيزنطيون فيها استمالة أهل هذا الحصن إليهم بإغداق الأموال عليهم، فرأى الإمبراطور البيزنطى استغلال هذه الفرصة والضغط على السفير الإسلامى فى المفاوضات الجارية بينهما وكسب أكبر فائدة ممكنة، وتغافل الإمبراطور البيزنطى بذلك عن السفير الإسلامى نصر بن الأزر مدة أربعة أشهر ، ولكن السفير الإسلامى أظهر فى تلك الفترة مهارة دبلوماسية فائقة ، إذ ظل ضابطا لأعصابه ، لا يعير هذا التغافل اهتماما، ولم يطلب العوده إلى بغداد ، وإنما بقى هادئ ينتظر ما يمكن أن ينكشف عنه هذا الحادث الطارئ الذى عرقل سير المفاوضات ، وأتت دبلوماسية السفير الإسلامى ثمارها، ذلك أن أهل حصن اللؤلؤه سرعان ما ثاروا على السلطات الحاكمة فيه وأعلنوا ولائهم مرة أخرى للدولة الإسلامية ، وبذلك انقطع آخر أمل عند الإمبراطور البيزنطى فى كسب الموقف أثناء المفاوضات مع السفير الإسلامى وآثر السير سريعا فى إتمام المفاوضات^(٦١).

وسمحت السلطات البيزنطية للسفير الإسلامى بتفقد حال الأسرى المسلمين عندهم وإحصاء عددهم، حتى يتم تبادل الأسرى وفق قواعد دقيقة، واستطاع السفير الإسلامى نصر بن الأزر أن يحصى عدد الأسارى من المسلمين فى سهولة ويسر بفضل التسهيلات التى قدمتها السلطات فى القسطنطينية، ووجد السفير الإسلامى أن عدد الأسرى المسلمين يبلغ ألفين منهم عشرون إمراه معهن عشرة من الصبيان، وبعد الانتهاء من إحصاء عدد الأسرى المسلمين جرت المفاوضات مره أخرى بين السفير الإسلامى والإمبراطور ميخائيل للإتفاق على تبادل الأسرى، وأظهر السفير الإسلامى لياقة دبلوماسيه وحذا سياسيا بارعا فى إجابته على « أسئلة خال الإمبراطور باراداس الذى كان يتولى المفاوضات، واقتصرت إجاباته على هز رأسه بما يفيد «نعم» أو دون أن يتكلم، إذ حرص السفير نصر بن الأزر على أن يعيد ما يتفق عليه مع خال الإمبراطور على الإمبراطور نفسه، وعبر السفير الإسلامى عن نجاح مفاوضاته وحرصه على أخذ كل تعهد ممكن من الإمبراطور نفسه قائلا: «أجيبونى- أى السلطات فى القسطنطينية- إلى المحالفه فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل، فقلت أيها الملك قد حلف لى خالك فهذا اليمين لازمة لك، وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولا يتكلم بكلمة منذ طلبت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا ولا يتكلم بكلمة، وخاله المدبر له أموره، ثم خرجت من عنده بأحسن حال حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة» (٦٢).

كان موضع الفداء عند ضفاف نهر اللامس وهو فى منطقة سلوقية،، حيث جرت العادة أن يقف أسرى المسلمين مع مندوبين سلطات الدولة البيزنطية على الجانب الغربى للنهر، ويقف المسلمون مع أسرى البيزنطيين على جانبه الشرقى، وكانت تختار بقعه من النهر ليسهل مد حشرين عليها أحدهما خاص بالمسلمين، والآخر للبيزنطيين، واستغرقت عملية الفداء سبعة أيام حضرها من أولها إلى آخرها نصر بن الأزر ليشهد صحة الإجراءات التى تم الاتفاق عليها مع سلطات الدولة البيزنطية، ثم عاد نصر بن الأزر إلى بغداد مسجلا نصرا دبلوماسيا باهرا فى ميدان تحسين العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية (٦٣).

الفداء السابع: فداء عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م، وصل رسولان من إمبراطور البيزنطيين قسطنطين السابع (٦٤) الذى اشتهر بالأبهة والميل إلى حسن إعداد سفرائه إلى الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)، وعندما وصلت إلى الخليفة أنباء اجتياز سفارة الإمبراطور البيزنطى

للحدود فى طريقها إلى بغداد ، أمر السلطات الإسلامية بحجز السفراء البيزنطيين فى تكريت شمال بغداد حتى يفرغ من تجميل وتزيين قصره وعاصمته بما يليق بعظمة الدولة الإسلامية ، ويكون استقبال تلك السفارة شاهدا على علو كعب المسلمين فى ميدان الدبلوماسية ، وأقامت السفارة البيزنطية فى تكريت شهرين ، تابعت بعدها السفر إلى بغداد ، وفى العاصمة قضت السفارة شهرين آخرين قبل أن تحظى بمقابلة الخليفة المقتدر ، وفى تلك الأثناء كانت العاصمة قد تزينت وامتلات بالزينات الفاخرة ، وأخذ سكان بغداد يزينون منازلهم على جانبي الطريق الذى أعد لمرور موكب سفراء البيزنطيين ، وفى نفس الوقت بذل الخليفة جهدا عظيما فى إعداد (قصر التاج) وهو المقر الرسمى إذ ذاك للخلافة ومكان استقبال السفراء ، ويقع هذا القصر على نهر دجلة ، ويتصف بالسعة والبهاء وبكثرة القباب والمجالس ، ووصف شاهد عيان زينة القصر فى بغداد قائلا : كان عدد ما علق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهب بالطرز وعدد البسط فى الممرات التى وطأ عليها القواد والرسل البيزنطيون اثنين وعشرين ألف قطعة ، ولم يقف الاستعداد عند العرش والبسط ، وإنما شمل سائر موظفى قصر الخليفة ، وبعد انتهاء الشهور الأربعة التى قضتها السفارة البيزنطية فى تكريت وبغداد تحدد اليوم الرسمى لمقابلة الخليفة المقتدر العباسى ، وفى هذا اليوم صف العسكر من دار صاعد وهى دار الضيافة الرسمى فى بغداد إلى قصر الخلافة ، وخرج ركب السفاره وفى صحبتهم أبو عمر الطرسوسى حاكم منطقة الحدود الإسلامية شمال الشام ، وهو الذى رافق السفاره منذ دخولها الأراضى الإسلامية ، وكان هذا الحاكم المسلم يرتدى قباء أسود ويحمل سيفاً وكامل زيه الرسمى ، ووصل الركب أولا إلى دار نصر القشورى الحاجب أو كبير تشرىفات القصر (بلغة عصرنا الحاضر) وهناك شاهد السفراء البيزنطيون الاستعدادات الرائعة مما أدخل على نفوسهم الرهبة ، وحسبوا الحاجب هو الخليفة وعندما هموا بتقديم أوراق الاعتماد إليه قيل لهم إنه الحاجب ، وتابع الركب سيره حتى وصل دار الوزير أبى الحسن على بن محمد ابن الفرات ، وهناك رأى السفراء استعداد يفوق ما شاهدوه فى دار الحاجب وكادوا يكررون خطأهم الأول بتقديم أوراقهم لكنهم علموا للمرة الثانية أنهم ما زالوا فى طريقهم إلى مجلس الخليفة ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى مجلس قد علقت ستوره وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف متر من الديباج ، والبسط اثنين وعشرين ألفا (٦٥).

ومن هذا المكان دخلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى قصر التاج بعد أن لبس الثياب الديبقية (نسبة إلى مدينة ديبق فى مصر) المطرزة بالذهب على سرير أنوس قد فرش بالديبق المطرز بالذهب، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة وعلى يمينه تسعة عقود مثل السبح معلقه، وعلى يساره تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة عالية الضوء أقوى من ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمينه وإثنان يساره، وكان يقف بالقرب من الخليفة مؤنس الخادم ونصر القشورى حيث اضطلعوا بالترجمة عن الخليفة، وعندما دخل السفراء أخذتهم الرهبة من الخليفة ورغبوا فى السجود له جريا على عاداتهم فى الدخول على إمبراطورهم، ولكنهم منعوا من فعل ذلك لأنه أمر يخالف الشريعة الإسلامية وتقاليد بلاط الخليفة المسلم، وقدم رأس السفارة البيزنطية وكان شيخا جليلا كتاب الإمبراطور البيزنطى إلى الخليفة، ويضم تعريفا بأعضاء السفارة ويطلب من السلطات الإسلامية إجراء فداء وإيقاف حالة الحرب بين الدولتين، وكان الخطاب كبير الحجم فتناوله الخليفة وقبله إعظاما له وإجلالا لتلك السفاره وتقديرا منه لنبل مقصدهم، وكان مع السفارة مترجم خاص بها يسهل مهمة تبادل الآراء والمناقشات (٦٦).

واستغرق هذا الاستقبال الرسمى ساعة لقي فيها السفراء البيزنطيون من عطف الخليفة وترحيبه ما جعلهم يطمئنون إلى نجاح مهمتهم، وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى وعندما هم السفراء بالخروج أمر الخليفة بالمبالغة فى إكرامهم والسماح لهم بالتجول فى القصر ومشاهدة ما يحويه من مباهج وقاعات فاخرة، وصحب السفراء فى الخروج أبو عمر الطرسوسى، الذى لازمهم كذلك فى الطواف بأرجاء قصر الخلافة وبعد مشاهدة سائر محتويات القصر، ركب السفراء قوارب جميلة صعدت بهم فى دجلة متجهين إلى دار صاعد التى أعدت لإقامتهم، وأتاحت لهم هذه النزهة النهريه مشاهدة معالم بغداد والتى امتدت على ضفتى النهر فى جمال ورونق، وتم الإتفاق على تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، فسير الخليفة مؤنس الخادم ليحضر الفداء، وعقد له الإمارة على كل بلد يدخله إلى أن يخرج عنه، وسير معه الجنود وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين، وعندما انتهت سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع من مهمتها رغب الخليفة المقتدر العباسى فى إسباغ كرمه على السفراء عند عودتهم، فبعث إلى الشخصين المشرفين على السفاره خمسين بدره، وفى كل بدره خمسة آلاف درهم، وكان المقصود من تلك الهبات هو مساعدة السفراء على شراء ما يحتاجون إليه من طرائف العاصمة والنادر من منتجات الدولة الإسلامية، وكذلك شمل الخليفة بهباته أبا عمر الطرسوسى الذى رافق السفاره البيزنطيه فى عودتها إلى ديارهم (٦٧).

الآثار المترتبة على السفارات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية :

١- كان للجوار بين الدولة الإسلامية والبيزنطية واشتراكهما فى حدود واحده، له أثره البالغ فى التأثير على الطرفين فى مجالات عدة، فبالرغم من أنه كانت هناك عداءات عدائية أو شبه عدائية إلا أن ذلك لم يمنع الاتصال الحضارى بينهما، فالمسلمون نظروا إلى البيزنطيين وتراثهم الحضارى نظرة تتسم بسعة الأفق، وحاولوا جاهدين أن ينقلوا الكثير من هذا التراث واستفادوا من النظم البيزنطية فى مجالات عديدة مثل الأدب والهندسة المعمارية وفن الزخرفة والتصوير ونظم الإدارة والدواوين، أى فى المجالات السياسية والإدارية والثقافية^(٦٨).

٢- استفاد المسلمون من الحضارة البيزنطية ونقلوا الكثير من مظاهرها إلى بلدان الدولة الإسلامية عن طريق رحلات المسلمين إلى عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) سواء أكانوا أسرى حرب أو تجار أو رحالة فقد لعبوا دورا هاما فى التأثير بين الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، وكان الميدان الثقافى أول ميدان للتعاون بين الدولتين، وقد شغف المسلمون باقتناء الكتب فدأب الخلفاء العباسيون على أن يبعثوا إلى القسطنطينية يطلبون من أباطرتها الكتب النادرة، كما فعل أبو جعفر المنصور الذى كان من أشهر المترجمين فى عهده ابن المقفع وأبو يحيى البطريق وهو الذى تولى ترجمة كتب أرسطو طاليس^(٦٩).

٣- استمرت حركة الترجمة حتى عهد هارون الرشيد أى منذ عام ١٢٦ - ١٩٣ هـ / ٧٤٣ - ٨٠٨ م، فبعد غاراته المتكررة على عموريه وأنقره وقع فى يده كثير من الكتب اليونانية وفى عهد الخليفة المأمون أتم ما بدأه جده المنصور فأقبل على طلب العلم من الكتب السريانية واليونانية، ومن قاموا بالترجمة فى هذه الفترة يوحنا بن ماسويه^(٧٠).

٤- كان من أبرز علماء الدولة البيزنطية الفيلسوف ليو Leo ابن خالة البطريق حنا النحوى وكان قد لفت نظر الإمبراطور ثيوفيلوس وقصة ذلك أن ليو هذا كان يدرس علومه لعدد قليل وكان من بين تلامذته شاب برع فى علم الهندسة وأصبح بارعا فيها، وخرج ذات مرة إلى إحدى المعارك ضد المسلمين وهزم البيزنطيون ووقع هذا الشاب أسيرا لدى أحد كبار الشخصيات الإسلامية وذات مرة حضر مجلس الخليفة المأمون ذلك الرجل المسلم المشهور وتحدث عن ذلك الشاب البيزنطى وعن مهارته فى علم الحساب والهندسة وكان قد التقى به بعض العلماء فأبدى أمامهم مهارة كبيرة فذكروا ذلك للمأمون، فأمر باستدعائه إلى مجلسه، وسأله عن مدى علمه فأخذ هذا الشاب يستعرض علمه فى علم الهندسة، وراح العلماء

الحاضرون فى مجلس المأمون يسألونه عن أشكال المثلثات والزوايا الأربعة فذكر لهم أسماء هذه الأشكال ، بل لم يطرحوا أى سؤال إلا وأجابهم عليه بوضوح ، وسألوه متعجبين من أين له كل هذا العلم ؟ فأخبرهم أنه تعلم علوما أخرى فى بيزنطة ، وأنه يعد من أصغر تلاميذهم ولا يعد من علمائهم ولا من أساتذتهم ، فسأله المأمون عن معلمه من هو ؟ وهل لا يزال على قيد الحياة ؟ فأجابه أن معلمه هو ليو وأنه لا يزال حيا يعانى الفقر والحاجة ، وعلى الفور أرسل المأمون خطابا إلى العالم ليو ليقول فيه : « يعرف الأستاذ من تلميذه ، كما تعرف الشجرة من ثمرتها ولذا فإنك يا من تحمل علما عظيما ولكنك تعيش مغمورا بين مواطنيك ولا تحمل ثمرة الحكمه ، فلاتأخر عن المجيئ إلينا والإفاضة علينا بعلمك الغزير ، ولدى وصولك فسوف تنال من الثروات والهدايا ما ليس لأحد قط من البشر » وسلم هذا الخطاب للشباب بعد أن حمّله بالهدايا العظيمة وطلب منه أن يسلم الخطاب إلى ليو وتم توصيل الشاب آمنا سالما إلى بيزنطة فلما وجد ليو سلمه الخطاب ، وأدرك ليو أن من الخطر أن يتسلم خطابا من العدو دون أن يحيط الإمبراطور علما بهذا ، فذهب ليو إلى ثيوكتستيس وقص عليه الأمر وسلمه الخطاب ، وهكذا وصل الأمر إلى الإمبراطور ثيوفيلوس ، وذاع أمر ليو فالتفت إليه الإمبراطور وطلب منه أن ينشر علمه بين الناس وأغدق عليه الأموال ، ولكن المأمون لم يئأس من استقدام ليو ، فأرسل إليه بعض الأسئلة فى الهندسة والفلك وعلوم أخرى كثيرة وطلب منه الرد عليها ، فلما أجاب عنها ليو كلها إجابات صحيحة إزدادت رغبة المأمون به وقال : « يا له من علم غزير لدى هذا الرجل » ، وعلى الفور أرسل سفراءه إلى ثيوفيلوس يحملون خطابا منه يقول فيه : « لقد كنت قررت بمقتضى واجب الصداقه أن آتى إليك بنفسى ولكن حيث أن الله قد عهد إلى بأمر الحكم ، فإن هذا لا يتسنى لى ، ولذا فإننى أرجو أن ترسل إلى رجلا لديك هو من مشاهير علماء الفلسفه والهندسة والفلك لكى يقضى لدينا وقتل قصيرا يفيدنا من علمه ولا يمنعك من ذلك خلاف فى الدين أو الجنس ، بل لنتصرف حسبما يتميز به الأصدقاء الخيرون ، وفى مقابل هذا سوف نرسل إليك مائة قنطار من الذهب ونعقد سلاما ومعاودة طويلة الأجل » ، ورفض ثيوفيلوس طلب المأمون حتى لا ينشر علم ليو الذى خص به الشعب البيزنطى فقط (٧١).

٥- من الكتب اليونانية الهامة التى ترجمت فى عهد المأمون كتاب أرسطو فى الآثار اللغوية ، وكتاب الحيوان نقله ابن البطريق ومن كتب الهندسة لإقليدس والرياضة والفلك والطب كتاب جالينوس وقام بترجمته حنين بن إسحاق وكان حنين يؤلف الكتب بالسريانية ويترجمها لعلم - النصارى وأطبائهم ، وكان ابنه إسحاق يقوم بنقل ما ترجمه أبوه إلى اللغة العربية (٧٢).

٦- استفادت الدولة العباسية من إرسال العلماء إلى الدولة البيزنطية لإكتشاف الآثار التاريخية مثل الحملة التي أرسلها الواصل برثاسة المترجم سلام الذي كان يعرف ثلاثين لغة فتوجه إلى آسيا الصغرى ليكشف السور الذي بناه الإسكندر سدا منيعا بين يأجوج ومأجوج ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كافأهم الخليفة وسلمه سلام بيان واقيا عن الحملة، فنجد أن عهد الواصل امتاز بإرسال بعثات علمية تستطلع خبر القدماء ، كما نجد أن الحركة العلمية في خلافة الواصل سارت في خطى سريعة ثابتة^(٧٣) فقد وصفه المسعودي قائلا « كان الواصل محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم من تقدم وتأخر^(٧٤) .

٧- تأثر الأباطرة البيزنطيون بحياة الخلفاء العباسيين كالإمبراطور ثيوفيل الذي تأثر بالفن الإسلامي وانعكس ذلك في مجال العمارة والزخرفة في قصره والقصور الأخرى في القسطنطينية ، وكذلك تميز البلاط البيزنطي بالترف وبلغ من تأثره بالمسلمين أنه حاول أن يكون حاكما مثاليا وحرص على أن ينشر العدل في أرجاء مملكته فأخذ يقلد الخليفة هارون الرشيد فيما اشتهر به من العدالة ، فكان يطوف بأنحاء مدينة القسطنطينية يتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم وينزل العقاب بمن ظلمهم^(٧٥) .

٨- ظهور آخر التأثيرات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين في استخدام العرب لبعض الألفاظ اليونانية وإدخالها في اللغة العربية كما هي وخاصة فيما يخص الحضارة والعلوم والحياة اليومية ، فقد تأثرت آداب الدولتين الإسلامية والبيزنطية بكثير من الكلمات اليونانية التي دخلت اللغة العربية نتيجة بقاء الأسرى فترات طويلة لدى الطرفين^(٧٦) .

٩- إذا كانت العلوم قد إضمحلّت في غرب أوروبا في أوائل العصور الوسطى نتيجة هجمات الجرمان وسقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، فإنها ازدهرت في الشرق الإسلامي في ظل الخلافة العباسية طوال القرن الثامن والتاسع الميلاديين، ولم يكن علماء الحضارة الإسلامية في ظل العباسيين كلهم من العرب بل كانوا فرسا أو يهودا مستعربين أو سريانا أو من الأرمن ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التي أضحت اللغة العالمية السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى اسبانيا غربا في عهد الخلافة العباسية^(٧٧) .

ملحق

خطاب الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) إلى الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٧٦-٨٠٩م).

كتب نقفور خطابا إلى الخليفة هارون يطلب السلام (وهذا الخطاب لم يرد ذكره في المصادر العربية وإنما ذكر فقط في زوناراس) قائلا: هل أنت سعيد مسرور بهذا الظلم وتلك المذابح التي صنعتها يداك ، ألم تقنع بها ؟ ألم تغير وتنقل الحدود القديمة التي اتفق عليها الأجداد والآباء ؟ أى نبي مقدس أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك نبيك محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن تعتبر كل مسيحي أخا لك ، ألا تقر بذلك ؟ ألم يحرم عليك الله القادر على كل شئ والذي يسير أمور الكون بأسره أن تسفك الدماء بغير وجه حق ؟ أغاب هذا عنك ؟ أم أنك قد تركت بلادك ورحلت تنزل الأذى بأناس لم يسببوا لك ضيقا قط أهذا كله لأنك تهفو إلى الذهب والفضة وغير ذلك من الأشياء ؟ إن كانت مثل هذه الأشياء ثمينة عالية فى نظرك إلى هذا الحد فبإمكانك أن تحوز الكثير منها حين ترسل ما تشاء .

فإن أردت فسوف ترسل لك منها ما تريد على الفور ونفوسنا راضية بقريره ، فإن هذه الأشياء متاع زائل بل إننا كذلك لسنا مخلصين، ولو كنا مخلصين لما خضع أحد منا لرب العالمين، انتصارع فيما بيننا ونحاكى الوحوش الضارية فى هجماتها على البشر ونحن نعلم أننا بعد قليل ميتون، وسيرى كل امرء بل وسيجنى جزاء ما صنع» (٧٨).

الهوامش

- ١- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩ ، ج ٩ ، ص ٣٤٧ ؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠ .
- ٢- ابراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥١م، ص ٨٨ .
- ٣- ابراهيم أحمد العدوى : السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٥-٧ .
- ٤- المرجع السابق، ص ١٣-١٧ .
- ٥- ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩م، ص ١٠٦-١٠٧ .
- ٦- ابن الفراء : رسل الملوك ومن يصلح للرساله والسفاره ، حققه : صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧م، ص ١١٣ ؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوربا ، ص ٢٣-٢٤ .
- ٧- ابن الفراء : المصدر السابق ، ص ١١٤-١١٥ ؛ ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا ، ص ١٧-١٨ .
- ٨- ابن الفراء : المصدر السابق، ص ١١٥ .
- السفير أو الرسول شخص كلف بالمشول أمام حكومة أرسل إليها ليتكلم باسم من أوفده ويذلل المصاعب ويقضى أمورا مضي لإنجازها، فالرسول مأخوذ من الإرسال والإطلاق والتوجيه ونقل الأخبار ويرسل لعقد صلح أو هدنة أو فداء أو تحالف ، وذكر القلقشندي : "إن السفير هو الرسول والمصلح بين القوم". انظر ابن الفراء: المصدر السابق، ص ٦١-١٠٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٦ ، ص ١٥ .
- ٩- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .
- ١٠- ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن حوقل : صورة ، ص ١٨٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .
- ١١- محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية ، دمشق ١٩٩٨م، ص ٢٥٣ ؛ محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى، دار الفكر العربى، ١٩٦٥م، ص ٢٠ .
- ١٢- ابن النديم - الفهرست ، ص ٥٧ ؛ سيجريد هونكه : فضل العرب على أوربا ، ص ٢٨٣ ، أبو جعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين ، هو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب،

أمه هي سلامه البربريه كان مولده في ذى الحجة ٩٥هـ / ٧١٤م، انظر : السيوطي: تاريخ الخلفاء ، القاهرة، ١٣٥١هـ، ص ٢٥٩ .

١٣- القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزغ ١٣٢٠هـ، ص ٣٨٠ .

١٤- الخليفة المأمون : هو سابع الخلفاء العباسيين ، عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبى جعفر المنصور بن عبدالله ، كنيته أبو العباس، أمه إسمها مراجل فارسيه ماتت بعد ولاته بقليل، ولد سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م . أنظر : ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد ١٣٥٧ هـ ، ج ١٠ ، ص ٤٩ .

١٥- ليو: عالم يونانى اشتهر بسعة إطلاعه فى سائر الفنون والعلوم ، ابن أخت يوحنا النحوى معلم الإمبراطور ثيوفيلوس، درس فى جامعة القسطنطينية . أنظر الباز العريى : الدولة البيزنطية ٣٢٢-١٠٨١ م، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٧٤ .

ثيوفيلوس : ابن الإمبراطور ميخائيل الثانى من الأسرة العمورية ، اشتهر باهتمامه بالعلوم والفنون وتأثر بالفن والثقافة الإسلامية كان مناهضا لعبادة الصور المقدسه، انظر الباز العرينى، المرجع السابق، ص ٢٧٤ .

١٦- ابن النديم : الفهرست ، بيروت ، ص ٢٤٣ : رنسيما : الحضارة البيزنطيه، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦١م، ص ٤٥ : فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة ، ص ١٦ .

١٧- الوائق بالله : تاسع الخلفاء العباسيين هو هارون الوائق بالله بن المعتصم محمد بن هارون الرشيد، أمه أم ولد رومية الأصل تسمى قراطيس ، ولد سنة ١٩٠هـ وقبل ١٩٦هـ أنظر ابن كثير : البداية والنهاية، بيروت ١٩٨٣م، ج ١٠ ، ص ٢٩٧ : السيوطى : تاريخ الخلفاء بيروت، ص ٣٤٠ : افسوس : مدينه فى الجنوب الغربى من اسيا الصغرى. انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٣١ ، ثيودوسيوس الثانى : ابن أركاديوس كان صغير السن بعد وفاة والده وقع تحت تأثير أخته بلكيريا وزوجها مارقيان ، كانت فترة حكمه طويله. انظر عمر كمال توفيق . تاريخ الدولة البيزنطيه، الإسكندريه ١٩٧٧م، ص ٦٨ .

ميخائيل الثالث : ابن الإمبراطور ثيوفيلوس ، كان وقت وفاة والده فى السادسة من عمره، تولت أمه ثيودورا الوصاية عليه يعاونها أخوها باراداس الذى تركه ينغمس فى الملذات حتى عرف بميخائيل السكير. انظر الباز العرينى، المرجع السابق، ص ٣٢٤-٣٢٥ .

١٨- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٠٦-١٠٧ . ابن رسته : الأعلاق النفيسه ، ليدن، ١٨٩١ م.

ص ١٤٩ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص ١٦ .

١٩- قسطنطين الخامس : كوبر نيموس ، تولى العرش بعد أبيه ليو الثالث، امتاز بتفوقه فى القيادة الحربية وفى مناهضة عبادة الصور المقدسة وترجع شهرته إلى ما اتبعه من وحشية فى إضطهاد الرهبان عباد الأيقونات وتعذيبهم وما أحرزه من إنتصارات باهره على البلغار . انظر : الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٠٨ ؛ Ostrogorosky , G : History of the Byzantine State tr. By Hussey : ٢٠٨ ، Oxford 1968 , p. 148 .

٢٠- المهدي . ثالث الخلفاء العباسيين ، هو محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس ، وأمه أروى وكنيتها أم موسى، ولد بالحميمه سنة ١٢١هـ / ٧٣٩ م وقيل بأيدج عام ١٣٧هـ / ٧٤٥ م. انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠ ، ص ١٥٢؛ السيوطى تاريخ الخلفاء : ص ٢٧١ .

ليو الرابع الخزرى. أمه إبنة خان الخزر فلقب بالخزرى ، يعتبر عهده مرحلة انتقال بين ذروة الحركة اللأيقونية زمن أبيه قسطنطين الخامس وبين العودة إلى عبادة الصور المقدسه زمن زوجته إيرين ، اشتهر بالميل إلى الاعتدال فأعاد إلى الرهبان أسقفياتهم . انظر: الباز العرينى : المرجع السابق، ص ٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص ٢٦٣ .

الباز العرينى . المرجع السابق ، ص ٢١٢ ؛ فازيليف : العرب والروم، ص ٢٦٣ .

٢١- إيرين : زوجة ليو الرابع، كانت من أثينا تعلقت بتمجيد الصور وعبادتها ، تولت الوصاية على إبنها قسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م عقب وفاة أبيه فأضحت قسيما له فى الحكم. انظر : الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ ؛ الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٢٢٢ ؛ جمال الدين الشيال. تاريخ الدولة العباسية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ م، ص ٥٢ .

٢٢- نقفور الأول : تشير المصادر إلى أن نقفور ينتمى إلى أصل عربى وأن جده هاجر إلى بيسيديا بآسيا الصغرى التى تعتبر مسقط رأس نقفور ، قام بشوره عام ٨٠٢م ونفى الإمبراطوره إيرين إلى أحد الأديرة ، وكان يشغل وزير الخزانة . انظر Bury: Eastern Roman Empire, pp. 8-9 ؛ أومان : الإمبراطوريه البيزنطية ، ص ٦ ؛ رنسيان : الحضارة البيزنطيه، ص ٤٣ .

هارون الرشيد: خامس الخلفاء العباسيين ، هو هارون بن محمد بن عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله ابن عباس ، أمه يمانية يقال لها خيزران وسميت جرشييه لأنها من جرش اليمن ، ولد بالرى عام ١٤٩هـ / ٧٦٦م . انظر : السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٣ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .

- ٢٣- الشاعر هو عبدالله بن يوسف التميمي . أنظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، القاهرة ١٩٦٥م ، ج ٥ ، ص ٢٤٦ .
- ٢٤- ابن أبي الدم الحموي التاريخ المظفرى ، ج ١ ، حققه حامد زيان ، ص ١٠١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م ، ج ٥ ، ص ٢٢ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ٢٢٣ ؛ عفاف صبره : الإمبراطورتان البيزنطيه والرومانية الغربية زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٩٩ ؛ عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد ، بيروت ج ٢ ، ص ٥٣١ .
- ٢٥- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٣ ، ص ٦٩٨ ؛ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨هـ ، ج ٢ ، ص ٢٢ ؛ رشيد عبدالله الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسيه ، الرباط ١٩٨٤م ، ص ٧٠ ؛ أحمد مختار العبادى : التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ١٩٧٢م ، ص ٩١-٩٢ .
- ٢٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر ، القاهرة ١٩٣٠م ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ ابراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، ص ١١٠ .
- نهر لاموس Lamos : سماه العرب اللامس وهو على مرحلة من طرسوس وعلى هذا النهر كان يجرى فى أيام العباسيين تبادل الأسرى بينهم وبين البيزنطيين . انظر : ابن حوقل : المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٣م ، ص ٣٤ ، وصورة الأرض ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٨٣ .
- ٢٧- المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ م ، ص ١٤٨ .
- ٢٨- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ؛ كى ليسترنج : بلدان الخلافة الشرقيه ، بغداد ١٩٥٤م ، ص ١٦٥-١٧٤ .
- ٢٩- المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٤٨ .
- ٣٠- ابن رسته : الأعلاق النفيسه ، ليدن ١٨٩١م ، ص ١٢٢-١٢٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٤٠ ؛ المقرئى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٨٥٢م ، ج ١ ، ص ٤٤٤ .
- ٣١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهايه ، ج ٩ ، ص ٧٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٩٠ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٧ ، ص ٥٠٠ ، ج ٨ ، ص ٢٨ .
- ٣٢- ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٥ ؛ ابن خلدون - المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهايه ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، شاکر مصطفى : فى التاريخ العباسى ، ج ١ ، ص ٢٧٦ ، شوقى أبوخليل : هارون الرشيد ، دمشق ١٩٨٨م ، ص ٩٧ .

٣٣- ابن أبي الدم الحموى : التاريخ المظفرى، ج ١ ، ص ١٢٥-١٢٦ : أبى المحاسن : النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٢١٦-٢١٧ : الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ١٠ ، ص ٢٨١ : الكوفى : الفتوح ، بيروت ١٩٨٦م، ج ٤ ، ص ٤٦٤-٤٦٥ : رشيد الجميلى : دراسات فى تاريخ الخلافة العباسية ، ص ٩٤ : شاكى مصطفى ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ : محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية، ص ٣٧٨ : يوسف العث : تاريخ عصر الخلافة العباسية ، دمشق ١٩٨٢م، ص ٩٧ .

٣٤- حسن أحمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٦٨ : عبد المنعم ماجد ، العصر العباسى الأول، القاهرة ١٩٧٣م، ج ١ ، ص ٣٨٦ : فازيليف : العرب والروم، ص ٢٥٤-٢٥٥ : Bury : p. 255

٣٥- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ ، بيروت ١٩٨٢م، ص ٤٢-٤٣ .

٣٦- سورة النمل ، آية رقم ٣٥-٣٦ .

٣٧- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١٠ ، ص ٤١٩ : الكوفى : الفتوح، ج ٤ ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٤٦٤-٤٦٥ : شاكى مصطفى : فى التاريخ العباسى، دمشق ١٩٧٤م، ج ١ ، ص ٢٨٣ : فازيليف : العرب والروم، ص ١٢٤ .

٣٨- ابن الأثير : الكامل ج ٥، ص ٢٧٦ : ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ١٣٤ : ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٠ ، ص ٣٠٨ ، ابراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ص ١١٠ : حامد زيان : الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، ص ٩ .

٣٩- شاكى مصطفى : دولة بنى العباس ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ : عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول، ص ٤٣٣ .

٤٠- ابن الجوزى . المنتظم ، ج ١١ ، ص ١٦٤ : الطبرى . تاريخ الرسل، ج ٩ ، ص ١٤٩ : المقدسى : أحسن التقاسيم، ص ١٧٧ : حسن أحمد محمود : العالم الإسلامى، ص ١٦٨ ، عليه الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٧٥ .

٤١- سيد الناصرى : الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالشرق العربى ، جامعة القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٩٢ ، حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٨٣م، ص ١٣٦-١٣٧ .

٤٢- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ١٤٣ : المسعودى . التنبيه والإشراف، ص ١٦٢ .

٤٣- السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٦ .

٤٤- ابن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ج ٢ ، ص ٤٨٠ .

٤٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٣٠٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣١٤؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٠-١٦١؛ محمد جمال الدين سرور: دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية، ١٩٦٠م، ص ٢١-٢٢؛ فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧-١٧٨.

٤٦- الطبري: تاريخ الرسل، ج ٩، ص ١٤٣-١٤٤؛ البعقوبي: تاريخ البعقوبي، النجف ١٣٥٨هـ، ج ٢، ص ٤٨٢.

زبطره: مدينة بين ملطيه وسميساط في طرف بلاد الروم. انظر ياقوت، ج ٢، ص ٩١٤.

٤٧- السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٤١؛ المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٦، التنبيه والإشراف، القاهرة ١٩٣٨م، ص ١٦٢.

٤٨- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، بيروت، ج ٤، ص ١٤٢.

٤٩- استمد الجغرافي ابن خرداذبه كثيرا من معلوماته عن اسيا الصغرى من الجرمي وغدت معلوماته الأسس التي بنى عليها الجغرافيون العرب مادتهم في العصور الوسطى. انظر: ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ١٢.

٥٠- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ص ٢٧٧-٢٧٨؛ الطبري: تاريخ الرسل، ج ٧، ص ٣٣٢؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٦٢.

٥١- البعقوبي: تاريخ البعقوبي، ج ٣، ص ٢٠؛ حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي، ص ٦٩؛ محمد جمال الدين سرور: دراسات في العلاقات السياسية، ص ٢١-٢٣.

٥٢- ثيودورا، زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس، وأم الإمبراطور ميخائيل الثالث السكير قد أصبحت وصية عليه بعد وفاة زوجها وتآلف مجلس لمساعدتها من أخويها بارداس (عرف في المصادر العربية باسم بطرناس) وبتروناس وخالها سرجيوس نكتيباتس من أقرب الناس إليها، وصديقها تيوكستوس. وابنتها الكبرى تكلا والتي كانت قد منحت لقب إمبراطوره قبل وفاة أبيها، وكانت ثيودورا من الأيقونيين انشغلت بأمور الحكم والمسائل الدينية، وتركت أمر تعليم ابنها إلى بارداس الذي أساء تعليمه فعلمه الرذائل وشرب الخمر، أطلق عليه المؤرخون لقب (السكير) وانتهى الحال بثيودورا وبناتها الخمس بطردها من القصر وسيطرت أخويها بارداس على الإمبراطورية انظر. الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٩٤؛ فازيليف: العرب والروم، ص ١٦٩.

المتوكل. هو الخليفة العباسي العاشر أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد أمه خوارزميه يقال

لها شجاع ، ولد فى شوال عام ٢٠٦هـ / ٨٢٢م ، تولى الخلافة فى يوم وفاة الواثق فى ٢٤ ذى الحجة عام ٢٣٢هـ / ١١ أغسطس ٨٤٧م واستمر بالخلافة إلى أن قتل عام ٢٤٧هـ / ٨٦٩م، فحكم أربع عشرة سنة وتسعة أشهر . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٣٠٣؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨١م، ص ١٣٠ .

٥٣- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص ٢٧٧ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج ٩ ، ص ٢٠٢ ؛ محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية، ص ٤٩٧ .

٥٤- الطبرى : تاريخ الرسل ، ج ٩ ، ص ٢١٩-٢١٢ ؛ شاعر مصطفى : دولة بنى العباس ، ص ٥٧٦ .

٥٥- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١١ ، ص ٢٨٤ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠ ، ص ٣٢٤ ؛ الطبرى: تاريخ الرسل، ج ٩ ، ص ٢٠٣ ؛ المسعودى: التنبيه والإشراف، ص ١٦٠ .

٥٦- الطبرى : تاريخ الرسل، ج ٩ ، ص ٢١٣ ؛ ابراهيم أحمد العدوى: السفارات الإسلامية إلى أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٦٨-٦٩ .

ميخائيل الثالث: لقبه مؤرخو الروم باسم الإمبراطور شارل الذهن Blabes لأنه كان دائما غائبا عن الرعى ولا تنصرفه إلى اللهو والعبث . انظر سيد الناصرى: الروم والمشرق العربى، ص ٢٩٧ .

٥٧- ابراهيم العدوى: المرجع السابق، ص ٦٩ .

٥٨- الهبدروم : ملعب كبير أصبح مركزا عاما للنشاط الرياضى والاجتماعى والسياسى فى العاصمة القسطنطينية، كان يحوى مقصورة للإمبراطور يطل منها على شعبه فى الاحتفالات العامة. انظر عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م، ص ٢٧ .

٥٩- كنيسة أياصوفيا Hagia Sophia أو الحكمة الإلهية ، شيدها الإمبراطور قسطنطين الأول حين بنى القسطنطينية بالقرب من الهبدروم ، ويلاحظ أن المبنى الذى أقامه قسطنطين لم يكن هو الذى حفظه التاريخ فقد احترق مرتين، وأعاد بنائها الإمبراطور جستنيان الأول عام ٥٣٢م لتخليد اسمه وانتهى بنائها عام ٥٣٧م تحت إشراف أزيدور الملقب ، وأنثيوس الترلى، فكان بنائها تحفة رائعة خاصة قبتها التى تعبر عن عظمة فن البناء البيزنطى الوسيط . انظر عمر توفيق المرجع السابق، ص ٣٧ .

٦٠- ابراهيم العدوى : السفارات الإسلامية، ص ٧٣-٧٥ .

٦١- فازيليف : العرب والروم، ص ٢٠٦ .

٦٢- ابراهيم العدوى: السفارات الإسلامية، ص ٨١-٨٣ .

٦٣- ابراهيم العدوى : المرجع السابق، ص ٧٨-٧٩ : شاكر مصطفى : التاريخ العباسى، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

٦٤- قسطنطين السابع : ابن الإمبراطور ليو السادس ولد عام ٩٠٥ ، اشتهر باسم Prophyrogennetos

بروفيروجينيتوس وتعنى باليونانية المولود فى المخدع الأرجوانى ، سيطر على مقاليد السلطه عام

٩٤٥م وهو فى سن الأربعين بعد أن كان مضى على تتويجه نحو ٢٣ عام بسبب سيطرة عم

الإمبراطور (رومانوس ليكاينوس) وكان من الصعب عليه أن يترك الحياة التى تعود عليها لأنه كان

رجل قلم وفكر لارجل سيف وحرب، فترك أمور الإمبراطوريه لزوجته وانصرف إلى التأليف والكتابه،

حتى قيل عنه أنه أدرى رجل بواجبات البلاد التى شهدت أزهى عصورها فى عهده ، فركز على فتح

المدارس فى الأقاليم واهتم بنشر التعليم، ومن أشهر مؤلفاته وأضحىها كتابه عن (مراسم الدوله)

والذى جمع فيه أصول وقواعد البروتوكول ومراسم استقبال الضيوف الأثانوب وتنظيم الحفلات لهم ،

وتطرق إلى القصر ونظم إداراته وإلى الإمبراطور ومسؤولياته ، حتى الملابس الرسميه وملابس الجنود

وشاراتهم تطرق إليهم بدقه كما كتب مؤلفا على تنظيم الإدارة فى الإمبراطوريه بهدف أن يكون

مرشدا لولده رومانوس الثانى يحكم على أساسه ، وقد أدى قسطنطين خدمه كبيره للقانون عندما قام

بتدخيص (موسوعة القوانين الإمبراطوريه) لتكون فى متناول الناس، وآخر مؤلفاته كان كتابا وضعه

عن سيرة جده باسيلوس الأول الذى كان مبهورا بشخصيته وإنجازاته، وفى عهده أيضا صدرت

(الموسوعة التاريخيه الكبرى) والتى تقع فى ثلاثة وخمسين مجلد لم يتبق منها سوى أجزاء قليله.

ومن تراثه الفنى لوحه منحوتة من العاج تصور حفل تتويجه ومحفوظه الآن فى متحف موسكو .انظر:

سيد الناصرى : الروم والمشرق العربى، ص ٣١٨-٣١٩ : أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٢٨ :

فازيليف : العرب والروم، ص ٣٦٢-٣٦٣ : Ostrogorsky : p. 247 .

المقتدر بالله : تاسع خلفاء العصر العباسى الثانى (٢٩٥-٣٢٠هـ) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، ولد

عام ٢٨٢هـ ، أمه روميه تولى الخلفه بعد أخيه المكتفى وعمره ثلاث عشرة سنه، قتل وهو فى سن

ثمانية وعشرين سنه، انتشرت الفتن فى عهده انظر : السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٥٠ : حسن

ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٦٥ م، ج ٣ ، ص ٢٠-٢٢ .

٦٥- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٣ ، ص ٣٨٥ ، مسكويه: تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٤م، ج ٥،

ص ٥٣ .

٦٦- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ٨ ، ص ١٠٧ : ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١ ، ص ١٢٨ .

ديبق : قرية من قرى دمياط فى مصر تنسب إليها الثياب الثقله . انظر : ابن حوقل ، صورة الأرض،

ص ١٠٢ : ياقوت : ج ٢ ، ص ٥٤٦ .

٦٧- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٣ ، ص ٣٨٦ ؛ ابن الجوزي: المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٤٣ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد، ج ١ ، ص ١٠٠ ؛ الذهبي: دول الإسلام ، القاهرة ١٩٧٤م، ج ١ ، ص ١٨٥ ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ٣٥٣ .

٦٨- حسنين ربيع : دراسات، ص ٨-٩ ؛ كرستوففردوسن : تكوين أوروبا، ص ٢٠٣ ، لعبت الدولة البيزنطية دورا هاما في التاريخ كقوة سياسة وحريه لقرون طويلة وكمركز حضارى وثقافى لأكثر من عشرة قرون من الزمان، انتهت بسقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . انظر : رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٠٦ .

٦٩- ابن العبري : مختصر تاريخ الدول، ص ١٣٨ ؛ ابن خلدون : المقدمة، ص ١-٤ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص ٢٤٨ .

٧٠- عموريه : مدينه فى الشرق، من أمنع وأحصن بلاد الروم، فتحها المعتصم عام ٢٢٣هـ وكانت من أعظم فتوح الإسلام. انظر ابن خرداذبه، المسالك ، ص ١٠١؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ج ٤، ص ١٥٨ . أنقره : مدينه ببلاد الروم فتحها المعتصم فى طريقه إلى عموريه، انظر ياقوت : ج ١ ، ص ٢٧٢

يوحنا بن ماسويه : من أطباء الرشيد نصرانى سريانى ممن قدموا من جند نيسابور التى كان بها أكبر مدارس للطب ، ولاء الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمه وخدم المأمون ومن بعده إلى أيام المتوكل، كان معظما فى بغداد جليل القدر، وكان يدرس ويجتمع لديه تلاميذ كثيرون، وقد زقام مستشفى فى بغداد ، انظر ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ١٢١ ؛ ابن النديم : الفهرست، ص ٤٢٥-٤٢٦ .

٧١- Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Editio Emendatior et copiosior , Georgius Cedrenus, Tomus Alter , p. 167-169 .

٧٢- ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ١٣٦ ؛ القفطى: أخبار الحكماء ، ص ٣١ ؛

حنين بن اسحاق العبادي: الطبيب المشهور، ولد عام ١٩٤هـ / ٨١٣م، كان يشتغل بالصيدله والتحق بمدرسة جند نيسابور ليدرس الطب وقد حضر حنين مجالس يوحنا بن ماسويه فى بغداد، صمم على تعلم اليونانيه لأنه رأى فيها خير مساعد له على تعلم الطب فسافر إلى بلاد الروم وهناك أتقن اللغة اليونانية ، وقصد البصره لتعلم اللغة العربيه وكانت فى هذه الفترة أكبر مدرسة لعلوم اللغة العربيه فلازم الخليل بن أحمد ، وبذلك أصبح حنين يجيد أربع لغات هى الفارسيه واليونانيه والعربيه والسريانيه التى هى لغتهم. انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، ج ١ ، بيروت ، ص ١٨٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ؛ اوليرى: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، نقله إلى العربيه تمام حسان، كتبه الأنجلو المصريه ، ١٩٥٧م، ص ٢٤٨

٧٣- ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص١٠٦ ؛ ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص١٤٩ ؛ فازيليف: العرب والروم، ص١٦ .

٧٤- المسعودي : مروج الذهب ، ج٤ ، ص٧٧ .

٧٥- الباز العريني : الدولة البيزنطية، ص٢٧٤ ؛ غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص١٧٠-١٧٤ Bury: pp. 241-242 ; Ostrogorsky : pp. 183, 185 .

٧٦- Bury : p. 234 ; Ostrogorsky : pp. 142 , 185 الباز العريني : الدولة البيزنطية ، ص١٩٩-٢٠٠ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج١ ، القاهرة ١٩٦١م، ص١٥١ .

٧٧- سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ص٢١١-٢١٢ ؛ رنسيما : الحضارة البيزنطية، ص٢٨١ ؛ جوستاف جرونياوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد، دار مصر للطباعة ١٩٥٦م، ص٢٠٠ ؛ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص١٧٤ ، ٤٤٠ . . Bury: p. 479 .

٧٨- Ioannis Zonarae: Epitomae Historiarum , Libri XVIII, Tomus III, Bonnae, p. 34-35

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

ابن الأثير (على بن أحمد ابن أبي الكرم) : الكامل فى التاريخ ، أجزاء ٨-١٠ ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦ م .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٢٩ م .

ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء الخامس ، حيدر أباد ١٣٧٥ هـ .

ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبى) : صورة الأرض ، جزآن ، ليدن ١٩٣٨-١٩٣٩ م .

الخطيب (أبوبكر محمد بن على البغدادى) : تاريخ مدينة بغداد أو مدينة السلام ، المجلد الأول ، بيروت- لبنان .

ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله) : المسالك والممالك ، ليدن ١٩٨٩ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثالث ، بيروت ١٩٧٩ م .
ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

ابن خياط (خليفه بن خياط) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ١٩٧٠ م .

ابن رسته (أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١-١٨٩٢ م .

ابن العبرى (غريغوريوس الملطى) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٨٠ م .

ابن العمرانى (محمد بن على بن محمد) : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن ١٩٧٣ م .

ابن النديم (محمد بن إسحاق النديم البغدادى) : الفهرست ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ابن كثير (عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى) : البداية والنهاية ، الجزء العاشر ، بيروت ١٩٨٣ م .

أبر الفداء (عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة.

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦م.

الذهبي (شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان) :

- دول الإسلام الجزء الأول، تحقيق فهم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤م .

- العبر فى خبر من غبر ، الجزء الأول، بيروت ١٩٧٩م.

السيوطى (الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين الخطيب، بيروت.

الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء ٨-١٠ ، القاهرة ١٩٦٩-١٩٧٦م.

القفطى (جمال الدين أبى الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف) : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ .

القلقشندي (أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا، شرحه : نبيل خالد الخطيب ، الجزء الخامس، بيروت ١٩٨٧م.

الكوفى (أبى محمد أحمد بن أعثم) : الفتوح ، المجلد الرابع، بيروت ١٩٨٦م.

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محى الدين، بيروت ١٩٨١م ؛ التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨م.

مسكويه : تجارب الأمم ، مطبعة التمدن بالقاهرة ١٩١٤م، الجزء الخامس.

المقدسى (شمس الدين أبوعبيد الله محمد) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٩م.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاقي) ، القاهرة ١٢٧٠هـ .

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦-١٩٥٧م.

ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموي) : معجم البلدان، الجزء ١-٤ ، بيروت ١٩٥٥م.
 اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) : تاريخ اليعقوبي ، الجزء
 الثاني ، النجف ١٣٥٨هـ .

ثانيا : المرجع العربية والمعرية :

إبراهيم أحمد العدوى :

- الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، الطبعة الأولى.

- السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، دار المعارف.

أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت ١٩٧٢م.

ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)
 ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥١م.

أستم رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ج ١ -
 ج ٢ ، بيروت ١٩٥٥م .

أوليري : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، نقله إلى العربية تمام حسن، مكتبة الأنجلو
 المصرية، ١٩٥٧م.

أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م.

الباز العريني (السيد) : الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م)، القاهرة ١٩٦٠م.

جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، راجعه عبد الحميد
 العبادي، دار مصر للطباعة ١٩٥٦م .

جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧م .

حامد زيان : الأسرى المسلمون في بلاد الروم، القاهرة ١٩٨٩م.

حسن إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية.

حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة
 ١٩٨٠م.

حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية ١٩٨٩م.

- ستيفن رنسيما : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦١م .
- سيجرید هونكه : فضل العرب على أوروبا ، ترجمة فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٦٤م .
- شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، دمشق ١٩٧٤م .
- شوقى أبوخليل : هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، دمشق ١٩٨٨م .
- عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد ، الجزء الثانى ، بيروت .
- عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول ، التاريخ السياسى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٣م .
- عفاف سيد صبره : الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربيه زمن شارلمان ، القاهرة ١٩٨٢م .
- عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية ١٩٧٧م .
- غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي .
- فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ، القاهرة .
- كى ليبسترنج : بلدان الخلافة الشرقيه ، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
- كرستوفر دوسن : تكوين أوروبا ، ترجمة مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧م .
- محمد جمال الدين سرور : دراسات فى العلاقات السياسيه بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية ، الجزء الأول ، ١٩٦٠م .
- محمد السيد الوكيل : العصر الذهبى للدولة العباسية ، دمشق ١٩٩٨م .
- محمد مختار باشا : التوفيقات الإلهاميه فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين الإفرنجية والقبطية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م .
- محمود سعيد عمران : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨١م .
- يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية ، دمشق ١٩٨٢م .

ثالثا المصادر والمراجع الأجنبية :

- Bury : (J.B)
- A History of the Eastern Roman Empire , London 1912 .
- Cedrenns Georgius :
Historiarum Compendium , I, Bonnae.
- Ionnis Zonaras:
- Epitomae Historiarum, Libri XVIII, Tomus III, Bonnae .
- Ostrogorsky, George:
- History of the Byzantine State, Trans by John Hussey .

أ.د. ليلي عبد الجواد إسماعيل *

ظاهرة تعاطي الحشيش ومكافحتها في مصر المملوكية

التعريف بنبات الحشيش ومسمياته :

الحشيش لغة كلمة تعني العشب أو الكأ، وتحديدًا العشب الجاف أو العلف الذي تأكله الماشية، والحشيس ما ييس من الكأ، فأمكن أن يحش و يجمع، ومفردا حشيشة والجمع حشائش^(١).

أما الحشيش اصطلاحًا فقد استخدمت الكلمة للدلالة على (نبات القنب الهندي) وهو نبات عشبي خشن الملمس، ومجوف الساق، وله أوراق مشرشرة الحافة؛ تختلف شجراته عن شجيرات القنب الأخرى^(٢)، فهي تتسم بقصر ساقها وكثرة فروعها. ويستخلص عقار الحشيش من القمم الزهرية لأغصان أنثى نبات القنب الهندي، وذلك خلال موسم الإزهار، حيث تجمع هذه القمم على هيئة حزم، ثم تترك لتجف^(٣).

ويتحدث ابن البيطار عن القنب الهندي فيقول : " ومن القنب نوع ثالث، يقال له القنب الهندي "^(٤)، مما يظهر أن القنب له أنواع عديدة وقد حدد ابن البيطار النوع الثالث منها وهو المعروف بـ (القنب الهندي) وبأنه النوع الذي يستخلص منه الحشيش. هذا ويعرف القنب الهندي عند الأطباء باسم (الشهدانج) فيذكر ابن جزلة في كتابه (منهاج البيان) القنب الذي هو ورق الشهدانج منه بستاني ومنه بري، والبستاني أجوده، ويسمى (بالكف) وثمره يشبه حب السمينة، وهو حب يعصر منه الدهن. أما البري فتخرج شجرته في القفار المنقطعة، على قدر ذراع، وورقه يغلب عليه البياض^(٥).

وقدم المقرئزي وصفًا لهذا النبات (الحشيش) على لسان الشيخ حيدر الخراساني^(٦) فقال :
 " إنه نبات له ورق عيمس بلطف، ويتحرك من غير عنف كالثلج النشوان^(٧) . وقد وصفه
 الأديب محمد بن علي الأعمى الدمشقي في أبيات منها :

دع الخمر وأشرب من مدامة حيدر معبرة خضراء مثل الزبرجد
 يرنحها أدنى نسيم تنسجت فتنهفو إلى بر النسيم المردد^(٨)

تعددت مسميات الحشيش، وفي ذلك يذكر أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)
 صاحب مخطوط "إتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم"^(٩) . " وقد اخترعوا لما ابتدعوه أسماء
 كثيرة، فكنوا بها عنه، رغبة في التستر به .. فسموه الصورة، والكف، والمعلوم، وابنة الجراب،
 وابنة الكيس، والبنك (البنج)، والكافوري، وابنة القنيس، والخضراء، واللقيمة، وأنشد
 الشعراء بهذه المسميات أشعارًا فيقول الشاعر تقي الدين الموصللي في تسمية الحشيش بالكف:
 كف كف الهموم بالكف فالكف — ف شفاء للعاشق الهموم

وقال أيضًا :

وكف اكف الهم بالكف واسترح ولا تطرح يوم السرور إلى غد^(١٠)

وقال في تسمية الحشيش بابنة القنب :

بأبنة القنب الكريمة لا بأبنة كرم بعد البنت الكروم^(١١)

وقال ابن سودون البشغاوي (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) في ديوانه عن تسميته بالبنك
 (البنج) :

بنك وسط الجنينة يصحنوها في الجفينة أو يسفوا بالحفينة

لجلا القلب الحزين^(١٢)

وذكر المقرئزي أنها أي الحشيشة نعت بالخبيثة وبالعقدة^(١٣) . وكنها ابن سودون
 البشغاوي بالبهار وبالبلوالة^(١٤) . وذكر الزركشي (ت ١٣٩١/٧٩٤م)^(١٥) وتسمى أي
 الحشيشة بالغبيراء^(١٦) وبالحدرية والقلندرية. قيل سميت بالحدرية لأن ظهورها كان على يد
 حيدر الخراساني^(١٧) في سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م تقريبًا، وفي ذلك يقول الشاعر ابن الرسام :

واشكر عصابة حيدر إذ أظهروا لذوي الخلاعة مذهب المتخمس^(١٨)

وقيل سميت بالقلندرية لأنها ظهرت على يد أحد الساوي القلندري^(١٩). وهكذا يتضح من المسميات التي اطلقت على الحشيش أو كني بها أن كل منها ذا مغزى ومعنى.

طرق إعداد الحشيش للاستعمال :

أما عن طرق إعداد القنب الهندي (الحشيش) للاستعمال فقد ذكرت المصادر عدة طرق منها :

أولاً : القلي : ينصح الأطباء بضرورة قليه لأنه إذا قلى يكون أقل ضرراً لذلك جرت العادة أن يقلى قبل أكله لأنه إذا أكل غير مقلي كان كثير الضرر. كذلك ينصح الأطباء بتناوله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل؛ ويذكر المقرئزي^(٢٠) أن ذلك يكون حسب أمزجة الناس، فمنهم من لا يستطيع أن يأكله مضافاً إلى غيره، ومنهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات؛ مما يشير إلى أن طعمه كان غير مقبول. هذا ويؤكد البعض أنها خبيثة الطعم كريهة^(٢١) لذلك يضاف إليها السكر أو العسل أو السمس أو غيره حتى تصبح مقبولة الطعم.

ثانياً : الطبخ : ذكر كل من ابن البيطار والمقرئزي أنه رأى الفقراء (الصوفية) يستعملونه على أنحاء شتى فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً، ويدعكه باليد دعكاً جيداً، حتى يتعجن، ويعمل منه اقراصاً، ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمسه، ويفركه باليد، ويخلط به قليل من سمس مقشور وسكر، ويستفه ويطيل مضغه^(٢٢).

ثالثاً : الطحن والعجن : ذكر ابن سودون طريقة استعمال الحشيش بقوله : يطحن في جفنة، ويطرح بذره وقشه، ثم ينضح عليه الماء رشة بعد رشة، ثم يسكب عليه ماء الورد ودهنه، ويحكم بهما عجنه. ثم تقطع هذه العجينة ويأكل منها^(٢٣).

رابعاً : السلق : يصف البدرى في مخطوطة " راحة الأرواح في الحشيش والراح " الطريقة التي اعتبرها قريبة من الطريقة المستخدمة في مصر، وهي عبارة عن أخذ سبعة أجزاء من نبات القنب البستاني ويضاف إليها جزء واحد من القنب البري، وهذا الجزء الأخير يستخدم كخميرة، ثم يوضع الجميع في الماء ويسلق على النار حتى درجة الغليان، ثم يتم

وضعها في آنية كبيرة محكمة الغلق ومصنوعة من الخزف. ثم توضع في مكان رطب لمدة ستة أسابيع، حتى تتعفن الأوراق، ثم يتركها في المكان أسبوع آخر وهي مغمورة في الماء، ثم يسحقها وينعمها ويمزجها معاً، ثم يصنع من هذا الخليط حبات أو أقراص، ويتركها في الظل حتى يجفها الهواء، وتصبح ذات تأثير فعال وقوي^(٢٤).

يتضح مما سبق أن الحشيش كان يؤكل كما أجمعت المصادر على ذلك، كما كان يشرب كذلك ولكن لم تذكر أي من المصادر أنه كان يدخن في ذلك العصر، وفيما يتعلق بشرب الحشيش ذكر القسطلاني في أبيات قد نظمها لمكافحته :

لا تصغن لمادح شرب الحشيش فإنه في القول غير مسدد^(٢٥)

وقال في موضع آخر :

قد ضل من أفق بحل شراها فيما عزا للشافعي وأحمد^(٢٦)

وذكر ابن تيمية أن الحشيشة تذاب في الماء وتشرب ... والحشيشة تؤكل وتشرب^(٢٧).

ويقول الأديب الفاضل شرف الدين أحمد بن يوسف (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) في الحشيشة موضعاً أنها طعام وشراب :

جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها من كل شيء كان في المعمور
منها طعام والشراب كلاهما وبالبقل والريحان وقت الحضور^(٢٨)

فوائد الحشيش ومضاره :

أجمع الأطباء على أن القنب الهندي أو الشهدانج له فوائد جمة كعلاج أو دواء غير أن مضاره تفوق فوائده، ومن فوائده كما يذكر جالينوس : أنه يبرئ من التخمة وجيد للهضم، وفي ذلك يقول الشاعر النور الاسعدي :

ومن فضلها في الطب جودة هضمها وهيها يحصى فضلها المعدد^(٢٩)

أما يحيى بن ماسويه^(٣٠) فذكر في كتابه (تدبير أبدان الأصحاء) إنه يجفف من البلغم، وينصح بأن من غلب على بدنه البلغم ينبغي أن تكون أغذيته مسخنة مجففة كالزبيب والشهدانج. أما صاحب كتاب إصلاح الأدوية فذكر أن الشهدانج يدر البول، وقال لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيثة^(٣١). هذا إلى جانب أن الحشيش مهدئ للأعصاب ومجلب للنوم ومزيل للقلق، وقد استخدم لعلاج القلق؛ فيروي ابن سودون^(٣٢) رواية عن شخص أصيب بالقلق يوماً، فتناول منه حفنة، فزال عنه القلق، وأقبل عليه النوم أفواجاً، علاوة على ذلك فإن الحشيش المخدر يقلل الإحساس بالألم كالم الأسنان والعظام وغيرها، وليس أدل على ذلك من أن استخدامه في البداية كان للعلاج لذلك سمي باسم (البنج)^(٣٣). وقيل أنها أي الحشيثة تحلل النفخ وتنفي الأبرية من الرأس عند غسله، والأبرية مرض يحدث بسطح الرأس وهي بثور بيض، والعلة في فعلها لذلك ما اشتملت عليه من الحرارة واليبس^(٣٤).

وقد أجاز البعض التداوي بالحشيش بعد أن ثبت أنه ينفع في بعض الأدوية، كما أجازوا أكل الحشيثة عند قطع اليد المتأكلة وعند المخمصة^(٣٥).

هذا ويكسب الحشيش آكله النشاط والسرور فيذكر ابن البيطار "أنهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً"^(٣٦). كما إنه يذهب الهموم الكثيفة وفي ذلك يقول الشاعر علي بن مكي:
تزيل هيب الهم عنا بأكلها وتهدى لنا الأفراح في السر والجهر^(٣٧)

كما راح الجسر — المشهور بزراعة الحشيش — يعدد مزاياه مفاخرًا بها فيقول إنه "مفتاح الأفراح، ومصباح الأرواح، ينصر على الهم، ويكسر جيش الغم، ويجمع شمل الأحباب، ويغل حدة الشباب، ويشهي الطعام والشراب .."^(٣٨).

ولكن إذا كان للحشيش فوائد فإن مضاره تغلب فوائده، فقد نُقل عن بعض العلماء "أن في أكل الحشيثة مائة وعشرون مضرة دينية ودنيوية"^(٣٩). أما الأقفهسي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) فقال: "رأيت في كلام بعضهم مائة مضرة دينية ودنيوية"^(٤٠) ثم عدد بعضها. ويمكن تقسيم هذه المضار إلى مضار خلقية وعقلية وجسمانية ومادية ودينية، وفي

ذلك يذكر ابن تيمية : " إنها مشتملة على ضرر في دين المرء، وعقله وخلقه وطبعه أضعاف ما فيها من خير ولا خير فيها " (٤١).

أولاً : المضار الأخلاقية : وفيها يقول المقرئزي : " ما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، فهي تورث السفالة والردالة، وأن من عاناها أي تعاطاها ينحط في سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شيء البتة " (٤٢). وذكر القلقشندي (٤٣) " أنها تورث مساءة الأخلاق، وتحط من قدر متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة المتكاثرة " علاوة على أنها تورث فساد الفكر .. وإفشاء السر، وإنشاء الشر، وإذهاب الحياء، وكثرة المراء، وعدم المروءة، وعدم الغيرة .. " كما يروي الأقفهسي (٤٤). أما ابن تيمية فيقول : " أن هذه الملعونة تورث قلة الغيرة، وزوال الحمية حتى يصير أكلها أما ديوثاً، وأما مأبوتاً وأما كلاهما " (٤٥). كما أنها تدع الشجاع جبان، كم من أسد أصبح بها مصاداً، وسائس أصبح منقاداً، ورئيس أضحى بها مرؤوساً، وكريم غدا خسيساً.. " كما يذكر صاحب المفاخرات (٤٦).

ثانياً : المضار العقلية : أوضح ابن البيطار مضار الحشيش العقلية فقال : " وقد استعمله قوم فاختلفت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون وربما قتل " (٤٧). وقال في موضع آخر " ربما يسكرهم ويخرجون به إلى الجنون أو قريباً منه " (٤٨). أما ابن تيمية فذكر أن الحشيشة تورث الجنون، وكثير من الناس صار مجنوناً بسبب أكلها. وذكر في موضع آخر أنها " تفسد الأمزجة حتى جعلت خلقاً كثيراً مجانين .. ومن لم يجن منها فقد أعطته نقص العقل، ولو صحا منها فإنه لا بد وأن يكون في عقله خبل .. " (٤٩). وهكذا فإن الحشيش يفسد العقل ويقوي الهوس، ويوضح ذلك رواية للمقرئزي أوردها في حوادث عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م، وذكر فيها أن أحد متعاطي الحشيش اقتحم مجلس الأمير عز الدين الحلبي نائب السلطنة بديار مصر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة بدار العدل، فخرق الصفوف، وكان بيده قصة (شكوى) ووقف أمام الأمير عز الدين ووثب عليه بسكين أخرجها من تحت ثيابه وطعنه في حلقه، ثم حاول ضربه مرة أخرى، فأصابته سكينه الأمير صارم الدين المسعودي وكان من حضور هذا المجلس، فمات، فتكاتف عليه الجميع واهمالوا عليه بسيوفهم حتى

هلك. وكان هذا الشخص جندار به شعبة من جنون، وتعاطي أكل الحشيش فقوي جنة كما يروي المقريزي^(٥٠).

ويصف ابن سودون حالة شخص أكل الحشيش، ويُن تأثيره عليه وما أصابه من الهوس ومن هلاوس بصرية وسمعية، فذكر أن شخصاً أكل الحشيش، فأقبل عليه النوم أفواجاً، ولكن أصابه جوع لم يطق الصبر عليه، فخرج من المنزل يلتمس ما يأكله، فإذا ببحر عجاج متلاطم الأمواج أرضه من الصابونية، وجوانبه من المأمونية، فسعى إليه ووقف عليه، وإذا مأوه من القطر (العسل) المكرر، وأسماكه من الموز المقشر، على شاطئه شباك من زلايية، فأخذ شبكة منها، وطرحها في البحر، فامتلات سمكاً، ثم جذبها فلم يقدر على نزعها، فترع ثيابه ونزل إليها، وجعل تارة يأكل سمكة، وتارة قطعة من الشبكة، ولم يزل على ذلك سبعة أيام، ثم قذفه الموج في اليوم الثامن إلى جزيرة فيها جبال من كنايف، وأودية من قطايف، ثم سقط في بركة من ريم الليمون المالح، فسبح فيها يوماً وليلة فلما خلص منها ذهب إلى منزله^(٥١). ويقول النور الأسعدي في هذا المعنى :

وتفسد من ذهن النديم خياله فينظر مبيض الصباح كأسود^(٥٢)

تؤثر الحشيشة أيضاً على عقل آكلها، وتحدث خللاً في ذاكرته فينسى كثيراً ويسهل التأثير عليه والإيحاء إليه، وفي ذلك يورد ابن سودون رواية على لسان أبي غيدشة الزلاياني: قال : " لما نزل بي الشيب زوجتي أمي بامرأة كانت أبعد مني سناً إلا إنها أكبر مني عقلاً، فلما دخلت بها أطعمتني شيئاً (حشيشة) وقالت : كل هذا تر منه عجباً فأكلته، فرأيت من عجه إنه زادني عقلاً، على إنه لم يمض من الدخول سوى يومين، وإذا بها قد ولدت، فانكرت ذك منها فقالت : لا تنكر، فإن الذي أطعمتك إياه من المدد إنك تأتي في كل يوم بولد، فرجعت عن الإنكار وشرعت لها في الاستغفار "^(٥٣).

ويتابع ابن سودون فيذكر أن ذات الزوجة طلبت من زوجها طعاماً حاراً، فأخذ الصحيفة وذهب إلى السوق دون أن يأخذ المكبة (أي غطاء الصحيفة)، فرجع ليأخذها، فنسي الصحيفة، وكرر ذلك مراراً حتى غروب الشمس، ثم قال في نفسه : والله لا أشتري لها شيئاً، وأدعها تموت جوعاً، ثم رجع إلى البيت فوجدها قد ماتت .. فمضى ليحضر لها الكفن،

فضل طريق العودة إلى المنزل، ويعلق على ذلك بقوله : " وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا " كما يروي ابن سودون^(٥٤).

ولله در القائل :

قيمة العقل جوهر فلماذا يا سفيها قد بعته بحشيشة^(٥٥)

ثالثاً : المضار الجسمانية : عدّد الأقفهسي^(٥٦) مضار الحشيش الجسمانية فذكر أنها " تجفف الرطوبات، وتعرض البدن لحدوث الأمراض، وتصدع الرأس، وتقطع المنى وتجفّفه، وتورث موت الفجاءة .. تقطع النسل وتورث الجذام، وتورث البرص، وتجلب الأسقام، وتكسب الرعشة ... وتسقط شعر الأجنان، وتحرق الدم، وتحقر الأسنان، وتظهر الداء الخفي، وتضر الأحشاء وتفتت الأعضاء، وتضيق النفس .. وتنقص القوى، تصفر الألوان، وتسود الأسنان، وتثقب الكبد، وتورث العين الغشاء، وقلة النظر .. تجعل الصحيح عليلًا إن أكل لا يشبع وأن أعطى لا يقنع، وإن كُلم لا يسمع، تجعل الفصيح أبكمًا والصحيح أبلما... ".

أما الأطباء ومنهم محمد بن زكريا الرازي فقد ذكر في كتابه الموسوم بالفاخر أن أكل ورق الشهدانج البستاني يصدع الرأس، ويقطع المنى ويجفّفه^(٥٧).

وأجمل الشاعر شمس الدين محمد بن علي التلمساني (ت ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) تأثير الحشيشة على جسد الشخص الذي يأكلها فقال :

ما للحشيشة فضل عند أكلها
لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء في وجهه خضراء في فمه
حمراء في عينه سوداء في كبده^(٥٨)

ويقول النور الأسعدي في تأثير الحشيش على الأبدان :

ويبدو على خديه مثل اخضرارها
فيضحى بوجهه مظلم اللون أريد^(٥٩)

وأما ابن سودون البشغاوي فيقول موضحاً أثرها على العين والأبصار :

بلغت يوماً بندقة في لونها خضرة رأيت بياض عيني قد صارت عليه حمرة^(٦٠)

ويقول في موضع آخر :

إنها يا ناس أسرار سرها يظهر في الأبصار أهلها في كل الأعصار

لا يزلوا فرحين^(٦١)

رابعاً : المضار الدينية : وهي كثيرة ومتعددة، فيذكر أبو بكر القسطلاني "أنها تحول بين الشخص وبين .. الصوم والصلاة والعلم بالحركات والسكنات ... والعبد في الآخرة عن ذلك مسئول، ومن قصر فيما وجهه الله عليه، فليس له في الآخرة محصول"^(٦٢). وذكر القسطلاني في موضع آخر : "إنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فالذكر يكون أما بالقلب أو باللسان، وكلاهما إنما يقع مع صحة الذهن وسلامة العقل، وذلك إنما يقع بسلامة المحل وهو القلب والدماغ كما قال تعالى في ذلك : [إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ] . وأما إنها تصد عن الصلاة وذلك لأن الصلاة حركات وسكنات متعلقة بشروط وأركان وهيئات وحضور قلب في مناجاة الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الفكر مشغولاً شغلاً اضطراراً فكيف يتأتى منه القيام بهذه الأمور المطلوبة منه. ومن ثم فإن الحشيشة تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ... "^(٦٣).

وأكد ابن تيمية ما ذهب إليه القسطلاني فذكر " إن أكلوها ينشون عنها ويشتهونها ... وتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة إذا أكثروا منها "^(٦٤). وذكر في موضع آخر " إن كثيرها يسكر حتى يصد عن ذكر الله وعن الصلاة "^(٦٥).

أما الزركشي والأقفهسي فقد ذكرا في ضررها في الدين أنها " تورث نسيان الذكر .. ومجالسة إبليس، وترك الصلوات، والوقوع في المحرمات "^(٦٦).

ويقول القاضي عبدالوهاب في ذلك :

سلبتهم أديانهم وعقولهم رأيت عادماً دينه مغتماً^(٦٧)

هذا فضلاً عن المضار المادية فإلى جانب أنها مذهب للأديان كما يذكر الزركشي فهي مذهب للأموال كذلك وفي ذلك يقول : " أما الحشيشة ... المفسدة للعقول والأبدان المذهب للأموال والأديان ... " (٦٨). وعبر الأقفهسي عن مضارها المادية بقوله أنه يترتب عليها " إتلاف الكيس " (٦٩). علاوة على نظرة الدولة والمجتمع إلى متعاطي الحشيش التي عبر عنها القسطلاني بقوله : " إزداء متعاطيها واحتقاره في أعين النظار وارتداء آكلها برداء الخسار عند الأتقياء الأبرار .. والتوقع لسخط الجبار، والتطلع للإهانة من ولادة الأمصار، والتبع لأثار الفسقة والفجار ... " (٧٠). كما أنها تورث مهانة آكلها كما يذكر ابن تيمية (٧١).

ونظراً لكثرة مضار الحشيش فقد وجه بعض المؤرخين والشعراء نداءات وتحذيرات ونصائح بالبعد عنه والخلاص منه، فنصح المقرئزي آكلها بقوله : " فانظر كلام العارف فيها، واحذر من إفساد بشرتك وتلاف أخلاقك باستعمالها " (٧٢).

ويوجه ابن سودون البشغاوي دعوة للخلاص من الحشيش فيقول :

يا قاتلا لحشيشة قتله يا	مشكاح أنت القاتل المقتول
إن شتتها تحيك أحسن قتلها	واستكثرن فلا يفيد قليل
مهما انسلت بها فعيشك طيب	كم عاش فيها بالهنا مسطول (٧٣)

ويقدم الأطباء المتخصصون في معرفة هذا النبات طرقاً عدة لإبطال مفعوله والخلاص من تأثيره، فنصح الأطباء ومنهم يحيى بن ماسويه في كتابه " تدبير أبدان الأصحاء "، بأن الإنسان إذا أراد التخلص من تأثير أكل الحشيشة أو تعاطيها، وأحب أن يفارقه فعلها قطر في منخريه شيئاً من الزيت، وأكل من اللبن الحامض، كذلك مما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة في الماء الجاري والنوم كذلك يبطله (٧٤). أما ابن البيطار فيذكر أن الإنسان إذا خيف من الإكثار منه فليبادر بالقيء بسمن وماء ساخن، حتى تنقى منه المعدة، مع شرب الحامض أو الحماض فهو في غاية النفع له (٧٥).

دخول الحشيش مصر وانتشاره في العصر المملوكي :

عرفت مصر الحشيش كمادة مخدرة تستخدم في العلاج منذ عهد الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٥٠-٩٠٢م) ولكن عرف أولاً باسم البنج ثم باسم الحشيشة، وهناك روايتان تؤكد صحة ذلك، الأولى رواية ابن يوسف الكاتب — وهو صاحب كتاب المكافاة — وأحد كتاب الدولة الطولونية، وقد جاء فيها على لسانه : كنت أعرف شيخاً في أيام خمارويه، حلوا النادرة، مليح الألفاظ يعرف بالدفاني، وكان يتعاش من توصيل كتب الولاية إلى معاملهم (أي عمالهم) فخرج ذات مرة إلى الشرقية، فالتقى مع رجل من الأطباء، فسأله الطبيب عن صناعته، فقال له : إنه يتاجر في الغلات، فطمع فيه، ودعاه للطعام بأن أخرج رغيفين من خرجيه مشطورين، فقدم له واحد ووضع الآخر بين يديه، ثم ذهب لإحضار الماء، فما كان من الدفاني إلا أن استبدل رغيفه برغيف الطبيب، فلما أكل الطبيب شخص بصره وتمدد، ومر به جماعة فقالوا له : ما لصاحبك، قال لا أدري، فقال له : أنت مُبْنَج بنجت هذا المسكين، ويروي في النهاية أنه بتفتيش خُرج الطبيب وجدوا فيه شطاير تبنيج وشطاير خالية، وأوتاراً للخنق، فخنقوه بتلك الأوتار حتى مات^(٧٦).

أما الرواية الثانية فهي عن ابن زولاق إذ يذكر : " كان القاضي أبو زُرعة^(٧٧) يرقى من وجع الضرس يقرأ عليه، ويدفع إلى صاحبه حشيشة فيسكن "، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على استخدام الحشيش في تلك الأونة لمجرد التبنيج وعلاج الأسنان وتخفيف ألمها^(٧٨).

ويلاحظ أن الروايتين كانتا في عصر خمارويه، مما يشير إلى أنه شاع استخدام الحشيش في عصره للتبنيج والتخدير وكعلاج لبعض الآلام مثل آلام الأسنان كمادة طبية وليس لبعث النشوة والسرور.

ظل الحشيش يستخدم كعقار طبي في مصر في العصرين الأخشيدي والفاطمي وعلى نطاق ضيق، فقد اعتقد الناس أنه يخفف الآلام الناتجة عن أمراض العظام والأسنان^(٧٩).

أما في العصر الأيوبي فشاع أكل الحشيش بين فئات العامة في المجتمع المصري ليس بغرض التطيب كما كان في العصور السابقة بل بغرض النشوة والسرور الطرب. ويحدد ابن تيمية

تاريخًا لظهور الحشيش واستعماله في العالم الإسلامي بغرض النشوة والسرور فيذكر : " إن أول ما بلغنا إنها ظهرت بين المسلمين أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة، حيث ظهرت دولة التتر، وكان ظهورها مع ظهور جنكسخان ^(٨٠). وذكر في موضع آخر " وإنما حدثت في الناس بحدوث التتار ^(٨١). وفي موضع ثالث يؤكد ذلك بقوله " وإنما ظهر في الناس أكلها قريبًا من نحو ظهور التتار، فإنها خرجت، وخرج معها سيف التتار ^(٨٢).

يتضح من عبارات ابن تيمية أنه أرجع ظهور الحشيش في العالم الإسلامي إلى أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة، وأن التتار هم الذين أظهروه في العالم الإسلامي، ونقلوه إلى بلاد العراق والشام، ثم انتقل إلى مصر. وقيل إنه انتقل إلى مصر من خراسان وبلاد العراق إذ نسب إظهار أكله إلى الشيخ حيدر الخراساني شيخ شيوخ الصوفية في خراسان ^(٨٣). وقيل إنه وصل إلى مصر عن طريق بلاد الهند، ثم بلاد اليمن في عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م خاصة وقد نسب إظهاره كذلك إلى أهل الهند على بن مكي في أبيات أنشدها منها :

بهندية أصل إظهار أكلها إلى الناس لا هندية اللون كالسمر ^(٨٤)
تزيل هيب الهم عنا بأكلها وقهدي لنا الأفراح في السر والظهر ^(٨٥)

تؤكد هذه الأبيات على معرفة الحشيش في ذلك الحين كمادة تجلب الفرح والسرور والنشوة، لأن الحشيش كان قد سبق وعرفته مصر كمادة مخدرة قبل التاريخ الذي حدده ابن تيمية.

شاع تعاطي الحشيش في العصر الأيوبي بين بعض فئات المجتمع المصري وذلك لعدم وجود عقاب رادع لباعته وأكله، فكانت الدولة تكتفي بمنع زراعة الحشيش، وجمعه ممن باعته ومتعاطيه وتقوم بحرقه مثلما فعل السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩م) فقد أمر الأمير جمال الدين بن يغمور بأن يمنع زراعة الحشيش في البستان الكافوري ^(٨٦)، ومع ذلك دخل هذا البستان في ربيع الأول من عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م فرأى فيه شيئًا كثيرًا منه، فأمر بأن يجمع ويحرق ^(٨٧). وأنشد الأديب شرف الدين أبو العباس يوسف في هذه الواقعة قصيدة طويلة ينعي فيها نبات الحشيش قائلاً:

زفوا لها ناراً فخلتاً جنة
ثم اكتست منها غلالة صفرة
فكأنها لهب اللظى في خضرة
برزت لنا قد زوجت بالنور
في خضرة مقرونة بزفير
منها وطرف رمادها المنثور^(٨٨)

ويقول أيضاً حزينا أسفاً على إحراق الحشيش في البستان الكافوري :

لله درك حيلة أو ميتة
أو زيت غير ذميمة فسقى الحيا
عندي لذكرك ما بقيت مخلداً
من منظر بهيج بغير نظير
ترباً تضمن منك ذوب عبير
سح الدموع ونفثة المصدور^(٨٩)

ما لبث أن شاع تعاطي الحشيش في مجتمع مصر المملوكية وإن كان بدرجات متفاوتة، حقيقة تعاطه الخاصة والعامة، ولكنه كان نادر الاستخدام بين السلاطين والأمراء والولاة والقضاة والعلماء، في حين تفشى بين الشعراء والأدباء، وفاق الحد بين الصوفية والعامة.

أما عن تعاطي السلاطين الحشيش، فعلى الرغم من أن المصادر أفاضت في ذكر العديد من أسماء السلاطين الذين احتثوا الخمر، إلا إنها لم تشر من قريب أو من بعيد إلى أن عدداً منهم قد أكل الحشيش وتعاطه، بل اكتفت بذكر أن بعضهم كان يتعاطى الخمر والمسطلات^(٩٠). اللهم إلا ابن إياس الذي أشار في ترجمة للسلطان المؤيد شيخ الحمودي (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) إلى أن غالب المؤرخين أثنوا عليه إلا الشيخ تقي الدين المقرئ، فإنه حط عليه بمساوئ كثيرة منها ... إنه كان يتجاهر بالمعاصي، وأكل الحشيش المستقطر ..^(٩١). وبالرجوع إلى المقرئ اتضح أنه ذكر في كتابه السلوك في حوادث عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وهو العام الذي توفي فيه المؤيد شيخ ذكر " إنه كان يتظاهر بأنواع المنكرات، فحاشاً، سباباً ..^(٩٢) دون أن يذكر أنه أكل الحشيش كما أورد ابن إياس، ولعل ابن إياس قد عثر على ترجمة المؤيد في كتاب المقرئ، الملقى الكبير وهي مفقودة كما أشار من قام بطبع هذا الكتاب^(٩٣). على أية حال فنادرًا ما توجد إشارة حول تعاطي السلاطين الحشيش، على عكس الأمراء المماليك الذين ولعوا بأكله فتناولوه أمام

الناس بلا تستر، ودرج عدد منهم على التزلزل ليلاً إلى بولاق ومنهم من كان يرتاد أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر وباب اللوق وغيرها من الأماكن التي ينتشر فيها الحشيش^(٩٤).

كان من بين هؤلاء الأمراء من شغل مناصب مهمة في الدولة كمنصب السوالي، ومن هؤلاء الأمير التاج الشوبكي الدمشقي^(٩٥) الذي استقر في سلطته المؤيد شيخ (والي حرب) ثم ولاه أستاذية الصحة وحسبة القاهرة وغيرها، وكان نديمه ومضحكه، وممن أكل الحشيش، وارتكب المحرمات إذ يذكر الصيرفي " أن عيونه من الحشيش كأنهما قطعتا بلخش خاص من شدة حمرتهم " وذكر أيضاً أنه ارتكب الرذائل والقبائح حتى صار عاراً على جميع بني آدم^(٩٦). ولعل عبارات الصيرفي هذه تؤكد ما ذكره ابن إياس على لسان المقرئ من أن المؤيد شيخ قد أكل الحشيش المستقطر، ما دام نديمه ومضحكه قد فعلها.

لم يسلم من هذا الداء حملة العلم والدين من العلماء والقضاة إذ فسدت نفوس بعضهم، ومرضت قلوبهم، وهم القدوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشغف بعضهم بالحشيش كثيراً. فمن العلماء الذين دأبوا على أكل الحشيش العالم ابن الصاحب وهو الشيخ علم الدين أحمد ابن الصاحب صفى الدين يوسف بن عبدالله بن شكر^(٩٧)، الذي درس في بعض المدارس، وكانت له وجهة ورياسة، ولكنه ترك كل ذلك وأقبل على الحرفشة، وأكل الحشيش واستعمل حشيشة الفقراء، وكان مما أغرموا به، وكان يرى أنه لا معنى لمن دعا إلى تحريمها لأن ذلك تجن إذ ليس هناك نص قرآني يحرمها صراحة، ويقول في ذلك :

يا أهل العقول والأفهام	في خمار الحشيش معنى مرامي
وحرام تحريم غير الحرام ^(٩٨)	حرموها من غير عقل ونقل

كما أنه لم يجد غضاضة من تناولها إذا عزت الخمر، فالقصد عنده هو اللهو والتصابي على مدى الأيام، ومن الطبيعي أن تنفذ واحدة منهما بصورة أو بأخرى وفي ذلك يقول :

يا نفس ميلي إلى التصابي	فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملني من سُكر يوم	إن أعوذ الخمر فالحشيش ^(٩٩)

وله أيضًا :

جمعت بين الحشيش والخمر
يا من يريني باب مدرستي
فرحت لا أهتدي من السكر
يربح والله غاية الأجر^(١٠٠)

وكان أحمد بن إبراهيم بن أحمد الإمام نجم الدين ابن الشيخ عماد الدين ابن القاضي نجم الدين (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) ممن أكل الحشيش، وسبب له انحراف، وساء منه مزاجه، فكان يقف في الطرقات وينشد أشياء مفيدة، ويحكى أشياء قديمة وجديدة ويخاطب الجدد بالهزل، ثم يثوب إليه عقله ثم يعود لحالته وذلك بسبب تعاطيه الحشيش كما يذكر ابن حجر^(١٠١).

اتهم كذلك الشيخ محمد بن محمود الصوفي (ت ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) وكان أحد طلبة الحنفية وفضلائهم، اتهم بأكل الحشيشة^(١٠٢). هذا في حين أن هناك من الأئمة العلماء من ذم الحشيشة ومن هؤلاء الشيخ الإمام العالم العارف محي الدين أبو بكر محمد بن الحسن الأنصاري الشاطبي يقول :

شر سكر سكر الحشيشة
يفسد العقل والمزاج جميعا
والسكر حرام بنص خير الأنام
بفنون الجنون والاستقام

ويقول أيضًا :

صدق القائلون بالحل فيها
هي حل لكن على الإنعام^(١٠٣)

أكل بعض القضاة الحشيش، وشغفوا به فقد ضبط أحد القضاة متلبسًا بأكل الحشيش في فمه، وهو القاضي حسام الدين الفوري، ضبطه بواب المدرسة الصالحية سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م على عهد السلطان كجك بن الناصر محمد - ضبطه يتناولها، ففضحه، وجمع عليه الناس، فنهبوا موجوده، وأهين ضربًا، ومنتفوا لحيته حتى أجاره قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي في بيته^(١٠٤).

أما عن الشعراء في العصر المملوكي فانتشر تعاطي الحشيش بينهم وإن لم يتفقوا فيما بينهم حول أهمية الحشيشة وقيمتها، منهم من آثرها على الخمر ومنهم من ذمها، ومنهم من ساوى بينهما، ومنهم من فضلها على الخمر، وأظهر مزاياها، ثم عاد وفضل الخمر عليها، وليس هناك من مقياس إلا المزاج^(١٠٥).

استند مؤثرو الحشيشة على الخمر من الشعراء إلى لونها الأخضر، وتنامي فعلها في صاحبها أكثر مما تفعله الخمر، فلا احتراق في الأحشاء، ولا عوارض صحية لاحقة .. إن هي إلا خدر نفسي يشعر معه آكلها بنعيم الفردوس وهو في الدنيا^(١٠٦). وفي ذلك يقول شرف الدين محمد بن يوسف الزرعي المعروف بابن الوحيد :

وخضراء ما الحمراء تفعل فعلها لها وثبات في الحشى وثبات
توجج نارا في الحشى وهي جنة وتروى مريراً الطعم وهي نبات^(١٠٧)

ومن الشعراء الذين مدحوا الحشيشة كذلك محمد بن الأعمى الدمشقي الذي قال فيها :

هي البكر لم تنكح بماء سحابة ولا عصرت يوماً برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوماً بكأسها ولا قربوا من دها كل مقعد^(١٠٨)

ويعد الشاعر إبراهيم بن المعمار^(١٠٩) من أشهر من تغنوا بالحشيش وترغوا به في نظمهم في مصر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وحاول من خلال أشعاره إظهار مزايا الحشيش^(١١٠).

أما الذين ذموا الحشيشة فقد نظروا إلى الجانب الآخر من فعلها وتأثيرها، فهي خضراء اللون لكن شاربها يصاب بالهزل والاصفرار، لأنها تنسيه حياته ونشاطه وطعامه وغذائه. لذلك يصبح سقيم الجسم، فاقد الرشد، ومن هؤلاء الشاب الظريف شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني (ت ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م) قال في ذم الحشيش :

ما للحشيشة فضل عند آكلها لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء في وجه خضراء في فمه حمراء في عينه سوداء في كبده^(١١١)

ومن الشعراء من أحسن بخطورة الحشيش، وراح يوصف أضراره ومن هؤلاء المتقن فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) قال :

محبا لله الحشيش وأكلها
كما تصي كذا تضي وتشقى
وأصغر دائها والداء جسم
لقد خبثت كما طاب السلاف
لأكلها وغايتها الخراف
بغناء أو جنون أو نشاف^(١١٢)

أما هارون بن موسى ابن المصلي الأرمني^(١١٣) فقال مدحاً للخمر وذمّاً للحشيش :

ليس في الأرض نبات انبتت
راحت الخضراء تحكي سُكرها
فيه سر حير العقل سواها
قتلوها بعد تقطيع قفاها^(١١٤)

أما الذين فضلوا الحشيش أولاً على الخمر وأظهروا مزاياه، ثم عادوا وفضلوا الخمر عليه فيمثلهم النور الأسعدي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)^(١١٥) الذي قال أولاً مفضلاً حشيشة الفقراء :

رياضية يحكي الجنان اخضرارها
مدامهم تنس المعاني وهذه
وخمرهم كالمارج المتوقد
تذكر أسرار الجمال الموحد^(١١٦)

ويقول كذلك :

ولا داسها العُصار عمداً ودنس الـ
ولا تتعب الأبدان عند نزالها
ولا تستخف الناس عقلك بينهم
دنان بمختوم من القار أسود
وفي القى إذ تبدو كزق ممدد
لعمرى ولا تدعي لديهم بمفسد^(١١٧)

ويقول أيضاً في مزاياها :

وتأمن كبسات الحماة وكيدهم
وتسلم من جور الولاة ولا تدي^(١١٨)

وأخيراً يقول :

فلا تسمع فيها مقالة عاذلٍ يصدك عنها واعص كل مفند^(١١٩)

ثم يعود ذات الشاعر النور الأسعدي ويفضل الخمر على الحشيش فيقول :

أترضى بأن تسمى شبيه بهيمة بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأي قوم كالمدواب ولا تُدر سوى درة كالكوكب المتوقد^(١٢٠)

ويقول أيضاً :

وخمرتنا تكسو الذليل مهابة وعزاً فتلقى دونه كل سيد

ويقول كذلك :

وفيها على رغم الحشيش منافع فقل في معانيها وصفها وعدد
وفي غيرها للناس كل مضرة فحدث بكل السوء عن وصفها الردي
وحقك ما ذاق الحشيش خليفة ولا ملك فاق الأنام بسودد^(١٢١)

حاكى أدباء العصر المملوكي شعرائه في تعاطي الحشيش وفي الكتابة عنه بغرض إيضاح مزاياه وتفضيله على الخمر، وقد غلب على بعضهم أكله ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مكي بن مسلم المصري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) قال عنه ابن حجر : " تعانى الآداب فمهر فيها، وجمع مجاميع كثيرة يقتصر فيها على المقطعات ... ويُصيف غالباً في الشام ويشقي بمصر، إلا أنه غلب عليه محبة الحشيشة وهي محنة خسيصة " ^(١٢٢).

ويُعد ابن سودون البشغاوي^(١٢٣) (ت ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م) من بين الأدباء الذين أكلوا الحشيش إذ يورد في ديوانه نزهة النفوس ما يؤكد ذلك، وكان قد اعتاد الذهاب إلى بولاق والأماكن المجاورة لها وهي أماكن اشتهرت بالجون والخلاعة وأكل الحشيش وفي ذلك يقول :

تجاوز^(١٢٤) بسطة فيها انبساطي
 ينسادي بالخلاعة والمجون
 عليها طاب عيش بني خضير
 إذا برزت لبدوهم الكمين
 لقد أفسدت يا بولاق عقلي
 وكم قد كان أهلي أصلحوني^(١٢٥)

ويقول أيضاً دلالة على استمراره في أكل الحشيش :

يا من إلى البسط بعد الكودنا قد مال
 قم رح لمصنف أبو خالغ بلا إهمال
 زقزق على بندقه حتى يطير المال
 وايش ما انصرف جددو دولاب حشيش عمال^(١٢٦)

ويقصد ابن سودون بذلك استمراره في تعاطي الحشيش مثلما يتوالى تحويل الماء بالدولاب. ويقول كذلك :

يا من أحسن البحر الواحد حدها مسطول
 قاعد على جنب شختوره عليه دلول
 حدها عُشبو قُشِيطَة فوقها عسلول
 يقتل حشيشو ويبلغ ينقلب مقتول^(١٢٧)

فاق الصوفية الشعراء شغفاً بالحشيش، وتفشي أكله بينهم وشاع وانتشر، حتى نسب إليهم، وأصبح يعرف باسم " حشيشة الفقراء "^(١٢٨). وزعم بعضهم أن الحشيشة " لقيمة الذكر والفكر "^(١٢٩). وسار عادة سيئة لديهم مما دفع بعض الشعراء ومنهم ابن قزل (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) إلى انتقادهم خاصة وقد تعللوا بأنها تساعد على الوجد وبلوغ رتبة الجذب، قال ابن قزل :

أرى فقراءنا من كل علم
 ومن دين دواباً في ثياب
 يراعون الحشيشة حيث كانت
 وهل يرعى الحشيش سوى الدواب؟^(١٣٠)

عدّد المقريري الأسباب التي دفعت الصوفية إلى الإقبال على أكل الحشيش بل والترويج له ومنها : ما يجدون فيه من اللذة، كما إنه يجفف المنى، ويقطع شهوة الجماع، ولكي لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع في الزنا^(١٣١). كذلك أجهل أحد الصوفية وهو حيدر الخراساني منافع

أكل الحشيش، و شجع على أكل الصوفية إياه، فهو يذهب بأكله الهموم الكثيفة، ويجلسو بفعله الأفكار الشريفة، ويكسب آكله نشاطاً وسروراً^(١٣٢). لذلك أقبل الصوفية على أكل الحشيش وانتشر بينهم في العصر المملوكي حتى ربط البعض بين فشو الحشيش وانتشار التصوف فقالوا : أن الظاهرتين سارتا في مصر جنباً إلى جنب^(١٣٣).

لمعت بين أسماء الصوفية ممن اشتهروا بأكل الحشيش — في المصادر ومن أبرز هؤلاء أحد مشايخ الصوفية ويدعي المجاهد إبراهيم القطان، وقد استتابه ابن تيمية في عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات^(١٣٤). وكذلك أحمد الوريث الاقباعي كان من الصوفية الذين استحلوا المحارم، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة ولذلك قتل في عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م^(١٣٥). فضلاً عن الشيخ شمس الدين الميموني الذي أباح لنفسه اللواط والخمر والحشيش، ولذلك تم اعتقاله، واحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر، فأفتى بأن في عقله خللاً^(١٣٦).

والحقيقة أن هؤلاء ليسوا بالصوفية، ولكنهم جماعة تشبهوا بهم، وتزيوا بزيهم، لينتسبوا إليهم، وقد اتخذوا من التصوف وسيلة للحصول بها على الدنيا، وقد وصفهم السبكي بأنهم " آكلة — بطلة — سطة لا شغل ولا مشغلة " كما أنهم اتخذوا من الخوانق أي بيوت الصوفية ذريعة للباس الزور، وأكل الحشيش، والافهامك على حطام الدنيا^(١٣٧).

أما ابن سعيد المغربي الذي زار مصر فيذكر أن الفقير (أي الصوفي) له نفس يحكم فيها كيف شاء من رقص في وسط السوق أو تجريد أو سُكر من حشيشة .. إذ ما أشبه ذلك^(١٣٨).

ويقول الشاعر ابن الصائغ (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) في تأثير الحشيش على فقراء الصوفية :

يفقدو الفقير إذا تناول درهما	منها له تيه على الأمراء
وتراه من أقوى الورى فإذا خلا	منها عددناه من الضعفاء ^(١٣٩)

ومن ثم فقط نظر إليهم السبكي على أنهم " ليسوا من الصوفية الحققة، ولا يستحقون وقف الصوفية، وإن كل ما يأكلونه منه حرام "^(١٤٠).

وقد ساعد على تغيير حال الصوفية تدفق مجموعات من الدراويش أو المجاذيب إلى مصر وانضمامهم إلى الصوفية، ومن هؤلاء الحيدرية والقلندرية وكلاهما من العجم، وهم من الذين ابتدعوا أكل الحشيش. أما عن الحيدرية فينسبون إلى الشيخ قلب الدين حيدر^(١٤١)، الذي ولد بنشاور من بلاد خراسان، وكان صوفيًا، وهو الذي اكتشف سر نبات الحشيش، وأوصى تلاميذه ألا يخفوه على الفقراء أي الصوفية، كذلك أوصاهم بأن يطلعوا ظرفاء خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره، فاستعملوه في خراسان، وانتقل منها إلى مصر والشام كما سبق أن ذكرنا.

بدأت طوائف الحيدرية تتوافد على مصر منذ عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وفي سلطنة عز الدين أيلك، وأقامت بمصر، وحازت رعاية بعض سلاطين المماليك وأمرائهم، ومن هؤلاء الأمير برقوق العثماني فقبل أن يصبح سلطانًا على العرش، أمر في عام ٧٨١هـ/١٣٧٩م ببناء زاوية للشيخ حاجي رجب الشيرازي الحيدري، وكان هذا الشيخ قد منح لقب " خادم الفقراء " ^(١٤٢).

أما عن القلندرية فقد توافدوا على مصر كذلك، وسلكوا طريق التسول والشحاذة، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم وشعورهم، وكانوا يرتدون دوالق صوفية طويلة بسيطة^(١٤٣). ويشير إليهم ابن جابر البغدادي في هذا الزجل :

لابد تظهر بين الناس	قلندري مخلوق الراس
تلبس عوض دا الكتان	وحلتك من صوف الخرفان

أو دلق أو تصبح عريان^(١٤٤)

وحقيقة هؤلاء كما يروي المقرئزي إنهم " قوم طرحوا التقييد بآداب المجالس والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة ... ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا، وزعموا أنهم قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك ... " ^(١٤٥).

علاوة على أنهم أسرفوا في أكل الحشيش وفي ذلك يقول ابن جابر البغدادي:

تغدو تدور مع أجناس
ما يعرفوا إلا الخضرة
محلقين السروس أكياس
والبنك لا شرب الخمرة

مثالها بالقسي جرة

وعندهم منها أكياس
من قبل ما تغدو مسطول
دانق يقاوم سبعين كاس
تتم في أمر المأكول

وتطلع السوق بالكشكول^(١٤٦)

وكان للقلندرية زاويتان بمصر أحدهما بدمياط وهي زاوية الشيخ جمال الدين الساوي، قدوة القلندرية، ويقال أنه كان يدرس في مستهل حياته في خانقاة بالعراق، ثم التقى بزاهد جوال، ومارس على أثر ذلك حياة الزهد والتقشف، وسقط شعره وتزي بزى الأسد، بحيث جعل نفسه ميتاً في الدنيا والآخرة، وظل حتى وفاته في دمياط سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ يحيى حياة الزهد المتطرف^(١٤٧). وقد زار ابن بطوطة زاوية الشيخ جمال الدين الساوي هذه، وكان يسكنها أثناء زيارته الشيخ فتح التكروري^(١٤٨).

أما عن زاوية القلندرية الثانية فكانت بالقاهرة خارج باب النصر، أنشأها الشيخ حسن الجوالقي القلندري^(١٤٩)، أحد فقراء العجم القلندرية، ولما قدم إلى مصر، تقدم في دولة زين الدين كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) وتقدم عند سائر أمراء الدولة، وأقبلوا عليه واعتقدوه وأثرى ثراء زائداً في دولة كتبغا وصحبه إلى بلاد الشام^(١٥٠).

ظلت هذه الزاوية منزلاً لطائفة القلندرية، ولهم بها شيخ، وفيها منهم عدد موفور — كما يذكر المقرئزي^(١٥١) — وقام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ابن قلاوون بزيارتها في عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وأمر صوفيتها بترك زي الأعاجم والمجوس والتزي بزى المسلمين، وأنكر عليهم حلق لحاهم واستتابهم، ويعلق ابن كثير على ذلك بقوله: " إنه كان من اللاتق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفق بذلك بعض الفقهاء "^(١٥٢). يتضح من عبارات ابن كثير أن ظاهرة أكل الحشيش قد فشت بين القلندرية وانتشرت بشكل زائد لدرجة كانت تتطلب إقامة الحد عليهم بأكلها كما أفق

بذلك بعض فقهاء العصر، ولا عجب في ذلك فقد أقبلوا على أكل الحشيش منذ أن عرفوا سره، وذاقوا به لذة الكسل، وهربوا من نصب العمل، واستغنوا به عن الخمر، وأكلوه في الأسواق والمشاهد، وهاموا في طلب الرقص والمشاهد كما يذكر ابن دانيال في بابه طيف الخيال^(١٥٣).

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه كان للقلندرية جامع بقوص، قام ببنائه الأمير عز الدين أيلك الأفرم الصالحى (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) قبل موته، وكان القلندرية يتقابلون في هذا الجامع سوياً في شهر رمضان، لكي ينالوا نصيبهم من الخراف الطازجة والتوابل والخبز^(١٥٤).

ومع تدفق جماعات الدراويش من الحيدرية والقلندرية على كافة أرجاء مصر، والعيش وسط أهلها والتفاعل معهم، أشاعوا في أوساط الناس بعض عاداتهم وممارساتهم الذميمة خاصة في العصر المملوكي الثاني، ومن هذه العادات أكل الحشيش، فانتشر بين العامة وروج له الصوفية الفقراء بدعوى أنه يزيل الهموم ويدخل الفرح والسرور على قلب الإنسان، وما أحوج العامة إلى ما يخفف عنهم ويزيل همومهم، لذلك شاع بينهم وفي ذلك يذكر القلقشندي : " أن الحشيشة يأكلها سفلة الناس وأراذلهم ". أما المقريزي فذكر " لقد عهدناها (أي حشيشة الفقراء) وما يرمى بتعاطيها إلا أراذل الناس، ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة "^(١٥٥). مما يوحى بانتشار أكل الحشيش بشكل كبير بين عامة الناس، وقد أورد ابن سودون البشغاوي في ديوانه أسماء الكثير من العامة ممن أكلوا الحشيش ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر ابن حجرمة الهوادي وأبيه، أبو غيدشه الزلابياني وغيرهم^(١٥٦).

وفي إحدى المفاخرات بين بركة الرطلي والجسر وكان مشهوراً بزراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه قالت البركة : " .. فمن أصحابك يا كثير الفشار المحرق وابن المهتار، كم افتضح عندهما من يدب ديب الزيت، ولا يرجع ولو كان ابن صاحب البيت، ولا يفارق الخيط والكلاب، والدرج والتراب، والمقص والحلقة، والشوكة والخرقة ... "^(١٥٧). تلقى هذه العبارات الضوء على نوعية من كانوا يذهبون إلى الجسر من العامة لتعاطي الحشيش بما فيهم الصوفية الفقراء.

ومن الغريب أن تعاطي الحشيش لم يكن قاصراً على الرجال دون النساء ويؤكد ذلك ما ذكره القسطلاني من " ... أنها (أي الحشيشة) موسومة بالخطر لمن عاناها من أنثى أو ذكر... " (١٥٨). ويؤكد ذلك قول ابن الوردي في ديوانه يصف مليحة مسطولة فيقول :

مليحة مسطولة إن لمستها فيمما جرى
تقول كل ظيعة ترعى الحشيش الأخضر (١٥٩)

ومن ثم فقد انتشر هذا الداء في مجتمعات النساء كذلك.

زراعة الحشيش وتجارته في مصر المملوكية :

تعددت أماكن زراعة الحشيش في مصر المملوكية، فصار يزرع في البساتين إذ يذكر ابن البيطار عن " القنب الهندي " ولم أره بغير مصر يزرع في البساتين، ويقال له الحشيشة عندهم " (١٦٠). وتعد مدينة دمياط من أشهر أماكن زراعة الحشيش في العصر المملوكي، بل كان محصولاً أساسياً بها (١٦١).

زرع الحشيش في القاهرة في كل من البستان الكافوري (١٦٢)، أرض الطبالة (١٦٣)، والجسر وبركة الرطلي (١٦٤)، باب اللوق وحكر بولاق (١٦٥).

ظل الحشيش يزرع في البستان الكافوري خلال العصر الأيوبي واستمر خلال العصر المملوكي كذلك، وكان من النوع الجيد، ويضرب به المثل في الحسن، وكان هذا النوع يتناوله الفقراء (أي الصوفية) والسفلة إذ يذكر ابن عبد الظاهر : " أنه (أي البستان الكافوري) كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء والسفلة، وكانت تزرع به ولا ينكر ذلك أحدًا " (١٦٦).

وقال شاعر الفقراء الصوفية نور الدين أبو الحسن بن عبدالله النبعي لنفسه مادحاً حشيش البستان الكافوري :

أمن المسك قلت ليست من المسك — ك ولكنها من الكافوري (١٦٧)

وقال الإمام زين الدين أبو عبدالله بن محمد الحنفي لنفسه في تأثير حشيش البستان الكافوري :

وخضراء كافورية بات فعلها بألبننا فعل الرحيق المعتق

إذا نفحتنا من شذاها بنفحة تدب لنا في كل عضو ومنطق^(١٦٨)

وقال أحمد بن الصائغ (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) في حشيش البستان الكافوري كذلك :
خضراء كافورية رنحت أعطافه من شدة السكر^(١٦٩)

ورغم محاولة السلطان الصالح نجم الدين أيوب إحراق ما كان يزرع في البستان الكافوري من حشيش، إلا أن زراعته ظلت مستمرة في هذا البستان حتى عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، ففي هذا العام أزيلت جميع أشجار البستان الكافوري واختطت الممالك البحرية والعززية به اسطبلات، ودور ومساكن وذلك في عهد المعز أيك كما يروي ابن عبد الظاهر^(١٧٠). وبذلك وضعت نهاية زراعة الحشيش في هذا البستان.

اشتهرت أرض الطبالة كذلك بزراعة الحشيش وبيعه في العصر المملوكي، وكان بها بقعة تعرف بالجنينة - تصغير جنة - من أخصب بقاع الأرض كما يصفها المقرئزي، إذ اشتهرت ببيع الحشيشة التي يتلعبها أراذل الناس^(١٧١). ومن قول الشهاب المنصوري فيها :

كم بالجنينة من أصم وأبكم أشبهه في خلقه بابن آدم
ورجلاله في قيد وعيناه في قفل مجازاً وفي أكل الحشيشة بالعجل^(١٧٢)

ويقول أيضاً :

كم بالجنينة من قتل حشيشة وهبت له الخضراء من أفعالها
لا يستفيق ولا بنفخ الصور آذان أطروش وعين ضرير^(١٧٣)

تراحم الناس على باعة الحشيش في هذه الجنينة، حتى صار يركب بعضهم على بعض كما يروي ابن سودون^(١٧٤) وتعجب أحد المارة من هذا الزحام وسأل عنه ف قيل له : هذا رجل يبيع البهار، فقلت وأي شيء يكون البهار، قال : شيء يزيد الأفراح، ويزيل الاتراح، من أكل منه كفايته وجلس ساعة سارت به الأسرار في أودية الأفكار، ويرى وهو في مكانه سائر الأقطار، وكان هذا الرجل يحب السياحة والسفر، فتقدم إلى البائع واشترى منه بما يساوي خمسة دراهم، في حين أن الشخص كان يكفيه في خمسة أيام بدرهم^(١٧٥).

وهكذا لم تكن أرض الطبالة أرضاً لزراعة الحشيش فقط بل لبيعه، وموطأ قدم لمتعاطيه وآكله، فقد تكاثر بها الحشاشين، ويتضح ذلك من خلال رواية لابن سودون البشغاوي^(١٧٦). يذكر فيها : أن رجلاً عمر دهرًا طويلاً، وجمع مالا جزيل، وأراد أن يجعل من ماله للفقراء نصيب، فصنع بمبلغ كبير من المال حلوى عبارة عن قطايف محشية .. وأمر بحملها إلى الجينة، فصارت الحشاشية تساق إليه وهو يفرقها بالأراطل على السادة المساطيل، ويخص بالزيادة من ثقل لسانه، واشتبه على أخوانه. ثم سمع من قال له يا صاحب القطايف المحشية هذا جزاء ما أطعمت أخوانك الحشاشية ثم أنشد قال:

أيا من يجمع المال شئت عُمره أتفعل ذا والموت مازال طايفا
فأطعم به أهل الحشيش قطايفا ونم تر مثلي في المنام لطايفا

يتضح من تلك الرواية أن الجينة كانت مركزاً لتجمع متعاطي الحشيش وأهله فضلاً عن باعته وزراعه، وظلت الجينة كذلك حتى عصر المقريري (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) إذ يذكر عند حديثه عن الجينة بأرض الطبالة " وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة (أي شجرة الحشيش) في وقتنا هذا فشوا زائداً وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً، وتظاهروا بها من غير احتشام "^(١٧٧). وذلك رغم محاولة بعض الأمراء ومنهم الأمير " سودون الشيخوني "^(١٧٨) إتلاف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقيامه بالقبض على من كان يتلعبها من أطراف الناس وردلائهم^(١٧٩). كذلك صار يشك في كل من يمر بأرض الطبالة حتى أن بعض القضاة وهو القاضي موفق الدين أبو محمد الحنبلي^(١٨٠)، حرص على ألا يأخذ بشهادة من يمر بأرض الطبالة، فحدث أن دخل إليه ثلاثة شهود ليشهدوا في مكتوب، فأعلم اثنين وترك الثالث، ومضوا، فحضر إليه الشاهد الثالث وجده وسأله: يا مولانا قاضي القضاة، ما ذنب أتوب منه، قال : رأيتك منذ أيام ماراً بأرض الطبالة، فقال : الأمر أمركم، كان العبد هناك في ريبة، فمولانا القاضي، ما سبب كونه هناك، فما كان من قاضي القضاة إلا أن سمع شهادته خشية أن يجيبه الشاهد بأنه كان هناك لضرورة، فيرد عليه بنفس الرد^(١٨١).

زرع الحشيش أيضاً في باب اللوق وفي حكر واصل ببولاق، فقد حدد المقريري تلك الأماكن لزراعته أيضاً^(١٨٢). وأكد ابن سودون البشغاوي ذلك حتى أنه كني أو سمي

الحشيش بالبولاق نسبة إلى زراعته في بولاق فعند حديثه عن بولاق كواحدة من مترهات القاهرة قال :

هَـبَّتْ لِي بُولَاقُـهُ يـَا رايـح بـُولَاق
أَوْ جـَـبَّ لِي قَاقُـهُ مـن عـنـد ابـن القَاق^(١٨٣)

اشتهرت أرض الجسر كذلك بزراعة الحشيش، وهو الجسر الذي يفصل بين بركة الرطلي والخليج الناصري، وبنيت به العديد من الدور التي كانت تطل على بركة الرطلي، كما كان الجسر مرتعاً لمتعاطي الحشيش، وقد راح يفاخر بنفسه على بركة الرطلي قائلاً : " إني أبو المحاسن واللطايف والخلاعة والمقاصف، ونزهة الأحداق والمهيج، ومحل البسط والفرج، ومربع الأنس في الأوطان ... " فردت عليه البركة قائلة : " يا رديء الطباع، وأخس البقاع تفخر عليّ بحشيشك الخسيس وتغزوني من الغواة بجنود إبليس " ^(١٨٤).

وقالت له البركة في موضع آخر : " يا سوق الفسوق، وأخو الجنية وابن عم باب اللوق " ^(١٨٥). وكانت الجنية وباب اللوق من مواطن زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه كما سبق أن ذكرنا.

لم تلبث أرض بركة الرطلي أن صارت بدورها موطنًا لزراعة الحشيش، وإن زرع فيها في وقت متأخر من العصر المملوكي فيروي ابن إياس في حوادث عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م أن شخصاً يدعى كمال الدين بن قوسان، استأجر أرض بركة الرطلي، وزرع بها الحشيش، وكان كل من يدخل إليها يبتهج بذلك، ولاسيما أصحاب الكيفة من الحشاشين؛ وجاءت إليها أفواجاً يتفرجون على ذلك الحشيش، فعد ذلك من النوادر الغريبة ^(١٨٦). وفي ذلك يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلي حسناً وصارت جنة فيها عروش
وقد زرعوا الشدائق في ثراها يبدو نسيمها طلع الحشيش^(١٨٧)

ويقول آخر:

بمصر لأهل اللهو والتهيه بركة تولع فيها بالحشيش أولو العقل^(١٨٨)

يقول ابن سودون البشغاوي^(١٨٩) :

بركة الرطلي هواها يكسب الأرواح منهاها وترى الجسر حداها
فيه غزلان راتعين

كم ترى فيه من ملاح انعشوا الأرواح براح ومساطيل في انشراح

للخضير مايلين

ظلت بركة الرطلي موطنًا لزراعة الحشيش وأكله وتعاطيه حتى عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م حين أمر الأمير الدوادار نائب الغيبة الناس أن لا يسكنوا الجسر الذي ببركة الرطلي، ومنع المراكب من أن يدخلوها، فصارت خاوية على عروشها، ليس بها دُبار ولا نافخ نار كما يروي ابن إياس^(١٩٠). لذلك رثاها الشيخ بدر الدين الزيتوني في قصيدة طويلة قال في بعض أبياتها :

على بركة الرطلي نوحوا وعددوا لما حل فيها من نكال ومن خسر
كان بها الحشاش يُسرد بهجة فمذ قطعوا لذاته صار في فكر^(١٩١)

أما عن تجارة الحشيش فقد راجت في العصر المملوكي، ويرجع ذلك إلى إقبال الكثيرين على شرائه وذلك بسبب رخص سعره، إذ كان في متناول العامة والخاصة وفي ذلك يقول النور الأسعدي :

وتشربها في العسر واليسر دائما ولا تنقي فيها ليالي التعب^(١٩٢)

هذا إلى جانب سهولة تناوله في الحدائق والبساتين حيث أماكن زراعته، في الأسواق والمشاهد، في الربط والمساجد وغيرها من أماكن العبادة، وكذلك في الحمامات العامة^(١٩٣) وفي ذلك يقول صاحب المفاخرات : " ولا يختص ببعض المواضع، بل يستعمل في السوق والجامع .. وليس في تحريمه نص مسموع، ولا علي بائعه حد مشروع ... " ^(١٩٤).

ويقول النور الأسعدي في هذا المعنى :

وحقك ما بالخمير بعض صفاها أتشرب جهراً في رباط ومسجد؟^(١٩٥)

ويبدو أن المشاعلية^(١٩٦) قد مارسوا تجارة الحشيش، إذ يصف ابن دانيال في البابة الثانية (عجيب وغريب) شخصية المشاعلي ويتحدث عن مهنته والدور الذي يلعبه في المجتمع، ويذكر من بين مهامه أنه مارس تجارة الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال : حال المشاعل وهو جايل في ميدانه، ومفتخر على أقرانه وينشد قصيدة من أبياتها :

وكم لنا تجارة	في خير نبات خضل
حشيشة لـون العذار	فـوق خـد صقل
يبعها للناس أن	رخصت بيع العسل ^(١٩٧)

وتوضع هذه الأبيات أن المشاعلية تاجروا في الحشيش، وأن أسعاره لم تكن باهظة لذلك راجت تجارتهم فيه، ولكن ما هو رأي فقهاء العصر في زراعة الحشيش وتجارته ؟

حرم ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م) تلميذ ابن تيمية بيع الحشيش مستنداً في ذلك إلى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن ابن عباس قوله : " إن الله إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه "^(١٩٨). أما الزركشي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) والأقفهسي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) فذكرا أن زراعتها أي الحشيشة لغرض الاستعمال والإسكار حرام، ويجوز لغرض التداوي. أما بالنسبة لبيعها فإنه يجوز في رأيهما بيعها لأنه ينتفع بها في الأدوية كالسقمونيا ... بشرط أن يكون يسيراً، أما بيعها لمن يتحقق منه تعاطيها فهو حرام^(١٩٩). وهذا يتطلب وقفة لمعرفة رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش وتناوله.

رأي فقهاء العصر في تعاطي الحشيش :

حار فقهاء العصر المملوكي في أمر تعاطي الحشيش وأكله، فمنهم قلة أفتت بإباحة أكل الحشيش وأجازته، والغالبية العظمى منهم حرّمته. وقد استند القلة في إباحته إلى أنه لم يرد نص في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المشرفة، وكذلك عم وجود نص عند فقهاء المذاهب الأربعة بشأن تعاطي الحشيش وأكله، وقيل في هذا المعنى :

حرموها من غير عقل ونقل	وحرام تحريم غير الحرام
------------------------	------------------------

ويقول الشاعر محمد بن علي بن الأعمى أيضًا :

ولا نص في تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعي وأحمد^(٢٠٠)

ويعد الجمال يوسف بن محمد الملطي (ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م) قاضي الحنفية^(٢٠١) ممن
اشتهروا بالإفتاء بجواز أكل الحشيش، فيذكر ابن حجر^(٢٠٢) إنه كان يفتي بإباحة الحشيشة
لذلك أنشده ابن حجر وكأنه يخاطب غيره وإنما عاناه قائلًا :

عجبت لشيخ يأمر الناس بالتقي وما راقب الرحمن يوما وما اتقى
يرى جائزًا أكل الحشيشة والربا ومن سمع الوحي حقا تزندقا^(٢٠٣)

وأفتى بجواز أكل الحشيش كذلك الشيخ محمد بن محمد بن محمود بن غازي ابن أيوب
(ت ٨١٥هـ/١٤١٢م) وكان نابغة في الفقه والأدب والفنون، واشتغل بالتدريس ونشر
العلم^(٢٠٤).

أما الغالبية العظمى من الفقهاء التي حرمت أكل الحشيش فقد وجدت أنه ليس في عدم
ورود تحريمه في الكتاب والسنة ولا عند الفقهاء الأربعة ما يعني أنه حلال لأن التحريم
للشيء قد يكون بنص أو إجماع أو قياس، والقياس معناه : الحاق أمر لم يرد في حكمه
الشرعي نص من القرآن أو السنة بأمر آخر ورد في حكمه الشرعي نص لاشتراك الأمرين
في علة الحكم. وأركان قياس الحشيش على الخمر في التحريم متوافرة منها، الإسكار، حجب
العقل والذهاب به، إضاعة المال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغيرها، ومادام الأمر
كذلك انسحب حكم الخمر وهو التحريم على الحشيش لاشتراكهما في الحكم. هذا فضلاً
عن أن الحشيش لم يرد تحريمه باسمه المعروف لا في القرآن ولا في السنة النبوية المشرفة،
وذلك لأنه لم يكن موجوداً في العهد النبوي ولا في عهد الصحابة، ولا في عهد الدولة
الأموية^(٢٠٥). وعلى ذلك فقد حمل عدد من الفقهاء في العصر المملوكي حملة شعواء على من
أجازوه أو افتوا بأكله وتعاطيه ومن هؤلاء أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)
الذي راح يتحرى أمر هذه الحشيشة، وهل هي مسكرة ومفسدة للعقل أم لا؛ وذلك
بالاعتماد على رأي الأطباء والعلماء بأحوال هذا النبات ومنهم ابن البيطار الذي يقول عن

الحشيش (القنب الهندي) : هو يسكر جدًا إذا تناول منه الإنسان يسيرًا قدر درهم^(٢٠٦) أو درهمين^(٢٠٧). كما رجع القسطلاني إلى رأي العلماء الأعلام من أهل الحجاز واليمن والعراق والشام، وفي النهاية أفتى بأن تناول الحشيش حرام اعتمادًا كذلك على الحديث المروي عن خير الأنام " ما أسكر كثيره فقليله حرام "^(٢٠٨).

ورد القسطلاني أيضًا على من ادعى أن ما يحدثه الحشيش ليس سكرًا يقضي باختلال، وإنما هو أمر يفرح النفس، ويروح خاطر ويجمع الهمم ويحضر الفكر، ويشغل بها السر عن الخوض فيما لا يعنيه؛ رد مستندًا إلى الأضرار الدنيوية والأخروية^(٢٠٩) التي تعود على من يتعاطها، إلى جانب مشاهدته لمن تعاطى منها درهمين أو ثلاثة وكيف تؤثر فيه تأثيرًا بليغًا إن لم تقتله^(٢١٠) فضلًا عن اعتماده على العديد من الأحاديث الصحيحة التي تؤكد تحريم كل مسكر ومفتر، وعلق بأن الحشيش إذا لم يسكر كان مفترًا مخدرًا، لذلك يكسر مستعمله من النوم وتثقل رأسه كثيرًا^(٢١١). ويؤكد ذلك ما روته أم سلمة رضي الله عنها قالت : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر " والمفتر كل شراب يورث الفتور والخور في الأعضاء، وفي هذا الحديث دليل على تحريم الحشيش لأنه يخدر ويفتر.

رد القسطلاني كذلك على من اعتبر الحشيش دواء، فذكر أن الأدوية نوعان أو ضربان : سليمة فاضلة وخطيرة قاتلة، واعتبر الحشيشة من قبيل الخطيرة القاتلة وذلك بسبب تأثيرها في الأجسام فضلًا عن مضارها الأخرى^(٢١٢).

وتصدى أبو بكر القسطلاني لمن أفتى بأكل الحشيش من الفقهاء وقال عنهم : " إنهم سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول والأفهام، راموا بذلك التحريض على ارتكاب الآثام، وصدق أن يتلى عليهم في ذلك المقام وهم إلا كالأنعام، ولم يستجيبوا للنهي والأمر في الحلال والحرام، فاقتدى بهم في محبتها من جهل أمرها ... "^(٢١٣).

لم يكتف أبو بكر القسطلاني بذلك بل قال :

فيما عزا للشافعي وأحمد

الخمر فيما يعتدي للمعتد^(٢١٤)

قد ضل من أفتى بحل شراها

هي حل وار غدت لأحد مثل

ووجه دعوة لمحاربة كل من يمدح شرب الحشيش قائلاً :

لا تصغن لمادح شرب الحشيش فإنه في القول غير مسدد
وانهض بعزمه ماجد في صده عن قصده بالسوط حينا وباليـد^(٢١٥)

أما عن شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/١٢٦٢-١٣٢٧م) فقد ذهب في جميع كتاباته إلى أن الحشيشة القنبية حرام فيقول في كتابه "الحسبة في الإسلام" أن كل مسكر من الطعام والشراب حرام، ويدخل في ذلك البتع والمزر والحشيشة القنبية وغير ذلك^(٢١٦). وأكد ذلك في كتابه السياسية الشرعية حيث يقول : " أن الحشيشة المصنوعة من ورق القنب حرام أيضاً " والأحاديث في هذا الباب كثيرة ومستفيضة ويقول أيضاً، جمع الرسول صلى الله عليه والسلام، بما أوتيته من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر، ولم يفرق بين نوع نوع، ولا تأثيره لكونه مأكولاً أو مشروباً ... كل ذلك حرام^(٢١٧).

ونادى ابن تيمية في كتابه الفتاوى بضرورة تحريمها، وأعلن أن الحشيشة الملعونة المسكرة بمنزلة غيرها من المسكرات، والمسكر منها حرام باتفاق العلماء، بل أن كل ما يزيل العقل فإنه يحرم ولو لم يكن مسكراً : كالبنج^(٢١٨). وذكر في موضع آخر ردّاً على من سألته عما يجب على من ادعى أن أكل الحشيشة جائز، حلال، مباح؛ بقوله : " أكل هذه الحشيشة الصلبة حرام، وهي من أخبت الخبائث المحرمة، وسواء أكل منها قليلاً أو كثيراً .. ومن استحل ذلك فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتدّاً، لا يُغسل، ولا يُصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين^(٢١٩)."

أرجع ابن تيمية عدم وجود نص بتحريمها في القرآن والسنة ولا عند أصحاب المذاهب الأربعة إلى أنها ظهرت في آخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة للهجرة حين ظهرت دولة التتار^(٢٢٠). لذلك جأ في تحريمها إلى القياس معتمداً على الكثير من الأحاديث مثلما فعل القسطلاني من قبل ومن تلك الأحاديث "الخمر ما حمر العقل"؛ " ما أسكر كثيره فقليله حرام "؛ " كل مسكر حمر وكل مسكر حرام "، فضلاً عن حديث أم سلمة، وحديث السيدة عائشة " كل شراب أسكر فهو حرام^(٢٢١)". وغيرها من الأحاديث. كذلك استند ابن تيمية إلى رأي المحققين من الفقهاء، الذين قالوا بكونها مسكرة لما فيها من النشوة والطرب، وقرر على من يتناولها حد الترب : ثمانون سوطاً أو أربعون^(٢٢٢).

سار ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ/١٢٩١-١٣٥٠م) على نهج أستاذه ابن تيمية فنأدى بتحريم الحشيش كذلك قائلاً: "يدخل في تحريم كل مسكر مانعاً كان أو جامداً، عصيراً أو مطبوخاً، يدخل فيه عصير العنب، وتمر الزبيب والمزر، والذرة، والشعير والعلل والحنطة - اللثمة الملعونة لقمة الفسق والقلب التي تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن... " يقصد الحشيشة واعتبر ذلك كله خمر بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الصريح الذي لا مطعن في سنده، ولا إجمال في متنه، إذ صح عنه قوله " كل مسكر خمر " (٢٢٣). لذلك أخذ بالقياس في تحريمه للحشيش القياس على الخمر، وجعل حد متعاطيه حد الخمر وهو الجلد ما بين ثمانين وأربعين جلدة (٢٢٤).

وإذا كان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قد نادا بضرورة تحريمها وبأن حدها هو الجلد كالخمر، فإن بعض الفقهاء ومنهم الإمام القرافي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) يعتقد أنها من المفسدات (٢٢٥) وليست من المسكرات، ومن ثم لا يوجب فيها الحد، ولا يبطل بها الصلاة، بل التعزير (٢٢٦) الزاجر عن ملاستها (٢٢٧).

واتفق الإمام الرافعي مع القرافي إذ ذكر في باب الشرب: " ما يزيل العقل غير الأشرية كالبنج لا حد في تناوله لأنه لا يلد ولا يطرب ولا يدعو قليله إلى كثيره " (٢٢٨). كذلك قال الإمام علاء الدين ابن العطار صاحب النووي وتلميذه وهو الذي جمع فتاويه " أما الحشيشة المسماة الغبراء المفسدة للعقول والأبدان ... لم أعلم لتحريمها اختلافاً بين علماء الإسلام الذين أدركتهم، ولكنهم لم يصرحوا بوجوب الحد فيها مع اتفاقهم على وجوب التعزير فيها بالضرب وغيره (٢٢٩).

وذهب فريق ثالث من الفقهاء إلى أن متعاطيها لا يُحد بحال وإن تعمد تناولها فسق به، وإن تناولها خطأ أو للتداوي لم يُفسق (٢٣٠).

هكذا أجمع فقهاء العصر على تحريم الحشيشة ولكن اختلفوا في هل فيها الحد أم التعزير، وكان لكل فريق منهم أدلة على صحة رأيه. ولكن إلى أي مدى طبق حكم الشرع في متعاطي الحشيش في العصر المملوكي سواء بإقامة حد الجلد أو بالتعزير؟

دور الدولة في مكافحة ظاهرة تعاطي الحشيش في مصر المملوكية :

اعترفت دولة المماليك في بداية عهدها بالحشيش، وأباحته زراعته وبيعه وأكله، وذلك لأنها في إطار حاجتها إلى الأموال لجأت إلى العديد من الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ففرضت ضرائب ثقيلة على باعة الحشيش وتجاره، عرفت باسم " ضمان الحشيشة " فيذكر ابن حجر : " إنه كان في القاهرة وغيرها من الأعمال على ذلك أي على الحشيش ضمان، وعليه اقطاعات لأناس " (٢٣١). وقد جمعت الدولة من هذا الضمان " جملة كافية " كما يذكر ابن دقماق (٢٣٢) وسعيا وراء تمويل الخزانة السلطانية بحاجتها من المال، لجأت الدولة المملوكية إلى فرض هذا النوع من الرسوم على باعة الحشيش وتجاره. فعندما عهد السلطان عز الدين أيلك (٦٤٨-٦٦٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م) بالوزارة إلى الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي، أحدث هذا الوزير في مصر مظالم كثيرة على الرعية، ورتب مكوساً وضمانات على المنكرات من الخمر والحشيش وبيوت الزواني وغيرهم وسماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية (٢٣٣).

ظل ضمان الحشيش معمولاً به حتى أبطله السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م أو سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م، فقد ذكر المقرئ في حوادث شهر ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م " وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة، وأمر بتأديب من أكلها " (٢٣٤). في حين ذكر في موضع آخر " وأبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وستمائة " (٢٣٥). وأضاف ابن إياس إلى جانب إبطال السلطان بيبرس ضمان الحشيش وتأديب من أكلها، أمر السلطان كذلك بإحراقها (٢٣٦).

وأصدر السلطان الظاهر بيبرس أوامره بإرسال المراسيم الشريفة بمنع الحشيش وغيره من المنكرات إلى سائر الجهات، وعندما وردت تلك المراسيم إلى القاضي ناصر الدين أحمد بن منصور بن أبي بكر (٦٢٠-٦٨٣هـ/ ١٢٢٣-١٢٨٤م) قاضي الإسكندرية استبشر بالخبر وقال :

غير بلاد الأمير مأواه
حرمته مائه ومرعاه (٢٣٧)

ليس لإبليس عندنا أرب
حرمته الخمر والحشيش معاً

امتنع الناس عن أكل الحشيش في أيام الظاهر بيبرس غاية الامتناع، وطهرت البلاد منه ويذكر ابن دانيال (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) الذي زار مصر في أيامه " وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى (الخوان) والي القاهرة، إهراق الخمر، وإحراق الحشيش .. وشاعت بذلك الأخبار، ووقع الإنكار، واختفى المسطول في الدار، وأقيمت الحدود... " (٢٣٨).

وقال القاضي ناصر الدين ابن النقيب الفقيسي :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر — قال ما لي وللمقام بأرض
مر فولي إبليس من مصر يسعى — لم أمتع فيها بماء ومرعى (٢٣٩)

وعبر ابن دانيال عن حالة آكلي الحشيش عندما سمعوا بخبر السلطان بضرورة إحراق الحشيش وإلغاء ضمانه قال في بابه (طيف الخيال) :

أين عيناه والحشائش تحرقن — بنار تُراعى منها الجسوسُ
قلعوها من البساتين إذ ذاك — صغاراً خضرَاء وهي عروس
والحرافيش حولها يتباكون — وهذا يطفئ لهذا الوطيس (٢٤٠)

أبطلت المنكرات كذلك في أيام حسام الدين لاجين (٦٩٦-٦٩٨هـ/ ١٢٩٦-١٢٩٨م) ومنها الحشيش، وفي ذلك يقول ابن دانيال :

ذي دولة المنصور لاجين الذي — قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكل أخضرا في عصره — ياذا الفقير يصير جسمك أحمر (٢٤١)

شاع أكل الحشيش في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وانتشر انتشاراً واسع النطاق، لدرجة حركت أقلام شعراء عصره ومن هؤلاء فتح الدين أحمد بن الثقفي (ت ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) الذي راح يسوق شعراً يوضح من خلاله مضار الحشيش وآثاره السيئة على متعاطيه؛ ومن شعره :

محا الله الحشيش وأكليها — لقد خبثت لما طاب السلاف
كما نصبي كذا تضني وتشقى — لاكلها وغايتها الخراف (٢٤٢)

سعى السلطان الناصر محمد لمكافحة ظاهرة أكل الحشيش، التي شاعت في عصره، فعين واليًا على القاهرة شديد البأس وهو الأمير (قدا دار) ^(٢٤٣) في سنة ٧٢٤هـ — ١٣٢٣م، فبدأ عهده بتعقب المفسدين، وكبس أماكن زراعة الحشيش، ومنها خط باب اللوق، وأخذ منه شيئًا كثيرًا، وصادر ما فيه من الحشيش وأحرقه عند باب زويله، واستمر يفعل ذلك مدة شهر، وما من يوم إلا ويحرق فيه الحشيش عند ذلك الباب، مما يظهر كثرة كمية الحشيش التي كانت تزرع في باب اللوق. وأثنى السلطان الناصر محمد على جهود الأمير قدا دار وشكره شكرًا زائدًا، ومكنه تمكينًا قويًا ^(٢٤٤).

استمرت مكافحة الدولة للحشيش ففي ربيع الآخر من عام ٧٤٥هـ — ١٣٤٤م قام الأمير الحاج آل ملك ^(٢٤٥)، نائب السلطنة في عهد الصالح إسماعيل — بعد أن دله بعض العامة على موضع يباع فيه الخمر والحشيش — بإحضار من يبيعونها، وضربهم في دار النيابة بالمقارع وشهرهم، وخلع على ذلك العامي، وأقامه عنه في إزالة المنكرات ^(٢٤٦).

رغم جهود الدولة ورجالاتها في مكافحة هذه الظاهرة، إلا أن الناس أقبلوا على أكل الحشيش حتى في أوقات الأزمات التي كانت تحل بالبلاد، فقد انشغل الكثيرون في عام ٧٤٩هـ — ١٣٤٨م أثناء الوباء الأسود، الذي حل بمصر في أيام السلطان الناصر حسن، انشغلوا بأكل الحشيش لدرجة قال معها إبراهيم بن المعمار:

قلبت لمن بالحشيش مشغل
فالناس ماتوا بكبة ظهرت
ويك أما تخش هذه الكتبة
قال إني أعيش بالكبة ^(٢٤٧)

ووقع في دولة الأشرف شعبان بن حسين ما يقرب من هذه الوقعة فحرم السلطان أكل الحشيش في عام ٧٦٩هـ — ١٣٦٧م، فقال الأديب عينه إبراهيم بن المعمار:

أمر بيلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتتم دعوة المصطول والسكران ^(٢٤٨)

ومن ثم فإن الأزمات التي كانت تمر بالبلاد لم تؤثر على باعة الحشيش وآكلته، رغم أن مثل هذه الأزمات كانت تدفع الكثيرين إلى البعد عن المعاصي والمنكرات.

لم تأل الدولة جهداً للحد من ظاهرة أكل الحشيش، فقام الأمير سودون الشينخوني^(٢٤٩) في عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م، في عهد المنصور علاء الدين علي — بتبع الموضع الذي يعرف بالجنينة من أرض الطبالة، وباب اللوق، وحكر واصل ببولاق وغيرها من أماكن زراعة الحشيش، وأتلف ما هناك من هذه الشجرة الملعونة، وقبض على من كان يتلعبها من أطراف الناس ورذلانهم، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامة، كما يذكر المقرئزي^(٢٥٠). مما يوضح انتشار الحشيش بينهم.

تابع الأمير سودون حملاته وكبساته على أماكن بيع الحشيش، فهاجم في عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، وكان يشغل ساعتها وظيفة نائب السلطنة في دولة الظاهر برفوق، هاجم أحد أماكن تخزين الحشيش وبيعه، واستولى على كميات ضخمة ضبطها هناك، وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة^(٢٥١).

ظل أكل الحشيش حتى عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م يُعد من القاذورات كما يذكر المقرئزي، بدليل أن الناس شنعوا على سلطان بغداد أحمد بن أويس، حينما قدم إلى القاهرة فاراً من تيمورلنك، وتظاهر هو وأصحابه بأكلها، لذلك استقبح الناس في مصر فعلهم هذا وعابوه عليهم^(٢٥٢). ولكن في عام ٨١٥هـ/١٤١٢م شنع التجاهر بالشجرة الملعونة — كما يروي المقرئزي — فظهر أمرها، واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لو كادت أن تكون من تحف المترفين^(٢٥٣). مما يوضح أن أكل الحشيش ظل حتى هذا العام يؤكل سرّاً وفي الخفاء، ثم بدأ الناس يتجاهرون بأكله دون حياء أو احتشام أو خجل، وزاد الإقبال على أكله بين طوائف الخاصة والعامة، لذلك قام صدر الدين محتسب القاهرة في ربيع الأول عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م بتبع أماكن الفساد بنفسه ومعه والي القاهرة، فأراق آلافاً من جرار الخمر .. ومنع من التظاهر بالحشيش^(٢٥٤).

أما عن ضمان الحشيش خلال تلك الفترة فيذكر ابن حجر أنه كان قد بطل والله الحمد، ثم أعيد قليلاً بدسائس أهل الظلم والمكر، غير أنه ما لبث أن بطل ثانية، وعاد كما كان بعد مدة قريبة^(٢٥٥).

شن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) حملة شواء على مواضع الفساد، ففي شهر ربيع من عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م شدد السلطان في أمر الحشيش، وأمر بإحراق ما يوجد منه، فأحرق من الحشيش ما لا يحصى كثرة، وأكثر ذلك كان بدمياط

كما يروي ابن حجر^(٢٥٦). مما يوحى بانتشاره وزراعته على نطاق واسع بها، ولم يكتف السلطان بذلك بل حجر عليه جيداً كما يذكر ابن إياس^(٢٥٧).

تتابعت جهود الدولة في عصر برسبای من أجل القضاء على هذه الآفة ففي المحرم من عام ٨٣٢هـ/ ٢٨ : ١م تتبع الأمير قرقماس الشعباني حاجب الحجاب مواضع الفساد، فأرق الخمر، وحرق من الحشيشة المضرة للعقل شيئاً كثيراً، وذلك بتكليف من السلطان برسبای^(٢٥٨). وفي ذي القعدة من عام ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م، قام الوالي عمر بن سيف الشوبكي^(٢٥٩) بكسر جرار الخمر، وحجر على الحشيش^(٢٦٠).

وفي عهد السلطان الغوري ارتبطت سياسة الدولة في محاربة ظاهرة أكل الحشيش وغيره من المفاسد بما تعرضت له البلاد من أزمات اقتصادية ففي عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م وعلى أثر الطاعون الذي ضرب البلاد في ذلك العام رسم السلطان الغوري لحاجب الحجاب ووالي القاهرة الأمير علان من قراجا بأن يكسروا جرار الخمر، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة، ولا يبقوا في ذلك ممكناً كما يذكر ابن إياس^(٢٦١).

نادى السلطان الغوري كذلك في ٢٦ صفر من عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م بمنع بيع الحشيش والبوزة وذلك على إثر انتشار الطاعون بالبلاد، واستمر يشهر المناذاة بذلك ثلاثة أيام متوالية^(٢٦٢). وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على انتشار تلك الظاهرة بشكل كبير في مجتمع مصر المملوكية في تلك الآونة.

ولكن ما إن انتهت الأزمة حتى عاود الناس سرقة الأولى، فاستمر بيع الحشيش وأكله، مما دفع السلطان الغوري إلى المناذاة بتحريم بيعه مرة أخرى في ذي القعدة من عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، ولكن كما يذكر ابن إياس " لم يسمع له أحد ذلك، ولم ينتهوا عما هم فيه "^(٢٦٣). ومن ثم فقد قرر السلطان بنوع من السخرية والاستنكار.

ملاحظات على جهود الدولة والفقهاء في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش :

أولاً : بذل عدد من السلاطين جهوداً كبيرة في سبيل مكافحة تلك الظاهرة ومحاولة الحد من انتشارها ومن آثارها السلبية، ويأتي على رأس هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد، برسبای والسلطان الغوري وغيرهم، وقد عهدوا بهذه المهمة إلى كبار رجالات الدولة

وفي مقدمتهم والي القاهرة الذي كان من حقه كما يذكر السبكي^(٢٦٤) " الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش، ونحو ذلك وسد الذريعة فيه ". كذلك أوصى العمري^(٢٦٥) الوالي بأن يُعقم نسل الخمر .. وكذلك أختها في مخامرة العقل وشقيقتها في التأديب، إن لم يكن الحد لعدم النقل، وهي الحشيشة التي يعرف آكلها دون الناس بعينه... " وشارك الوالي في بعض الأحيان حاجب الحجاب والمحتسب، وفي أحيان قليلة نائب السلطنة وذلك في محاولة للحد من انتشار تلك الظاهرة أو القضاء عليها.

ثانيًا : اتبع السلاطين ورجالات الدولة عدة طرق في مكافحة ظاهرة أكل الحشيش منها: إحراقه، مصادرته، الحجر عليه، إتلافه بالتراب، تحريم بيعه، منع زراعته خاصة في الأماكن التي اشتهرت بزراعته. أما عن أكل الحشيش أو متعاطيه فكان يعاقب أما بالضرب بالمقارع، أو بالتشهير والتجريس^(٢٦٦)، أو بقلع الضروس، ولم يتم تطبيق حد الخمر عليه كما نادى بذلك بعض الفقهاء، ومن ثم فقد راحت جهودهم هباء.

ثالثًا : لم تتشدد الدولة في مكافحة تلك الظاهرة إلا في أوقات الأزمات الاقتصادية والأوبئة أي في أوقات الشدة التي تعاني منها البلاد كتأخر الفيضان، أو ارتفاعه، وانتشار الأوبئة والجماعات وغيرها، في هذه الأوقات يلجأ الناس عادة إلى الله تعالى، ويعتصمون برداء الدين، ويكثرون من العبادة، ويتجنبون المحرمات، ويصدر السلاطين أوامره بتحريم الحشيش ومهاجمة مخازنه والبعد عن غيره من المفاسد والمحرمات وعدم ارتكاب المعاصي. ويستجيب الناس وقتيًا حتى تنتهي الأزمة، فتعود الأمور سيرتها الأولى، ويعود الناس إلى التظاهر بأكل الحشيش وغيره.

رابعًا : ساهمت الدولة في نشر ظاهرة أكل الحشيش بين العامة والخاصة، وذلك عن طريق ما فرضته عليه من ضمان عرف بضمان الحشيشة، كان تجارها وباعته يدفعونه للدولة بانتظام. حقيقة حاول بعض السلاطين إبطاله إلا أنه سرعان ما كان يعود ثانية، ويرى البعض^(٢٦٧) أن تجار الحشيش وباعته كانوا يمثلون احتياطيًا ماليًا طارئًا للدولة عندما يضيق بها الحال، فيسعى الولاة والجباة إلى مهاجمة أماكنه ليلاً ومصادرة ما فيها من الأموال، وذلك رغبة من الحكومة في مشاركة هؤلاء التجار في مكاسبهم المالية الباهظة، ومن ثم فقد كان لتجار الحشيش أهمية اقتصادية بالنسبة للدولة كما أن باعته كانوا يعيشون على تلك التجارة

فهى مصدر رزقهم، مما جعل مكافحة الدولة لهذه الظاهرة أمراً بالغ الصعوبة^(٢٦٨) ونظراً لحاجة الدولة الماسة إلى المال فقد أظهرت أحياناً بعض التراخي في مكافحة هذه الظاهرة.

خامساً : لعب الفقهاء ورجالات الدين دوراً في مكافحة هذه الظاهرة مشاركة من جانبهم للدولة، وتمثلت مشاركتهم أما بالكتابة والتأليف، أو استتابة آكليها، فبالنسبة للكتابة فقد أفرد أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)^(٢٦٩) لها تصانيف منها : تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، وإتمام التكريم لما في الحشيش من التحريم^(٢٧٠)، وحاول فيها إبراز مساوئ الحشيش الدنيوية والأخروية ومضاره على آكله حتى يتعدوا عنه. وكذلك صنف الزركشي (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م) زهر العريش في تحريم الحشيش أو زهر العريش في الكلام من الحشيش^(٢٧١). وكتب الأقفهسي^(٢٧٢) (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) كذلك كتاب " إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش " ^(٢٧٣). ونادى هؤلاء جميعاً من خلال مؤلفاتهم بضرورة تحريم الحشيش لأثره المثلث للعقول والأخلاقيات علاوة عن إشاعة السلوك الإجرامي في المجتمع.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فكان يستيب أكل الحشيش فحدث في رجب من عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م أن حضر إليه شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً، يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمره ابن تيمية بتقطع ذلك الدلق، وحلق رأسه، وتقليم أظافره، وكانوا طوالاً جداً، واستتابه من كلام الفحش، وأكل ما يغير العقل من الحشيشة، وما لا يجوز من المحرمات وغيرها^(٢٧٤). كما تعالى صوت ابن تيمية موجهاً نداءات إلى الصوفية بالذات بأن يتركوا أكل الحشيشة الخسيسة، ودعا لإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها، كما أفتى بذلك بعض الفقهاء وذلك في عام ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م^(٢٧٥). هذا فضلاً عما أورده بشأن الحشيش في فتاواه وكتابه السياسة الشرعية والحسبة في الإسلام وسبق الإشارة إلى ذلك.

غير أن صيحات فقهاء العصر ونداءاتهم، التي تعالت منادية بضرورة الحد من تعاطي الحشيشة وفرض الحد على آكلها أو تعزيره، ضاعت هباءً ولم تجد آذاناً صاغية، وتفشت ظاهرة أكل الحشيش فشواً كبيراً في العصر المملوكي.

الحواشي

- (١) المعجم الوسيط، ج ١، القاهرة ١٩٦٠م، ص ١٧٦؛ المعجم الوجيز، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٥٣.
 - (٢) القنب نبات حولي غزير النمو، شجري المظهر، وله عدة أنواع، يصنع من أحداها التيل، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من القنب كان يوجد بالإسكندرية بوفرة، ويصنع منه التيل الجيد، وقد شهد بذلك الرحالة طافور الذي زار مصر في القرن ٩هـ/١٥م؛ كذلك ذكر الحسن الوزان أن بني سريف تجود فيها زراعة الكتان والقنب. انظر: أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق حسين نصار، القاهرة ٢٠٠١م، ج ٥، ص ١٦٦-١٦٧؛ المعجم الوجيز، ص ٥١٦؛ طافور، رحلته في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٦٤؛ الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٦٠٩؛ وانظر أيضًا عزت حنين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٨٩، ١٩٠.
 - (٣) محمد السيد الأرنؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٣٦.
 - (٤) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، القاهرة بدون تاريخ، ص ٣٩. أما عن ابن البيطار فقد تسوَّى في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، وانظر ترجمته في الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، بيروت بدون تاريخ، ص ٢٣٤.
 - (٥) انظر المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، م ٢، ص ١٢٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٢، ص ١٥٣؛ وانظر أيضًا :
- Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971, p. 22.
- (٦) عنه انظر ما يلي هامش ٨٣.
 - (٧) المواعظ، ج ٢، ص ١٢٧.
 - (٨) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٧.
 - (٩) مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة، ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢، ورقة ٨٦-٨٧. وعن مسميات الحشيش انظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp, 19-41
 - (١٠) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٨.
 - (١١) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.
 - (١٢) ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالحيد، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٣٧٣.
 - (١٣) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨، ص ١٢٩.
 - (١٤) ديوان نزهة النفوس، ص ٢١٥.

(١٥) زهر العريش في تحريم الخشيش، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤، ورقة ٢. وقد قام روستال Rosenthal بنشرها كملحق في كتابه The Herb انظر p.176

(١٦) أما عن تسمية الخشيشة بالغبيرة فقد ذكر ابن الوردى في خريدة العجائب أن الغبراء شجرة خشبها أصبر من كل خشب الماء كالأرز والتوت، وزهرها إذا شتمها المرأة هاجت بها شهوة الجماع حتى تطرح الحياء، والتنقل بثمرها يبطئ السكر، ويحبس القي، وينفع من إكثار البول، ص ١٧٦. وقيل أن الغبيرة هي شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى [لَاكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ] الواقعة ٥٢، وفي قوله تعالى [أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ] الصافات ٦٢، وانظر أيضًا الدخان آية ٤٣. وعن شجرة الزقوم انظر الإمام القشيري، تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم، القاهرة ١٩٧١م، ص ٨٩؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 46-47.

(١٧) عن حيدر، انظر ما يلي هامش ٨٣.

(١٨) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٧؛ وانظر أيضًا: الجوبري، المختار في كشف الأسرار، دمشق ١٣٠٢هـ، ص ٢٩.

(١٩) الزركشي، زهر العريش، المخطوط ورقة ٢، ونشر روستال، ص ١٧٧، وعن القلندري، انظر ما يلي، ص .

(٢٠) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.

(٢١) الأقفهسي، إكرام بن يعيش بتحريم الخمر والخشيش، طنطا ١٩٩١م، ص ٦٢.

(٢٢) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨؛ ابن اليطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، ص ٣٩.

(٢٣) نزهة النفوس ومضحك العبوس^٢ ص ٢٠٦.

(٢٤) نقلًا عن : Rosenthal, The Herb, pp. 57-58.

(٢٥) تكريم المعيشة، ورقة ٤١.

(٢٦) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢٧) السياسة الشرعية، ص ٦١؛ وانظر أيضًا : Rosenthal, The Herb, pp. 64-65.

(٢٨) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٦.

(٢٩) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٣، بيروت ١٩٧٣م، ص ٢٧٤.

(٣٠) يحيى بن ماسويه من علماء الأطباء، سرياني الأصل مستعرب، كان أحد من عهد إليهم هارون الرشيد ترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، وقام بمعالجة الرشيد والمأمون ومن بعدهم إلى أيام المتوكل وتطبيب مرصاهم. له نحو أربعين كتابًا كلها في الطب، وتسوق

بسامراء ٢٤٣هـ. انظر: الحسن بن زولاق، تراجم كتاب أخبار سيويه المصري، نشر محمد إبراهيم أسعد وحسين الديب، القاهرة ١٤١٠هـ، ص ٧٠-٧١.

(٣١) نقلاً عن المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.

(٣٢) نزهة النفوس، ص ٢٠٦.

(٣٣) Rosenthal, The Herb, pp. 57-58.

(٣٤) الزركشي، زهر العريش، نشر روستال، ص ١٩٤؛ والأقفهسي، إكرام من يعيش، ص ٦٣.

(٣٥) الزركشي، زهر العريش، نشر روستال، ص ١٩٥؛ الأقفهسي، إكرام من يعيش، ص ٦٣.

(٣٦) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، ص ٣٩.

(٣٧) المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨.

(٣٨) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة بين عرائس متزهات القاهرة، دراسة وتحقيق وتعليق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٣٩-٤٠.

(٣٩) الزركشي، زهر العريش في تحريم الحشيش، مخطوط، ورقة ٣.

(٤٠) الأقفهسي، إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، ص ٦٥.

(٤١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢٢٢.

(٤٢) المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨.

(٤٣) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٢، ص ١٥٣.

(٤٤) الأقفهسي، إكرام، ص ٦٥.

(٤٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد النجدي، المطبعة السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، ج ٣٤، ص ٢٠٥، ٢٢٣.

(٤٦) المفاخرات الباهرة، ص ٤٢.

(٤٧) ابن البيطار، الجامع، ج ٣، ص ٣٩؛ وانظر أيضاً: المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.

(٤٨) الجامع لمفردات الأدوية، ج ٣، ص ٣٩؛ وانظر أيضاً: المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨.

(٤٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢٠٥، ٢٢٤.

(٥٠) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ١، ص ٥٥٠-٥٥١. والجندار هو الأمير الذي يستأذن عند دخول الأمراء الخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان.

- (٥١) نزهة النفوس، ص ٢٠٦-٢٠٨
- (٥٢) ابن شاکر الکتبی، فوات الوفیات، ج ٣، ص ٢٧٥.
- (٥٣) نزهة النفوس، ص ٢٠٨-٢٠٩.
- (٥٤) نزهة النفوس، ص ٢٠٩-٢١٠.
- (٥٥) انظر الزرکشی، زهر العریش، مخطوط ورقة ٥؛ والأفھسی، إکرام من یعیش، ص ٦٢. وقد أورد روستال هذا البيت في نشره لزهر العریش علی النحو التالي :

دیه العقل بدرة فلماذا یا سفيها قد بعثها بحشيشة

The Herb, p. 179 .

- (٥٦) إکرام من یعیش بتحريم الخمر والحشيش، ص ٦٥؛ وانظر أيضًا الزرکشی، زهر العریش، مخطوط ورقة ٣-٤.
- (٥٧) انظر أبو بکر القسطلاني، إتمام التکریم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٦؛ الزرکشی، زهر العریش، مخطوط ورقة ٣، ٤؛ ونشر روستال، ص ١٧٧-١٧٨.
- (٥٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٨١.
- (٥٩) ابن شاکر الکتبی، فوات الوفیات، ج ٣، ص ٢٧٥.
- (٦٠) نزهة النفوس، ص ٣٠٢.
- (٦١) نزهة النفوس، ص ٣٧٣.
- (٦٢) تکریم المعيشة بتحريم الحشيشة، ورقة ٣٠-٣١.
- (٦٣) إتمام التکریم لما في الحشيش من التحريم، ورقة ٥٩-٦٠.
- (٦٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ٦٠.
- (٦٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٥، ص ٢٢٤.
- (٦٦) الزرکشی، زهر العریش، المخطوط، ورقة ٣، والمنشور. Rosenthal, The Herb, p.178؛ الأفھسی، إکرام من یعیش بتحريم الخمر والحشيش، ص ٦٥.
- (٦٧) انظر : الزرکشی، زهر العریش، ورقة ٧، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 182
- (٦٨) زهر العریش، نشر روستال، ص ١٨٧.
- (٦٩) إکرام من یعیش بتحريم الخمر والحشيش، ص ٦٥؛ وانظر أيضًا الزرکشی، زهر العریش المخطوط، ورقة ٣، والمنشور Rosenthal, The Herb, p. 178

- (٧٠) تكريم المعيشة، ورقة ٢٤.
- (٧١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢٢٤.
- (٧٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.
- (٧٣) ديوان نزهة النفوس ومضحك العيوس، ص ١٤٧.
- (٧٤) نقلاً عن المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.
- (٧٥) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، ص ٣٩.
- (٧٦) المكافاة، تنسيق وتصحيح وتعليق، أمين عبدالعزيز، مصر ١٩١٤م، ص ٨٨-٨٩.
- (٧٧) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زُرعة الثقفي، ولي قضاء مصر في سنة ٢٨٤هـ في إمارة حاوريه بن أحمد بن طولون أو في عهد هارون ابنه، وكان محموداً في ولايته، ثقة، كما كان حسن المذهب عفيفاً عن أموال الناس، وظل على القضاء في مصر حتى صرفه محمد بن سليمان الكاتب في عام ٢٩٢هـ، ومات في عام ٣٠١ أو ٣٠٣هـ. لمزيد من التفاصيل حول سيرته انظر: الكندي، كتاب السوالة وكتاب القضاة، تحقيق رفن كست، بيروت ١٩٠٨م، ص ٥١٨-٥٢٣.
- (٧٨) انظر: الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٥٢١؛ وانظر أيضاً، أحمد عبداللطيف، "الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية ففي عصر الدولة الطولوتية"، بحث منشور في مجلة آداب فنا، العدد الثامن، ١٩٩٨م، ص ١٢٧.
- (٧٩) ممدوح عبدالرحمن، المساوي الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها، ص ٤٠.
- (٨٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣٤، ص ٢٠٥.
- (٨١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣٤، ص ٢١١.
- (٨٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣٤، ص ٢١٤.
- (٨٣) ولد بنشاور من بلاد خراسان، وأقام في زاوية في جبل وفي صحته جماعة من الفقراء (الصوفية) وخرج من زاويته في يوم منفرداً بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف العادة، ولما سأله أصحابه، قال لهم: أنه وجد في الصحراء شيء من النبات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ، ومر بنبات له ورق فرأيت في تلك الحالة يمس بلطف ويتحرك من غير عنف كالتمل النشوان، فقطف منه أوراقاً وأكلها، وأخذ أصحابه لوقفهم على هذا النبات فلما شاهدوا هذا النبات عرفوا أنه القنب، وأمرهم الشيخ حيدر بأن يأكلوا منه، فأشاع فيهم الفرح والسرور، وأمرهم بزراعته بزاويته. وظل يتناول منه عشر سنين حتى توفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بعد أن أوصاهم بأن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره. المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٦.
- (٨٤) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٧.

- (٨٥) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨.
- (٨٦) عن زراعة الحشيش في البستان الكافوري، انظر ما يلي ص .
- (٨٧) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا شلبي إبراهيم، العامة في العصر الأيوبي، ص ١٥٠.
- (٨٨) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢٦.
- (٨٩) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢٦.
- (٩٠) لمزيد من التفاصيل عن شرب السلاطين الخمر، انظر إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، "الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية"، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس ١٩٨٨م، ص ١٥٤ وما يليها؛ عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك ورسومهم، ج ١، ص ١١٧.
- (٩١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٢، ص ٦٢؛ وانظر ترجمة المؤيد شيخ في ... العقود الفريدة في تراجم الأعيان المقيمة، تحقيق محمد الخليلي، بيروت ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٦.
- (٩٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ق ١، تحقيق سعيد عاشور، ص ٥٥٠-٥٥١.
- (٩٣) المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٧، ص ٧١، حاشية ٣.
- (٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متزهات القاهرة، ص ٤٢-٤٣؛ وانظر أيضًا : عبدالمنعم ماجد، نظم دولة المماليك، ج ١، ص ١١٧؛ إسماعيل عبدالمنعم، الأمراض الاجتماعية، ص ١٥٤، ١٦٦؛ وعن أرض الطبالة وبركة الرطلي والجسر انظر ما يلي هوامش ١٦٣، ١٦٤.
- (٩٥) التاج الشوبكي توفى (٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، انظر ترجمته عن ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، تحقيق محمد أمين، القاهرة ١٩٨٦م، ترجمة رقم ٧٥٢، ص ٥-٨؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج ٣، ص ٢٤-٢٥؛ المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٩٨٣-٩٨٤.
- (٩٦) نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، ج ٣، ص ٣٥٧-٣٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٥-٦، ٨.
- (٩٧) توفى عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، انظر ترجمته المطولة عند ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٧٨-٣٨٠. وعن تأثير الحشيش عليه، انظر : المقرئزي، المقفى الكبير، ج ١، ص ٧٤٣-٧٤٥، ترجمة رقم ٦٨٥؛ ابن تغري بردي، المنهل، ج ١، ص ١٤٣؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٣-٤٠٤.
- (٩٨) ابن تغري بردي، النجوم، ج ٧، ص ٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٧، ص ٣١٩؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٤.

- (٩٩) ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص٣٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.
- (١٠٠) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٩.
- (١٠١) ابن حجر، الدرر، ج١، ص٨٥، ترجمة رقم ٢١٩.
- (١٠٢) المقرئزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٥١٤.
- (١٠٣) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٠.
- (١٠٤) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٥٩١.
- (١٠٥) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، لبنان ١٤١٥هـ، ص١٤٦.
- (١٠٦) ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص٣٤٧.
- (١٠٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص٣٨٠.
- (١٠٨) المقرئري، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٧؛ وانظر أيضًا : مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة بين عرائس متزهات القاهرة، ص٤٠.
- (١٠٩) انظر ترجمة إبراهيم بن علي المعمار في ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص١٧٤؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص١٨٥-١٨٩.
- (١١٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م، ص٢٥، ٢٦.
- (١١١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣٢٠؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، ص٦٣؛ ياسين الأيوبي، آفاق الشعر، ص٣٤٧؛ وانظر ما سبق.
- (١١٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٩٢م، ص١٨٣.
- (١١٣) انظر ترجمته في الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦م، ص٦٨٦-٦٨٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٩٩.
- (١١٤) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٦٨٧.
- (١١٥) انظر ترجمته في الكتي، فوات الوفيات والذيل عليها، م٣، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٧١-٢٧٥، ترجمة رقم ٤٢٢.
- (١١٦) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.

- (١١٧) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.
- (١١٨) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.
- (١١٩) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص٦٣-٦٤.
- (١٢٠) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤.
- (١٢١) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، م٣، ص٢٧٤-٢٧٥.
- (١٢٢) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص٢٧٢، ترجمة ٦٥٨؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبة، تاريخه، م٢، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، ص٥٦٦.
- (١٢٣) انظر ترجمته في الخبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٧-٣٠٨.
- (١٢٤) يقصد بولاق.
- (١٢٥) نزهة النفوس، ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٨٦-١٨٧.
- (١٢٦) نزهة النفوس، ص٣٠١.
- (١٢٧) نزهة النفوس، ص٣٠٢.
- (١٢٨) المقرئزي، المواعظ، ج٢، ص١٢٨.
- (١٢٩) ابن تيمية، مجموع فتاوى، ج٣٤، ص٢١٠؛ وانظر أيضًا : سعيد عاشور، المجتمع المصري في العصر المملوكي، ص٢٥٢.
- (١٣٠) إبراهيم الدسوقي، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، ص٣٠.
- (١٣١) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٨.
- (١٣٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٢٦.
- (١٣٣) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٥٣.
- (١٣٤) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٠٧.
- (١٣٥) الخبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥.
- (١٣٦) أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٠٠.
- (١٣٧) معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٥.
- (١٣٨) النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٩-٣٠.

(١٣٩) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢٥-٢٦؛ وانظر أيضًا : أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٦٢.

(١٤٠) معيد النعم ومبيد النقم، ص ١٢٥.

(١٤١) توفى في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م. لمزيد من التفاصيل انظر المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٦؛ وانظر ما سبق هامش ٨٣.

(١٤٢) ابن كثير، البداية والنهاية، م ٧، ص ١٧٩؛ آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٥٣.

(١٤٣) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت بدون تاريخ، ص ٣٠؛ وانظر أيضًا الجوبري، كشف الأسرار، ص ٣٠؛ طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، ترجمة حسن حبشي، ص ٦١. الدوالق مفردا دلق وهو رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة.

(١٤٤) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج ١، أسكندرية بدون تاريخ، ص ٨١.

(١٤٥) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٣٢-٤٣٣.

(١٤٦) عن إشراف المتصوفة في أكل الحشيش. انظر: الجوبري، كشف الأسرار، ص ٢٩؛ محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج ١، ص ٨١.

(١٤٧) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص ٥٢.

(١٤٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٣٠.

(١٤٩) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٢، ترجمة ١٥٧٩، ص ١٣٥-١٣٦.

(١٥٠) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٤٣٣؛ وانظر أيضًا : محمد المرسى حسن، "الزوايا في العصر المملوكي بالقاهرة"، رسالة ماجستير غير منشورة، آثار القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٨؛ آدم صبره، الفقر والإحسان، ص ٥٣. وتحمل الإشارة إلى أن الشيخ حسن الجوالقي توفى في عام ٧٢٢هـ.

(١٥١) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٣٣.

(١٥٢) البداية والنهاية، م ٧ ص ٧٠٩؛ وانظر أيضًا : ابن قاضي شهبه، تاريخه، م ٣، ص ١٦٣.

(١٥٣) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٤٩.

(١٥٤) آدم صبره، الفقر والإحسان، ص ٥٣.

(١٥٥) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.

(١٥٦) انظر ديوان تزهة النفوس ومضحك العيوس، ص ٢٠٥-٢١٠؛ وانظر أيضًا : ص ٢١٣-٢١٧، ص ٣٦٦ وغيرها.

(١٥٧) مجهول المؤلف، المفاخرات الباهرة، ص ٤٣-٤٤.

(١٥٨) تكريم المعيشة، ورقة ٣٢.

(١٥٩) علي السيد، الجواري في مجتمع مصر المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٤٨؛ سامية مصيلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧"، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، مارس ٢٠٠٥م، ص ١١٩.

(١٦٠) الجامع لمفردات الأدوية، ج ٣، ص ٣٩.

(١٦١) ابن حجر العسقلاني، إنباء القمر بأبناء العمر، ج ٨، ص ١٣٩، ١٤٩؛ سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص ١٩٦؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ج ١، ص ١١٧؛ Rosenthal, The Herb, p. 132.

(١٦٢) البستان الكافوري أنشأه محمد بن طغج الأخشيد (٣٢١-٣٣٤هـ م) ولما قدم جوهر الصقلي إلى مصر في عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، جعل هذا البستان داخل القاهرة، وعرف في الدولة الفاطمية بالبستان الكافوري. انظر ابن عبد الظاهر، الروضة البهية في القاهرة المعزية، ص ٦٢-٦٣؛ المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ٢٥.

(١٦٣) تنسب أرض الطبالة إلى نسب طبالة الخليفة المستنصر الفاطمي، وكان الخليفة قد منحها الأرض المجاورة للمقس، فعرفت بها، وذلك منذ عام ٤٥٠هـ/١٠٥٩م، وظلت تعرف بها حتى العصر المملوكي. لمزيد من التفاصيل انظر : المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٥-١٢٦.

(١٦٤) كان الجسر يقع بأرض الطبالة وكان يفصل بين بركة الرطلي وبين الخليج الناصري أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب في سنة ٧٢٥هـ عندما انتهى من حفر الخليج الناصري، وأذن للناس في البناء عليه فحكر وبنيت فوقه الدور، فصارت تشرف على بركة الرطلي وعلى الخليج. انظر: المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٦٢، ١٦٥-١٦٦. أما عن بركة الرطلي فهي جملة أرض الطبالة، وعرفت أيضًا ببركة الطوابين من أجل إنه كان يعمل فيها الطوب، وكان في شرقيها زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأبطال الحديد التي تزن بها الباعة، فسموها بركة الرطلي نسبة لصانع الأبطال. لمزيد من التفاصيل انظر : المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٦٢.

(١٦٥) المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ٢٥، ١٢٥-١٢٦، ١٢٨.

(١٦٦) الروضة البهية، ص ٦٣.

(١٦٧) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ٦٣؛ المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ٢٥.

- (١٦٨) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢٥.
- (١٦٩) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ٢٦.
- (١٧٠) الروضة البهية، ص ٦٢؛ وانظر أيضًا : القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٤٨. Rosenthal, The Herb, p. 135.
- (١٧١) المواعظ، ج ٢، ص ١٢٦.
- (١٧٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ص ٦١.
- (١٧٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٦١.
- (١٧٤) ديوان نزهة النفوس، ص ٢١٥-٢١٦.
- (١٧٥) عن الدرهم انظر ما يلي هامش ٢٠٦.
- (١٧٦) ديوان نزهة النفوس ومضحك العيوس، ص ٢١١-٢١٣.
- (١٧٧) المواعظ، ج ٢، ص ١٢٦.
- (١٧٨) سودون الشيوخوني عنه انظر ما يلي هامش ٢٤٩.
- (١٧٩) المقرئزي، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨.
- (١٨٠) انظر ترجمته عند ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ص ٢٠٠-٢٠١. وتجدد الإشارة إلى أنه من قضاة المائة الثامنة.
- (١٨١) ابن حجر، رفع الأصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٠١.
- (١٨٢) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.
- (١٨٣) ديوان نزهة النفوس، ص ٢٨٦.
- (١٨٤) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص ٣٧-٣٨.
- (١٨٥) مجهول، المفاخرات الباهرة، ص ٤٥.
- (١٨٦) بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٥٦.
- (١٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٥٦.
- (١٨٨) ابن ظهير، الفصائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٢١١.
- (١٨٩) ديوان نزهة النفوس ومضحك العيوس، ص ٣٧٣.
- (١٩٠) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٥٦-٥٧.

- (١٩١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٥٨.
- (١٩٢) ابن شاطر الكتي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٧٤.
- (١٩٣) Rosenthal, The Herb, pp. 66,67-68.
- (١٩٤) مجهول، المفاخرات الباهرة بين عرائس متزهات القاهرة، ص ٣٩-٤٠.
- (١٩٥) ابن شاطر الكتي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٧٣.
- (١٩٦) عن المشاعلية انظر بجوى كيره : " المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي "، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، القاهرة ٢٠٠٧م، ص ٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.
- (١٩٧) خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، ص ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٩؛ وانظر أيضاً : عبادة كحيلية، الرط، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٠٤؛ نجوى كيره، المشاعلية، ص ٨٧، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢.
- (١٩٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ج ٥، بيروت ١٩٩٨م، ص ٦٦١.
- (١٩٩) الزركشي، زهر العريس في تحريم الحشيش، مخطوط ورقة ١٧، والمنشور؛ انظر Rosenthal, The Herb, pp. 195-196؛ الأقفهي، إكرام من يعيش، ص ٦٦، ٦٧.
- (٢٠٠) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٧.
- (٢٠١) انظر ترجمته عند ابن قاضي شهه، تاريخه، م ٤، ص ٢٠٥-٢٥١؛ ابن حجر، رفع الأصر عن قضاة مصر، ص ٤٧٧؛ إنباء الغمر، ج ٤، ص ٣٧٦-٣٥٠؛ السخاوي، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ج ٥، ص ٢٠٥، الحبلي، شذرات الذهب، بيروت بدون تاريخ، ج ٧، ص ٤٠-٤١.
- (٢٠٢) رفع الأصر عن قضاة مصر، ص ٤٧٧ (ترجمة ٢٥٩)؛ انظر : الحبلي، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٤٠.
- (٢٠٣) رفع الأصر، ص ٤٧٧.
- (٢٠٤) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ق ٣، ص ٥٩١.
- (٢٠٥) محمد السيد الأرنؤوط، المحدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م، ص ١٢٣، ١٢٤.
- (٢٠٦) وزن الدرهم يساوي ١٢٥، ٣ جرام. انظر: فالترهتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان ١٩٧٠م، ص ٤٧؛ Rosenthal, The Herb, p. 73. note 2.

(٢٠٧) انظر ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، ص ٣٩؛ أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٢٣.

(٢٠٨) تكريم المعيشة، ورقة ٢٥.

(٢٠٩) انظر ما سبق، ص .

(٢١٠) إتمام التكريم، ورقة ٦١.

(٢١١) إتمام التكريم، ورقة ٨٦.

(٢١٢) إتمام التكريم، ورقة ٨٤، ٨٥.

(٢١٣) تكريم المعيشة، ورقة ٣٣.

(٢١٤) تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٥) أبو بكر القسطلاني، تكريم المعيشة، ورقة ٤٢.

(٢١٦) نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ص ٣٦. أما المزر فشراب يصنع من الذرة، في حين أن البتع هو من نبيذ العسل وكان يصنع في اليمن، انظر : مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ١٩٧، ٢١٥.

(٢١٧) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، ص ٦٠، ٦١.

(٢١٨) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج ٣٤، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢١٠، ٢١٣.

(٢٢٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ٢٠٥، ٢١٤.

(٢٢١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ٣٤، ص ١٩٧، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤؛ وانظر أيضاً . ابن حجر العسقلاني، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص ٢٨٠.

(٢٢٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٣٤، ص ٢١١، ٢١٢. قال علي رضي الله عنه : حَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر أربعين وأبو بكر أربعين وكملها عمر ثمانين. ومن ثم فقد جعل ابن تيمية الجلد بين ثمانين حلدة وأربعين حلدة عملاً بهذا الحديث. انظر ابن حجر، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص ٢٧٩.

(٢٢٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج ٥، ص ٦٦٢.

(٢٢٤) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج ٥، ص ٤٢، ٦٦٤.

- (٢٢٥) المفسد هو المشوش للعقل مع عدم السرور في الغالب كالبنج، انظر القرائي، كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، ج ١، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، ص ٣٦٤.
- (٢٢٦) التعزير لغة الرد والمنع وشرعاً : تأديب على ذنب لا حد فيه، من ثم فهو تأديب دون الحد وليس فيه شيء مقدر إنما هو متروك لرأي الإمام أو الحاكم حسب المصلحة، وحده الأدنى النصيحة ويتدرج إلى الضرب والإعدام. انظر ابن حجر، بلوغ المرام في أدلة الأحكام، ص ٢٨١، هامش ٢ ، ٣.
- (٢٢٧) الفروق، ج ١، ص ٣٦٤.
- (٢٢٨) انظر الزركشي، زهر العريش، المنشور p. 189 ؛ الأقفهي، إكرام من يعيش، ص ٦١.
- (٢٢٩) انظر : الزركشي، زهر العريش، المنشور P. 187.
- (٢٣٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٢، ص ١٥٣-١٥٤.
- (٢٣١) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ٨، ص ١٣٩؛ وانظر أيضاً : سهام أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، ص ١١٤؛ عبد المنعم ماجد، نظم سلاطين الماليك ورسومهم، ج ١، ص ١١٧.
- (٢٣٢) الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٧٤.
- (٢٣٣) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٤؛ سامية مصيلحي، البغاء في مصر، ص ١١٤.
- (٢٣٤) السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٠.
- (٢٣٥) المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٠٦؛ وانظر أيضاً : ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٧٤؛ ابن إياس، ج ١، ق ١، ص ٣٢٦.
- (٢٣٦) بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٢٦.
- (٢٣٧) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٣-٥٥٤؛ المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٠٦؛ بيسر المنصوري، التحفة الملوكة في تاريخ الدولة التركية، نشر عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة ١٩٨٧م، ص ٥٦.
- (٢٣٨) ابن دانيال، خيال الظل، تحقيق إبراهيم حمادة، ص ١٥٠؛ وانظر أيضاً : ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٢٦-٣٢٧.
- (٢٣٩) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.
- (٢٤٠) ابن دانيال، خيال الظل، ص ١٥٢؛ وانظر أيضاً : ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٣٢٧.
- (٢٤١) نقلاً عن ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٣٥؛ أحمد صادق الجمال، الأدب العامي، ص ٢٠٦.

- (٢٤٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢.
- (٢٤٣) تولى في عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ٣، ص ٣٢٨-٣٢٩، ترجمة رقم ٣٢٤٠؛ المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٤٨-١٥٠؛ Rosenthal, The Herb, p..
- (٢٤٤) المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٤٩؛ السلوك، ج ٢، ص ٢٥٦، ج ٢ ق ٢، ص ٣٢٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٢٣؛ سهام أبو زيد، الحسبة، ص ١٩٤.
- (٢٤٥) انظر ترجمته في ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج ١، ص ٤٣٩-٤٤٠.
- (٢٤٦) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٦٧؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، مصر ١٢٩٩هـ، ص ٢١٣-٢١٤؛ ليلي عبدالجواد، "نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك الحرة"، بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد الأول ١٩٨٨م، ص ١٩٢؛ محمد عبدالغني الأشقر، نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٩٧.
- (٢٤٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٣٢.
- (٢٤٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤، ص ٧٧.
- (٢٤٩) انظر ترجمة الأمير سودون الشينخوني عند ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٦، تحقيق محمد محمد أمين، ترجمة رقم ١١٢٨، ص ١٠٤-١٠٩؛ النجوم، ج ١٢، ص ١٥١-١٥٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج ٣، ص ٣٠٣-٣٠٤؛ المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٨٦٥.
- (٢٥٠) المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٨.
- (٢٥١) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٩، م ٢، ص ٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٧١.
- (٢٥٢) المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٢٨-١٢٩.
- (٢٥٣) المواعظ، ج ٢، ص ١٢٩.
- (٢٥٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج ٧، ص ٣٤٧-٣٤٨؛ المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٨٦؛ حامد زيان، الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٨٢.
- (٢٥٥) إنباء الغمر، ج ٨، ص ١٣٩.
- (٢٥٦) إنباء الغمر، ج ٨، ص ١٣٩، ١٤٩.
- (٢٥٧) بدائع الزهور، ج ٢، ص ١١٩.

(٢٥٨) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص١٤٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٢؛ محاسن الوقاد، "الحجاجة زمن سلاطين المماليك"، بحث منشور في كتاب مصر في العصر المملوكي، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٦.

(٢٥٩) تولى ولاية القاهرة بعد وفاة أخيه تاج الدين الشوبكي، وذلك في ربيع الأول ٨٣٩هـ / أكتوبر ١٤٣٥م. انظر المقرئزي، السلوك، ج٤، ق٢، ص٩٥٩، ٩٩٣؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٣٣٢.

(٢٦٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٦٣.

(٢٦١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ح٤، ص٧٦-٧٧؛ وانظر أيضًا : محاسن الوقاد، الحجاجة، ص٢٣٦، ٢٣٨-٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم، النيل، ص٧١؛ حامد زيان غانم، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠. أما عن الوالي علان من قراجا فقد تولى ولاية القاهرة في جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ. انظر : ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢١.

(٢٦٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٣، حامد زيان، الأزمات الاقتصادية، ص١٢٠-١٢١؛ لطفي نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٣.

(٢٦٣) بدائع الزهور، ج٥، ص١٢٨.

(٢٦٤) معيد النعم ومبيد النقم، ص٤٣.

(٢٦٥) التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٠.

(٢٦٦) التشهير والتجريس الأولى من شهر والثانية من جرس، ومعناها اللغوي التنديد والتسميع وإذاعة ما يشين الذنب، وهو بغرض الإيلام النفسي للمذنب، فهو من ناحية ردع للمذنب وعبرة وعظة لغيره ممن تسول لهم أنفسهم الإقدام على فعله من ناحية أخرى. انظر : علاء طه، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٦٢، هامش ١.

(٢٦٧) طه، عامة القاهرة، ص١٣٦-١٣٧.

(٢٦٨) osenthal, The Herb, pp. 136-137.

(٢٦٩) مام العلامة قطب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ الإمام ابن العباس أحمد بن علي البوري المصري ثم المالكي الشافعي المعروف بالقسطلاني، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، ولد سنة ٦١٤هـ، أقام عمكة مدة طويلة، تم صار إلى مصر، وكان حسن الأخلاق محبًا إلى الناس، توفي آخر المحرم من سنة ٦٨٦هـ انظر : ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٣١٤.

(٢٧٠) هما مخطوط بدار الكتب المصرية فقه المذاهب الأربعة ٤٦، رقم الميكروفيلم ٤٦٦٤٢

(٢٧١) بدار الكتب المصرية فقه تيمور ٧٢٥، ميكروفيلم رقم ١٢٤٩٤. وقد قام فرانز روسنتال Franz Rosenthal بشر مخطوطة ثالثة منه في كتابه .

The Herb. Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971 .

Pp176-197 .

((٢٧٢) المحرم من سنة ٨٠٨ هـ وهو أحد أئمة الفقهاء الشافعية في ذلك العصر، كما يذكر ابن حجر. وصف التصانيف المفيدة، وله أحكام المساجد وأحكام الكاح وحوادث المحرة وغير ذلك ابن حجر، إساء العمر، ج ٥، ص ٣١٣-٣١٥، وانظر . مقدمة التحقيق لمخطوط إكرام من يعيش، ص ٤-٦ .

(٢٧٣) معرفة دار الصحابة للتراث بططا، ١٩٩١ م.

(٢٧٤) بر، البداية والنهاية، م ٧، ص ٤٠٧ .

(٢٧٥) كثير، البداية والنهاية، م ٧، ج ١٤، ص ٧٠٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، م ٣، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤ م، ص ١٦٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطات :

- أبو بكر القسطلاني (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م) :
- تكريم المعيشة في تحريم الحشيشة، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب الأربعة ٤٦ ميكروفيلم رقم ٤٦٦٤٢.
- إتمام التكریم لما في الحشيش من التحريم، مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه المذاهب ٤٦، ميكروفيلم ٤٦٦٤٢.
- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) :
- زهر العريش في الكلام على الحشيش، مجاميع ٦٤٣ ميكروفيلم ٤٩٧٨.
- زهر العريش في تحريم الحشيش، فقه تيمور ٧٢٥ ميكروفيلم ١٢٤٩٤.

ثانياً : المصادر العربية والمعرّبة :

- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، تحقيق محمد مصطفى، فيسبادن ١٩٧٥م.
- ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتي ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دائرة معارف الشعب، بدون تاريخ.

- ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) :

- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج ٣، بولاق ١٨٧٤م.

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء ٤ ، ٧ ، طبعة دار الكتب، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن تيمية (تقي الدين أحمد ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) :
- الحسبة في الإسلام، نشر قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، نشرها قصي محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، مجلد ٣٤ ، ٣٥ ، الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية، ١٤٠٣هـ.
- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) :
- رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ١٩٩٨م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.
- بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ضبط وتصحيح السيد محمد أمين وعبد الوهاب عبداللطيف، دار الفتح، بدون تاريخ.
- ابن دانيال (شمس الدين بن دانيال الموصلية ت ٧١١هـ / ١٣١١م) :
- خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال، دراسة وتحقيق إبراهيم حمادة، القاهرة ١٩٦١م.
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدير العلائي ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) :
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال عز الدين، جزءان في مجلد واحد، بيروت ١٩٨٥م.
- ابن سودون البشغاوي (ت ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م) :

- ديوان نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، القاهرة ٢٠٠٣ م.
- ابن شاکر الکتبی (محمد بن شاکر ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢ م) :
- فوات الوفيات والذیل علیها، ٤ مجلدات، تحقیق إحسان عباس، بیروت ١٩٧٢-١٩٧٤ م.
- ابن ظهيرة (أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن علي ٨٢٥-٨٩١هـ) :
- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقیق مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩ م.
- ابن عبدالظاهر (محي الدين بن عبدالظاهر المصري ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣ م) :
- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقیق أيمن فؤاد سيد، بیروت ١٩٩٦ م.
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤ م) :
- تاريخ ابن الفرات، م ٩، ج ٢، تحقیق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بیروت ١٩٨٣ م.
- ابن قاضي شهبة (تقي الدين أبي بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨ م) :
- تاريخ ابن قاضي شهبة، المجلد الثاني، تحقیق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤ م، المجلد الرابع، تحقیق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٧ م.
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبدالله محمد الزرعي الدمشقي ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠ م) :
- زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقیق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرئؤوط، الجزء الخامس، بیروت ١٩٩٨ م.
- ابن كثير (عماد الدين أبي الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م) :

- البداية والنهاية، المجلد السابع (ج ١٣، ١٤) تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، القاهرة ١٩٩٢م.
- ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر) (منتصف القرن ٩هـ/١٥م) :
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة بدون تاريخ.
- ابن الوزان الزياني (المعروف بالحسن الوزان وبليون الأفريقي ت ٩٥٧هـ/١٥٥٠م) :
- وصف أفريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، القاهرة ٢٠٠٥م.
- الأقفهسي (أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) :
- إكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، تحقيق دار الصحابة للتراث، بطنطا ١٩٩١م.
- الجوبري (عبدالرحيم بن عمر الدمشقي) :
- المختار في كشف الأسرار.
- الحنبلي (أبو الفلاج عبدالحلي بن العماد ت ١٠٨٩هـ) :
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الأجزاء من ٥-٧، بيروت، بدون تاريخ.
- السبكي (تاج الدين عبدالوهاب ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) :
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة ١٩٤٨م.
- السنخاوي (محمد بن عبدالرحمن محمد بن عثمان ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) :
- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ١٢ جزء، بيروت، بدون تاريخ.
- الصيرفي (علي بن داود الخطيب الجوهري ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) :

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٤م.

• طافور :

- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.

• العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد ٧٠٠-٧٤٩هـ / ١٣٠٠-١٣٤٩م) :

- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨م.

• القرافي (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) :

- كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، دراسة وتحقيق محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد، المجلد الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

• القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٢، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، بدون تاريخ.

• الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف المصري) :

- كتاب الولاية وكتاب القضاة، صححه رفن كست، بيروت ١٩٠٨م.

• مجهول المؤلف :

- المفاخرات الباهرة بين عرائس مآثرها القاهرة، دراسة وتحقيق محمد الششتاوي، القاهرة ١٩٩٩م.

• المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، جزءان، عن طبعة بولاق، بدون تاريخ.

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء ١ ، ٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م؛ والأجزاء ٣-٤ تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- كتاب المقفي الكبير، ج ١، ٧ ، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بدون تاريخ.

ثالثاً : المراجع العربية والمعرية :

- إبراهيم الدسوقي جاد الرب، ابن مكناس والشعر في عصر المماليك، القاهرة ١٩٩٠م.
- أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٦٦م.
- أحمد صبحي منصور، العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، سلسلة تاريخ المصريين ١٨٦، القاهرة ٢٠٠٠م.
- أحمد عبدالرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢م.
- أحمد عبداللطيف، " الأمراض الاجتماعية في مصر الإسلامية في عصر الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م) " بحث منشور في مجلة كلية الآداب — قنا، العدد الثامن ١٩٩٨م، ص ١٠٣-١٤٢.
- آدم صبره، الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ٢٠٠٣م.
- إسماعيل عبدالمنعم محمد قاسم، " الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية المملوكية في مصر زمن المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م "، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس ١٩٨٨م.

- سامية علي مصلحي، " البغاء في مصر في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م"، بحث منشور في حوليات آداب عين شمس، مجلد ٣٣، سنة ٢٠٠٥م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م.
- سهام أبوزيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربية إلى نهاية العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م.
- شلبي إبراهيم الجعيد، طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي، ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧٠-١٢٥٠م، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ٢٠٠٣م.
- عبادة كحيلة، الزط والأصول الأولى لتاريخ الفجر، القاهرة ١٩٩٤م.
- عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٩م.
- عزت حسين، موسوعة المسكرات والمخدرات الجديدة، القاهرة ١٩٩٠م.
- علي السيد محمود، الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٨٨م.
- علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٢م؛ عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ٢٠٠٣م.
- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨م.
- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، إسكندرية ١٩٩٠م.
- الأدب في العصر المملوكي، ٣ أجزاء، الإسكندرية بدون تاريخ.

- محمد السيد أرنأؤوط، المخدرات والمسكرات بين الطب والقرآن والسنة، القاهرة ١٩٩٠م.
- ممدوح عبدالرحمن عبدالرحيم، المساوى الاجتماعية في مصر الفاطمية ومقاومة الخلفاء الفاطميين لها (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م).
- لطفي أحمد نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة ١٩٩٦م.
- نجوى كمال كير، " المشاعلية وأثرهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي "، بحث منشور في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، ص ٨٥-١٢٥، القاهرة ٢٠٠٧م.

رابعًا : المرجع الأجنبية :

- Franz Rosenthal, The Herb Hashish versus Medieval Muslim Society, Leiden 1971

وملحق به تحقيق لمخطوطة الزركشي، زهر العريش.

دكتور بشير زين العابدين *

تحقيق مخطوط : « تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا »

(١٠٧١-١٠٧٧ هـ / ١٦٦١ - ١٦٦٥ م)

لم تكد تهدأ الأوضاع فى مصر عقب أحداث فتنة قتل الفقارية التى اشتهرت باسم : « واقعة الصناجق » سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م ، حتى برزت فتنة أخرى ، اصطلح المؤرخون المحليون على تسميتها : « واقعة الضرب » والتى وقعت أحداثها سنة ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٥ م ، وكانت السمة الغالبة للفترة الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب هى التوتر السياسى وتدهور الأوضاع الأمنية بسبب هيمنة قادة الفرق العسكرية على النظام الإدارى والمالى ، وإغراقهم البلاد فى حالة من الفوضى نتيجة الصراع الدائم بينهم على السلطة والنفوذ . وفى خضم هذه الأحداث تصدى عدد من مؤرخى مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى لتدوين هذه الأحداث وتوثيقها ، لتظهر ملامح مدرسة تاريخية متكاملة خلال تلك الفترة ، من أبرز مصنفىها : إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى^(١) ، وعلى أبو الحسن وفا ، ومحمد بن محمود^(٢) ، وعلى بن رضوان^(٣) ، حيث شكلت هذه المجموعة جيلاً من المؤرخين يقع فى مرحلة وسطى ؛ ما بين مؤرخى النصف الأول من القرن السابع عشر وعلى رأسهم : الإسحاقى ومرعى بن يوسف والغمرى وابن أبى السرور^(٤) ، ومجموعة مؤرخى القرن الثامن عشر ومن أبرزهم : الملوانى وأحمد شلبى والشاذلى والدمرداش^(٥) .

وفى عمله التاريخى الفريد يعمد على وفا إلى تفصيل أحداث الفترة الممتدة ما بين ١٠٧١ و ١٠٧٧ هـ / ١٦٦١-١٦٦٥ م . وذلك من خلال تقديم وجهة نظر السلطة الدينية فى مصر ، ونظرتها لتطور الأحداث السياسية فى مصر العثمانية خلال تلك الفترة ، حيث يعكس المؤرخ .

مكانة رجال الدين فى الحياة السياسية، فقد كان الجامع الأزهر والجامع المؤيد وجامع الداودية والمحمودية وغيرها من مساجد القاهرة محور الأحداث السياسية، بل إن كثيراً من الضباط المتمردين كانوا يلجأون إلى الجامع الأزهر طلباً للآمن، وكان رجال السلطة يتهيبون من انتهاك حرمة السلطة الدينية. كما يعكس المصنف فى تاريخه أهمية الدور الذى لعبه كبار رجال الدين المتمثلين فى قاضى القضاة وعلماء الأزهر والأشراف والسادة البكرية والوفائية، كحضورهم الديوان وإصدارهم الفتاوى الحاسمة للخلافات السياسية وقيامهم بدور الوساطة بين ضباط الأوجاقات المتصارعين. ويحرص أبو الحسن وفا كذلك على ذكر جملة من القصائد التى صنفها بعض المحسوبين على السلطة الدينية فى التعليق على الأحداث مما يوفر مادة خصبة حول طبيعة العلاقة بين السلطة الدينية والسياسية فى مصر إبان العصر العثمانى.

ويشكل مخطوط على أبو الحسن وفا أهمية كبيرة لاستكمال الجهود الهادفة إلى توثيق تاريخ مصر خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر، حيث يبذل المصنف جهداً كبيراً فى تدوين أحداث السنوات الممتدة ما بين واقعة الصناجق وواقعة الضرب، وتقع النسخة الوحيدة من هذا المخطوط فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٢٦٩ تاريخ) وهى ضمن مخطوطين آخرين فى مجموعة واحدة تقع فى ٢٤٦ ورقة (٤٩٢ صفحة، حجم الصفحة ١٧ سم × ١٢ سم) (٦)، تحتوى الصفحة الواحدة على حوالى ١٧ سطراً.

وقد أثار هذا المخطوط اهتمام المؤرخ الكبير عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم الذى كتب عنه فى عدة مواضع، وذهب إلى أن مصنف تراجم الصواعق - إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى - قد ألحق بمؤلفه بعد الباب الثانى تواريخ أخرى هى :

١- تاريخ سيدى على أبو الحسن وفا .

٢- تاريخ وقعة الضرب فى شهر صفر ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م.

٣- تاريخ الشيخ محمود (ابن محمود) عن أحداث سنة ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩ - إبريل ١٦٧٠م.

٤- تسجيل الصوالحى الخاص لأحداث التاريخ المصرى حتى توقفه عن التدوين سنة ١١١٣هـ / ١٧٠١م.

معلقاً على ذلك بقوله :

« كما أننا نستطيع أن نؤكد أنه [أى الصوالحى] قد عاش النصف الثانى من القرن السابع

عشر ومطلع القرن الثامن عشر حيث إنه لم يتوقف عن الكتابة إلا فى عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م^(٧).

ولكن القراءة المتأنية للمخطوط تدفعنا للاختلاف مع د. عبد الرحيم فى نسبة العمل الأخير إلى الصوالحى ، والتأكد على أن المخطوط يتضمن ثلاثة فقط، وهى على النحو التالى :

١- تاريخ ربراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى فى واقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، (يقع فى ٥٤ ورقة) .

٢- تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا ، ابتداء من جماد الثانى سنة ١٠٧١هـ / فبراير ١٦٦١م ، حتى سنة ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م، (يقع فى ١٩ ورقة) .

٣- تاريخ محمد بن محمود ابتداء من وقعة الضرب فى شهر صفر سنة ١٠٧٦هـ / أغسطس ١٦٦٥م، وحتى شهر ربيع الأول سنة ١١١٣هـ / أغسطس ١٧٠١م، (يقع فى ١٧٤ ورقة) ^(٨).

وقد أغفلت كتب التاريخ المعاصرة ومعاجم المؤلفين وكتب التراجم الإشارة إلى : «على أبو الحسن وفا» ضمن مؤرخى مصر خلال القرن السابع عشر الميلادى . وحيث إن المصنف لم يترجم لنفسه فإن الطريقة الوحيدة لتقصى بعض المعلومات عنه هى الرجوع إلى كتابه ومحاولة التعرف عليه من خلال الاستئناس بالقرائن المتوفرة فى ثنايا المخطوط ، ويمكن من خلالها الاستنتاج بأن المؤلف كان معاصراً للأحداث التى وقعت فى مصر خلال الفترة التى يغطيها فى تاريخه ، وذلك من خلال استخدامه لكلمة : «حالا» للإشارة إلى أن الشخص المشار إليه لا يزال على رأس منصبه ، كما يترك المصنف انطباعاً لدى القارئ بأنه كان على صلة وثيقة بعلماء الأزهر حيث ينفرد بذكر مادة مهمة عن دور العلماء فى الأحداث السياسية التى وقعت فى القاهرة آنذاك ، ويورد العديد من الأبيات الشعرية لعلماء مصر فى التعليق على الأحداث السياسية ومحاولتهم التأريخ للأحداث باستخدام الحروف الأبجدية .

وفى الوقت الذى لا يذكر فيه المصنف أى سبب واضح لكتابة تاريخه ، إلا أنه من الواضح أن على وفا قد كرس شهادته التاريخية للحديث عن الأوضاع السياسية والإدارية فى القاهرة خلال الفترة : ١٠٧١-١٠٧٧هـ / ١٦٦١-١٦٦٥م، حيث يتسم عمله بصيغة محلية تجعل من قلعة الجبل مركزاً للأحداث التى وقعت فى القاهرة ، دون الاهتمام بأحوال الأقاليم أو بذل

أى جهد لترجمة الشخصيات السياسية أو الدينية التى يرد ذكرها ، بل يولى جل اهتمامه لتدوين الأحداث السياسية فيرصد حركة تعيين الصناجق وعزلهم فى المناصب الإدارية ، وخاصة مناصب القائمقامية والدفترادرية وإمارة الحاج وسردارية السفرات السلطانية والتجريدات المحلية التى كانت توجه إلى الأقاليم، وقد هيمنت خلافات الفرق العسكرية على غالب مادة المخطوط ، حيث يكثر المصنف من سرد خلافات الفرق العسكرية التى كان تحل عن طريق خروج بعض الأنفار من بلد إلى آخر، أو الاتفاق مع الباشا على نفى مثيرى الشغب إلى مناطق نائية ، وقد يصل الأمر إلى التخلص منهم عن طريق قتلهم من قبل خصومهم.

وقد قام الباحث بمراجعة النص، وحيث إنه لايتوفر سوى نسخة واحدة منه، فقد قام بمقارنته مع المخطوطات المعاصرة له وبالأخص منها: إبراهيم بن أبى بكر الصوالحي؛ تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق . محمد بن محمود ؛ تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب . على بن رضوان ؛ زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة . يوسف الملوانى؛ تحفة الأحباب أحمد شلبى ؛ أوضح الإشارات. مع الإشارة إلى بعض الفروقات بين ما ورد فى المخطوط بالمقارنة مع المصادر الأخرى، كما تم إثبات المخطوط كما هو دون إجراء أى إضافة باستثناء إضافة الهمزات ووضع الفواصل والنقاط ليستقيم المعنى، وتركت سائر الأخطاء اللغوية والإملائية على حالها ، نظراً لما فى ذلك من أهمية لتكوين تصور واضح عن المستوى الثقافى والعلمى للمصنف ، مع الإشارة لتراجم بعض الشخصيات المهمة فى تلك الفترة ، والتعريف بأهم المناطق والأقاليم ، والمصطلحات الإدارية وغيرها من المعلومات التى تساعد على فهم النص وتكوين صورة واضحة حول ظروف العصر. وبالإضافة إلى ذلك فقد تم ضبط التواريخ الهجرية ومقارنتها بالميلادية فى الهامش لتمكين القارئ من تتبع الأحداث وفق أشهر السنة الشمسية.

النص كاملاً ومحققاً

تاريخ الأستاذ سيدى على أبو الحسن وفا حفظه الله تعالى (فى قتل الفقارية) ^(٩)؛ قد قدر الله على فتية تنغيص عيش كان فيهم هنى لما فتنوا بحبهم لمحنة تختم الكف على الألسن، فإنهم قد جاءنا تاريخهم ، فرحمة على المؤمنين .

تخمس آخر للشيخ محمد أبى السرور الهوى ^(١٠):

عيسونى والمدامع قرحتها وأحشاء عدا شرحتها
بأفعال لقتلى أسستها تجنبوا لى ذنوباً ما جنتها

يداي ولا أمرت ولا نهيت

ولا سوءاً أردت أسوأ مصراً ولا تمليكها أخذاً وقهراً

ولا خنت الإمام ومليت دهراً ولا والله ما أضمرت غدراً

كما قد أضمره ولا نويت

لمولى الأنام يخان عهداً وكم لى منه إحساناً ورفداً

ولكن للأعداى تم قصداً ويوم الحشر موقوفنا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

ويعلم شينهم جعلوه شينى وما نقلوه من عذرى ومينى

فكفنا مقلتى فبأى ذنبى سيحكم بينهم ربي وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

ولبعضهم تخميس آخر

ألا كم من خطوب قد جنتها فى الدنيا ومظلمة أتنها

ولما عاينوا الحسنى محتها تجنسون لى ذنباً ما جنتها

يداي ولا أمرت ولا نهيت

فصبراً يا أولى العزمات صبرا على حكم القضا نفعاً وضراً

فلم تترك لى الأعداء عذراً ولا والله ما أضمرت غدراً

كما قد أضمره ولا نويت

فكم ذنب لى الأعدا أعدوا وكم زور وبهتان أعدوا

فحسبى منهم قولاً يعد ويوم الحشر موعدا وتبدوا

صحيفة ما جنوه وما جنيت

فيا من رام بعد القرب بينى بما أبداه من كذب ومينى

عسى يوم الحساب تقر عينى ويحكم بينهم ربي وبينى

فويل للخصوم إذا التقيت

بمصر كـان وزيراً لنعم الله حـامداً
كم جاهد الجـور غـزواً بسيف عدل وساعداً
بشـر مات شـهيداً أرخت غازي مجاهداً^(١١)

أ- ولاية إبراهيم باشا^(١٢):

وفى أواخر جمادى الثانى سنة ١٠٧١ حضر قابوجى من الديار الرومية وصحبته أمرين وقرئت بالديوان^(١٣)، الأول مضمونه : بأن يدفع ديون الأمراء المقتولين على وجه الحق، والثانى : لا أحد يتصرف فى جامكيتته ولا يفرغ^(١٤) منها وإن مات وخلف أولاد لا يعطى لأولاده شيئاً وأكد فى الأمر الشريف غاية التأكيد ، فلما سمعت العسكر ذلك قالت : هذا ما هو قانون ، والعسكرى ما له غير جامكيتته عندما يتعين لسفر السلطان يبيع منها ما يحتاج لأجل ما تعينه على السفر، ومن مات منا وخلف أولاد لا يعطى لولده شيئاً منها، وكان حينئذ فى السفر كريد^(١٥) فطلبوا العسكر من مصطفى باشا بيورلدى^(١٦) فى الفراغات .

وفى مستهل رجب سنة تاريخه^(١٧)، تجمعت جميع الأمرا والأغوات والعسكر واتفقوا على كتابه محضر إلى مولانا السلطان محمد^(١٨) بأن الذى أمر به لم يحصل للخزينة ضرر وكنا قبل تاريخه نضبط الخزينة^(١٩) والآن حضر خط شريف^(٢٠) بأن ولاية مصر أوليتها لوكيلى ، فامتعنا من الضبط وإن الباشات الذى يتولوا مصرهم الذى يتعللوا بذلك ، فبلغ مصطفى باشا فنزل بيورلدى إلى الأمرا والعسكر أنكم تكتبوا المحضر ونحن نرسله صحبة طائفة من عندى وطائفة من عندكم فاتفق رأيهم وكتبوا عرض وعينوا أحمد بيك بقناطر السباع وطاش يطر على آغا الطواشى ومن كل بلك نفر واحد وتوجهوا فى تاسع شهر رجب سنة تاريخه، فلما وصل أحمد بيك أرسل لجميع الأمرا مكاتيب يخبرهم [...]^(٢١) وقرئت الأمور التى جاء بها إبراهيم باشا مضمونها : أن تخرجوا أولاد العرب من جميع البلكات^(٢٢)، ويرفع المرتبات واسم أولاد وعيال بمكة المكرمة والمدينة المنورة فوافقت الأمرا والعسكر وكتبت حجة^(٢٣) بالديوان ثم تسلسل الأمر ، وكان إبراهيم باشا حاكماً كاتباً قد ضبط الأموال الديوانية وأخذ دفاتر العنبر الشريف واطلع على الغلال السلطانية وأخذ الجراية والعليق للعساكر وغيرهم وكذلك الجوامك^(٢٤) عند حلولها فارتفعت من جوامك النساء الثلث وذلك فى غرة شهر ذى القعدة سنة ١٠٧١^(٢٥).

وفى أواخر ذى الحجة سنة تاريخه حضر خاسكى^(٢٦) من الديار الرومية وبيده أموراً وقرئت بالديوان العالى ، فعند قراءتها قال الأمراء والعسكر فيما بينهم : نحن نجعل لنا جمعية^(٢٧) فى سبيل على باشا ، وتعهدوا بأننا رجل واحد . فبلغ ذلك إبراهيم باشا فنزل لهم بيورلديات لجميع البلكات : أنكم لاتجعلوا لكم جمعية فى سبيل على باشا ولا فى غيره ، وكل منكم يلزم بيته إلى أن يتوجه خاسكى السلطان ، ومهما كان لكم من الكلام وغيره العهدة على وفى حال لكم سؤال أو كلام أنا القائم به ، فبعد ذلك عمل أحمد بيك ضيافة إلى الخاسكى وكذلك عرض بيك الدفتردار^(٢٨) وتوجه الخاسكى فى ٢٤ محرم سنة ١٠٧٢^(٢٩) . ويوم توجه الخاسكى عزل سنان جاويش زعيم مصر^(٣٠) كان وقع يوم تاريخه غلغلة كبيرة ، ف قيل إن إبراهيم باشا طلب ثلاثمائة نفر من البلكات ومن جملتهم أحمد بيك حاكم^(٣١) جرجه سابقاً فمشوا بذلك الذى ذكرناه ، فقامت العسكر على إبراهيم باشا وقالوا : ما نريد مصطفى آغا^(٣٢) كتحدا^(٣٣) الجاوشية^(٣٤) ، فعزله وولى يوسف آغا الذى كان ترجمان الديوان ، وفى ثامن عشرين شعبان سنة ١٠٧٢^(٣٥) ، عزلوا إبراهيم كتحدا طائفة الينكجيرية^(٣٦) ، وسجنوا ثمانية أنفار فى القلة^(٣٧) ولم أحد يعلم ما فعلوا بهم ، فلما حصل ذلك بطل القال والقليل ، وفى ثانى يوم تاريخه طلع أحمد بيك وصحبته السادة البكرية^(٣٨) إلى إبراهيم باشا وتصالخوا بحضرة الوزير ووقع الصلح بينهم .

وفى عاشر شهره جماعة من بلك الينكجيرية قطعوا الطريق على امرأة ويهدلونها وفتحوا ابزازها وأخذوا السوار منها وخلعها ولولا أن الله تعالى أرسل إلى المرأة عبداً لهؤلاء حتى خلصها من أيديهم لكانوا استفعلوا بها على قارعة الطريق ، وكان معها آغا طواشى فتوجه إلى باب^(٣٩) الينكجيرية وأخبرهم بما وقع من الخبر ، فنزل جاويش من بابهم وأخذ الذى فعلوا ذلك ، وثانى يوم نزلوهم فى حديد فما تعلم ما فعلوا بهم .

وفى أواخر ذى القعدة ، عين أربعة أنفار من الجاوشية على كاشف^(٤٠) الفيوم لتخليص مال السلطان ، فتوجهوا له فرجدوا عنده آغا من آغاوات إبراهيم باشا بطلب مال السلطان ، فقال الآغا للجاشية : أنا عيننى كتحدا الجاشية بمعرفة الوزير ، فأرسلوا الجاشية عرفوا طائفة الجاشية بذلك فاعرضوا الأمر على إبراهيم باشا فكان من جوابه إلى طائفة الجاشية : إن كان عندكم حجة أو بيورلدى يشهد لكم ما يتعين فى خلاصه إلا طائفة الجاشية أظهروه ولم بقيت لكم فى البيورلديات حتى تظهروه ، وكان ذلك فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٠٧٢^(٤١) ، فقالوا له

إن الحجة موضوعة فى صندوق فى نوبة خانه، فطلعوا بها يوم الأحد فقرأها حرفاً حرفاً وكتب عليها بيورلدياً بعمل ما فيها ، ثم إن طائفة الجاوشية قاموا قومة واحدة على كتخدا الجاوشية وقالوا ما نريده ، فعزله وولى محمود آغا الذى كان ترجمان الديوان حالاً يوم تاريخه .

وثانى يوم شهر ذى الحجة تجمع العسكر بالرميلة^(٤٢) وقالوا : إن بيننا أنفار يستحقون التأديب ، فأمر إبراهيم باشا بنفى محمد بيك كاشف المنصورة حالاً ، وكان بجدة سابقاً وهو من جماعة الفقارية^(٤٣) ، وإبراهيم بيك أمير الحاج^(٤٤) الشريف حالاً ، ومصطفى آغا معمار باشه من المتفرقة^(٤٥) ، وسليمان آغا كتخد الجاوشية سابقاً ، ويوم تاريخه اخلع على ابن مندبل خلعة بأغاوية الجميلية^(٤٦) وأحمد آغاة الجميلية كان ألبسه كشف المنصورة ومرتضى باش طائفة المتفرقة اخلع عليهم الخلع ، وثالث يوم اخلع على أزيك بيك وسليمان آغا خلعتين ووجههم إلى أرض الحجاز يجيبوا الحاج الشريف، ورسم إلى إبراهيم بيك أمير الحاج الشريف المذكور بخمسائة عثمانى وعشر جرايات^(٤٧) وعشرة علايق ويقعد بالمدينة المنورة، وكذلك مصطفى آغا المعمار رسم له بمائة عثمانى بالمتقاعد^(٤٨) بالمدينة المنورة ، فتوجه أزيك بيك فى خامس شعر ذى الحجة سنة ١٠٧٢ (٤٩).

وفى يوم الثلاث تاسع ذى الحجة طلع أحمد بيك فاتح الحبش^(٥٠) سكنه بقناطر السباع يسلم على ربراهيم باشا فقتله وقتل مصلى كتخدائه فى يوم تاريخه .

من الملك الجبار ما أسرع النقم	على هوة تأتى وقد خاب من ظلم
بغى أحمد البشناق فى مصر واعتدى	وخالف مولاه ولم يحفظ النعم
وبالغ بالطغيان والظلم والأذى	وحقر أرباب العلوم ذوى الفهم
وشبه بالطغيان جامع أزهر	بالمطة الكفار عبادة الصنم
وزاد علواً واحتراباً وغلظاً	وأذى عباد الله فى الحل والحرم
ولما تناهى فى الغرور وفى الأذى	وفى قهره الأيتام وهتكه الحرم
أتى من ملك العصر مرسومه الذى	به قلم الإسعاد فى الطرس وقد رقم
بتجريعه كأس المنية سرعة	وتفسيره فى حدى ذى الهلك والعدم
فبعد امتثال الأمر فى الحال حين جرى	عليه سيوف قاهرات من القـدم

على يد مولانا الوزير وقد حكم
ككبش الفدا يبغى التشبه بالغنم
فخذ عدها تظفر بنوع من الحكم
بذلك تاريخ الذى عزه انعدم^(٥١)
ونار قره فى النار يهوى بما ظلم
على المصطفى المبعوث فى ن والقلم
من الملك الجبار ما أسرع النقم

فقطع بالديوان حين قدومه
بوقفة عيد النحر قد كان نحره
وأرخت فى هذا حروفاً لطيفة
شقى عصى سلطانه لاح قبره
فلالزال إبراهيم حاكم مصرنا
وصلى إله العرش ربى دائماً
كذا الآل والأصحاب ما قاله
لعمر النهوانى :

وعارض السلطان فى أمره
طلع إلى الديوان فى جهله
ومات مكبواً على وجهه
جهنم تأتية مع لحده
محمد المبعوث من ربه
يسمى إبراهيم والطف به
[شطر البيت غير مقروء]
محمد المدوح فى كتبه
وآله الأبرار مع صحبه
وضم النقود إلى جنبه
فتاريخه جاء باغى هلكه

لما طغى البشناق فى عصره
فى يوم وقفة عيد نحرانه
أهلكه الله ولم يبقه
قد قلت فى الظلم مذ أرخوا
يارب بحق الحبيب النبى
أبقى وزيراً حاكماً عادلاً
وأهلك جميعاً كل أعدائه
صلى إله العرش ربى على
نبينا شافعنا المجتبى
زباد الجنود بنقض العهد
تقرب فى ليلة الأضحى

وفى يوم الأربعاء رابع عشرين ذى الحجة سنة تاريخه حضر أميرأخور^(٥٢) من البلاد
الرومية وصحبته سهام وخلعة وسروال إلى إبراهيم باشا وأمر شريف فى حق أحمد بيك المقتول
المذكور، وفى ثالث عشرين ربيع الثانى سنة تاريخه انجمعت العسكر فى الرميلة جلبوا من
إبراهيم باشا أن يطلع الخزنة فأرسل إليهم يقول : تمهلوا علينا عشرين يوماً وأنا اطلع الخزنة،

وكان ذلك بواسطة درويش كتحدا الينكجرية ، فاتفقت العسكر على ذلك وقالوا : بشرط أن يكتب إلى جميع البنادر بيورلديات ما أحد من الأفاقية يطلع من مصر ، وإن وجدوا الأولاق^(٥٣) يأتوا به إلى إبراهيم باشا ، وكتب ذلك واخلع على حسين بيك خلعة سردارية^(٥٤) من الديوان فى سابع جماد الأول سنة ١٠٧٣ ، وشالت الخزينة من العادلية^(٥٥) فى سابع عشرين شهر تاريخه^(٥٦).

وفى رابع عشر شهر رجب حضر أمر شريف برفع صنجقية^(٥٧) حسين بيك كتحدا أحمد بيك المقتول وأمره بالتوجه إلى ثغر اسكندرية وعين له مائتين عثمانى وجرايات من محصول اسكندرية ، وقرئ الأمر الشريف بالديوان ، وفيه : من كان أهل شقاوة وفساد تنظرهم وترسل تعرفنا عن المفسدين ، ونزل حسين بيك المذكور فى المركب إلى اسكندرية.

وفى سادس عشر رجب جمع الأمراء وآغاوات البلك وأبرز بيورلدى شريف بنفى قيطاس آغا كتحدا أحمد بيك المقتول إلى إبريم ، ومصطفى كتحدا شعبان بيك وقانصوه كتحدا أحمد بيك بأنهم يتوجهون إلى ولاية جرجه يقعدون بها ، وحسين بيك يقعد باسكندرية ، فقيطاس بيك المذكور توارى فى مقام سيدى إبراهيم الدسوقى ، وبعد مدة من الزمان حضروا بمصر غير إبراهيم بيك أمير الحاج فإنه توفى بالمدينة المنورة ، وفى سابع عشرين رمضان سنة تاريخه خلع على محمد بيك المتقدم ذكره خلعة الدفتردارية .

وفى ثالث عشر شعبان سنة ١٠٧٤^(٥٨) ، جمع إبراهيم باشا الأمراء والآغاوات والاختيارية^(٥٩) وغيرهم وجعل على الأموال الديوانية على كل كيس خمسة آلاف نصف ، وعلى الغلال كل أردب نصفين فضة تؤخذ من الملتزمين^(٦٠) لأجل تكميل الخزينة ، وكتب حجة بما تقدم ذكره إلى الأمناء^(٦١) ، وأرسلوها إلى حضرة مولانا السلطان محمد صحبة مرزا آغا ومن كل بلك شخصاً واحداً وتوجهوا بالحجة.

وسح مصر بعد عز لقيت	سوء ذل وكذا خطباً جسيما
كيف لاتخرب مصر ووبها	حاكم بل ظالم فظ غليظا
جار عسفاً وعتواً واعتقب	ما بأيدى مستحق ويتيما
ونسأ أرمـلات سباهـم	بعد قطع الرزق لم يلقوا رحيمـا
وأخرب الأوقاف والأشراف وقد	أهانهم ما يخشى يوماً عظيما

ليت شعري في غد ما عذره إليه حاكم رباً حكيماً
سوف يلقي الهلاك وكذا من أراد السوء في مصر ذمياً
قاله محيي الدين عنه خبراً شيخنا الأكبر قولاً مستقيماً
وهو في الخبر للتاريخ تم إن إبراهيم شيطاناً رجيماً

وقال:

جاء بالصدق حديث مستند قد رووه الناس عن خير البشر
من نوى سوءاً لمصر عاجلاً سوف يلقي هلاكاً وضرر
وكذا إبراهيم لما أن طفى لقي الساعة أدهى وأمر
عزلوه ثم ولوا عمراً وله المقدور بالسجن أمر
رخصت أسعار مصر وغدت في هنا وكذا جاء المطر
فهو شيطان وقد أرخته يهرب الشيطان في يوم عمر

وفي ثامن شهر رمضان عزل زعيم مصر وتولى عوضه حسين بغائه، وولوا آغاة الجراكسة^(٦٢) في منصبه، وعزل ابن يحيى زاده الذى أخذ عنه ، وعزل جالق مصطفى من آغاوة الجبجية، وفي ثالث عشر رمضان نزلوا مصطفى آغا المذكور إلى بلك الكشيدة^(٦٣) وعابدين جاويش وزندار طائفة المتفرقة سابقاً وقريبه حسن جاويش وأمين الخردة الجميع من بلك المتفرقة نفوهم إلى اسكندرية ، وفي خامس عشر رمضان ظهرت قائمة مكتتبه عن طائفة الجاوشية أولها شاويش آغا كتحدا الجاوشية، وإبراهيم آغا بن حجي باشا ترجمان الديوان حالاً، وكاتب حوالة الجاوشية وهو يومئذ أحمد أفندى^(٦٤) الشهير بشكر باره، وأحمد جاويش الشنكجى وبعض أنفار ، وثانى يوم وقع تنبيه^(٦٥) واجتمعوا ببیت كتحداهم وقرؤا فاتحة بأنهم رجل واحد وإن حصل طلب فى أدنى نفر منهم لم يسلموا فيه.

وفي سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤^(٦٦)، اجتمعت الصناجق على العادة ببیت قائم مقام^(٦٧) وثمت محاسبة إبراهيم باشا ، فالذى طلع عليه ألف ومائتين كيس وسبعة وثلاثون كيساً بما فيه الم واجب والصر غير محاسبة الغلال، وفي يوم تاريخه حضر أولاق من الديار الرومية برجوع دلاور آغا من إبريم ، وقيل : أنعم عليه مولانا السلطان محمد بثلاثمائة عثمانى وخمس

جرايات وخمس علايق ، وثانى يوم أرسلوا الحجة والفتوة الذى ربطوا بها الخمسة آلاف نصف المضاف^(٦٨) على الأموال ومحاسبة إبراهيم باشا وأرسلوها صحبة نفرين؛ نفر من المتفرقة ونفر من الجاوشية، وأرسلوا إلى مرزه بأنه يرجع العرض الذى كان توجه به .

وفى ٢١ رمضان وقع كلام بين سليمان آغاة الينكجerie سابقاً وبين كتحدا الجاوشية بسبب المحتسب ، فقيل : إن سليمان آغا قلّ أدبه على كتحدا الجاوشية ، فقاموا عليه طائفة الجاوشية وأخذوا عليه بيورلدى شريف بأنه يلزم بيته إلى آخر رمضان وثالث يوم العيد يتوجه إلى بلاده ، وفى ٢٦ رمضان سنة تاريخه قاموا على أحمد جاويش الشنكجى بنوبة خانه ويهدلوه بهدله زائدة وأنزلوه ببلك المتقاعدين ، وكذلك كاتب الحوالة ويوسف الشهير بيرجى يوسف نزلوهم فى بلك المتقاعدين وكان ذلك يوم الأربعاء، وصروا المواجه يوم تاريخه ، ورفعوا قلم أحمد أفندى المذكور من مقاطعة الغربية^(٦٩) وقرروا فيه محمد أفندى بن قادرى زاده ، وفى سنة تاريخه نزلوا قلعلى حسين جاويش وسانان جاويش الوزندار وأبرش حسين ورضوان جاويش الطويل فى بلك المتقاعدين ، ومحمود جاويش برابع نوبه وعبد الكريم جاويش طردوهم من نوبهم ، وشاويش كتحدا الجاوشية أرسلوا له بيورلدى أن يتوجه إلى بلاده ولاينام تلك الليلة فى بيته ، فتوجه فى ساعته ، وفى ثالث شوال ألزموا عشرة أنفار من الجاوشية أن يلزموا بيوتهم ، ستة من عصابة أحمد جاويش الشنكجى وأربعة أنفار من النوب، وفى رابع شهر شوال وهو يوم الخميس طلّعوا إبراهيم باشا قصر يوسف سجنوه به وكتخدائه وكاتب الديوان والمقابلجى وناظر الشون وخاص وكيل خراج سجنوهم بالبرج ، وصراف باشا ويهودى ثانى سجنوهم بالعرقانة^(٧٠).

وفى سابع عشر شوال سنة ١٠٧٤^(٧١)، تجمعت طائفة الجاوشية فى جامع الداودية واتفقوا بأن السبعة أنفار الذين نزلوهم بلك المتقاعدين ينفوهم إلى إبريم ، فنزلت لهم أربعة جاوشية بناء على ينزلوا بهم إلى إبريم ، فوجدوا حسين ويرجى يوسف فأخذوهم ونزلوا بهم إلى بولاق، فساعة أخذهم توجهت أهل بيوتهم إلى باب الينكجerie وشكوا إليهم بما وقع فتستفعوا طائفة الينكجerie فيهم وكذلك جميع البلكات، وقرأوا فاتحة بأنهم يقعدوا فى بيوتهم بأدبهم ولم أحدا منهم يطلع من بلك المتقاعدين إلى بلك غيره .

وفى حادى عشر شوال نزلوا إبراهيم باشا من قصر يوسف وحاسبوه فوجدوا فى ذمته تسعمائة كيس وكسور، فأخذوا منه ستمائة كيس وكسور وتفضل عنده ثلثمائة كيس^(٧٢).

وثانى يوم تاريخه صلى صلاة الجمعة فى أثر النبى صلى الله عليه وسلم الذى بمصر القديمة ، فإن إبراهيم باشا المذكور وسعه وجدده وبنى تحته رصيفاً لدفع ماء النيل عن بنائه ورتب له مائة عثمانى وارصد له طين وعين به قراء وطائفة وحراس قاطنين بأثر النبى ، وشرط النظر أن يليه آغاوية الينكجيرية بمصر المحروسة وحسين جاويش وأحمد جاويش المتقدم ذكرهم ، فحسين جاويش عمل جركس بيك وأحمد جاويش نزل بلك الينكجيرية . وأرسل إبراهيم باشا بيورلدى إلى شاويش كتحدا جاوشان سابقاً برجوعه إلى مصر لأجل محاسبة محمد آغا آغاة البنات الذى كان منفياً فى إبريم فإنه رجع من إبريم بأمر من السلطان ، فأحضروا شاويش كتحدا الجاوشية بسبب محاسبته وأيضاً حسين بيك الذى نفوه إلى ثغراسكندرية أرسل له قائم مقام بيورلدى بالتوجه إلى بلده ، وكذلك سليمان آغا آغاة الينكجيرية سابقاً توجه إلى بلاده .

وفى ١٧ ذى القعدة سنة ١٠٧٤ (٧٣) ، اجتمعت طائفة الينكجيرية فى باب آغاتهم وعزلوا كتحدايهم هو مصطفى القندجى ، وأمين بيت المال ببابهم نفوه إلى قبرص ، وجقبرجى على ويندجى ولى ويوسف أوضه باشه (٧٤) نفوهم إلى إبريم ، وأربعة أنفار كانوا طلعوهم من بلكهم سابقاً رجعوهم إلى البلك يوم تاريخه .

ب- ولاية عمر باشا (٧٥) :

وفى أواخر ذى الحجة سنة ١٠٧٤ حضر عمر باشا ، وطلع الديوان فى يوم الخميس ابتداء شهر ذى الحجة ، وثانى يوم تاريخه حضرت بشار من السلطان محمد نصره الله وأطال بقاءه جاء له ولد ذكر واسمه مصطفى ، وزينت مصر المحروسة سبعة أيام ، ويوم تاريخه قرئ الأمر الشريف بالزينة (٧٦) وقرئ أيضاً بحضرة الصناجق والآغاوات والعسكر ، وأكد فيه أمره الشريف مضمونه : أنكم اجتهدتم فى تكميل الخزنة وتشكر من العسكر جميعهم وبيض الله وجوههم ، وأرسلتم سابقاً عرضاً باتفاقكم على خمسة آلاف نصف تصاف على كل كيس لاجل يكمل الخزينة ، ثم أرسلتم عرضاً ثانياً تعتذروا فيه وذكرتم تقولوا ما فعلنا هذا وكتبنا حجة وفتاوى السادة العلماء ، وتقولوا فى العرض هذه مظلمة أيش هذا الكلام ؟ وتربة أجدادى الشريه تقتدوا الأمر بالروزنامة (٧٧) وكل من عاند أقتله بأشد العذاب . فعندما سمعت أرباب الديوان والصناجق غلغلت فى الكلام فى تلك الساعة ، فعند سماع عمر باشا غلغلتهم تعهد إلى العسكر : إن حصل لهم ضرراً وغير ضرر يكون المشار إليه دافع عنهم ما يضرهم ، وفى يوم الاثنين انجمعت الصناجق والآغاوات حكم العادة ببيت (٧٨) بيك قائم مقام واتفقوا بأنهم يجعلوا

على كل كيس ألفين نصف فضة وعلى كل أردب من الغلال نصفين فضة، فجمعوا ذلك فبلغ مائتين كيس وعشرة آلاف نصف فضة، وجعلوا على الكشوفية الكبرى وهى أرباب المناصب على كل كيس ألف نصف فضة، ونزلوا من ثمن القفاطين ثلاثون كيساً، وفى يوم الثلاثاء رفعوا الحراس عن إبراهيم باشا وحصل الاتفاق بينه وبين عمر باشا وكذلك العسكر، والذي تفضل بذمته يدفعه فى الديار الرومية، وفى ثالث عشر ذى الحجة توجه إبراهيم باشا إلى الديار الرومية فكان مدة تصرفه بمصر سنتان وعشرة أشهر.

وفى ثالث عشر ذى الحجة اخلع عمر باشا على كتخدا الجاوشية والترجمان والمحتسب ومصطفى آغا الشهير بقطلك كيله سى باش طائفة المتفرقة، وباش متفرقة ولاه آغاوية الجراكسة، ويوم تاريخه انجمت العسكر بالرميلة وعزلوا يوسف آغا الينكجerie وولوا عوضه مصطفى آغا باش المتفرقة المذكور أعلاه، وولوا حسن آغا الشهير بلفيا عوضه^(٧٩)، ومصطفى آغا المذكور لم وجدوه بمصر، وقيل: إن يوسف آغا ومصطفى آغا المذكورين كانوا متفقين مع ابراهيم باشا على الخمسة آلاف المضافة الذى تقدم ذكرها.

وفى ثامن شهر صفر وهو يوم الجمعة سنة ١٠٧٥^(٨٠)، انجمت طائفة الينكجerie وطاذفة العزب^(٨١) بالرميلة بأسلحتهم وأرسلوا إلى أغوات بلک الاسباهية^(٨٢) والصناجق فحضروا عندهم، وتكلموا معهم من جهة مصطفى آغا كتخدا الجاوشية أن جميع العسكر ما يريدون المذكور أن يكون كتخدا الجاوشية، فطلعت الأغوات إلى عمر باشا وعرفوه عن ذلك، فأرسل يقول للعسكر: اطلبوا من يكون كتخدا، فاعرضوا على حضرة عمر باشا أننا ما نطلب سليمان آغا آغا الينكجerie سابقاً ولاشاوش كتخدا الجاوشية ولا ابن حجي باشا، هذه الثلاثة أنفار لايعطى لهم منصب، ويعطى لمن يختاره صاحب الدولة، فعند ذلك خلع على يوسف آغا التفكجية خلعة كتخدا الجاوشية، وولى رمضان أفندى كاتب المتفرقة سابقاً آغاوية التفكجية وعزل يوسف كتخدا الجاوشية فى ثامن ربيع الثانى سنة ١٠٧٥^(٨٣).

وفى سنة تاريخه تولى رمضان اغا الشهير بالأرمنى الشون الشريفة وأمين البحرين، وفى تاسع ربيع الأول وهو يوم الاثنين سنة تاريخه انجمت طائفة الينكجerie فى باب آغاتهم وقاموا على درويش كتخدائهم سابقاً ومراد كتخدائهم سابقاً ويهدلوهم وضربوهم وحبسوهم فى القلة، واعرضوا فيهم إلى عمر باشا وطلبوا منه بيورلدى بقتلهم، فأعرض عنهم ولم أعطاهم بيورلدى، فراجعوه ثانى مرة فأعطاهم بيورلدى بخنقهم فى القلة يوم تاريخه، وفى شهر تاريخه توفى

إلى رحمة الله تعالى محرم بيك بن ماماي بيك، وفى يوم الثلاث خلع على رمضان آغاة التفكجية حالاً خلعة الصنجدية، ومصطفى آغاة العزب خلع عليه بأغاوية الينكجيرية، وشاويش كتحدا الجاوشية سابقاً ولاه آغاوية العزب، ومحمد آغا الشهير بابن يحيى زاده ولاه آغاوية التفكجية يوم تاريخه، ثم إن طائفة الينكجيرية انجمعت فى باب آغاتهم وقالوا: ما نريد مصطفى آغا يكون آغاتنا، فعزلوه ولبسوا الشريف حسين آغات الجراكسة سابقاً، وفى يوم الأربع قامت طائفة الجاوشية على يوسف كتحداثهم وعزلوه وولوا مصطفى أفندى الذى كان ترجمان، وولى جعفر آغا تابع قاسم بيك آغاوية الجراكسة، وأحمد بيك سردار كريد ولاه كشوفية الغربية، وأحمد أفندى ابن بواب زاده ولاه الترجمانية فى حادى عشر شهر ربيع الثانى سنة ١٠٧٥.

وفى ثالث عشر ربيع الثانى اخلع على أحمد بيك خلعة بسردارية الخزينة، وفى ١٣ جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حصلت زلزلة، وفى تاسع عشر ربيع الثانى وهو يوم السبت انجمعت طائفة الينكجيرية وطائفة العزب بالرميلة بأسلحتهم وجمعوا بقية البلكات، وقالوا: نحن لنا دعوة شرعية على أويس بيك قائم مقام سابقاً، فقالوا لهم: إن كان لكم دعوة شرعية على أويس بيك نحن وأنتم رجل واحد، وأرسلوا الصناجق وأغوات البلكات الخمسة فحضرُوا بالرميلة يوم تاريخه، راعرضوا الأمر على عمر باشا فأرسلوا إلى أويس بيك وقت أذان الظهر فطلع الديوان، ثم إنهم ادعوا عليه طائفة الينكجيرية وطائفة العزب أنه قتل شخص منهم، فقال: نعم مملوكى وقتلته، فثبت عليه القتل بحضرة قاضى العسكر^(٨٤) بالديوان فخنقوه بالديوان يوم تاريخه، وكان قبل تاريخه أرسل عمر باشا إلى محمد بيك أمين جدة أن يطلع وطاقه^(٨٥) ويتوجه فطلع وطاقه يوم تاريخه، وكان زعيم مصر سنة تاريخه محمد مملوك الشكعة.

وفى ثالث عشر جماد الأول سنة ١٠٧٥^(٨٦)، خلع عمر باشا على محمد بيك خلعة حكومة ولاية جرجه عوضاً عن دلاور بيك، وفى شهر تاريخه ظهر نجم بالسماء وله ذنب طوله ذراعين أو أكثر وحصل زلازل ثلاثة مرار، وفى شهر تاريخه انجمعت طائفة الينكجيرية والاسباهية فى الرميطة وعزلوا جعفر آغاة الجراكسة ونفوا ثمانية أنفار من الاسباهية إلى الواح، منهم: قيطاس شربجى واكشى أحمد من طائفة الجميلية، وثانى يوم ولوا حسين بيك كاشف المنصورة سابقاً آغا على طائفة الجراكسة، وذو الفقار^(٨٧) كاشف الشرقية^(٨٨) حالاً خلع عمر باشا عليه خلعة الصنجدية وأمينية جده وهى صنجدية أويس بيك، وفى ثانى عشر جمادى الثانى لبس

مصطفى أفندى كاتب المتفرقة سابقاً آغاوية التفكجية ، والذي نفوهم من بلك الجراكسة ثلاثة منهم دخلوا الجامع الأزهر وواحد دخل بيت البكرية ، ويوم تاريخه أرسلوا إلى ابن منديل ومصطفى كتحدا الجاوشية وسليمان آغا آغات الينكجيرية^(٨٩) سابقاً وجعفر آغا الجراكسة وحسن كاشف تابع أحمد بيك وقانصوره ومحمد كاشف وهو ابن المقرع الجميع من بلك المتفرقة ، منهم من نفوهم إلى قبرص ومنهم من فر ، ومنهم من خلص .

وفى ثانى عشرين جمادى الأول سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك والعسكر فى بيت محمد بيك ، وقرروا الفاتحة ووقع الصلح بينهم جميعاً ، والذي وقع لم يسأل عنه ، والذي مضى لم يسأل عنه ، والذي نفوه سابقاً أرسلوا جابوهم وعفوا عنهم ، وفى سادس عشرين جمادى الأول اخلع على حسين بيك خلعة الدفترداية ، وفى تاريخه عزلوا على أفندى كاتب حوالة الجاوشية سابقاً وهو ابن مصلح الدين أفندى فكان مقاطعجى الصرف ونبهوه أنه ما يطلع الديوان ، ويقعد بيته ، ثم بعد ذلك طلع مكانه .

وفى يوم الثلاث سادس عشرين جمادى الأول سنة ١٠٧٥ حضر أمر شريف من الديار الرومية وقرئ بالديوان مضمونه : بموجب عرض إبراهيم باشا تجهز ذو الفقار بيك الشهير بالمأحى وصحبته مصطفى أفندى الرزونامجى^(٩٠) سابقاً الشهير بابن سهراب^(٩١) باقيد بند ، فلما فرغوا من قراءة الأمر الشريف حاش ذو الفقار بيك المذكور بجنبه وأرسل ختم بيته وأرسله إلى الديار الرومية قبل الظهر يوم تاريخه ، وأرسل أحضر مصطفى أفندى المذكور وأرسله خلف ذو الفقار بيك بعد العصر ، وفى أواخر شهر تاريخه أمر عمر باشا محمود آغا كتحدا الجاوشية سابقاً بأن يتوجه إلى المدينة المنورة صحبة يوسف آغا شيخ الحرم النبوى ، ونزلوا ختموا بيت حسين بيك الذى كان نفوه سابقاً إلى اسكندرية ، وكان قائم مقام وجه حسين بيك من اسكندرية إلى بلده ، فأمر عمر باشا أن يطلع من بلده ويتوجه إلى اسكندرية ، فطلع من بلده ونزل بمركب ليتوجه إلى اسكندرية فأرسل خنقه فى المركب وهو متوجه ، وفى تاريخه طلعت الينكجيرية من بلدهم أربعة أنفار إلى بلك المتفرقة ؛ نفرين من توابع درويش كتحداهم ونفرين من توابع مراد كتحداهم المذكورين ، وفى شهر رجب سنة ١٠٧٥^(٩٢) ، وهو يوم السبت خلع عمر باشا على ذو الفقار بيك خلعة بحكومة ولاية جرجه ، وعمر باشا فى قرا ميدان^(٩٣) عوضاً عن محمد بيك الفقارى الذى كان ضربة^(٩٤) مصر وكان سكنه ببيت اقبردى .

وفى تاسع عشر شعبان سنة تاريخه انجمعت الصناجق وأغوات البلك فى بيت محمد بيك

المذكور واتفقوا على تعيين تجريدة^(٩٥) إلى جميع البلاد بالتفتيش على السلاح، وثانى يوم عين عمر باشا شاويش آغا آغات الجميلية وحسين آغا وعسكر من الاسباهية ومائة نفر من الينكجيرية وخمسين من العزب وأعطاهم بيورلدى على بياض بالتفتيش على السلاح، فتوجهوا فى غاية شهر رمضان سنة تاريخه، وحضروا فى ابتداء شهر ذى القعدة وجابوا معهم نحو اثنى عشر حمل مزارق وجانب بندق ونزل عمر باشا كشف عنهم فى قرا ميدان، وخلع على الأغوات الخلع. وفى خامس عشر رمضان سنة تاريخه خنقوا اكشى أحمد باش جاويش الجراكسة سابقاً فى بيت مصطفى اغاة التفكجية حالاً الذى كان بيته بقرب الحنفى وهو من جماعة^(٩٦).

وفى سادس عشر رمضان انجمعوا الصنادق وأغوات البلك على العادة فى بيت محمد بيك حاكم ولاية جرجه وهو الضربه واتفقوا على نفى خمسة أنفار إلى جرجه، فأخذوا البيورلدى عليهم من عمر باشا، وفى ١٧ شهر رمضان^(٩٧)، توجه إلى جرجه مصطفى آغا كتحدا الجاوشية وآغاة التفكجية سابقاً أرسلوه إلى بلده خاصة يقعد بها، ومصطفى كتحدا الجاوشية المذكور أرسلوا خلفه بيورلدى شريف بأن يتوجه إلى المدينة المنورة بجميع علوفته^(٩٨)، وتوجه من على القصير، ومحمد آغا البلطجى دخل الجامع الأزهر، وإبراهيم جاويش وكيل خراج حضرة مولانا السلطان محمد توارى فى مقام سيدى أحمد البدوى، وفى غاية رمضان سنة تاريخه وقع من فوق الحصان فى بيته تقنطر به فمات ودفن ثانى يوم، وفى حادى عشر شوال توارى حسين جاويش التفكجية الشهير باليمنلى بالجامع الأزهر ومكث فيه أياماً، قيل : إنه ذكر لمحمد بيك نورالى بأن محمد بيك حاكم جرجه وهو الضربه اتفق على قتله فتحذر على نفسه، فبلغ محمد بيك الضربه فأخذ عليه بيورلدى بنفيه، فبلغ يمنلى حسين فدخل الجامع الأزهر وتوارى فيه، وفى ثالث عشر شوال سنة تاريخه أرسل عمر باشا بيورلدى شريف إلى الجامع الأزهر بأن الذين تواروا عندكم تطلعوهم من الجامع وهم عشرة أنفار وتسلموهم، فاجتمعت العلما والمدرسين والطلبة والبكرية والسادة الوفائية ونقيب الأشراف وهو برهان الدين أفندى وأولاد المكاتب وتوجهوا إلى بيت قاضى العسكر وعرفوا القاضى بأنه حضر لنا بيورلدى شريف على بياض على يد كتحدا القابوجية من حضرة عمر باشا بخروج عشرة أنفار فارين من القتل، فإننا لم نخرجهم من الجامع ولانسلم فيهم، فأرسل حضرة القاضى جوخدار إلى عمر باشا وعرفه أن أهل الجامع الأزهر والعلما والشرفا والبكرية والسادة الوفائية لم يسلموا لكم فى ذلك الأمر، فأرسل إليهم بيورلدى شريف بالأمان، وبعد ذلك أمر عمر باشا

المنادى بإشهار النداء أن لا أحد يخرج من بعد العشاء من بيت إلى بيت فلما أشهر النداء المنادى قفلت أبواب الجامع الأزهر الثلاثة، وقيل يوم تاريخه وجه عمر باشا نظارة الجامع الأزهر إلى يوسف أوضه باشة الينكجيرية، فلما وجه النظارة للمذكور بلغ أهل الجامع الأزهر، فقالوا : لم نريده ولا نطلب إلا محمود الشهير بالهرطلى يكون ناظراً، وفى يوم تاريخه قرأت العلماء والمجاورين بالأزهر سورة الأنعام أربع مرات، وتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء على محمد بيك حاكم جرجه حالاً والضرب، وقالوا فى دعائهم : يا مفرج الكرب عليك بمحمد بيك والضرب، وطلعوا على مواذن الجامع الأزهر بالبيارق وطلبوا من الله سبحانه وتعالى بإزالة المذكورين، وقيل : إن فى ليلة تاريخه اجتمعوا الصناجق والضرب بعد العشاء فى الرميطة وعلقوا مصحف شريف وسهام، وحلفوا أنهم لا يضروا أحداً غير أنهم مصممين على العشرة أنفار الذى بالجامع الأزهر وراجعوا فيهم العلماء والمجاورين، وفى ثانى يوم تاريخه شاهين زعيم مصر قطع رأس شخصين بجانب حوض الجامع الأزهر فضربوه المجاورين بالحجارة، وقيل إن المجاورين بالجامع الأزهر أخذوا بيورلدى شريف من عمر باشا يوم الأربع وضربوا عيسى الشرقاوى وبهدلوه وقطعوا ثيابه، وفى ٢٦ شهر جمادى الثانى سنة ١٠٧٥ ١٩٩١، توفى إلى رحمة الله الشيخ سلطان المدرس الشافعى بالجامع الأزهر.

وفى شهر محرم سنة ١٠٧٦ ١١٠٠، لبس رمضان بيك الفرغانى سرداراً على سفر جزيرة كريد وتوجه بالعسكر فى ابتداء شهر صفر سنة تاريخه وتوفى بها، وفى سادس عشرين محرم سنة تاريخه أرسل عمر باشا جاب مصطفى أفندى بن سهراب الروزنامجى، فإنه انقطع فى الطريق عن التوجه صحبة ذو الفقار بيك، فلما حضر أرسلوه إلى ولاية جرجه، وقيل إن ابن منديل وسليمان آغا ومحمد بن المقرق ومصطفى القندقجى كان عمر باشا أمر بنفيهم فطلعوا فارين، فمنهم من توجه إلى الشام ومنهم من توجه إلى الديار الرومية.

وفى ٢٢ شهر صفر الخير سنة ١٠٧٦ ١١٠١، وهو يوم الأربع طلع محمد بيك الضربه إلى عمر باشا فأمر جماعته فضربوه بالسيوف فوق ذراعه داخل السرايا ١١٠٢، ثم إنهم قطعوا رأسه وأرسلها إلى الديار الرومية، فكان محمد بيك المقتول حاكم بولاية جرجه والشرقية والمنوفية والفيوم، وفى يوم تاريخه خلع عمر باشا على محمد بيك الشهير بمحمد جاويش كتحدا رضوان بيك سألوه لتولية حكومة جرجه، وفى رابع عشرين صفر الخير سنة تاريخه جاء لعمر باشا من الديار الرومية خلعة وقرئ الخط الشريف، فمضمونه : أنك تخرج من حق

المفسدين وأهل الشقاوة وأكد فى الخط الشريف [...] (١٠٣)، وفى يوم تاريخه لبس عوض بيك كشف ولاية المنصورة ، وأحمد بيك تابع قيطاس بيك القديم الساكن بسويقة اللاله كشرفيه ولاية المنوفية، وأرسل عمر باشا إلى شاويش آغاة الجميلية سابقاً خلعة بأغاوية الجراكسة عوضاً عن حسين آغا ، قيل : إن حسين آغا كان ضعيفاً . وفى يوم تاريخه لبس مصطفى شربجي مملوك قرا محمد آغا باش قافلة السريس.

وقيل: إن فى يوم تاريخه قبل الظهر بلغ عمر باشا بأن الضرب اتفقوا بأنهم يهجموا على عمر باشا فى القلعة فأمر بقفل أبواب القلعة ، وفى يوم الاثنين سادس عشرين صفر سنة تاريخه أرسل عمل باشا إلى الصناجق وإلى آغاوات البلك : بأنكم تحضروا عندى بعد نصف الليل، فلما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ولاح انجمعت بقية العسكر وقرئ بحضرتهم أمرين شريفين ، أحدهما : فى حق يمنلى فضلى ، والثانى: فى حق يوسف أوضه باشا الينكجربة ودرويش على وأصلان جميعهم أوضه باشا طائفة الينكجربة ، فقال عمر باشا إلى باش جاويش الينكجربة : أيش تقول؟ فذكر أنه توجه إليهم فقالت: طائفة مستحفظان أنهم ما يسلموا فى الخمسة المذكورين ما داموا طيبين، فأرسل عمر باشا إلى العلماء والبكرية ونقيب الأشراف وقرئ الأمر الشريف بحضرتهم بالديوان، فرد عليهم باش جاويش مستحفظان بالكلام الذى ذكره عنهم أولاً ، فأمر بكتابة بيورلدى وأعطى إلى زعيم مصر وهو بغانه حسين بإشهار النداء على الخمسة المذكورين بأن جوامكهم رفعت ومن كان ملجئ لهم أو يكون معهم أو بصحبته ترفع علوفته ، فبعد ذلك أفتت السادة العلماء بأنهم عصوا الله وأولوا الأمر ، فنزل عمر باشا والصناجق وأغوات البلك إلى قرا ميدان، ونزلوا بيرق النبى صلى الله عليه وسلم معهم وجعلوه فوق باب قرا ميدان، ونزل ستة مدافع فى الرمييلة وحطوهم تحت قلعة السلسلة، وباتت تلك الليلة العسكر والصناجق وأغوات البلك فى الرمييلة ، وحصنوا الدروب والطرق وعمر باشا بات بقرا ميدان وكان عنده الشيخ البكرى وتوجه إلى منزله .

وفى يوم الاثنين سابع عشرين صفر سنة تاريخه باتت العسكر والصناجق فى قرا ميدان وفى الرمييلة وهى ليلة الثلاث، فلما أصبح الله بالصباح أرسل عمر باشا إلى الضرب وهما شخصين داخل جامع المؤيد (١٠٤) وبعض طائفة مستحفظان معهم جوا (١٠٥) الجامع ، وهم قافلين الأبواب وطلعوا على الموادن وسطح الجامع، فقالوا لهم : إن عمر باشا طلب الضرب الخمسة أنفار لا غير وأنتم عليكم الأمان ، فقالوا : ما نسلم فيهم أبداً ولو تروح أرواحنا على

السيوف، فراجعوهم أول وثانى فلم وافقوا فى تسليمهم ، فأخبروا عمر باشا بما ذكره فأمر بتعيين محمد بيك الشهير بمحمد جاويش وأبى قوره، وأمر العسكر أن يحاصروا الجامع من كل جانب ، وكان يوم السبت ثامن عشرين صفر سنة ١٠٧٦ (١٠٦)، فحاصروهم وأخذوا العسكر ينهوهم فلم يمتثلوا لكلام العسكر ولم يوافقوا على تسليم المذكورين، فنزل عمر باشا المدافع للعسكر بعد أن أفتت السادة العلماء بأن الجامع إن تهدم منه شئ يعمره عمر باشا، فضربوا المدافع والبندق على الجامع من الظهر إلى وقت العصر ، فأجابوا بالأمان وفتحوا الباب الذى عند السكرية وارموا أسلحتهم ، وخرج منهم نحو خمسين نفر أو أكثر وهم شاهرين السيوف ، فمنهم من أخذه طائفة مستحفظان وحماه، ومنهم من أخذه طائفة العزب، ومسكوا نحو عشرين نفرًا باليد وأخذوا أسلحتهم، وقيل : منهم محمد بيك الذى هو معين بالعسكر، ومسكوا درويش على ويملى فضلى فى ساعة خروجهم من الجامع ، وأصلان هرب فأخذوا فى أثره فجابهوه من قنطرة الدكة ، وقطعوا رؤوسهم فى باب زويلة ، وحضروا برؤوسهم إلى عمر باشا، ويوسف مسكوه فى بيت الشيخ الميمونى فطلعوه يوم الأربعاء وقطعت رأسه بالديوان، وكذلك قرا فضلى ، ثم بعد ذلك خلع عمر باشا على الصناجق والأغوات والكواخى وأرباب الدولة الذى حاضرين خلعة نفيسة، والذى ما حضر الخلع أعطاه خمسة شريفية (١٠٧) عوض الخلعة وقيل : ما ضبط من عدة الخلع يوم تاريخه مائة وإحدى وعشرين خلعة ، وضبط مال المذكورين بيت مال أمين المال العامة لأن عمر باشا رفع علوفتهم قبل الواقعة.

وقال :

قوم بمصر عتوا بالظلم ثم طفوا	إذا أتى إليهم فتى سوء إليه صغوا
هم زرية حين تولوا مصر ما أمنست	قالوا متى هلكوا أرخت حين بغوا (١٠٨)
قل للذين أبانوا الظلم واعتصبرا	فى مصر قد حكموها زرية ونفسر
الميم والخمس الذى كانوا فما رحموا	وظلمهم فى البرايا قد فشا وظهر
أراد رى بأخذ الكل حين بغوا	بصرعهم فى الحقيقة إن تراه عبر
هم عصابة قد تراهم إذا تاريخهم	سأريكم دار الفاسقين جهر
وزير مصر عمر قد هم فى همه	قتل وبين له عليه حرمه
وأهلك الزرب ونصر الأممه	وانفك عن مصر فى تاريخها الغمة

الهوامش

- ١- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ويتناول أحداث سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م.
- ٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٧، ويغطى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٠٧٦ و ١١١٣ هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م.
- ٣- على بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة ، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ويتناول فترة الحكم العثمانى بمصر حتى عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م.
- ٤- ذكرت ليلى عبد اللطيف من المؤلفات التاريخية خلال تلك الفترة: محمد بن عبد المعطى الإسحاقى، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول، القاهرة ١٨٩٧ (ويتوقف عند أحداث سنة ١٠٣٢هـ / ١٦٢٣م، وتستمر تنمة الكتاب حتى أحداث سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م) . ومؤلفات محمد بن أبى السرور مثل : الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ، والنزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية، وعيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وكشف الكربة فى رفع الطلبة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٣، سنة ١٩٧٦ (تتوقف أعمال ابن أبى السرور عند أحداث سنة ١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م)، أما كتاب الغمى ذاكرة الإعلام، فإنه يتوقف عند أحداث سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م انظر ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٨٠ .
- ٥- يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة، وقد قام بتحقيقها إبراهيم يونس محمد، وحصل بها على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١ ، ثم قام عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيقها ونشرها فيما بعد (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م) أحمد شلبى ابن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٨ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) مصطفى بن الحاج ابراهيم تابع حسن آغا عزبان الدمرداشى ، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة، تحقيق صلاح أحمد هريدى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة سنة ٢٠٠٢، وقد نشرت الطبعة الأولى من الكتاب فى الاسكندرية سنة ١٩٨٩ ، (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٥٣هـ / ١٧٤١م) أحمد الدمرداش ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد

الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩ (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) .

٦- يشير الترقيم فى أعلى صفحات المخطوط إلى وجود ٢٤٤ ورقة أى ٤٨٨ صفحة، والصحيح هو أن عدد أوراق المخطوط هى كما ورد أعلاه أى ٢٤٦ ، حيث إن ترقيم الصفحتين : ٨٨٠ و ٩٥٨ قد تكرر مرتين، وقد يكون هذا الخطأ من الناسخ أو من المصور الذى أنجز تصوير الكتاب فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٣، كما يظهر فى الصفحة الأخيرة من المخطوط .

٧- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ١٠-١٤ .

٨- وذلك بخلاف ما ذكره عبد الرحيم فى نسبة الجزء الأخير من المخطوط للصوالحى حيث يبرر وجود نقص فى نسخة دار الكتب عن النسخ الأخرى التى عثر عليها فى المكتبات الوطنية بميونخ وباريس، بقوله : "ونرى أن السبب فى هذا النقص ، أن المؤلف بعد أن وضع مؤلفه عام ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وفرغ منه على الصورة التى رسمها فى المقدمة كما هو واضح من النسخ الكاملة لهذا المخطوط، والتى نص فيها على الفراغ منه، وطال به العمر بعد ذلك، فأراد أن يخص الصراعات السياسية بين الصناجق ، فجمع التواريخ السابقة الذكر دون أن يجرى تعديلاً على ما ذكره فى المقدمة، ولم يرد داع لتسجيل أحداث واقعة محمد بيك السابقة على أحداث ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م فأهملها وأهمل الخاتمة ، وخصص هذا المجموع لتسجيلاته الخاصة بالفترة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، والتواريخ الأخرى التى ضمها إلى مؤلفه حتى توقفه عن الكتابة يوم السبت ٢٢ ربيع الأول ١١١٣هـ / ٢٧ أغسطس ١٧٠١م" المصدر السابق، ص ص ١١-١٢ . وما ذكره د. عبد الرحيم هو افتراض تدحضه المعلومات الواردة فى ثنايا الجزء الثالث من هذه المجموعة ، والذى يمتد عبر ١٧٤ ورقة ٣٤٨ صفحة) ترد فيها إشارات عديدة إلى أن تاريخ الفترة ١٠٧٦-١١١٣هـ / ١٦٦٥-١٧٠١م ، هو من تأليف محمد بن محمود ، وليس من تأليف الصوالحى، الذى نص على الفراغ من عمله سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م، وليس هناك أى دليل على أنه استأنف الكتابة بعد ذلك العام. وقد قام الباحث بتحقيق تاريخ ابن محمود ونشره فى كتاب مستقل سنة ٢٠٠٧ .

٩- هذه زيادة من الناسخ ، والصحيح هو أن على وفا يؤرخ للمرحلة التى أعقبت واقعة الصناجق (قتل الفقارية) مباشرة ، ولا يتطرق للحديث عن هذه الحادثة بل يفصل فى ولاية كل من إبراهيم باشا عمر باشا، حتى انتهاء واقعة الضرب سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٥م.

١٠- يستهل المصنف تاريخه بتخميس أبيات شعرية نسبت لغازى باشا الذى تولى بمصر خلال الفترة .

١٠٦٧-١٠٧٠هـ / ١٦٥٧-١٦٦٠م، ثم أعدم بعد عزله بناء على أوامر وردت من اسطنبول ، وقد ذكرت هذه الأبيات فى عدة مصادر، ونصها :

أمور للأعداء أنتجتها يد الأقدار حتى أحكمتها
بناء فى نوادى أضرمتها تجنبوا لى ذنوياً ما جنتها
يداي ولا أمرت ولانتهيت

انظر . أحمد شلبى، أوضح الإشارات، مصدر سابق، ص ١٥٧ ، وإبراهيم الصوالحى العرفى، تراجم الصواعق ، مصدر سابق ، ص ٨٩ .

١١- سنة ١٠٧١ واحد وسبعين وألف.

١٢- مدة ولايته : غرة حماد الآخر ١٠٧١- ٤ شوال ١٠٧٤هـ / ١ فبراير ١٦٦١- ٣٠ أبريل ١٦٦٤م.

١٣- الديوان . يقصد به الاجتماع الدورى الذى يعقده باشا مصر فى القلعة ويحضره كبار الموظفين فى السلك الإدارى بمصر كالروزنامجى والدفتردار ويحضره كذلك ضباط الأوجاقات والعلماء وكبار التجار وغيرهم ، وينقسم إلى قسمين : الديوان الخصوصى : وتغلب عليه الصفة التنفيذية ، والديوان العمومى، الذى يتسم بحضور أوسع ويحمل صفة استشارية غير ملزمة. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ . ص ٧٦ .

١٤- فرغ . أى تنازل عن حق فى منصب إدارى أو التزام أو مرتب. المصدر السابق، ص ٤٥١ .

١٥- كريد: جزيرة كريت التى كان العثمانيون قد قرروا فتحها فى تلك الفترة ، وجهزوا أسطولاً ضخماً وادعوا بأن الهدف منه هو غزو مالطا ، ولكن الحملة غيرت وجهتها بعد الانطلاق وحاصرت جزيرة كريت التى خضعت لهم إلا أن النادقة حاولوا استعادة سيطرتهم على الجزيرة فسيطروا على بعض المناطق منها وأهمها قلعة كانديه . يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية. اسطنبول ، ١٩٨٨ ، ص ٤٩٢-٤٩٤

١٦- بيورلدى: كلمة تركية تعنى الأمر العالى الصادر من الباشا ومحلى بالطغراء أو الختم. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤٢

١٧- مارس ١٦٦١م

١٨- السلطان محمد الرابع : اعتلى السلطان محمد بن إبراهيم سدة الحكم عقب عزل والده سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م، وكان عمره آنذاك ٦ سنوات و٧ أشهر، وعزل إثر تمرد للانكشارية فى ٢ محرم ١٠٩٩هـ / ٨ نوفمبر ١٦٨٧م، فكانت مدة حكمه ٣٩ سنة و٣ أشهر ، وتوفى فى ٨ ربيع الآخر سنة

١١٠٤هـ / ١٧ ديسمبر ١٦٩٢ بالغاً من العمر ثلاثة وخمسين عاماً . محمد فريد بيك المحامى ،
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٢٩-١٣٩

١٩- الخزينة : أو الخزنة فى الاصطلاح العثمانى هى مقدار ما يرسل إلى عاصمة الدولة العثمانية من
عوائد بعد إنفاق كل ما قرر السلطان إنفاقه فى مصر، حيث يتم إرساله سنوياً بمعية فرقة عسكرية
يرأسها «سردار الخزنة» . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى . ص ٨٤ .

٢٠- الخط الشريف : فرمان عالى سلطانى . المصدر السابق، ص ٤٤٦ .

٢١- وردت هنا عبارة غير واضحة.

٢٢- اللكات : مفردتها بلك وتسمى كذلك الأوجاقات ومفردتها أوجاق ، وهى كلمة تركية تطلق على
الطائفة من الجند وقد تكونت الحامية العثمانية فى مصر من سبعة أوجاقات . هى: المتفرقة والجاشان
والجمليان والتفكجيان والجراكسة والمستحفظان (ويطلق عليهم اسم الانكشارية) ، والعزبان .
مصطفى رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٣ ، ص ٧٣ .

٢٣- حجة . الورقة التى تحوى حكماً شرعياً أو تثبت اتفاقاً بين رجال الإدارة وغالباً ما تتم على يد
القاضى وتعرف بالحجة الشرعية . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ،
ص ٤٤٥ .

٢٤- الجوامك : مفردتها الجامكية ، وهى كلمة فارسية الأصل تطلق فى الأصل على المرتب الذى يصرف
لشراء ملابس، ثم استخدمت فى سجلات الروزنامة بمعنى المرتب الذى يعطى للموظف أو المعاش
الشهرى الذى يصرف للجنود . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٨٣ .

٢٥- يوليو ١٦٦١م

٢٦- الخاصكى هو الذى يلزم السلطان فى خلواته، وقد أخذ اسمه من الاختصاص ، ويطلق اسم
الخاصكية على الذين يسوقون المحمل الشريف ويجهزون المهام الشريفة، وكان فى مصر نوعان من
الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين يطلق عليهما لفظ الخاصكية ، فالأول هو وقف الخاصكية
المستجدة لوالدة السلطان أحمد ، والثانى هو وقف الخاصكية القديم، وكان أمير الحاج المصرى يحمل
معه كل عام إلى الحجاز صرة من ريع هذه الأوقاف وبعض الغلال التى كانت تسمى غلال الحرمين .
رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص ص ٧١-٧٢ ، ويلاحظ بأن المصنف يستخدم
كلمة خاصكى فى عدة مواضع من المخطوط للإشارة إلى الرسل الذين يأتون بالأوامر السلطانية من
اسطنبول.

٢٧- جمعية. اجتماع هام يعقده الأمراء المماليك وكبار موظفى الإدارة وكبار العلماء بأمر السلطة لحل مشكلة عامة تمس حياة الشعب. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤٤ .

٢٨- الدفتردار : أحد أهم المناصب فى النظام الإدارى بمصر، ويشرف صاحبها على مالية مصر ، وقد حل هذا المنصب محل وظيفة ناظر الأموال، وهيمن الأمراء المماليك على هذا المنصب ، الذى كان يعين صاحبه بأمر سلطانى . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٢٩٨-٣٠١ .

٢٩- سبتمبر ١٦٦١م .

٣٠- زعيم مصر . يقصد بذلك والى مصر ، المسؤول عن صيانة الأمن بالقاهرة، وكان هناك ثلاثة ولايات من هذا القبيل ؛ والى القاهرة ووالى بولاق ووالى مصر القديمة (الفسطاط) ، وكانوا جميعاً تحت رئاسة آغا الانكشارية. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص ٧٦ .

٣١- حاكم : استخدمت هذه الكلمة كلقب للصناجق المشرفين على أقاليم جرحا، الشرقية الغربية، المنوفية، البحيرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٤٤٥ .

٣٢- اغاوات الأوجاقات : هم ضباط الأوجاقات ورؤسائهم مثل: آغا الانكشارية وآغا العزب وغيرهم، وكان لأصحاب الرئاسة فى الأوجاقات حضور جلسات الديوان، والمشاركة فى اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية فى مصر. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٦ .

٣٣- الكتخدا : هو وكيل الباشا بمصر ، ويطلق عليه أيضاً لقب الكيخيا، وقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على كل من ينوب محل رئيس فرقة عسكرية أو منصب إدارى، رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٤ .

٣٤- الجوتية ، أى فرقة الجاوشان . جمع جاوش وهو الفارس، ومنهم أرباب الديوان العمومى الذين عليهم حضور الديوان لتحصيل الأموال الميرية، ومنهم أمير الشون الذى يشرف على شئون الغلال الاميرية، وكان لهذه الوظيفة أهميتها نظراً لأن الجزء الأكبر من أرض الصعيد كان يجبى ماله غلالاً، رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٤ .

٣٥- مايو ١٦٦٢م

٣٦- اليكجيرية وتسمى كذلك مستحفظان ، وتعتبر هذه الفرقة أهم فرق الحامية العثمانية فى مصر وقد أوكلت إليها أعمال المحافظة على القلعة وضبط مدينة القاهرة، وينسب لهذه الفرقة عدد كبير من أصحاب المناصب ، منهم الكتخدا وكيل الباشا ، ومنهم سردار الحج وسردار الخزنة ، ويقيمون فى

قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وقد خصصت لهم عوائد من رسوم بعض الجمارك في مصر القديمة وبولاق والاسكندرية ودمياط انظر: رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٥؛ وليلى عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص ٤٤٠.

٣٧- القلعة: مكان للحبس، كان يوجد داخل باب الانكشارية بالقلعة.

٣٨- البكرية: يرجع نسبهم إلى أبى بكر الصديق، وكان لهم مكانة كبيرة في المجتمع المصري، إبان العصر العثماني، وكانوا يدعون لحضور المجالس الرسمية كاجتماعات الديوان والجمعيات. ليلي عبد اللطيف، دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والسمام إبان العصر العثماني، مصدر سابق، ص ١٦٣.

٣٩- باب: مفرد أبواب، ويقصد بها ثكنات الأوجاقات في قلعة الجبل.

٤٠- كاشف: تطلق على حاكم الولاية الذي لم يبلغ مرتبة الصنجقية، ويطلق على المنطقة التي يحكمها لقب كشوفية، وكان دخل الكشاف من إيرادات الأراضي الزراعية التي تقع تحت إدارتهم، وعليهم مال يؤدونه إلى الحكومة نظير تعيينهم في هذه المناصب يسمى بالمال الميرى. والكشوفية هي الجزء الذي يخصم من إيرادات ضرائب الأقاليم ويخصص لتنفقات الإدارة المحلية. رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٩.

٤١- يوليو ١٦٦٢م.

٤٢- الرميطة: هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة، وكان يطلق عليه قرا ميدان، ومكانه الحالي: منطقة المنشية وميدان صلاح الدين أسفل القلعة.

٤٣- الفقارية: انقسم ممالك مصر خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى فرقتين رئيسيتين هما الفقارية والقاسمية، ويعتبر رضوان بيك الكبير (ت ١٠٦٦-١٦٥٥م) هو المؤسس الفعلي للبيت الفقاري الذي هيمن على عدة مناصب إدارية في مصر أبرزها إمارة الحج، التي تولاهما تابعه ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) لمدة أحد عشر عاماً، ومن ثم تولاهما تابعه إبراهيم بيك (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م) لمدة خمس سنوات، وتولى بعد إبراهيم بيك تابعه قسطنطين بيك (ت ١١٢٦هـ / ١٧١٤م) إمارة الحج لمدة خمس سنوات أخرى، وقد قتل أبرز رجال البيت الفقاري في الحادثة الشهيرة بواقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م انظر: إبراهيم بن أبى بكر الصوالحي العوفي، ترجم الصواعق في واقعة الصناجق، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٨٦.

٤٤- أمير الحاج: الصنجق المختص بالإشراف على سفر الحجاج والعودة بهم وتأمين طريقهم وأرواحهم وأموالهم وتوصيل الصرة إلى الحرمين الشريفين. ليلي عبد اللطيف، الإدارة في مصر في العصر العثماني، ص ٤٣٩.

٤٥- المتفرقة : تقوم خدمتهم فى مصر على حفظ القلاع الخارجة عن القاهرة ، مثل العريش والاسكندرية ودمياط وأبوقير وأسوان وأبريم وغيرها ، وللقلاع المذكورة أنفار معلومون وتصرف لهم مرتبات من حكومة القاهرة ، ومنهم الجبجى (فى الأصل جبه جى باشى) الذى يشرف على صناعة البارود المطلوب لحفظ القلاع . رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث ، ص ٧٤ .

٤٦- فرقة الجميلية: وهى تحريف لكلمة جنلليان، جمع فارس للكلمة التركية جنللو، وهم فرقة من الفرسان الموكل إليها حفظ الجسور السلطانية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، مصدر سابق، ص ٧٤ .

٤٧- الجرايات : مفردتها جراية، وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير، والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الإدارة . ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤٤ .

٤٨- المتقاعدین : المحالين إلى المعاش من موظفى ولاية مصر ، حيث كانت تصرف لهم مرتبات عينية. ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٩٨٠، ص ٤٤ .

٤٩- أغسطس ١٦٦٢م.

٥٠- الحبش : جعل العثمانيون من ميناء جدة، ومن بعض الموانئ التى خضعت لهم على ساحل البحر الأحمر المقابل مثل سواكن ومصوع باشوية خاصة سميت باسم ولاية الحبش، أو ولاية جدة، وأسندوا حكمها إلى أحد الباشاوات الذى كان يعين من قبل السلطة المركزية باسطنبول . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ، ص ١١٩ .

٥١- ورد فى الهامش : « ١٠٧٢ » .

٥٢- أمير اخور : كلمة فارسية مركبة من « أمير » وهى كلمة عربية، و« آخور » كلمة فارسية معناها الاصطبل ، وكانت تطلق على الشخص المنوط به أمور الخيل، أى ناظر اصطبلات الخيل، ونظراً لارتباط القائمين على الخيول بمهام البريد بين مركز الدولة وأقاليمها فقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على المسؤولين الذين توكل إليهم مهمة توصيل المراسلات الرسمية. رمضان ، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧١ .

٥٣- أولاق : تعنى الرسول.

٥٤- سردار : أى قائد القوات المصرية المتوجهة لجهات القتال بأوامر من السلطة المركزية ، أو لشن حملات عسكرية محلية ضد العربان فى مصر بتوجيه من الباشا.

٥٥- العادليه : هى القبة التى بناها السلطان الملك العادل طومان باى فوق تربته التى عرفت بالعادليه.

٥٦- فبراير ١٦٦٣م.

٥٧- صنجق كلمة تركية تعنى علم، وتطلق فى المصطلحات الإدارية على قسم من ولاية كبيرة، كما تطلق على الحاكم لقسم من الولاية، وكان فى مصر ٢٤ صنجقاً يعين منهم السلطان صناجق الثغور المهمة كالاسكندرية ودمياط والسويس، ومن أهم هذه الصنجقيات فى مصر العثمانية صنجقيات حرجا والشرقية والغربية والمنوفية، والمهيرة، رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٩

٥٨- مارس ١٦٦٤م

٥٩- اختيارية الأوجاقات . هم المسنون من رجال الفرق العسكرية ووجهائهم وأقدمهم فى الخدمة رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٥

٦٠- الملتمزم . الشخص الذى يتعهد بتحصيل الأموال الأميرية المقررة على أرض أو جمر أو جمر وبيور للخرينة الضريبة المقررة كخراج، ويحتفظ بالباقي كريع له . ليلى عبد اللطيف، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٥٦ .

٦١- الأمناء : هم أمناء شؤون الغلال بميناء بولاق آنذاك، والمتعهدون بالحفاظ عليها وحفظ حساباتها وغلالها، والمسؤولون كذلك عن جمع الغلال والتبن والأرز، وغير ذلك وإحضارها إلى الوكالات ببولاق ومصر القديمة . أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، ص ١٧ .

٦٢- الجراكسة : تلفظ أحياناً «الشراكسة»، وهى فرقة تتكون من فرسان المماليك، المصدر السابق، ص ٧٥ .

٦٣- الكشيدة . كلمة فارسية تعنى «المحرر».

٦٤- أفندى . كلمة تركية تعنى المولى أو السيد أو الخواجة، ويشترط فى الأفندى العلم، وقد لقب بهذا اللقب العلماء والكتاب وجمع بين الفريقين كونهم من أهل العلم، كما كان لكل ملك من الملكات العسكرية فى مصر أفندى . ليلى عبد اللطيف، دراسات فى تاريخ مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص ٢٢ .

٦٥- تنبيه جمعها «تنبيه» وهى تذاكر الدعوات التى كانت ترسل لأعضاء الديوان العالى لحضور اجتماعاته. ليلى عبد اللطيف، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤٣

٦٦- أبريل ١٦٦٤م

٦٧- قائم قام: منصب كان يشغله الشخص الذى يتولى عمل الشا فى فترة خلو منصب الباشوية، سواء بعزل الشا أو وفاته، وكان هذا المنصب يسند إلى قاضى القضاة أو الدفتردار، ولكن عندما ازداد نفوذ الأمراء المماليك أصبح هذا المنصب يسند إلى أحدهم، ص ١١٨-١٢٠

- ٦٨- مضاف : الضريبة المستجدة التى تمثل زيادة فى الأموال الأميرية ، المصدر السابق، ص ٤٥٦ .
- ٦٩- كان إقليم الغربية يشكل أحد مصادر إيرادات الخزينة ، وخصص له فى الروزنامة دفترًا لتدوين إيرادات ضرائب الأرض فى إقليم الغربية والمنوفية ويرأسه أفندى الغربية ويساعده ثلاثة مباشرين . ليلى عبد اللطيف ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص ٢٤ .
- ٧٠- العرقانة : السجن الرئيسى فى قلعة الجبل.
- ٧١- أبريل ١٦٦٤م.
- ٧٢- فى الهامش : «مطلب ابراهيم» .
- ٧٣- مايو ١٦٦٤م.
- ٧٤- أوضه باشى : رئيس إحدى أورط الانكشارية التى تقيم فى أوضه (غرفة) وياش أوضه باشى هو رئيس الأوضه باشية . ليلى عبد اللطيف الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص ٤٤١ .
- ٧٥- مدة ولايته : ١٥ ذو الحجة ١٠٧٤ - غاية رمضان ١٠٧٧هـ / ٨ يوليو ١٦٦٤ - ٢٦ مارس ١٦٦٧م.
- ٧٦- الزينة : مظاهر الاحتفال التى تتم فى القاهرة فى مناسبات عديدة بأمر من السلطان العثمانى، منها انتصارات الجيوش العثمانية وكذلك لدى قدوم الخبر بمولود جديد للسلطان وتزين مصر كذلك عندما يرد الخبر بتولى سلطان جديد سدة الحكم فى اسطنبول ، وتتضمن مظاهر الزينة إطلاق المدافع والألعاب النارية وتقديم الرجبات وعزف الموسيقى الرسمية وغيرها من مظاهر الاحتفال.
- ٧٧- الروزنامة : كلمة فارسية مكونة من لفظين «روز» بمعنى يوم أو نهار، ونامه بمعنى سجل أو كتاب، فيكون معناها سجلات الأصول اليومية، ويسمى رئيسها «الروزنامجى» وكتبه الروزنامه يسمون «أفندية الروزنامة» وكانت الروزنامة تكتب بخط القزمية التى تعتمد على رموز يصعب قراءتها من قبل غير المتخصصين رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٨٥ .
- ٧٨- أغفل الكاتب اسم قائم مقام ، ولم تذكر المصادر الأخرى من الذى عين قائم مقام بمصر لدى عزل إبراهيم باشا، ولعله أويس بيك الذى تم قتله سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٥م، كما سيأتى ذكره .
- ٧٩- حسن آغا بلفية (ت ١١١٥ هـ / ١٧٠٣م) : من زعماء البيت الفقارى، زوج ابنته لاسماعيل بيك الدفتردار وأنجبت له ابنه محمد بيك (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦م) الذى آلت إليه سيادة البيت الفقارى، وقد انقسم البيت الفقارى فيما بعد إلى عدة أقسام أشهرها الفازدغلية التى تنسب لمصطفى الفازدغلى (ت ١١١٥ هـ / ١٧٠٣م) ومن أتباعه كذلك ذو الفقار بيك (ت ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩م)

الذى آلت إليه مشيخة البلد فيما بعد. بشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية ١٠٩٩-١١٤٣هـ / ١٦٨٧-١٧٣٠م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن، ص ٢٣١

٨٠- سبتمبر ١٦٦٤م.

٨١- العزب: أو عزبان فى الأصل نوع من جند البحرية، وقد وجد فى مصر أوجاق عزبان وهو ثانى الأوجاقات أهمية بعد الانكشارية، وعهد إليهم بمهمة حراسة القلعة والإشراف على جمارك البحرين وترسانة الاسكندرية، ومنهم أمين البحرين وأمين الخردة وخصصت لهم عوائد من هذين المصدرين بعد استخلاص المال الميرى، مصطفى رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٥.

٨٢- فرقة السباهية: وتكتب كذلك «الاسباهية» وتعنى الخيالة، وتطلق على الأوجاقات الثلاثة: الجمليان والتفكجيان والجراكسة، ومهمتهم خدمة الباشا ورحاله فى القاهرة، وخدمة عمالهم فى الأقاليم بواسطة من يقيم فيها من أفراد هذه الأوجاقات المصدر السابق، ص ٧٥.

٨٣- نوفمبر ١٦٦٤م.

٨٤- قاضى عسكر هو قاضى القضاة فى مصر إبان العصر العثمانى، وهو نائب السلطان فى الأحكام الشرعية ومذهبه حنفى، يعينه السلطان لإدارة شؤون المحاكم بمصر، وتعيين النظار على الأوقاف، وله حق حضور الديوان الخصوصى، وكان يتبعه بعض المترجمين، ومقره فى محكمة الديوان العالى، وله نواب فى محاكم القاهرة والأقاليم، رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، ص ٧٧.

٨٥- وطاق: هى الكلمة التركية أوتاق أو تاغ وقد دخلت فى اللغة الفارسية فى صيغ أطاق وأتاق وأتاغ بمعنى الغرفة، والأطاق فى التركية اسم للخيمة الكبيرة المزخرفة، والوطاق فى العربية هو الخيمة والمعسكر المكون من خيام. انظر تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن فى: أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، ص ٤٦.

٨٦- ديسمبر ١٦٦٤م.

٨٧- ذو الفقار بيك (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) : من أعيان البيت الفقارى، تولى إمارة الحاج لمدة أحد عشر عاماً وقد تولى زعامة الفقارية عقب مقتل سيده حسن بيك فى واقعة الصناجق سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م. بشير زين العابدين، النظام السياسى لمصر العثمانية، ص ٢٣١.

٨٨- كان إقليم الشرقية يوفر إيرادات للخزينة المركزية وخصص له فى الرزوناة دفتر لتدوين إيرادات ضرائب الأرض التى كانت تحصل من مقاطعات الأرض فى أقاليم الشرقية، المنصورة المنزلة، قليب،

البحيرة، الطرانة، اطفيج ، فارسكور، قطيا والواحات، ويرأس هذا القلم أفندى الشرقية ويساعده خمسة مباشرين أو خلفاء ، ليلى عبد اللطيف، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، ص٢٣ .

٨٩- أغات الانكشارية : قائد فرقة الانكشارية وله الرئاسة على أغوات باقى الفرق، واختص بحفظ الأمن فى القاهرة، ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٤٣٨ .

٩٠- الروزنامجى : رئيس ديوان الروزنامة والمشرف على أفنديتها ، المصدر السابق، ص٤٤٧ .

٩١- ورد ذكر مصطفى بن سهراب أفندى أيضا فى : تحفة الأحباب ، مصدر سابق، ص١٠٣ ، وكذلك فى: أوضح الإشارات ، مصدر سابق، ص١٦٣ ، حيث أضاف أحمد شلبى بأنه كان : «عارفا بعلم الرمل والزائرجية والروحانى والنجم والميقات والكيمياء» وذكر على بن رضوان تفاصيل ما أمر السلطان العثمانى باستحدثائه فى مصر لدى عودة ابن سهراب مما أدى إلى سعد كيخية الباشا لقتله بالسم . على بن رضوان ، زبدة الاختصار، ص١٤٣-١٤٤ .

٩٢- فبراير ١٦٦٥م.

٩٣- قرا ميدان : هو الميدان الممتد أسفل سور القلعة فى الناحية الشمالية الغربية، ومكانه الحالى منطقة المنشية وميدان صلاح الدين بقسم الخليفة . تعليق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص٨ .

٩٤- ضربه: هكذا وردت فى النص، وقد وردت فى مصادر أخرى بصيغ مختلفة مثل: «الطرب والزرب» وهى جمع «زربة التركية، وتعنى العصاة من العسكر، أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات، ص١٦٢ .

٩٥- تجريدة : حملة عسكرية يوجهها الباشا لمحاربة المتمردين من أمراء المماليك أو العريان . ليلى عبد اللطيف، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٢ .

٩٦- أغفل الكاتب ذكر الجماعة التى ينتمى إليها أحمد باش جاويش الجراكسة.

٩٧- أبريل ١٦٦٥م.

٩٨- علوفات : مفردها علوفة وهى مرتبات العسكر. ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٥٠ .

٩٩- يناير ١٦٦٥م.

١٠٠- يوليو ١٦٦٥م.

١٠١- أغسطس ١٦٦٥م.

١٠٢- السرايا: كلمة تركية مأخوذة من الفارسية ومعناها القصر، والسرايا المذكورة هنا هي القصر المخصص لسكنى الباشا فى القلعة، وقد هدمت هذه السرايات فى عهد محمد على وبنى مكانها قصر الجوهرة الحالى . أحمد الدمراشى ، الدرة المصانة، مصدر سابق، ص ٧ .

١٠٣- وردت هنا عبارة غير واضحة.

١٠٤- جامع المؤيد . انتأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ الحمودى الظاهرى، وكان الفراغ من بناءه فى ربيع الأول ٨١٩هـ / ١٤١٦م، ووقف عليه عدة مواضع بمصر والشام ، على مبارك ، الخطط الترفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ ، ج ٥ ، ص ١٢٤-١٢٨

١٠٥- حوا الجوامع : أى داخل الجوامع

١٠٦- ٥ ستمبر ١٦٦٥م.

١٠٧- التريفى: عملة تركية أعلى قيمة من الريال الحجر والريال البندقى. وكانت قيمتها تختلف من فترة لأخرى ، ففى سنة ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م على سبيل المثال ، كانت تعادل ٨٥ نصف فضة ، ثم ارتفعت بعد ذلك لتتجاوز ١٠٠ نصف فضة فى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى، انظر تاريخ محمد ابن محمود، مصدر سابق، ص ٣٩

١٠٨- سنة ١٠٧٦

مصادر ومراجع التحقيق

- ١- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى العوفى، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٦ .
- ٢- أحمد الدمرداشى، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨٩م.
- ٣- أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فىمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٤- بشير زين العابدين ، النظام السياسى لمصر العثمانية ١٠٩٩- ١١٤٣هـ / ١٦٨٤- ١٧٣٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الدراسات الشرقية والإفريقية ، جامعة لندن، ١٩٩٩ .
- ٥- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، القاهرة ١٩٠٤ .
- ٦- على بن رضوان ، زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة، تحقيق بشير زين العابدين ، دار الفضيلة ، القاهرة ٢٠٠٦ .
- ٧- على مبارك الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩ .
- ٨- ليلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٩- ——— دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى القاهرة، ١٩٨٠ .
- ١٠- محمد رمزى ، القاموس الجغرافى، دار الكتاب المصرى، القاهرة ١٩٥٤ .
- ١١- محمد فريد بيك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٧ .

- ١٢- محمد بن محمود ، تاريخ مصر ابتداء من وقعة الضرب، تحقيق بشير زين العابدين، دار الفضيلة القاهرة، ٢٠٠٧ .
- ١٣- مصطفى رمضان، مصادر تاريخ مصر الحديث، جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٨٣ .
- ١٤- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية، اسطنبول ١٩٨٨ .
- ١٥- يوسف اللوانى، تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب، مخطوط رقم ٥٦٢٣ تاريخ، دار الكتب المصرية ، القاهرة.

دكتور السيد حسين جلال *

التاريخ الاجتماعى لسكان منطقة برزخ السويس

(فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)

جغرافية برزخ السويس وأهميته :

يقصد بمنطقة برزخ السويس الجزء الواقع بين خليج الطينة شمالاً على البحر المتوسط ومدينة السويس جنوباً على قمة خليج السويس. وهى أرض سهلة لاتخترقها عقبات طبيعية ولا تعترضها أى تضاريس يمكن أن تحول دون الحركة السهلة بين البحرين أو بين البرين الآسيوى والأفريقى ، والبرزخ صحراوى أو شبه صحراوى وكان أحد أفرع النيل يتجه شمالاً بشرق ليروى أطرافه الشمالية. كما أن عدم وجود عقبات نباتية ، كالغابات ، سهل أمر الحركة البشرية عبره خلال العصور التاريخية .

كما أن هذا البرزخ كان يتعرض أيضاً لطغيان الماء فى جزئه الشمالى أو الجنوبى أو كلاهما معاً فى بعض فترات العصر الجيولوجى الأخير والعصر الجيولوجى الحديث. لقد كان هناك ذراع ضحل من الماء يغطى خليج السويس خلال العصر الكربونى. كما يدل إرساب الصخور الرملية من الخرسان الجنوبى فى العصر الكرياسى الأسفل على أن البحر ظل طاغياً فى منطقة الخليج من العصر الكربونى حتى العصر السينومانى. ولقد استمر هبوط الخليج فى أواخر الزمن الجيولوجى الثانى . وطغى الماء على حواف الخليج الجنوبية وانحساره عن حوافه الشمالية ، ثم حدث تجدد فى هبوط الخليج فى عصر الأيوسين الأوسط . ولقد خلقت هذه الحركات الأرضية لحديث سلسلة من البحيرات الضحلة ، بعضها يمتد من خليج السويس شمالاً وينقطع عنه،

مثل البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، وبعضها امتداد للبحر المتوسط جنوباً مثل بحيرة المنزلة.

غير أن البرزخ الأرضي ظل موجوداً خلال العصور التاريخية يصل بين آسيا وأفريقيا، أى أن هناك طريق برى يصل بين شمال سيناء والدلتا خلال التاريخ الإنسانى المعروف ويقع هذا البرزخ شمالى بحيرة التمساح وجنوبى طرف بحيرة المنزلة الجنوبي. أما البرزخ الذى يقع جنوبى بحيرة التمساح فلم يكن أرضاً يابسة باستمرار فمن المؤكد أن البحيرات المرة كانت أكثر اتصالاً خلال فترات أطول من الزمن بالطرف الشمالى لخليج السويس^(١).

والطريقان البريان اللذان كانا يمران بهذه المنطقة هما: طريق وادى الطميلات والطريق الصحراوى أو طريق الحجاج، ويرجعان إلى عصر ما قبل الأسرات . وكانا بخيرحان من مدينة منف ، وهى نقطة تلاقى أكثر الخطوط الرئيسية فى مصر ، ثم يتبعان ضفة النيل اليمسى حتى بابلليون (مصر القديمة) ومنها إلى هليوبوليس (المطرية) حيث كانا يفترقان . فكان طريق وادى الطميلات يتجه نحو الشمال الشرقى أما الطريق الصحراوى فإنه بعد انفصاله عن الطريق السابق عند هليوبوليس كان ينثنى نحو الشرق ويتجه مباشرة نحو السويس مخترقاً الصحراء^(٢).

وبرزخ السويس هو ملتقى البرين ومفرق البحرين ، وقد لعبت هذه المنطقة دوراً هاماً فى تاريخ مصر والإنسانية كلها ، فهى بحق مدخل مصر الشرقى، وعن طريقه دخلت جميع الهجرات البشرية من جنوبى غربى آسيا . كما أنه حلقة الوصل بين مصر وشقيقاتها العربيات فى جنوبى غربى آسيا . وعن طريقها شاركت مصر فى المؤثرات السامية أو العربية القديمة التى كانت تموج بها شبه جزيرة العرب وبلاد الشام .

عمال السخرة فى برزخ السويس :

جاء فى عقد الامتياز الثانى (٥ يناير ١٨٥٦) بالمادة الثانية نص على أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة يجب أن يكون على الأقل أربعة أخماس مجموع العمال. فقد كان يتعذر على الشركة أن تستخدم أفواجاً هائلة من العمال الأوربيين يقيمون فى صحراء برزخ السويس لتنفيذ المشروع فى مراحله الأولى، فقد كانت هناك مخاطر شديدة لاستخدام العمالة الأوربية على نطاق واسع أمر يكاد يكون مستحيل للشركة بعد تأسيسها للأسباب الآتية :

١- ارتفاع أجور العمال الأوربيين فى سبيل الإغتراب والعمل فى الصحراء وهو أمر لم تكن تستطيع أن تتحمله ميزانية الشركة الناشئة .

٢- إن إنتاجية العامل الأوربى منخفضة بالنسبة للعامل المصرى .

٣- لم يألف العمال الأوربيين الجو الحار وتعرضون للأمراض التى تصيبهم من شدة الحر فتفتك بهم .

٤- امتاز العمال المصريون بقوة الاحتمال والصبر والقدرة على متابعة العمل المضنى فى الجو الصحراوى الحار .

٥- اختلاف عادات العمال المصريين عن عادات العمال الأوربيين ، فنجد الأولين تعودوا على التقشف والقناعة ، بينما نجد فى الآخرين ميلاً إلى الإفراط فى الخمر ونزوعاً إلى الملذات والنسائيات وانكباباً على لعب الميسر^(٣) .

أيضاً وصلت إلى الشركة اقتراحات بإرسال عمال صينيين إلى برزخ السويس للقيام بأعمال الحفر . وقد تم تقديم أدلة فى صالح هذا المشروع تمتدح مميزات العمال الصينيين، مثل صلابتهم وأسلوب التغذية التى يسهل إشباعها فى مصر .

وشمل هذا العرض من خمسة آلاف إلى عشرين ألف عامل يتعاقدون لمدة خمس سنوات . ولكن لم تنل عروض الخدمة «الصينية» رضاء وموافقة الشركة^(٤) .

أضف إلى ذلك أن توافد عدد ضخم من العمال الأجانب إلى برزخ السويس يسبب صعوبات مادية وسياسية ، بل إن السلطات المصرية خشيت من احتلال أراضيها . ثم أن الحكومة العثمانية خافت أن تساعد قوى أجنبية مصر فى حصولها على الاستقلال ، وأخيراً الخارجية البريطانية التى لن ترضى أن ترى فرنسا توطد علاقاتها ونفوذها بهذه الطريقة فى هذا القطر^(٥) .

مساعى الشركة لجلب عمال عرب فى البرزخ :

سعت الشركة فى بادئ الأمر لجذب عمال عرب من مصر والشام والحجاز للعمل فى ساحات الحفر ، وكونت لجنة مهدت إليها بالطواف فى قرى الوجه البحرى واستمالة العمال المصريين للالتحاق بخدمة الشركة فى البرزخ^(٦) . وفى ظل التدابير التى اتخذها سعيد باشا نجحت الشركة فى استخدام أفواجاً من سكان بحيرة المنزلة فى حفر القناة البحرية الصغيرة (La Ri- gole De Service) فى منطقة البحيرة . وشكل صيادو بحيرة المنزلة أول مجموعة كبيرة من

عمال الحفر الذين خدموا ورش الشركة . وقاموا طوال عام ١٨٦٠ بحفر مجرى مياه عبر البحيرة . وقد عانى هؤلاء العمال الذين قاموا بعمليات الحفر الأولى وسط هذا المستنقع الأسود الشاسع المكون من الطمي الموحل فقد كانوا ينحنون للأمام ويغرسون الأقدام والأرجل حتى الركب فى المياه ليأخذوا بأيديهم أكوام التراب من القاع بعد أن يقوموا بتقليبها بالفأس ، وتنقل بعد ذلك هذه الأكوام من يد لأخرى حتى الشاطئ . وضاعف من مشقة هذا العمل القائم على أساليب بدائية روائح الهيدروجين المكبرت المنبعثة من الطين المتقلب تحت الشمس المحرقة وبلغ مجموع ما تم استخراجه أربعمئة ألف متر مكعب من الطين بهذه الطريقة (٧).

ويصف أحد الكتاب الإنجليز (A. Wilson) هؤلاء العمال التعساء بقوله :

“To these men , unhonoured and unsung, their posterity owes a debt which it has , perhaps fortunately, not attempted to symbolize by any monuments of marble or perennis” (٨)

« إن هؤلاء الرجال التعساء لم يحظوا من خلفائهم بأى ذكر حتى بتخليدهم بتمثال من

رخام»

والفترة من عام ١٨٥٩ حتى ١٨٦٠ شهدت تحركا فاشلا من الشركة لجمع العمال من الشام ومصر ، وقامت بدعاية كاذبة مفادها أن الشركة قد انشأت قرى لسكنى العمال وأنها أقامت مسجداً فى كل موقع وأن ماء الشرب متوفرا وأن الأجور على أساس إنتاجهم وليس على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى ساحات الحفر وأن أجر العامل سيتراوح بين ستة قروش وثمانية فى اليوم وأن يترك للعمال حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين وأضاف دى لسبس أنه حرم على الرؤساء الأوربيين مهما كانت مناصبهم أو درجاتهم ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم (٩).

وقد طبع من هذا الإعلان آلاف النسخ وزعت فى المدن والقرى وألصقت نسخ منها على أبواب المساجد ومحطات السكك الحديدية وأقسام البوليس والأسواق والشوارع الأهلة بالسكان، كما علقت منه نسخ فى ساحات الحفر المختلفة (١٠).

كما أن الشيخ رفاعة الطهطاوى كان من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر بعد أن وطد دى لسبس علاقته معه . وقد نظم قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة وتمت ترجمتهما للفرنسية (١١).

وعلى الرغم من كل الجهود ووسائل الدعاية وتنوعها لجمع أعداد كبيرة من العمال، إلا أنها لم تسفر عن نجاح يذكر، وفشلت جهودها في حركة جمع العمال العرب وفق الطريقة الحرة.

وهنا بدأت مرحلة جديدة لدى لسبس ، فقد كانت المادة الثانية من عقد الامتياز الثانى (١٨٥٦) هى الركيزة القوية فى تنفيذ المشروع والتي جعل منها دى لسبس أساساً لنظام السخرة فى حفر قناة السويس ورتب عليها وفرع منها حقوقاً جديدة للشركة صاغتها «لائحة استخدام العمال الوطنيين فى أشغال قناة السويس» استصدرها من صديقة محمد سعيد فى ٢٠ يوليو ١٨٥٦^(١٢). وتنفيذا لهذه المادة وتطبيقاً لهذه اللائحة فقد سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق قناة السويس . فقد كانت قوافل عمال السخرة تسحب سيراً على الأقدام إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس وقد ربط بعضهم ببعض كالجبال أو مثل قطعان العبيد فى أفريقيا والتي كان يسوقها تجار الرقيق ومن الأقاليم الداخلية إلى الساحل حيث تكون السفن فى انتظارهم لنقل هذه السلع الآدمية^(١٣).

وكان الوالى (سعيد باشا) قد اصدر أوامره لمديرى الأقاليم لحشد عمال السخرة بحيث وصل عددهم فى نهاية ديسمبر ١٨٦١ إلى خمسة عشر ألف رجل، على أن يزداد هذا العدد خلال الشهور التالية إلى خمسة وعشرين ألف مصرى، وذلك بالإضافة إلى جموع أخرى من العمال وعد سعيد بأن يبعث بها من أقاصى الصعيد^(١٤).

وقد استخدم دى لسبس كل الضغوط النفسية على صديقه سعيد باشا، تارة بأن التاريخ سيخلده بحفر القناة وأخرى بأن أوروبا ستنظر إليه أنه حاكم مستنير ، وأحياناً يستعين بالضغوط الدبلوماسية من جانب الحكومة الفرنسية والإمبراطور نابليون الثالث للوصول إلى أهدافه .

وقد أجمعت الدراسات أن الحشد الآدمى فى ساحات الحفر فى برزخ السويس كان لا يقل عن عشرين ألف رجل شهرياً طوال عام ١٨٦٢ . فالباب العالى أعلن أن عمال السخرة (Forced Labor) فى البرزخ بلغت ستين ألف رجل شهرياً ، وهذه العمالة قد استبعدت من مزارعها، وبذلك عطلت إنتاجية البلاد وقد استند الباب العالى فى حساباته لهذا الرقم إلى الآتى :

العاملون فى ساحات الحفر بلغ عددهم ٢٠.٠٠٠ عامل وهى الحصص الشهرية التى التزم الخديوى سعيد بتقديمها للشركة، ومثلهم عشرون ألف آخرون فى طريقهم للعودة لديارهم، وعشرون ألف آخرون يشدون رحالهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ، فيكون المجموع ستون ألف

رجل . وهكذا أضررت الزراعة فى مصر من جراء غياب هذا العدد الضخم ضرراً بالغاً (١٥) .
وقد بلغ إجمالى عدد المصريين الذين أكرهوا على الحفر خلال عام ١٨٦٢ (وهى السنة التى شهدت أكبر حشد بشرى فى تاريخ الشركة) ربع مليون مصرى وهو عدد هائل بالنسبة لتعداد مصر فى هذه السنة وهو حوالى ٨ , ٤ مليون نسمة .

وكانت أفواج العمال يتتابع قدومها شهراً بعد شهر مجتازة فى طريقها إلى البرزخ وعودتها منه الوجه القبلى والوجه البحرى . وأشرف موظفو الحكومة المصرية على جمع العمال وإرسالهم ومرافقتهم . وكان يصحبهم أيضاً أحد ضباط الشرطة من المديرية التى يقدمها الفوج حتى يتم وصولها إلى الزقازيق ، حيث يتم تسليم الأنفار إلى مندوب شركة القناة هناك (١٦) .

وكان سفر عمال الوجه القبلى يتم بالسفن النيلية إلى القاهرة، ومنها بالسكك الحديدية إلى بنها والزقازيق - نهاية الخط الحديدى آنذاك - ومن هناك يساقون زمراً إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس، سيراً على الأقدام تحت الحراسة المشددة وكانوا يقطعون المسافة فى أربعة أيام . أما الوجه البحرى فكانوا يسافرون إما بالسكك الحديدية وإما فى السفن النيلية حتى يصلوا إلى الزقازيق ومنها إلى ساحات الحفر سيراً على الأقدام (١٧) .

ويقوم مندوبو الشركة - فى الزقازيق - بعملية فرز للعمال، فيستبعدون العمال هزيلى الأجسام ويأخذون الشبان الأقوياء الأصحاء ويوقعون إقراراً بتسلم السخرة ويذكرون فيه عددهم، ثم يرسل الإقرار إلى مدير المديرية التى وفد منها أفراد الفوج . ثم تصدر الأوامر للفوج باستئناف السير إلى ساحات الحفر بالبرزخ سيراً على الأقدام . وكان يسير فى مقدمة الفوج عدد من الجمال تحمل أمتعه العمال وزكائب تحوى ماكلهم وقلل الماء ، ثم يسير العمال فى خط طويل خلف الجمال (١٨) .

ويصل عمال السخرة إلى ساحات الحفر منهوكى القوى بعد هذا السفر الطويل الشاق، وهناك تبدأ عملية فرز أخرى بعد عملية الفرز الأولى التى تمت فى الزقازيق . فيقسم رجال الشركة العمال إلى فريقين ، فريق قوى وفريق ألقى . ويعطى كل عامل من الفريق القوى قفة يضع فيها الأنقاض التى تتخلف من عملية الحفر ثم يحملها ليلقى بمحتوياتها بعيداً عن مجرى القناة ، أما عمال الفريق الألقى فيعطى كل منهم فأساً يضرب به الأرض لحفر القناة، ويهبط فى الأرض إلى أن يبلغ فى حفرها العمق المطلوب . وكان العامل قبل أن يشرع فى عمليات الحفر يقوم بخلع جلبابه ويلقى به جانبا على الأرض، ويجواره قلة الماء يشترك معه

فيها عدد من زملائه . وكان العامل يشتغل فى ظل إكراه المشايخ : وكان « الشيخ » يمسك يده طوال النهار بالكرباج بضرب به كل من يتكاسل عن العمل ، وكان العامل يشترك فى عمليات الحفر لمدة شهر واحد يسمح به بعد انتهائه بالعودة إلى قريته . وكانوا يغادرون البرزخ بمجرد انتهاء المدة المفروضة عليهم ، وكان الكثيرون منهم يتمنون الفرص للهرب مع إنه لم يمض عليهم بضعة أيام فى ساحات الحفر ، وعلى الرغم من الرقابة المشددة عليهم ، وقد ضجت شركة القناة من تعدد حوادث الهرب^(١٩).

الوضع المأساوى لعمال السخرة فى ساحات الحفر :

أولاً مشكلة الماء العذب :

تعد هذه المشكلة من أعقد المشاكل التى واجهت الشركة وجيوش عمال السخرة فى صحراء البرزخ القاحلة فالماء ضرورى للحياة ، وكانت هناك بعض الآبار التى يستعملها البدو ، ولم تكن بالقدر الكافى لتوفير إمداد منتظم لسكان فى ازدياد مستمر . فالآبار التى قامت بحفرها قافلة الدراسات^(٢٠) ، لاتعطى إلا مياه شديدة الملوحة وغير وفيرة . ولتموين عمال الحفر فى بورسعيد بالمياه قامت الشركة بطلب إلى صناع من امستردام لتصنيع ثلاثة أجهزة لتقطير مياه البحر ، يوفر كل جهاز خمسة آلاف لتر ماء يومياً^(٢١) . ولكن ظل إنتاج هذه الأجهزة ضعيفاً بالنسبة لكميات الفحم التى تستهلكها وتكاليفها المرتفعة^(٢٢).

وكانت الشركة قد لجأت إلى أحد كبار المصريين المشتغلين بتجارة صيد الأسماك (مصطفى عنانى بك) فى منطقة بحيرة المنزلة ، امتلك أعداداً كبيرة من سفن الصيد واتفقت معه على أن يرسل كميات من الماء العذب لاتقل عن ستة أمتار مكعبة فى اليوم ويضعها فى براميل تقدمها له الشركة وينقلها فى قواربه لترسو بها تجاه الفنار المقام فى ميناء بورسعيد ، وذلك مقابل ستة فرنكات للمتر المكعب من الماء . وكان هذا الاتفاق فى مصلحة الشركة ، إذ كان المتر المكعب من الماء الذى تنتجه المكشفات يكلف الشركة عشرين فرنكاً ولم يستمر هذا الاتفاق طويلاً فقد اعتمدت الشركة على وسائلها الخاصة فى جلب ماء الشرب عبر بحيرة المنزلة^(٢٣).

ثم بعد ذلك تم التعاقد مع محمد الجيار فى يونيو ١٨٦١ (مالك قوارب مشهور فى بحيرة المنزلة) تعهد بتوصيل المياه إلى معسكر العمل على بحيرة الشاطئ ، ويتم تخزين المياه بمجرد أن تصل بالقارب من دمياط ، واتضح أن تزويد المياه عن طريق القوارب هى الوسيلة الأقل

تكلفة بعد أن تم توفير كميات المياه الضرورية وكانت احتياجات الاستهلاك تتراوح بين ١٦ ألف إلى ١٧ ألف لتر يومياً . ومع الوقت استمر انخفاض السعر الذى طلبه الجيار من ١٦ فرنك إلى عشرة فرنكات للمتر مكعب فى عام ١٨٦٢ ، ثم إلى ٥ , ٥ فرنك فى عام ١٨٦٤ . وكان كل زورق يحمل خزانين من الصفيح قدمتهما الشركة ، سعة كل منهما متر مكعب^(٢٤) .

وكان يتم توزيع المياه لأماكن إقامة العمال بواسطة السقاين ويدفع الخاصة ١٢ , ٧٥ فرنكا للمتر المكعب ، أما ساحات الحفر فى البرزخ فيتم تزويدها بالمياه بواسطة الجمار وعند وصول المياه إلى المخيم تنقل فى براميل وتفرغ فى صناديق من الصفيح أعدت لهذا الغرض^(٢٥) .

استمر الاتفاق نافذاً مع محمد الجيار حتى فرغت الشركة من مد خط أنابيب الماء من الإسمايلية إلى بورسعيد فى أبريل ١٨٦٤^(٢٦) . وأيضاً كانت المياه تصل من الإسكندرية إلى بورسعيد بالسفن ولكن غالباً ما تحول حالة البحر دون رسو السفن على الشاطئ .

وكانت مشكلة إمدادات المياه العذبة لعمال السخرة بعد تزايد أعدادهم فى ساحات الحفر عقبة أمام الشركة بعد أن مات العديد من العمال عطشاً فى ساحات الحفر لنقص المياه ، وكانت الشركة - حصّات فى تقدير وتقييم احتياجات العمال من الماء وقت أن دفعتهم لساحات الحفر فى البرزخ وخاصة فى منطقة الجسر خلال عام ١٨٦٢^(٢٧) . وكان الموقف مروّعاً فى أعماق صحراء البرزخ فى القنطرة والفردان ومرتفعات عتبة الجسر حتى بحيرة التمساح ، وأخذت الشركة تنقل الماء إلى العمال فى ساحات الحفر من بعض آبار متناثرة فى الصحراء فى أبوصير (غرب عتبة الجسر) وفى نفيسة وفى أبوشنان (جنوبى القنطرة) . وكان هذا الأسلوب الذى سارت عليه الشركة فى جلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر بدائياً باعتراف أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس (فونتان ماريوس)^(٢٨) وكانت قافلة الجمال - التى تنقل المياه - تستغرق أربعة أيام فى ذهابها إلى مورد الماء فى القنطرة والعودة منه^(٢٩) . وإذا تأخر وصول القافلة كان الموت يحصد العمال حصداً^(٣٠) .

وكان عمال السخرة « يعاملون بمنتهى القسوة ويموتون كالذباب » وذلك على حد وصف ألبرت فارمان (قنصل عام الولايات المتحدة فى ذلك الوقت)^(٣١) أما كاتب آخر (Dicey) فيقول : « أنهم كانوا يموتون كالماشية »^(٣٢) وكان العمال يلوذون بالفرار من ساحات الحفر حين يشعرون بالخطر الداهم بسبب نفاد كميات المياه وتأخر وصول مقادير أخرى منها فيهربون قبل أن يدركهم الموت ، إلا أنهم كانوا يلقون حتفهم فى الطريق وهم يعبرون الصحراء التى تفصل

بين ساحات الحفر وبين الأماكن المأهولة بالسكان والتي توجد بها مياه الشرب وتظل جشهم في العراء على رمال الصحراء تنهشها الذئاب .

وكان هناك قلة من العمال يستسلمون لقضاء الله وقدره، ولا يبرحون ساحات الحفر يحدوهم الأمل في وصول القافلة التي تحمل ماء الشرب، وكان يطول انتظارهم ويلفظون أنفاسهم قبل أن تدركهم قافلة الجمال (٣٣).

وظل العمال يعانون من قلة الماء إلى أن دل أحد روساء الأعراب رجال الشركة (في أغسطس ١٨٦١) إلى موقع بئر بالقرب منهم هو بئر (أبوشنان) تصلح مياهه لشرب الإنسان، فوجهت الشركة قوافل الجمال شطره تنقل مياهه للعمال (٣٤).

واعترف دى لسبس أن شغله الشاغل كان إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء وعلى الأخص إمدادهم بماء الشرب قبل كل شيء ، وقد ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هي في توفير ماء الشرب في ساحات الحفر. وحاول دى لسبس الدفاع عن الشركة التي هي المسئول الأول عن الخسائر الجسيمة في الأرواح (٣٥).

ولقد كانت الشركة مسئولة حسب عقد الامتياز الثاني (يناير ١٨٥٦) عن حفر ترعة للماء العذب تستخدم في الري والملاحة النهرية ، تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح ، وهناك تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً إلى بورسعيد والآخر جنوباً حتى السويس. ولكن الشركة أجلت حفر هذه الترعة واهتمت بحفر القناة البحرية ، وهنا جاءت مأساة هذه الآلاف المؤلفة من المصريين المسخرين في ساحات الحفر ، وبرزت مشكلة إمدادهم بالمياه.

وحللاً لهذه المشكلة قامت الحكومة المصرية بأمر من سعيد باشا بحفر ترعة الماء العذب ، هذه على نفقتها وبأعداد بلغت ٥٥٨٩٣ رجلاً من المصريين وتم حفرها خلال تسعة أشهر من قرية القصاصين إلى نفيسة بالقرب من بحيرة التمساح في ٢٣ يناير ١٨٦٢ وبلغ طولها ٣٤٨٣٨ متراً وهنا خفت مشكلة ماء الشرب في ساحات الحفر (٣٦).

ثانياً : تفشى الأوبئة والأمراض بين العمال في ساحات الحفر:

الكارثة الأخرى التي حلت بعمال السخرة تمثلت في الأوبئة التي اجتاحت ساحات الحفر نتيجة لانعدام الماء العذب في البرزخ إلا من بعد آبار قليلة- كما سبقت الإشارة- فلم يكن في الاستطاعة إقامة الحمامات العامة أو المغاسل وغير ذلك من وسائل المحافظة على الصحة

العمامة . فقد كان الماء لازال يحمل على ظهور الجمال لساحات الحفر، ولم يكن يفى بحاجات العمال الضرورية .

كل ما هناك أن الشركة انشأت إدارة صحية تتبعها مراكز الإسعاف متنقلة مصنوعة من الخشب تتبع ساحات الحفر (٣٧). ولكن الدكتور أوبار روش Aubert Roche رئيس الشئون الصحية فى الشركة (٣٨) أمر بإلغاء المخيمات وأكواخ الخشب وإقامة المنازل المبنية من الطوب اللبن، كما نصح بالاهتمام بالتهوية فى كل مكان وتجنب التكس والازدحام وأوصى بتنظيف أرض المنازل وطلاء الحوائط باللون الأبيض وتنظيف الشوارع (٣٩).

وكانت أهمية مراكز الإسعاف تتوقف على عدد العمال الذين يعملون فى دائرتها أو على جنسية المقيمين هناك. فكانت عناية الشركة بصحة مستخدميها وعمالها الأجانب تفوق بكثير عنايتها بصحة العمال المصريين (٤٠).

واتبع « أوبار روش » طوال فترة حفر القناة سياسة « الوقاية الصحية » والسلامة من الأمراض وأقام مستشفى فى بورسعيد عام ١٨٦٠ لعلاج العاملين بالشركة ومع ازدياد عدد العاملين فى ساحات الحفر والمقاولين وأتباعهم تم إقامة مستشفى آخر فى الإسماعيلية فى منتصف البرزخ (٤١).

وكانت أكثر الأمراض انتشارا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر هى : النزلات الشعبية والأمراض الصدرية والرممية ، وحالات الإسهال الشديد والدوسنتاريا وأمراض الكبد (٤٢).

والحقيقة أن النشرة الصحية التى كان يقدمها أوبار روش كل حين قد جانبها الكثير من الصواب لمحاولتها إخفاء الحقائق المؤلمة حول عدد الموتى الذين عصفت بهم الأوبئة فى ساحات الحفر . والأوبئة التى اجتاحت برزخ السويس حسب ترتيب ظهورها هى : التيفود - التيتنوس - الجدري - الكوليرا - الحمىراجعة .

التيفود : ظهر فى إبريل ١٨٦٢ فى ساحة الحفر رقم ٦ واتخذ مظهر الوباء بين العمال من النوبة وتبت مسئولية الشركة وتقصيرها ، فكان حرى بها أن تتخذ التدابير الوقائية لمنع تسرب المرض إلى ساحات الحفر، علاوة على أن العمال قد حملوا العدوى لقراهم بعد عودتهم (٤٣). ويذكر المؤرخ الايطالى « انجلو ساماركو » أن الشركة كانت سبباً فى ذلك (٤٤) .

كافحت الشركة الوباء فى تكتم شديد، فلم يذكر أحد من رجال الشركة على الإطلاق اسم ذلك المرض حتى لايشير الرعب والاضطراب فى ساحات الحفر، حتى أن المرضى أنفسهم كانوا يجهلون أنهم مصابون بهذا المرض (٤٥).

وتذكر الشركة أنها تغلبت على الوباء خلال شهر واحد ، وأن عدد الإصابات بلغت ٥١٢ عاملاً والوفيات ٢١ فقط !! ولكن هذه الأرقام كانت دون الحقيقة بكثير في ساحات الحفر التي لا يقل عدد العمال فيها عن عشرين ألف عامل . وتعطلت عمليات الحفر بسبب الوفيات، وهذا دليل على جسامه عدد الضحايا . كما أن مدير عام الأشغال بالشركة- فوازان بك- Voisin béy الذى كان يشرف على عمليات الحفر فى تلك المنطقة وصف ذلك الوباء بأنه « حادث خطير » (٤٦).

وفى العام التالى (١٨٦٣) انتشر وباء التيفوس والتيفود معاً فى ساحات الحفر، وكانت مصر قد ابتليت بهذين الوبائين قبل انتقالهما إلى منطقة البرزخ، وكان من المتعذر أن يظل برزخ السويس بمنجاة منهما .

وفى عام ١٨٦٤ تسرب وباء الجدري إلى ساحات الحفر، وهنا أيضاً يتأكد تقصير القسم الطبى بالشركة فى اتخاذ التدابير الوقائية لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى برزخ السويس (٤٧).

الكوليرا : تفشى وباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف عام ١٨٦٥ وكان أخطر وأشد وباء شهدته منطقة برزخ السويس ، ونشر الذعر بين الناس مما أدى إلى تعطيل الأعمال (٤٨).

وقد ظهر هذا الوباء أولاً فى عام ١٨٦٤ فى البنغال بالهند ثم انتقل إلى بمباى ، وفى سنة ١٨٦٥ انتشر على ساحل ملبار إلى كراتشى وبلوخستان ثم نقله الحجاج الهندو المسلمون إلى الحجاز (مكة) وانتشرت العدوى بين الحجاج المصريين هناك، فلما عاد حجاج مصر وشمال أفريقيا إلى ميناء السويس وفد الوباء معهم إلى ذلك الثغر ومن ثم انتشر فى مصر وفى ساحات الحفر ببرزخ السويس (٤٩). وقد أثار الذعر بين السكان والعمال العرب والأجانب على السواء وخرج الأجانب هائمين على وجوههم صوب بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام ويحملون معهم أثقالاً من المتاع . ومع ازدياد أعداد الموتى زيادة مروعة اعتقد الجميع أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الوباء هى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وعجزت الإدارة الصحية للشركة عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الاسعاف أو يرفعون جثث الموتى (٥٠).

ومن العجيب أن يظل عدد الإصابات بالكوليرا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر أمراً غامضاً لم تشر إليه تقارير الإدارة الصحية فى شركة القناة إلا لماماً، وقصرت الشركة

إحصائياتها على العمال الأجانب . وقد ذكر كبير أطباء الشركة (أوبار روش) فى تقريره عن «سير الكوليرا» وكذلك مدير الأشغال (فوازان بك) أنه كان من الصعب للغاية الوقوف على عدد الوفيات والإصابات بين العمال المصريين، وهو أمر أريد به إخفاء نسبة الوفيات العالية بينهم^(٥١).

ثالثاً : سوء التغذية وانعدام الأجور وسوء المعاملة :

أوردت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» تقريراً عن حالة عمال السخرة فى البرزخ خلال الفترة الأولى قبل إلغاء السخرة فى عام ١٨٦٤ جاء فيه :

«أما الظروف التى كان يعيش فيها رجال الورشة فلم تتحسن تمام ويبدو أن الوضع كان أكثر صعوبة فى وسط الخليج والصورة التى رسمها المهندس مانتو Montaut^(٥٢) تعطى فكرة عن ذلك، فقد كان قمرين علف الماشية من التبن والقول والشعير أيضاً غير منتظم وكان عدد الوفيات ضخماً بسبب المجاعة ، ولم تكن تدفع الأجور وهناك نقص فى المون- نقص فى الأوعية والملابس والأحذية الملائمة لطبيعة المكان ، ولم تصل ملابس صيفية طوال الصيف ، كما كان يوجد داخل البرزخ معتقل يرسل إليه من يسئ السلوك، وليس على المرء أن يشكو ما لم يمت جوعاً ... إن المواد الغذائية الموجودة فى مخزن دمياط لاتصل^(٥٣).

وقد كشف أيضاً مانتو- بعد استقالاته- كيف كانت النوايا السيئة للمقاول العام «هاردون» واضحة فقد جاء إلى مصر بعمال أوريبيين مع أسرهم ووعدهم بشروط مميزة ثم دفع لهم أجور أقل بكثير مما صرح به، وكانوا يتقاضون ما يكفى لأكلهم ، وكيف جاء بحرفيين سرحهم عندما تتوافر المواد اللازمة لعملهم وظهرت تعسفات وتجاوزات المقاول العام أكثر تجاه العمال العرب. وتكشف بوضوح الهوة بين الحقوق المكتسبة التى أعلنت على الملأ بواسطة الدعاية الضخمة وبين التصرفات الفعلية^(٥٤). وإن كان الخديوى سعيد قد احترام تعهداته واستدعى الآلاف من الفلاحين من قرى مصر وأرسلهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ- كما ذكرنا- فعلى العكس من ذلك لم يكن وكيل الأعمال ينفذ تعهداته . ولاحظ مانتو ضعف الأجور التى تدفع للفلاحين ، إذ كانت أقل بكثير عما أعلن عنه، ورأى أيضاً أن مراقب المقاول فى موقع الحفر فى منطقة البلاح استخدم فلاحين فى أراضى وعرة بالإضافة إلى عدم استطاعته تزويدهم بالمعدات المناسبة وقرر أن يدفع ٤٠ سنتيما عن كل متر مكعب تم استخراجة أكثر قليلاً عن الأجر المعتاد ، فوجه المقاول العام له اللوم على مبادرته ، كما أن

العمال كانوا ينتظرون أجورهم طوال أسابيع كاملة، وكانوا يضطرون للعودة إلى قراهم دون مال^(٥٥).

وهذا ما أكدته أيضا (البرت فارمان) بقوله : « بناء على بعض المعلومات التي حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، أن المبالغ الضئيلة التي اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم في أغلب الأحيان . ولقد اتضح من القضايا التي رفعت بعد ذلك أن حوالى مليون دولار (٥ . ٤ مليون فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأى شخص منهم . والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق ، بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة عن عدم الاستمرار فى توريد عمال السخرة »^(٥٦).

وتجدر الإشارة إلى أن عمال السخرة كانوا يعملون فى شهر رمضان ، وقد بلغ عددهم فى شهر رمضان عام ١٢٧٨ هـ (مارس ١٨٦٢م) ١٩٦٧٨ عاملا سيقوا إلى ساحات الحفر وعمل الكثير منهم فى حفر القناة أثناء الليل، وكانت الشركة قد اتخذت عدتها لهذا التجديد فى نظام العمل، فابتاعت ألف مشعل من القاهرة استخدمتها فى إنارة ساحات الحفر حيث ظل العمال يعملون على ضوء المشاعل طوال شهر رمضان^(٥٧).

العمالة الأجنبية فى البرزخ وتبعاتها :

بعد إلغاء أعمال السخرة فى ١٥ مارس ١٨٦٤ استلزم الأمر كثرة من العمال الفنيين وعمال الحفر على السواء. وكان العمال الفنيون ، الذين يعملون على الكراكات والمعدات الميكانيكية وغيرها، من الأجانب أما عمال الحفر فكانوا فى غالبتهم العظمى من العرب^(٥٨) جاءوا للعمل بمحض إرادتهم^(٥٩) وخاصة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٥) وإنخفاض أسعار القطن المصرى انخفاضاً كبيراً . ويؤكد ذلك تقرير محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) أن عمال الفحت فى رمال القناة أكثر الشغالة فيها من أبناء العرب، أما الأروام وغيرهم من الأجانب فهم قلة بالنسبة للأول^(٦٠).

وعلى أية حال فقد شهدت مصر عهد التسلط القنصلى، إذ كانت الغالبية العظمى من قناصل الدول يتدخلون فى صميم الشؤون الداخلية للحكومة المصرية، وازداد تدفق الأجانب على مصر منذ تولى سعيد حكم مصر، جاءوا بحثاً عن المأوى والمطعم ، تحت حماية قناصل دولهم وأصبحت مصر مقصد كل عاطل وحالم كأنها أصبحت « كاليفورنيا الجديدة » تزخر بمناجم

الذهب، وكان معظم هؤلاء الأجانب قد جاءوا من جنوبى شبه الجزيرة الايطالية ومن اليونان وفرنسا والنمسا . وكان الأجانب آنذاك- لا يخضعون للقضاء الإقليمى فى مصر ، ولا يخضعون للتشريع المصرى ولا يخضعون للسلطة التنفيذية المحلية ، ونتيجة لذلك أصبحت شركة القناة بأراضيها قد تحولت إلى مستعمرات فرنسية تحظى بحماية ورعاية فرنسا كأنها « حكومة داخل الحكومة المصرية » (Imperium in Imperio) (٦١).

وهكذا وفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب- بعد إلغاء السخرة- فاضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو وتعددت حوادث الاعتداء على رجال الشرطة ومهاجمة مراكز قواته وغير ذلك من الشرور الاجتماعية . وكان العمال الأجانب فى برزخ السويس على قدر كبير من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان حتماً وقوع الاحتكاك والاضطراب وكثيراً منهم كانوا من المتعطلين فجاءوا إلى مصر التماساً للرزق فى عمليات حفر القناة (٦٢). وقد وصف محافظ الاسكندرية- آنذاك- العمال الايطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم من سفلة الناس (٦٣).

أكدت الوثائق المحفوظة بشركة قناة السويس والمتعلقة بالأمن إلى وجود اضطرابات كثيرة فى ساحات الحفر ببرزخ السويس فى أعقاب تدفق العمالة الأجنبية هناك . وقد أكدت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» أنه بالرغم من التصريحات العامة المتعارضة للشركة، فإنه يكاد يظهر العنف يومياً فى البرزخ ، إذ تعكر المشاجرات والصراعات العنيفة التى تنفجر غالباً لأسباب تافهة ، هدوء الورش والمخيمات ، بشكل دائم وتزيد من العداوة بين أفراد من جنسيات مختلفة . وبعد توقف إرسال قوافل عمال السخرة قام فى الحقيقة خليط من الجنسيات المتعددة من العمال بالعمل فى ساحات الحفر فى القطاع الجنوبى من برزخ السويس، بينما كان معظم عمال الحفر من المصريين أو السوريين. أما العمال الحرفيون من بنائين ونجارين وحدادين وميكانيكية فقد تم اختيارهم من إيطاليا وشمال بحر الادرياتيك وشكل اليونانيين طاقم ملاحى الجرافات والزوارق المتنوعة (٦٤).

وهكذا انقضى عهد الهدوء والأمن الذى نعمت به منطقة البرزخ عندما كانت تعج بعشرين ألف عامل مصرى من عمال السخرة ، فلقد عرف عن أولئك العمال الوداعة والطاعة والانصراف إلى العمل فى هدوء ، مما سهل على الحكومة حفظ الأمن فى ساحات الحفر . وقد اعترف المسئولون فى شركة القناة والكتاب الفرنسيون أنفسهم بهذه الخصال الحميدة التى امتاز بها العمال المصريون (٦٥).

يقول رئيس ساحة الحفر فى منطقة سرايوم أن العمال اليونانيين كانوا بمثابة الطاعون الحقيقى الذى يجتاح البرزخ، فكانوا يرتكبون حوادث النشل والسرقات والاعتداء. وكان إذا قبض على هؤلاء اليونانيين وثبت عليهم الجريمة أرسلوا إلى القنصلية اليونانية فى الإسكندرية لتقوم بأبعادهم إلى بلادهم، وهناك لايتورعون عن تغيير أسمائهم وسرعان ما يعودون إلى البرزخ لاستئناف نشاطهم. وقد خاطب دى لسبس العمال بقوله: «كل إنسان حر فى البرزخ، ولكن على الذين لا يريدون عملاً أن يرحلوا وهذه أجل خدمة يستطيعون إسداؤها لنا»^(٦٦).

كذلك أدت مشاجرة نشبت بين اليونانيين والعرب فى يومى ٣٠ و ٣١ أكتوبر ١٨٦٤ إلى إصابة اثنى عشر عاملاً يونانياً بجروح خطيرة وتم نقلهم إلى مستشفى الإسماعيلية^(٦٧). أيضاً اندلعت معركة حامية بين اليونانيين والزنج (يقصد النوبيين) فى نوفمبر ١٨٦٥ فى ورشة التل الكبير ونتج عنها ستة جرحى من بينهم مشرف فرنسى. أما المعركة التى وقعت بين العرب ورجال من الجبل الأسود فى ورشة القنطرة فى أبريل ١٨٦٦ فكانت نتيجتها ثلاثة قتلى. وفى عام ١٨٦٤ اندلعت أحد أكبر المشاجرات ضراوة فى ورشة بقسم الاسماعيلية وتدخل المستخدمون بالشركة لمنع مجزرة حقيقية وأدى هذا الصراع بين ثلاثين يونانياً وخمسمائة عربى إلى خمسة قتلى وعشرين جريحاً^(٦٨).

ونتيجة لهذه الحوادث المتكررة أدخلت الحكومة المصرية فى البوليس المصرى بعض الأجانب المشهود لهم بالذكاء، كشفوا عن الحيل التى كان يلجأ إليها الأجانب المشاغبون وقاموا بترحيلهم إلى بلادهم وأدرك اليونانيون أن ارتكاب الجرائم حرفة غير مجزية فاختلفوا من ساحات الحفر، ولم يبق فيها من الجالية اليونانية إلا العمال الأمناء والتجار الشرفاء^(٦٩).

وتنقسم الحوادث التى وقعت فى ساحات الحفر من حيث عدد المشتركين فيها إلى نوعين:

الأول: حوادث جماعية تقع بين جموع العمال ويتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف ويكون للتعصب الجنسى الأثر الأكبر فى تفاقم الحال، إذ سرعان ما ينقسم المشتركون فيها إلى فريقين ينتمى كل فريق إلى جنسية واحدة، أو ينقسم المشتركون إلى فريق من العمال المصريين وفريق من العمال الأجانب على اختلاف جنسياتهم، ممن يتصادف وجودهم فى منطقة الحادث، وتسفر عن وقوع قتلى وجرحى من الفريقين.

الثانى: حوادث فردية تقع بين عامل مصرى وآخر أجنبى، أو بين عامل أجنبى وآخر أجنبى^(٧٠)، ووثائق شركة قناة السويس (الفرنسية) وأيضاً وثائق محفوظات عابدين (المصرية) تفيض بأخبار هذه الحوادث بنوعيتها.

وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذه الحوادث ، اصطدام بين العمال الفرنسيين والعمال اليونانيين، نشأ من أن بعضاً من العمال الفرنسيين دخلوا بعد منتصف الليل محل بقاله يوناني يريدون شراء الخمر ، ولما كانوا في حالة سكر شديد امتنع البقال اليوناني عن إعطائهم الخمر فثارت ثائرتهم وشرعوا يحطمون المحل وما فيه من زجاجات الخمر وعلا ضجيجهم وعندئذ انضم إلى صاحب المحل بنو جنسه من اليونانيين، كما انحاز الفرنسيون إلى العمال السكارى ، وهكذا اتسع نطاق الحادث. ويذكر محافظ القناة- إسماعيل حمدي بك- في تقريره عن هذا الاشتباك : «وإنما تمكنت من إسكات الفتنة بعد جهد كبير وعناء شديد نظراً لأن عدد المتشاجرين كان يربو على خمسمائة شخص» (٧١). وأسفر الحادث عن وقوع إصابات بين الفريقين .

حادثة أخرى تتمثل في أن جماعة من العمال الايطاليين الذين كانوا يعملون في مركز الشلوفة أرادوا ابتياع كميات من الخمر يحتسونها وقت القيلولة في أحد أيام ديسمبر ١٨٦٥ فوجدوا أن المؤسسة الاقتصادية الفرنسية Bazin مغلقة في تلك الفترة من النهار، ولم يرق للايطاليين ذلك فحطوا باب المحل واقتحموه ، وقد طلب رئيس ساحة الحفر في قسم الشلوفة وهو رجل فرنسي من قوات البوليس المراقبة في تلك الناحية القبض على اثنين من متزعمي هذه الحركة فما أن ألقى القبض عليهما ، حتى ثار العمال الأجانب وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، فهجموا على مركز البوليس بعد أن حبطت محاولة قاموا بها لحرق رجال البوليس أحياء، كما حطموا مخزن الشركة فأرسلت على عجل من السويس قوات من البوليس المشاة والفرسان وصلت بعد منتصف الليل ولم تهدأ الحال إلا في الساعة الخامسة صباحاً وبعد أن وقعت إصابات بين أفراد البوليس والعمال (٧٢).

أيضا كان العمال الأجانب يجنحون دائماً إلى الإضراب إذا تأخر المقاولون عن دفع أجورهم. وقد وقع هجوم منهم على مركز الشركة في الشلوفة، لأن المقاول أراد أن يستقطع من كل عامل ١١ فرنكاً بمثابة تأمين عن السرير الذي تم صرفه لكل منهم، ورفض العمال الإذعان لرغبة المقاول، وكان عددهم يزيد على ألفين ، فلجأوا إلى أعمال الشغب ووقعت خسائر في الأكوخ الخشبية والأسرة المعدة لنومهم ، وأبلغ أمر هذا النزاع إلى قناصل الدول، فحضر قنصلا فرنسا والنمسا إلى مكان الحادث وفصلا في النزاع لمصلحة العمال (٧٣).

ولما أدرك العمال الأجانب أنهم قد نجحوا في فرض إرادتهم على المقاولين والشركة ، طالبوا في اليوم التالي بزيادة أجورهم واتفقوا على الإضراب عن العمل إذا لم تجب مطالبهم وحددوا

لإجابه أربع وعشرين ساعة ، فلما انقضى الموعد وشرعوا فى الإضراب طلبوا من العمال المصريين مشاركتهم فى الإضراب فأبى المصريون ووقع صدام بينهم وأطلق العمال الأجانب الأعيرة النارية ، ولجأ العمال المصريون إلى استخدام القنوس بضربونهم بها واتسع نطاق المعركة ووقع فيها عدد كبير من القتلى والجرحى ، كما أصيب مأمور الشلوفة (٧٤). وقد استنجد البوليس هناك بقوات إضافية حضرت على عجل من السويس والإسماعيلية وإقليم الوادى وكانت هذه القوات من المشاة والفرسان . كما قامت من القاهرة فى قطار خاص كتيبة من الجيش المصرى بقيادة السردار راتب باشا وعسكرت فى السويس ووزع بعض أفرادها فى الشلوفة وغيرها من مراكز الحفر الواقعة شمالى السويس على أهبة التدخل .

وقد خف إلى مكان الحادث رجال الداخلية ووكيل قنصل النمسا ووكيل قنصل إيطاليا لتهئية الحال ، وهناك علموا أن العمال الأجانب فريقان : فريق يرى المضى فى سياسة الإضراب حتى تجاب مطالبهم ، وفريق يريد العودة للعمل ، ولكنه يخشى سطوة الفريق الأول . وقد استقر رأى على إنذار أفراد الفريق الأول بضرورة العودة للعمل فوراً وإلا أعيدوا إلى بلادهم بواسطة قناصل دولهم . وألقت السلطات المصرية القبض على اثنين من رجال الجبل الأسود وثلاثة عمال نمساويين كطلب سلطات الشركة والمقاولين وموافقة قنصل النمسا وأرسلوا إلى السويس تحت حراسة مشددة تمهيداً لترحيلهم إلى بلادهم (٧٥).

أما الحوادث الفردية فكانت ترجع إلى سوء سلوك العمال الأجانب وإلى سوء الحالة المالية وخاصة بعد أن تعطل عدد كبير منهم عن العمل وأصبحوا ينتقلون من ساحة حفر لأخرى بقصد البحث عن أشغال يتعيشون منها (٧٦).

وساعد على كثرة هذه الحوادث أن الأسلحة النارية كانت تتداولها أيدى العمال الأجانب الذين كانوا يستعملونها لأوهى الأسباب . ومن أسباب زيادة عدد الجرائم الفردية فى منطقة البرزخ الإفراط فى تناول الخمر ، مما كان موضع شكايات عديدة استفاضت بها تقارير اوبار روش (Aubert Roche) كبير أطباء شركة القناة (٧٧). كما أشار إليها محافظ القناة فى برقيات إلى المعية السنية (٧٨).

الخمارات ونوادى القمار :

نتيجة للحوادث الناجمة عن تعاطى الخمر ، تم حظر بيعها ، ورغم ذلك ومع تطور التجارة استمر استهلاك شراب الأفسنتين (الأبسنت) وماء الحياة بصورة كبيرة ، تشير الثمالة

والصراعات وتولد العنف . ففي مارس ١٨٦٨ حدثت مشاجرة أمام محل بيع مشروبات بالقرب من البحيرات المرة نتج عنها أن تلقى إيطالى رصاصة فى ظهره وطعنة سكين بجانب عينه اليسرى دخل على أثرها المستشفى^(٧٩). وقد افتتح بعض الأجانب محلات عامة فى بعض جهات البرزخ للعب القمار وانتشرت لعبة الروليت (Roulette) فى أوساط العمال الأجانب وكان اليونانيون بوجه خاص هم الذين يديرون تلك المحلات^(٨٠).

أيضا حصل المسيو شكتران (السويسرى) فى إبريل ١٨٧٤ على ترخيص بإنشاء فابريكة لعمل البيرة بالإسماعيلية ، مع إعفاء الآلات والعدد الخاصة بتلك الفابريكة من الرسوم الجمركية لمدة سنة^(٨١).

وكان العمال الأجانب يدخلون محلات القمار بعد أن يتسلموا أجورهم فيخسروا فى ساعة أو بعض ساعة الكسب الذى أصابوه من عملهم^(٨٢) وقد أزعج هذا الأمر كلاً من Voisin Bey (مدير الأشغال بالشركة) ودى لسبس ، فاتخذوا موقفاً حازماً من هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، إذ طلبا من محافظ القناة رسمياً إغلاق دور القمار فى منطقة البرزخ، وقد تظلم أصحاب هذه المحلات إلى قناصل دولهم من تصرف البوليس المصرى، وكان منع القمار فى موضوع مكاتبات رسمية بين نظارتى الخارجية والداخلية وقصر عابدين^(٨٣).

وبلغ من إقبال العمال الأجانب على تناول الخمر أن كانت هناك حانات متنقلة تتبع كل منها مجموعة من الكراكات فى سيرها فى القناة^(٨٤). وكانت إذا حلت مجموعة من الكراكات فى إحدى جهات البرزخ الأهلة بالسكان وألقت مراسيها فى القناة، انتشر الخبر بسرعة بين سكان تلك الجهة فهرع التجار إليها يقيمون الأكواخ الخشبية ويعلقون اللافتات ويعرضون البضائع وتفتح المقاهى على مقربة منها، وسرعان ما يدب النشاط والحياة فى الجهة بأسرها. وكانت مجموعة الكراكات تتألف فى العادة من خمس وحدات^(٨٥).

عنصر النساء فى البرزخ :

كانت شركة المقاولات (Borel & Lavalley) التى أبزمت معها شركة القناة عدة اتفاقيات لحفر الجزء الأكبر من القناة بالوسائل الميكانيكية تعمل على جلب النساء إلى منطقة البرزخ وكثير منهن كن ساقطات كى يقمن بالرقص فى بعض المقاهى والحانات ترويحاً عن العمال. وقد احتج محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) لدى فوازان بك (مدير عام الأشغال فى شركة القناة) ولدى بوريل Borel على هذا التصرف ، إذا كان يتأتى من ذلك أمور مغايرة وحصول مشاحرات ، وأن الأصول لا تجيز ذلك». وكان رأى الشركة أن رقص النساء فى المحال العامة

إنما هو عنصر هام من عناصر الحياة الاجتماعية يستهوى العمال على الإقامة فى منطقة البرزخ ويروح عن نفوسهم متاعب العمل ، ولم يسفر احتجاج المحافظ عن نتيجة إيجابية ، إذ رأى أن رجال الشركة يعتزمون إجراء بعض أمور توجب وقوع مفسد فى المستقبل بشأن هذا القبيل. وكتب تقريراً بذلك إلى رجال المعية السنية وطلب إليهم رفعه إلى الخديوى إسماعيل إذا رأوا أنه ليس هناك ما يحول دون عرض «مادة النساء الفواحش على سموه» (٨٦).

والحقيقة أن وجود هذه النوعية من النساء فى البرزخ كانت سبباً فى قيام الخلافات والصراعات . وتشير الإحصائيات الطبية لعام ١٨٦٨ - ١٨٦٩ إلى أن هناك ألفى امرأة من البيض ونفس العدد من أهالى البلد أى ما يساوى ١٢٪ من جملة السكان (٨٧).

وقد تم اغتيال فمساوى فى ١٤ أغسطس ١٨٦٧ فى مقهى إيطالى بالحي الصناعى بالإسماعيلية وقد توصل المحقق إلى أن «المرأة» هى دافع الجريمة وبالرغم من أن المرأة موضوع الخلاف إلا أنها أحيانا ما تكون الضحية . وفى ١٢ أكتوبر ١٨٦٨ أوضح تقرير رسمى أن عاهرة فمساوية عمرها يقل عن ٢٥ سنة قتلت فى بيت بغاء فى بورسعيد (٨٨).

وشملت شكاوى غاية فى الحدة وأشير إلى أن عدة منازل فى القرى العربية بالقرب من المخيمات الأوربية فى منطقة الجسر، يوجد فيها ناد للقمار وبيت للدعارة ، يتردد عليها عدد كبير من الأوربيين العاملين فى المخيم لقضاء الليل ومن جراء ذلك انتشرت الأمراض التناسلية بشكل مفرج بين السكان وكان لابد من وضع قوانين لذلك وإصدار قرارات من الأمن بتحديد ساعة إغلاق الحانات والمقاهى وإجبار السيدات اللاتى يمارسن البغاء على الكشف الدورى وهذا ما تم بالفعل (٨٩).

ومنذ عام ١٨٦٥، أصدر المدير العام تعليمات تتعلق بشرطة الآداب تلزم كل عاهرة بأن تخضع أسبوعياً لكشف طبيب ليتأكد أنها سليمة ويسلم لها بطاقة أسبوعية محددة. وتنص هذه التعليمات على أنه من مسئولية من «يديرون هذه البيوت» مراقبة هذه الأوامر، وطرد كل بنت مريضة دون بطاقة أو انتهى تاريخ بطاقتها . وقد اتخذ فوازان بك أيضاً التدابير لتضييق الخناق على زيادة عدد الملاحى بضواحي الورش . وفى مايو ١٨٦٧ رأى المقاول كوفرو أن الدعة انتشرت بكشل غير عادى، ثم جاء بعد ذلك دور شركة مقاولات بوريل ولافالى وشركائهما فى الشكوى من أن عدداً ضخماً من الملاحى مفتوحة طوال الليل مما يستبقى الموظفين والعمال لساعات متأخرة وينال من مدخراتهم ويجعلهم غير قادرين على العمل فى اليوم التالى (٩٠).

وطلبوا من الشركة اتخاذ إجراءات تهدف إلى إبعاده هذه الأماكن عن مساكن العاملين .
أيضا . تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من العمال الأجانب كان يصحب معه خلية له تقيم في
مسكنه وهو أمر كان يؤدي إلى وقوع جرائم قتل تذهب ضحيتها الخلية إذ يقتلها جار منافس
لحائزها (٩١).

الباعة المتجولون والمحلات العامة :

شهدت منطقة البرزخ نظاما فريدا للباعة المتجولين ذلك أن لقيفاً من التجار اليونانيين
كانوا يستقلون مراكب تسير في القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد متجهين بها صوب
الجنوب إلى داخل البرزخ، وكانت هذه المراكب تحمل ألواناً مختلفة من الأطعمة والمشروبات
والفواكه وما إلى ذلك . وبيع بحارة المراكب هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون
في الكراكت حيث تكون في جهات بعيدة عن المراكز الأهلية بالسكان ، وكان أصحاب هذه
المراكب هم بحارتها وهم أصحاب تلك البضاعة وهم الذين يتولون بيعها ولذلك كانوا
يعرضونها بأسعار منخفضة نسبياً (٩٢).

هذا في حين ازدحمت بعض مراكز الحفر بالمحلات العامة مثل المطاعم والمقاهي ومحلات بيع
الحلوى (والكباريهات Cabarets) حتى أطلق على بعض تلك المراكز اسم باريس الصغرى Le
Petit Paris (٩٣). وكانت فرق الموسيقى الأجنبية تعمل في المقاهي ويستمر العزف إلى وقت
متأخر من الليل (٩٤).

كما شاهد البرزخ الألعاب النارية يقوم بها العمال الأجانب في احتفالاتهم وأعيادهم (٩٥).
وكثر إقبال الأجانب على صيد الطيور بين المساكن مما عرض حياة الجماهير للخطر، ولذلك
فكرت الشركة بالاتفاق مع محافظة القناة في وضع لائحة تحرم صيد الطيور بين المساكن وعلى
إلزام أصحاب المقاهي بغلق محالهم ليلاً في الميعاد الذي يحدده فوازان بك (٩٦).

هذا وقد شهدت طلبات امتياز ملكية الأراضي التي قدمت في عام ١٨٦٧ في بورسعيد
على تنوع الاحتياجات وتطور المدينة، إذ قدمت الطلبات بغرض إقامة مطعم ومخبز وورشة
نجارة وفندق ومساكن ومحل أزياء حديثة ومحل مأكولات ومحل بيع مشروبات كحولية
ومغسلة ملابس وبار (خمارة) وورش خشب ومحل معدات ومصنع لشراب الليمون وجزارية
ومجمع وصالون حلاقة وحمامات عامة ومحلات للبقالة والتبغ ومصنع للخمر وورشة أسلحة
وورشة خياطة ... الخ (٩٧).

النمو السكاني فى البرزخ :

بعد أن كانت أعمال حفر القناة محصورة فى البداية فى نقطة واحدة هى بحيرة شاطئ بورسعيد (١٨٥٩) امتدت تدريجيا لتشمل كل من برزخ السويس الذى كان من قبل مكانا قاحلاً ومعزولاً ولا تطرقه إلا قوافل البدو ، صار بعد ذلك أرضا أهلة بالسكان وفى نمو مستمر، وانضم إلى العمال الملتحقين بأعمال حفر القناة بعد ذلك جماعة من المقاولين والتجار والعمال من جنسيات مختلفة بحثاً عن فرص للعمل .

وعلى أية حال فقد شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذباً سكانيا كبيراً لمنطقة برزخ السويس، وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثاً عن الثروة والعمل فى هذا الموضع الاستراتيجى الهام، وساعد على ذلك سياسة دى لسبس من جهة وسياسة سعيد باشا وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحو أبواب مصر على مصراعيها للأجانب . ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الموجه من الهجرة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»^(٩٨).

بلغ عدد سكان بورسعيد فى عام ١٨٦٨، الأهالى ٢٧٠٠ رجلاً بينما بلغ عدد الأجانب ستة آلاف شخص^(٩٩). وفى العام التالى كان عدد السكان يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نسمة وفى عام ١٨٧٤ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٠٢٥٥ نسمة، منهم ٤٠٣٦ أجنبى و ٦٢١٩ من المواطنين . وقد استمر عدد الأجانب فى التناقص حيث بلغ عددهم ببورسعيد ٣٤٥١ شخصاً فى أوائل عام ١٨٧٦ . وذلك لأن من بقى ببورسعيد من الأجانب كان قد ارتبطت حياته بها فاستقر بها متخذاً منها موطناً له . أما الذين قدموا إليها للعمل بشركة القناة أو أى أعمال أخرى ، فإنه بانتهاء العمل فى منطقة القناة فضل بعضهم العودة إلى بلادهم لانتهاء أعمالهم بالقناة ، والبعض الآخر تم استبعادهم خاصة الأشرار منهم إذ أن وجودهم سيحدث مشاكل للأمن^(١٠٠). كما يمكن القول أن افتتاح قناة السويس كان أيضاً عامل جذب للعديد من السكان الوطنيين لبرزخ السويس. وطبقاً لتعداد ١٨٨٢ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٦٥٦٠ نسمة منهم ١٠٦٩٣ من المصريين ، ٥٨٦٧ من الأجانب ونلاحظ هنا أن عدد المصريين قد أصبح ضعف الأجانب وكان أغلب هؤلاء الأجانب من اليونانيين حيث بلغت أعداد الجالية اليونانية فى بورسعيد ٢٣٧١ نسمة يليهم الايطاليون وعددهم ١٠٥٥ نسمة ويلاحظ أن أعداد الجالية الفرنسية قد بلغوا ٧٨٠ نسمة ، أما الإنجليز فكان عددهم ٧٧٥ شخصاً يليهم النمساويون حيث بلغوا ٧٦٦ شخصاً بالإضافة إلى أعداد قليلة من : الألمان

والبلجيكين والإسبان والإيرانيين والآسيويين والهولنديين والداغركيين ، وإثنان من أمريكا ٢٨٩ من أصل عثماني و ٣٣٣ من السودان والبرابرة (١٠١).

أما عدد سكان الإسماعيلية فى عام ١٨٦٩ فقد بلغ ٦٠٠٠ نسمة ثلثهم من الأوربيين (١٠٢) وفى عام ١٨٨٢ بلغ ٣٣٦٤ نسمة منهم ٢٤٢١ مصرياً و ٩٤٣ أجنبياً . أما مدينة السويس فقد بلغ عدد سكانها فى عام ١٨٨٢ ، ١٠٩٠٩ نسمة منهم ٩٧٢٦ مصرياً و ١١٨٣ أجنبياً (١٠٣). وبلغ عدد سكانها فى عام ١٨٦٠ ، ٣٠٠٠ نسمة ، وفى عام ١٨٨٢ ، ١١٣١٦ نسمة وفى عام ١٨٩٧ ، (١٧,٣٦٦ نسمة) (١٠٤).

التركيب الاجتماعى لسكان البرزخ :

يمثل سكان بورسعيد خليطاً من الجنسيات : اليونانيين والفرنسيين والايطاليين والنمساويين والمالطيين والعثمانيين هذا علاوة على المصريين : منهم من عمل بشركة القناة وآخرون جاءوا بحثاً عن فرص للعمل والمال وللإشتغال بالحرف والأعمال التى يجيدونها . وقد اتجه معظم اليونانيين إلى أعمال التجارة وعمل معظم الايطاليين فى الحرف المختلفة وكذلك شارك النمساويون فى الأعمال الفنية الدقيقة بمشروع القناة، كما قام بعض الأجانب من جنسيات مختلفة بإقامة عدة مشروعات استثمارية ببورسعيد (١٠٥).

ومع تقدم العمل فى برزخ السويس وافتتاح القناة للملاحة العالمية ١٨٦٩ ، أدى ذلك إلى جذب الكثير من الأجانب للعمل هناك ، سواء فى شركة القناة أو للتجارة والحرف المختلفة أو فى الخدمات المقدمة للسكان ووجد بعض الأتراك والشوام فى برزخ السويس. ونتج عن ازدياد أعداد الأجانب من بلاد معينة إلى وجود جاليات أجنبية كثيرة العدد مثل بورسعيد التى كانت بها جالية يونانية كبيرة العدد، وأيضاً جاليات فرنسية وإيطالية وقد كان لهم تأثير كبير فى حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (١٠٦).

الوطنيون :

مع تقدم العمل فى القناة ومع وصول المياه العذبة لبورسعيد بصفة منتظمة وتوفر المأكولات وتحسن الظروف المعيشية وفد إليها السكان من داخل البلاد ، سواء للعمل فى المشروع أو فى الخدمات والأنشطة المختلفة، وأيضاً للعمل فى الميناء وخدمة السفن (شحن وتفريغ) وأيضاً فى صيد الأسماك وكان لمحافظة دمياط نصيب الأسد فى هذه الهجرة إلى بورسعيد ، ومن مديريات الدقهلية والشرقية والغربية والقليوبية كما هاجر إليها العديد من أهالى الوجه القبلى من جرجا وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان (١٠٧).

ومن عوامل جذب السكان المحليين إلى الهجرة لبرزخ السويس وجود فرض العمل علاوة على وجود العديد من المميزات مثل : المساكن الحديثة ودور اللهو والإنارة والنظافة والحياة الميسورة ، وأن ساعات العمل هناك أقل من مثيلاتها في الريف، الأمر الذي يسمح بوجود وقت فراغ كبير في حياة سكان مدن البرزخ . ويلاحظ أن مدينة بورسعيد قد تقدمت على مدينتي الإسماعيلية والسويس في جذب السكان إليها على الرغم من أن مدينة الإسماعيلية كانت أقرب إلى العمران وتتوافر بها مياه الشرب والمواد الغذائية والمأكولات عن بورسعيد . فقد بدأت مراكز إدارة منطقة البرزخ وتوافرت بها عناصر الرقى والتقدم، أما مدينة السويس فهي من أقدم المدن في منطقة القناة. وكان من الممكن أن تنمو وتزدهر بدرجة تفوق كثيرا بورسعيد (١٠٨). وهكذا نجد أن بورسعيد قد جمعت بين أخلاط شتى من البلدان الأوربية والشرقية والآسيوية كما جمعت بين لغات عديدة يتحدث بها سكانها إلى جانب المصريين الذين نجح بعضهم في إتقان عدة لغات للتعامل مع الأجانب المقيمين بالمدينة أو مع الأجانب في السفن التي تفد إلى ميناء بورسعيد . وهكذا جمعت مدن البرزخ بين جنسيات شتى لهم من العادات والتقاليد واللغات واللهجات والأشكال والأزياء والألوان (١٠٩).

الحرف والطوائف في بورسعيد :

شهدت المدينة وخاصة بعد افتتاح القناة بفترة ظهور العديد من الطوائف والحرف مثل: حمالي الفحم (الفحامة) - حمالي البضائع - الفلايكية والقواربية - النجارين - القماشية - القلافة - السماسرة - التراجمة - البمبوطية - العيادين والفساخة - البنائيين - النقاشين - البرشمجية - الحدادين - السمكرية - النحاسين ومبيضى النحاس - أهل العلم - العرضحاجية - الصيارفة - الصياغ - الخياطين - المنجدين - الصباغين - العطارين - الدخاخية - تجار البذور والزيوت - تجار الخضروات - طائفة القهوجية الشرباتلية - السقاين - الفراشين - القبانية - الفرانين - العياشة - (بائعى الخبز) - الحلاقين - الإسكافية - الحمارة والجمالة - الدالين - الخدامين - البوابين (١١٠).

كما كانت هناك جماعات وفئات معينة ارتبطت بينها بروابط إقليمية وعقائدية واجتماعية وهي: طوائف الصعايده والعربان - وطوائف الشوام والأروام والموارنة والأرمن والایرانیين واليهود وطائفة العبيد (١١١). وكانت كل طائفة تنتخب شيخاً لها لإدارة شئونها .

التطور العمرانى والطابع الجمالى للمباني فى برزخ السويس:

كانت الخيام فى مطلع عمليات الحفر وسيلة لإيواء الرواد الأول من العمال، وكانت مخيمات مؤقتة ثم بعد ذلك شيدت أكشاك خشبية بالقرب من ساحات الحفر، كان قد استخدمها من قبل الجيش الفرنسى إبان حرب القرم (Crimee) وقد شيدت على الشريط الأرضى الذى يفصل البحر المتوسط عن بحيرة المنزلة. ثم بعد ذلك حلت محل الأكواخ الخشبية منازل متنقلة وشاليهات وأكشاك من الخشب مستوردة من فرنسا (١١٢).

ويشمل المخيم النموذجى مثل مخيم هضبة الجسر المبانى الآتية (١١٣):

مستشفى ومساكن للطبيب والصيدلى ومخبز جزارة ومساكن راهبات وكنيسة صغيرة وبيت للكاهن ومحل مركزى ومحل بيع بالتجزئة ومساكن للمستخدمين فى المقاولات والعاملين بالشركة والمقاول العام والمهندس رئيس القطاع ومكاتب المقاولات ومكاتب شركة القناة ، وورش التجارة والحدادة وصناعة العربات والمناشر والمخارط. ومكتب إنشاء الخيام، وسوق للتجارة الحرة وحلقة ترفيهية وفندق للمسافرين ومقاهى ومطعم ومساكن للعمال الأوربيين ومكتب هيئة النقل والإسطبلات وحظيرة الجمال . ويجوار المخيم قرية عربية بها مساكن يختلط فيها التجار والمقاهى وتختلف عن أساليب تشييد المخيم المخصص للأوربيين، ذلك أن معظم مباني القرية العربية من أكواخ خشبية ، وبعض هذه الإنشاءات لها وجود مؤقت للغاية، إذ إنه بعد انتهاء العمليات القريبة منها تختفى هذه المخيمات المتنقلة أو المؤقتة أو تنقل لتلحق بمواقع الأشغال . وفى عام ١٨٦٤ أقام العاملون فى أكواخ عائمة تأوى وتحفظ معداتهم وتجنبهم مشقة ومتاعب السفر فى الصحراء (١١٤).

أما مدينة الإسماعيلية فتعتبر حالة منفردة من البداية فقد وضع تصميم بنائها لتقوم بدور مركزى كعاصمة إدارية بعد تولى فوازان بك رئاسة قسم الأشغال الذى رأى أنها تقع فى منتصف المسافة فى البرزخ وتم وضع حجر الأساس للمدينة الجديدة فى أبريل عام ١٨٦٢ وأطلق عليها فى أول الأمر اسم (التمساح) وابتداء من ٤ مارس ١٨٦٣ أطلق عليها اسم (الإسماعيلية) تكريماً لجلوس الخديوى إسماعيل على العرش وأصبحت المقر العام للشركة حيث يربط التلغراف بينها وبين بقية ورش القناة المختلفة وكذلك بين الزقازيق والقاهرة والإسكندرية ومرسيلية وحتى باريس (١١٥).

والجدير بالذكر أن مدينة الإسماعيلية قد أنشئت بخلاف بورسعيد على أساس مخطط منذ البداية فقد نشأت الإسماعيلية مع الورشة، على شكل هندسى يحدد تخطيط الطرق والمباني

بشكل منسق . وتم وضع برنامج للتمييز بين المخيمات فى الإسماعيلية ، كما هو الحال فى بقية المخيمات فى البرزخ بحيث تظهر فعلا على الوحدات تسمية أحياء كثيرة تشكل وحدتان مركزيتان : « الحى الأوربى » بينما الوحدة الواقعة فى الشرق تصور مسبقا « الحى اليونانى » والوحدة الواقعة فى الغرب تدل على أنها « الحى العربى ».

وهكذا بنيت الإسماعيلية من العدم فليس لها ماضى ولاتاريخ وأطلق على الميادين والشوارع أسماء تتصل جميعها بحفر قناة السويس، من أجل ترسيخ اقتران المدينة بالقناة رمزياً (١١٦).

وقد أقامت الغالبية العظمى من مستخدمى شركة القناة فى وسط المدينة بالقرب من ميدان شامبليون فى مبانى متناسقة الشكل، وخصصت المنازل حول الميادين للمستخدمين المتزوجين. أما المنازل التى تحتل الزوايا فقد أعدت خصيصاً لرؤساء إدارة الشركة. وقد تم عزل المستخدمين غير المتزوجين فى جزيرة صغيرة مخصصة أطلقت عليها الشركة « مربع غير المتزوجين » ، وأطلق عليها السكان اسم « أحياء المسعورين » . وهكذا لم يتردد فوازان بك فى إقامة ألوان عديدة من التفرقة فى مدينة الإسماعيلية (١١٧).

جدير بالذكر أن الفرنسيين كانوا يخططون المدن فى برزخ السويس على اعتقاد راسخ أنهم سيقون فيها أبدا الدهر باعتبارها قطعة من أرض فرنسا تتخذ الطابع الفرنسى من حيث التخطيط والتنسيق والشكل الجمالى، وتلك هى طبيعة الاستعمار الاستيطانى .

حددت الشركة فى عام ١٨٦٥ أنماطا خاصة للمبانى السكنية للعمال والمستخدمين بالشركة من أجل تخفيض تكاليف المبانى فى مدن البرزخ وفى نفس الوقت إشباع بعض المتطلبات الجمالية أما بالنسبة للمبانى الأكثر تعقيداً فقد اتبع أسلوب المخيمات العسكرية.

وعندما زار هنرى بلور (Sir Henry Bulwer) (١١٨) مدن القناة أعطى لنا وصفا دقيقاً لتلك المساكن التى شيدتها الشركة بقوله : « أنها نصف كوخ ونصف منزل » , "Half Hut" "Half House" وأنها تشبه تلك المساكن المقامة على مراكز الحدود طبقا للحضارة الأمريكية (١١٩).

والطابع الغالب الذى ما زال موجودا لجميع مساكن الشركة المؤممة فى مدن القناة الثلاث يشهد بهذا الطابع المعمارى المكون من شرفات خشبية وجسم المسكن من الطوب . هذا الطابع الفرنسى (لمدن البرزخ التى أخذت تتكاثر) أكده السفير « هنرى بلور » بقوله :

“ Here at Port Said, Timsah and Suez, were Growing French Towns, French Lands Around of Them ...”^(١٢٠).

دور العبادة فى برزخ السويس :

حرص دى لسبس على أن يوفر أماكن للعبادة حرصاً منه على الظهور بمظهر التسامح الدينى والحفاظ على حرية إقامة الشعائر الدينية لأنه قد جمع بين مختلف الأديان والمذاهب ، كل ذلك بهدف استمرار إقامة العاملين بمشروع القناة وأنها قد استطاعت أن تجمع بين مختلف الأديان والمذاهب، وأيضاً فى إطار المحافظة على الأمن بدليل أن شركة قناة السويس خصصت موظفين مسئولين عن الأمن والأديان فى نفس الوقت .

وقد قام دى لسبس بنشاط ملحوظ فى الحقل الإسلامى، كان من مظاهره الحرص على أن يذكر فى إعلانات الشركة أنها قد شيدت مسجداً فى كل قرية من القرى التى أقامتها فى ساحات الحفر، واستعانت الشركة ببعض رجال الأزهر، فبادرت سنة ١٨٦٠ إلى تعيين إمام للمسلمين فى الحى العربى ببورسعيد، الذى انشأته شرقى الميناء ، لتكون إقامته المستمرة هناك من أسباب إقبال المسلمين على ذلك المكان المقفر^(١٢١). وفى حقيقة الأمر لم يكن هذا المسجد سوى شونة غلال عليها مئذنة لاتليق به رغم اهتمامها ببناء الكنائس للأجانب بشكل جيد^(١٢٢).

وبازدياد عدد سكان بورسعيد واتساع رقعتها وبخاصة فى قرية العرب، أمر الخديوى توفيق فى ديسمبر ١٨٨٢ بإنشاء مسجد كبير فى المدينة هو «المسجد التوفيقى» سمي باسمه. أيضاً أقام دى لسبس كنيسة لليونانيين الموجودين فى بورسعيد تشجيعاً لهم على الإقامة بها، وتنازل لهم عن الأرض المقامة عليها مجاناً، وكانت هذه الكنيسة تتبع بطريرك الأرثوذكس ، كما أقيمت كنيسة أخرى للكاثوليك فى بورسعيد فى أواخر الستينات^(١٢٣).

هذا وقد خضعت إدارة الخدمات الدينية، مثلها فى ذلك مثل إدارة الخدمات الصحية فى السنوات الأولى، للوكالة العليا والإدارة العامة للأشغال بالشركة بالتناوب . وفى عام ١٨٦٥ دخلت هذه الإدارة «إدارة المراسم الدينية» فى اختصاصات إدارة الأشغال العامة للشركة وقامت وعلى نفقتها ببناء مساجد وكنائس كاثوليكية ودور عبادة صغيرة أرثوذكسية فى مراكز النشاط الرئيسية فى البرزخ، وفى أول فبراير ١٨٦٢ تم افتتاح كنيستين :

الأولى : فى الجسر مهداه إلى «سانت مارى دى ديزار» تخليدا لمرور العائلة المقدسة عند هروبها إلى مصر^(١٢٤). **والثانية:** أقيمت فى بورسعيد برعاية سانت أوجينى، كما حظيت الإسماعيلية بكنيسة أخرى تحت شفاعته سان فرانسوا دى سال (Saint Francois De Sales) وأثار طرازها المعماري القوطي الحديث بعض التهكم من جانب كثير من المسافرين المارين بقناة السويس وكان فوازان بك مسئولاً عن اختيار هذا الطراز المعماري فقد عدل مشروع المهندس Viller عندما عدل شكل النوافذ مقترحاً أقواساً من الطراز القوطي بدلا من المستطيلات^(١٢٥).

وفى السويس تم حصر سبعة مساجد وكنيسة كاثوليكية يخدم بها آباء الأرض المقدسة وكنيسة صغيرة انجليكانية وكنيسة يونانية، ونجد أيضاً رهبان فرنسيسكان فى بورسعيد والإسماعيلية^(١٢٦).

وقد تحملت الشركة صيانة دور العبادة، كما حرصت على مكافأة القائمين على خدمة مختلف الديانات، ففي شهر إبريل ١٨٦١ عينت الشركة فى منطقة الجسر الشيخين : إبراهيم عبد العزيز إمام وقاضى، وعمر مؤذن للقرى العربية، ومنحت الأول راتباً شهرياً قدرة ١٢٥ فرنكا والثانى ١٣ فرنكاً . مما ترتب عليه زيادة عدد السكان فى هذه المنطقة فقد لاحظ المهندس مانتو فى عام ١٨٦٠ من أن القرية العربية فى بورسعيد قد ازداد عدد سكانها كثيراً منذ وصول هذا الإمام. ويقوم الأئمة المنتصون إلى مفتى القاهرة الكبير بمهام القضاة للصالح بين الأهالى ، كما كانوا يحررون العقود ووثائق الزواج. ومع ازدياد عدد السكان فى برزخ السويس ، صاحبه ازدياد فى عدد رجال الدين الذين يتقاضون أجور من الشركة ، ففي عام ١٨٦٨ شملت الخدمة الدينية خمسة كهنة وثلاثة خدام كاثوليكين وأربعة مؤذنين وكاهنين أرثوذكس وثلاثة خدام يونانيين تم توزيعهم على المخيمات الرئيسية .

وفى هذه السنة تقاضى الكهنة الأرثوذكس ٢٤٠٠ فرنكا وخدامهم ٩٦٠ فرنكا، أما المؤذنون فأجرهم ٩٠٠ فرنكاً ما عدا مؤذن بورسعيد فقد تقاضى ١٥٠٠ فرنكاً دون معرفة سبب هذا التمييز، فلم تتعامل الشركة مع كل الديانات على قدم المساواة^(١٢٧).

وكان للشركة حق اختيارهم وأيضاً حقها فى طرد الذين لا ترضى عنهم بسبب أفكارهم أو تصرفاتهم . فقد طردت الكاهن نيكيتا Nekita فى يناير ١٨٦٤ بحجة أنه يمثل خطراً حقيقياً لتأثيره السيئ فى نفوس الرجال، ونتج عن ذلك مظاهرة احتجاج فى بورسعيد نجح رجال شركة القناة فى تهدئتها^(١٢٨).

وحقيقة الأمر أن دى لسبس قد أجاد فن الدعاية للمشروع واستغل الجانب الدينى استغلالاً جيداً والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

وطد دى لسبس علاقته بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أصبح من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر، فنظم الطهطاوى قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة، وقام الدكتور بيرون Peron بترجمتهما للغة الفرنسية .

وأيضاً كانت الشركة تستكتب بعض الكتاب المصريين مقالات تهدف إلى الدعاية للمشروع ودعوة الجماهير فى مصر إلى الاشتراك فى تنفيذه ، وقد ذهب هؤلاء الكتاب إلى أن حفر القناة فى البرزخ « بين البحرين » إنما هو تطبيق عملى لما ورد فى القرآن الكريم !!! وجريدة شركة القناة سجل يحفل ببعض من هذه المقالات التى ترجمت إلى الفرنسية وفيها ذكر بعض آيات القرآن الكريم^(١٢٩). وهذه السياسة التى سار عليها دى لسبس هى نفس السياسة التى تسير عليها حالياً ما يعرف باسم : « جمعية أصدقاء فردنيان دى لسبس »^(١٣٠).

الحدائق والتماثيل والاحتفالات :

ازدانت مدن البرزخ بالعديد من الحدائق ، ففي بورسعيد وجدت حديقة المنشية فى وسط المدينة، التى اهتمت بها المحافظة فقامت بغرس العديد من الأشجار والأزهار بها. وقامت شركة القناة بتوسيع هذه الحديقة فى عام ١٨٧٣ وأصلحت فسقيتها وطرقها ، وإقامت كشك لعزف الموسيقى بها مرتين أسبوعياً ، كما أجرى توسيع آخر بها عام ١٨٧٥ وأضيئت بالفوانيس التى أحضرت إليها من الإسكندرية ، كما زودت بكراسى خشبية لراحة روادها^(١٣١).

حرصت شركة القناة على إقامة العديد من التماثيل فى مدن القناة التى تمجد تاريخ عظمائها ، وأول تلك التماثيل تمثال دى لسبس الذى أقيم فى مدخل القناة فى بورسعيد (ليشاهده كل من يعبر القناة) فى إحتفال مهيب فى عام ١٨٩٩^(١٣٢). وتمثال آخر لتوماس واجهورن (ضابط بحرى انجليزى) أقامه دى لسبس، وهو تمثال نصفى عند مدخل قناة السويس الجنوبي بمدينة بور توفيق نقشت على قاعدته العبارة التالية : « أقامت الجمعية العمومية لقناة السويس هذا النصب التذكارى للملازم واجهورن المولود فى شاتام سنة ١٨٠٠ والمتوفى بلندن سنة ١٨٥٠ وذلك اعترافاً باخلاصه فى افتتاح الطريق البرى بمصر »^(١٣٣).

شهدت مدن القناة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر العديد من الاحتفالات أقامها الأجانب المقيمون فى البرزخ فى مناسبات عديدة ترتبط بأعيادهم القومية وأيضاً للترويح والاستمتاع فى الأجازات ، وكانت هذه الاحتفالات مصحوبة بالموسيقى والرقص والمسابقات الرياضية وغيرها بدعم من شركة القناة . وعلى الجانب الوطنى كانت هناك الموسيقى والأغاني الشعبية ومن أهمها « السمسمة » التى هى من تراث وانعكاسات مرحلة السخرة فى حفر قناة السويس (١٣٤).

المقابر :

أقامت شركة القناة عدداً من المقابر غرب بورسعيد جنوب قرية العرب ويجوار بحيرة المنزلة، للموتى من كافة البلاد ومختلف الأديان : واحدة للمسلمين والثانية لليونانيين والكاثوليك وأخرى للبروتستانت ونظراً لارتفاع منسوب المياه فى أرض بورسعيد ، فقد كان يتم بناء حجرات أو حوائط من الحجارة وكانت تقام الواحدة فوق الأخرى. ولم تكن شركة القناة تسمح بالدفن فى هذه المقابر دون دفع ثمن هذه المقبرة ، وكان بواقع خمسين فرنكا للرجل و ٢٥ فرنكا للطفل بخلاف باقى المصاريف ، ويقتصر القبر على شخص واحد . أما الموتى والفقراء من جميع الأجناس فكان يتم دفنهم مجاناً وكانت محافظة بورسعيد تتولى بعد ذلك دفع المصاريف الخاصة بإجراءات دفن الفقراء من أبناء العرب على سبيل الإحسان . وفى عام ١٨٦٦ طالبت محافظة بورسعيد شركة القناة إقامة عدد من المقابر للإسرائيليين لعدم وجود مقابر لهم (١٣٥).

ولما كانت شركة القناة ترفض أحياناً دفن بعض الفقراء من أبناء العرب، ما لم يدفع عنهم القيمة التى حددتها ، فقد قامت المحافظة ببناء عدد من المقابر تخصص لأمثال هؤلاء فى قطعة أرض تقع غرب قرية العرب (١٣٦). ثم بعد ذلك أشرفت محافظة بورسعيد على المقابر ابتداء من يوليو ١٨٧١ . هذا وقد تقدم (حاحام باشى) طائفة الإسرائيليين فى بورسعيد سنة ١٨٧٠ بطلب لمحافظة بورسعيد لبناء عدد من المقابر لأبناء طائفته وذلك لأن موتاهم يدفنون بمقابر المسلمين مما يتعارض مع شريعتهم ووافقت الحكومة المصرية على تخصيص قطعة أرض لجعلها جبانة للإسرائيليين أسوة بباقي المقابر مع إنشاء سور خاص بها (١٣٧).

الهوامش

- ١- د. محمد السيد غلاب ، منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ، بحث في كتاب بعنوان : السويس. القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . د.ت ص ص ١٦-٢٢ .
- ٢- د. إبراهيم نصحي ، السويس في العصور القديمة حتى الفتح العربى، بحث في كتاب: السويس، المرجع السابق، ص ص ٤٣-٤٥ .
- ٣- د. عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢٦)، ٢٠٠٢ ص ص ١٤-١٥ .
- ٤- نتالى مونتلى، حفر قناة السويس (المشروع والتنفيذ دراسة في تاريخ ممارسات التقنية) ترجمة د.عباس أبو غزالة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، ص ٤٠ .
- ٥- نتالى مونتلى، المرجع السابق، ص ص ٣٧-٣٨ .
- ٦- Voisin Bey , Le Canal de Suez . T.6. Description des travaux de Premier etablissement. Paris 1906 , p. 67 .
- ٧- نتالى مونتلى، مرجع سابق ذكره ص ٤٠ ، وراجع أيضاً كلا من . عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، مرجع سبق ذكره ص ٦٨ ، Voisin Bey , Op. Cit.p.163 وراجع أيضاً : Arnold Wilson , The Suez Canal, Its Past Present and Future, London 1939 . pp. 32-33.
- ٨- Arnold Wislon . Op. Cit, p. 33 .
- ٩- الشناوى ، مرجع سابق ذكره ص ٨٣ .
- ١٠- المرجع السابق ، .
- ١١- المرجع السابق ، ص ص ٨٨-٨٩
- ١٢- راجع تفاصيل هذه اللائحة فى كتاب فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٤٤ ، ص ص ١٨٠-١٨١ .
- ١٣- الشناوى ، السخرة مرجع سبق ذكره ص ٩٠
- ١٤- المرجع السابق، ص ١٢٩
- ١٥- Hallberg, Charles W, The Suez Canal. N.Y . 1931 . p. 201 .

وراجع أيضا : Douim George: Histoire de Règne du khédive Ismail . T.I. Rome , 1933 , p. 24 .

وراجع أيضا : Lord Kinross, Between two Seas , the Creation of the Suez Canal . London . John Murray , 1968 , p. 156 .

١٦- الشناوى ، السخرة ، ص ٣٠ ، ص ص ١٢٩-١٣٥ .

١٧- المرجع السابق، ص ١٤٧ .

١٨- المرجع السابق، ص ١٤٨ .

١٩- المرجع السابق ، ص ص ١٤٧-١٤٩ .

٢٠- انظر الخريطة رقم ١ على موقع الآبار (مأخوذة عن Voisin Bey. Op. Cit لوحة رقم ٤) .

٢١- Voision Bey , Op. Cit., T.VI , pp. 79 , 145 , 168 .

٢٢- تتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

٢٣- الشناوى، مرجع سبق ذكره ص ٢٢٨ .

٢٤- تتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص ٣٥ وأيضا الشناوى، مرجع سابق، ص ٢٢٨ .

٢٥- تتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص ٣٥ انظر الخريطة رقم ٢ .

٢٦- الشناوى ، السخرة ص ٢٢٩ .

٢٧- الشناوى ، ص ٢٣٢ ، تتالى مونتل ، مرجع سابق، ص ص ١٣٥-١٣٦ .

٢٨- Fontane Marius , le Canal Maritime de suez , Paris , 1869 . T. 2, p. 138 .

٢٩- Vosion Bey . Op. Cit. T. p. 168 .

٣٠- Hoskins Halford Lankester, British Routes to India, N.Y. 1928 , p. 365 .

٣١- ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنایت ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م، ص ١٩٥ .

٣٢- Diecy Edward : The Story of Khedivate. London 1902, p. 36 .

٣٣- الشناوى ، السخرة ص ص ٢٣٢-٢٣٣ .

٣٤- المرجع السابق ، ص ٢٣٤ وراجع أيضا . Vosion Bey, Op. Cit. T. p. 220 .

- ٣٥- الشناوى، المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .
- ٣٦- المرجع السابق، ص ٢٤٩
- ٣٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢٠٧ .
- ٣٨- المرجع السابق، ص ٢٠٨
- ٣٩- المرجع السابق، ص ٢٠٨
- ٤٠- الشناوى ، السخرة ، ص ٢٦٢ .
- ٤١- نتالى مونتل ، مرجع سابق ذكره ، ص ٢٠٨ .
- ٤٢- الشناوى : السخرة ، ص ٢٦٤ . وقد ذكر اوبار روش ذلك فى تقاريره السنوية التى كان يرفعها إلى إدارة الشركة . وراجع أيضا : نتالى مونتل، ص ٢١١ .
- ٤٣- الشناوى، السخرة، ص ٢٧٦ .
- ٤٤- Angelo Sammarco , Histoire de L'Egypte Moderne, Depuis Mohammed Ali Jusque L'Occupation Britannique (1801-1882), T. 3 le Caire 1937 , p. 55 .
- ٤٥- الشناوى، السخرة ص ٢٦٨ .
- ٤٦- Voisin Bey , Op. Cit . tom .6, p. 280 .
- ٤٧- الشناوى، السخرة ، ص ٢٧٢ .
- ٤٨- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢١١
- ٤٩- الشناوى، السخرة ص ص ٢٧٤-٢٧٦ .
- ٥٠- المرجع السابق، ص ٢٧٧ .
- ٥١- المرجع السابق، ص ص ٢٨٠-٢٨١ وراجع أيضا : نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٢١١-٢١٢ .
- ٥٢- المهندس برنارد مانتو Bernard Mantaut مهندس الطرق والكمارى شغل فى بادئ الأمر بشركة القناة وظيفته رئيس القسم المركزى للأعمال بالإسكندرية ثم مسئول قطاع التمساح فى البرنخ وهو أمر يعتبر فى غاية الأهمية لمعرفة نشاط الشركة فى سنواتها الأولى وطبيعة الصعوبات التى قابلها فى ذلك الوقت : فقد كتب مانتو لوزير التجارة والاشغال العامة فى فرنسا فى بداية عام ١٨٦٢ مذكرة سرية يشرح فيها الأسباب الحقيقية التى دفعته إلى الاستقالة والعودة إلى فرنسا وتعتبر هذه الشهادة

في غاية الأهمية، لأنها تكشف العديد من خفايا الأمور، وأنها لجأت إلى استخدام الأسلوب المباشر والصراحة المطلقة (ملف مانتو تقرير رقم (2 / 14-2285 ANF وهو موجود بالأرشيف القومي الفرنسي) راجع : نتالي مونتيل، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢ .

٥٣- نتالي مونتيل، المرجع السابق، ص ٥١ .

٥٤- نتالي مونتيل ، ص ٤٨ .

٥٥- المرجع السابق، ص ص ٤٨-٤٩ .

٥٦- ألبرت فارمان، مرجع سبق ذكره ص ١٩٤ .

٥٧- Voisin Bey , Op. Cit. T.6, . p. 276 .

٥٨- Bertrand Alphonse et Emile Ferrier . Ferdinand de Lesseps , sa vie son oeuvre , Paris , 1887 , p. 290 .

وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى أوائل عام ١٢٨١ هـ (الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٦٤) تفيد «أن مجموعة من أبناء قبيلة غامد قد شاركوا في حفر قناة السويس ، وهي رسالة من شخص يدعى مساعد أرسلها لوالده بعد ٢٧ يوماً من وصوله إلى السويس . وسيره يومين على الأقدام حتى وصل إلى مواقع الحفر في برزخ السويس. ويشرح فيها هواجسه وقلقه على أهله وكيف أن (شوطة) مرض الكوليرا قد أهلك الكثير من الخلق وأن هناك عدد كبير من قبيلة غامد سافر في شكل جماعات للمشاركة في حفر قناة السويس».

من تاريخ الوثيقة يتضح أنها بعد الغاء السخرة (الذي تم في ١٥ مارس ١٨٦٤) أي أنه كان في ظل العمل الاختياري، أما وباء الكوليرا فكان كما ذكرنا من قبل في ١٨٦٥ ، ولذا فإن تاريخ الوثيقة في حاجة إلى إعادة دراسة. (المصدر: جريدة عكاظ بتاريخ ٢٥ ذو الحجة سنة ١٤٢٥هـ نقلا عن موقع الانترنت «مجالس الصقور» منتدى قبيلة غامد الرئيسي) .

٥٩- Ritt Olivier , Histoire de L'isthme de Suez , Paris, 1889 , p. 318 .

٦٠- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٣ معية تركي وثيقة رقم ٥٣ من إسماعيل حمدي بك محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ١٧ شوال ١٢٨٤هـ (١١ فبراير ١٨٦٨) .

٦١- الشناوي ، السخرة ص ٧ وراجع أيضاً : Lord Kinross , Op. Cit, p. 156 .

٦٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٥ معية تركي وثيقة رقم ٢٦٨ من محمد شريف باشا ناظر الخارجية إلى المعية السنية بتاريخ ٢٩ جمادى آخر ١٢٨٢ (١٩ نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٣- محفوظات عابدين- دفتر تلغرافات رقم ١ وارد عابدين برقية رقم ٦٢٥ من محافظ الاسكندرية إلى رياض باشا في ١١ جمادى آخر سنة ١٢٨٢ (أول نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٤- نتالى مونتل ، المرجع السابق، ص ٢١٣ .

٦٥- Voisin Bey , op. cit, T. p. 274. وراجع أيضا . Ritt Olivier, Op. Cit , pp. 285-286 .

٦٦- Erckman - Chatrian . Souvenirs d'un Ancien Chef du Chantier a L'isthme de Suez - Paris 1988 , pp. 76-77 .

٦٧- نتلى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢١٣ .

٦٨- المرجع السابق، ص ٢١٤ .

٦٩- Erckmann , Op. Cit, pp. 76-77 .

٧٠- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢١٣ .

٧١- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٣ معية تركى وثيقة رقم ١٠٦ ، من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى مهردار الخديوى بتاريخ ٦ ذى القعدة ١٢٨١ (١٣ إبريل ١٨٦٥) .

٧٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩١ ، من شريف باشا إلى الباب العالى (إسماعيل) وبها مرفق عربى من على رشاد محافظ السويس إلى ناظر الداخلية والخارجية بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ (٣ يناير ١٨٦٦) ومرفق بها أيضا تقرير عن الحادث وضعه على كشك (معاون ضبطية السويس) ووقعه معه بدر أغابلو كباشى السوارى بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ .

٧٣- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٥٣٢ ، من حسين فهمى بك محافظ السويس إلى المعية السنية بتاريخ ٩ رمضان ١٢٨٤ (٤ يناير ١٨٦٨) ووثيقة رقم ٥١٨ بها مرفق عربى من مأمور الشلوفة محافظ السويس بتاريخ ٢ رمضان ١٢٨٤ (٢٨ ديسمبر ١٨٦٧) ومرفق عربى بتاريخ ٣ رمضان ١٢٨٤ (٢٩ ديسمبر ١٨٦٧)

٧٤- المصدر السابق.

٧٥- المصدر السابق.

٧٦- محفوظات عابدين- دفتر تلغراف دار عابدين برقية ١١٥٢ من محافظ القناة إلى رياض باشا بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٢٨٦ (٢٨ أغسطس ١٨٦٩) .

٧٧- Roche. Aubert, Rapports sur L'etat Sanitaire et Medical des travailleurs et des Et-
ablissement, du Canal Maritime de L'isthme du Suez , paris 1868 .

وراجع أيضاً : نتالي مونتل ، ص ٢٢١ .

٧٨- محفوظات عابدين - دفتر ٩ تلغرافات - وارد عابدين .

٧٩- نتالي مونتل : ص ٢٢١ .

٨٠- Ereckmann. Op. Cit, p. 268 .

٨١- عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف في مصر (١٨٠٥-١٩١٤)، مركز وثائق وتاريخ مصر
المعاصر العدد ٤٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣ . ص ٢٠٠ .

٨٢- Ereckmann , Op. Cit , p. 76 .

٨٣- محفوظات عابدين - محفظة رقم ٤٢ معية تركي وثيقة رقم ٢٧٥ ، من مراد إلى مهر دار جناب
الخديوي بتاريخ ٢٨ ذى الحجة ١٢٨٤ (٢١ إبريل ١٨٦٨) .

٨٤- Ereckmann. Op. Cit, p. 155 .

٨٥- Ibid .

٨٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٥ معية تركي وثيقة عربية رقم ٣٨٧ من إسماعيل حمدي بك إلى
مهردار جناب الخديوي بتاريخ ١١ جمادى آخر ١٢٨٢ (١ نوفمبر ١٨٦٥) .

٨٧- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢١٦ .

٨٨- المرجع السابق، وراجع أيضاً عن هذا الموضوع: زين العابدين شمس الدين، بورسعيد تاريخها
وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢ . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ ،
ص ص ١١٤-١١٥ .

٨٩- نتالي مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢٠ .

٩٠- المرجع السابق نقلا عن وثائق شركة قناة السويس : AN 153 AQ/ TE137 رسالة من مقاولات
بوريل ولافالي وشركائهما إلى فوازن (٢١ مايو ١٨٦٩) .

٩١- محفوظات عابدين- دفتر رقم ١٠ تلغراف وارد عابدين برقية رقم ٨٥٨ من محافظ القناة إلى
المعية السنية بتاريخ ٢٨ رجب ١٢٨٧ (٣ نوفمبر ١٨٦٩) ويوجد في دفاتر التلغرافات الواردة إلى

قصر عابدين عدد كبير من البرقيات بهذا الخصوص.

٩٢- . Ritt, Op. Cit, pp. 351-352 .

٩٣- . Erckman, Op. Cit, p. 267 .

٩٤- . Ibid, p. 155 .

٩٥- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٤٥ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادة مهر دار الخديوى بتاريخ غرة شعبان ١٢٨٢هـ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٥م) .

٩٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٢ معية تركى وثيقة رقم ١٢٢ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادتلر أفندم بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٨١ (١٦ أبريل ١٨٦٥) .

٩٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٤ .

٩٨- Sabri , M. Bey . L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo- Francise, Paris , 1939 , p. 207 .

٩٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ٥٣ .

١٠٠- المرجع السابق، ص ٥٤ .

١٠١- المرجع السابق، ص ص ٥٤-٥٥ .

١٠٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ومدن القناة ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص ٢٩٢ .

١٠٣- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص ٥٥

١٠٤- فؤاد فرج، مرجع سابق ذكره، ص ٣٦٦ .

١٠٥- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص ص ٥٥-٥٦ .

١٠٦- المرجع سابق ذكره ص ٥٦ .

١٠٧- المرجع السابق ، ص ٥٧

١٠٨- المرجع السابق، ص ٥٩ .

١٠٩- زين العابدين ، ص ٥٩

١١٠- المرجع السابق ص ص ٧٧-٧٨ .

١١١- المرجع السابق، ص ٧٨ ، بعد توقيع معاهدة ١٨٧٧ بين مصر وانجلترا بشأن التعاون على منع تجارة الرقيق ابلغ قسم جوازات بورسعيد بأن يوضح فى جوازات السودانيين أو الأحباش المغادرين للنظر بأنهم أحرار ، المرجع السابق، ص ٩١ .

١١٢- نتالى مونتلى ، مرجع سبق ذكره ص ص ١٩٨-١٩٩ .

١١٣- وهى أصعب منطقة فى ساحات الحفر أخذت مجهودا هائلا من عمال السخرة لارتفاعها وهى المنطقة الواقعة بين القنطرة وبحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 154

١١٤- نتالى مونتلى، مرجع سبق ذكره ص ص ١٨٩-١٩٠ ، ١٩٨ .

١١٥- المرجع السابق ص ص ١٩١-١٩٣ .

١١٦- المرجع السابق، ص ص ١٩٢-١٩٦ .

١١٧- المرجع السابق، ص ١٩٧ .

١١٨- سفير بريطانيا فى الآستانة قام بزيارة لبرزخ السويس - بدعوة من دى لسبس - بعد بضعة أسابيع من تدفق مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح، وكان قد زار الصعيد من أجل الاستشفاء، صحياً ثم قام بزيارة القطاع الشمالى للقناة بصحبة دى لسبس ، وتزل فى مبنى بالإسماعيلية تابع للشركة يطل على بحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 155

١١٩- أنظر الشكل رقم (٢) الخاص بمساكن العمال والموظفين للشركة.

١٢٠- . Lord Kinross, Op. Cit, pp. 155-156

١٢١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص ١٠٣ وما زال هذا المسجد فى بورسعيد وبعد تجديده يعتبر من أكبر مساجد بورسعيد .

١٢٣- المرجع السابق، ص ١٠٤ .

١٢٤- نتالى مونتلى ، مرجع سبق ذكره ص ٢١٧ .

١٢٥- المرجع السابق.

١٢٦- المرجع السابق ص ص ٢١٧-٢١٨ .

١٢٧- المرجع السابق. لقد أنصفت الباحثة الفرنسية فى تعليقها هذا ذلك أن الشركة قد دأبت فى تعاملها مع الجانب الوطنى فى البرزخ، بأنه فى المرتبة الثانية فى كل الأمور ولاسيما الإسكان ، المياه، الأجور والخدمات المختلفة... الخ .

١٢٨- المرجع السابق، ص ٢١٨ .

١٢٩- لمزيد عن هذا الموضوع راجع : الشناوى ، السخرة ص ص ٨٨-٨٩ .

١٣- L'Association du Souvenir de Ferdinand de Lesseps et du Canal de Suez.

ظهرت هذه الجمعية فى السنوات الأخيرة ويرأسها حاليا السيد / أرنودى رامير (Arnaud Ramiere) أما الرئيس الفخرى حاليا هو السيد / جون بول كالون الذى كان المفاوض الفرنسى ، عند تأميم القناة ١٩٥٦ ، مع الجانب المصرى للوصول إلى التعويض المناسب للشركة . وقد تكونت هذه الجماعة بعد التأميم وتحولت الشركة الفرنسية فى باريس إلى مجرد شركة استثمارية تملك الأموال ولا تدير القناة وليس لها أى دور ، ولكنها ملكت أرشيف بباريس ، فتكونت هيئة أهلية أطلقت على نفسها اسم المذكور ، وأعلنت أنها تعتبر نفسها اتحاد يمجّد ذكرى فرديناند دى لسبس وقناة السويس ، وأنها مسئولة عن التراث التاريخى الذى يسرد تاريخ قناة السويس وأن هذا الإرث التاريخى قد تم تصنيفه مؤخرا بمعرفة هيئة اليونسكو كذاكرة للعالم Memore du Monde وأنه لا يخص فقط كل من مصر وفرنسا وإنما يخص العالم أجمع ويضم وثائق الشركة عن الفترة من ١٨٥٤ حتى ١٩٥٧ . وقد تم نقلها إلى الأرشيف القومى الفرنسى خلال الفترة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨٠ وهى تشمل الآن بحجمها مساحة ١٦٠٠ متراً من الأرفف . وبالنسبة لنشاط هذه الجمعية فى مصر نلاحظها فى محاولاتها لربط هذا الاتحاد بمكتبة الاسكندرية ، فقامت بإهداءها ميكروفيلم لبعض هذه الوثائق الخاصة بالشركة ومعظمها مؤلفات دى لسبس وأقرانه من المؤيدين للشركة.

وشاركت هذه الجمعية فى العديد من الأنشطة الثقافية مع المكتبة ، وأيضاً باتصالاتها مع هيئة قناة السويس لإنشاء متحف لقناة السويس وترميم حجرة دى لسبس فى الاستراحة الرئيسية بالاسماعيلية والمسجلة كأثر تاريخى. وقد حاولت إعادة تمثال دى لسبس الذى حطمه البورسعيديون إبان العدوان الثلاثى على مصر ١٩٦٥ ، وقد فشلت حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف .

وجدير بالذكر أن دى لسبس كان حريصاً على إخفاء كل وثيقة تدين الشركة فيما يتعلق بالسخرة فى حفر قناة السويس والمآسى التى عاناها عشرات الآلاف من الفلاحين فى ساحات الحفر . ذلك أنه قد احتفظ لنفسه بحق نشر المعلومات وفرض الصمت على الجميع ، وإصدار تعليماته إلى جميع العاملين بالشركة من الأوربيين بموجب أمر إدارى رقم ٦٤ (٢٤ يناير ١٨٦٢) بالفصل من العمل فى حالة التصريح بمعلومات أو خواطر عن شئون الشركة إلى وكالات الأنباء أو الصحف التابعة لأي بلد كان أو إلى مجرد أشخاص (راجع ذلك فى كتاب . نتالى مونتل ص ١٤) . وقد تم تنفيذ ذلك فى الكثيرين، نذكر منهم دانييل لانج- العضو البريطانى فى الشركة - وعن تفاصيل هذا الموضوع راجع : السيد حسين جلال ، قناة السويس والأطماع الاستعمارية الدولية - القاهرة سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٢٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ ، ص ص ١٨٧-١٨٨

- ١٣١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص ص١١٦-١١٧ .
- ١٣٢- لمزيد من التفاصيل راجع : السيد حسين جلال، «بورسعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب» مجلة المؤرخ العربى- العدد العاشر- المجلد الأول، مارس ٢٠٠٢ ، ص ص٣٦٧-٤١١ .
- ١٣٣- فؤاد فرج، مرجع سابق، ذكره ص٣١٥ .
- ١٣٤- راجع بالتفاصيل عن هذا الموضوع : السيد جلال ، بورسعيد مركز التقاء ثقافات ، ص ص٣٦٧-٤١١ .
- ١٣٥- زين العابدين شمس الدين ، بورسعيد، ص ص١١١-١١٢ .
- ١٣٦- المرجع السابق، ص١١٢ .
- ١٣٧- المرجع السابق، ص ص١١٣-١١٤ .

ضياء الدين حسن القاضى *

تاريخ الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد

التعريف بمدينة بورسعيد

ارتبط تاريخ مدينة بورسعيد ونشأتها وظهورها على خريطة العالم بتاريخ حفر قناة السويس ذلك الشريان الحيوى والاستراتيجى الذى يربط البحرين الأبيض بالأحمر والتي بدأ العمل فى شقها فى بورسعيد فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ فى عهد والى مصر محمد سعيد باشا واستمر الحفر قرابة العشر سنوات حيث احتفل بافتتاحها فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ فى عهد خديوى مصر اسماعيل باشا فى احتفال مهيب حضره ملوك وأباطرة العالم وفاقت تلك الاحتفالات من الأبهة والفخامة ما جاء فى وصف ليالى ألف ليلة وليلة.

إلا أن المنطقة التى نشأت عليها الآن كانت تحوطها من الشرق والجنوب فى الأزمنة الغابرة حضارات سادت ثم بادت بفعل الزلازل أو الأمر بهدمها وإخلائها خوفاً من استيلاء المغيرين عليها وتلك الحضارات كانت الفرما وبيروز وتنيس وتانيس ونتونة.

وتعتبر بورسعيد الميناء الثانى فى الأهمية بالنسبة لمصر بعد ميناء الاسكندرية.

وتقع مدينة بورسعيد فى الطرف الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا أما مدينة بور فؤاد التى قام بافتتاحها الملك فؤاد فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ التى هى إحدى أحياء مدينة بورسعيد السبعة وتقع شرق قناة السويس فى الطرف الشمالى الغربى لقارة آسيا .

وموقع مدنة بورسعيد الفريد أكسبها أهمية على خريطة العالم جعلها محط أنظار كثير من أبناء شعوب العالم تتوافد عليها بعد حفر القناة أناس من شتى بقاع العالم وبالأخص

* عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

من ربوع أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط فى شكل جاليات طامعين فى الثروة والغنى السريع، وحملت كل جالية معها ثقافتها وعلى رأسها الثقافة الأنجلو سكسونية والثقافة اللاتينية والاعريقية وتلك الجاليات حسب كثافتها اليونانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية وشتات من جنسيات شعوب أوروبا والأمريكتين وآسيا وأفريقيا حتى عرفت مدينة بورسعيد بالمدينة الكوزموبولتان أى ذات الصبغة العالمية المتشعبة .

الكل جاء لبورسعيد باعتبارها قلعة اقتصادية ضخمة (تجارية صناعية وخدمية ملاحية مرتبطة بالميناء والسفن المارة بالقناة) الكل يبحث فيها عن الثروة وبريق الذهب ، وحظيت الجاليات الأجنبية فى مدينة بورسعيد بكم هائل من الثروة والمكانة والاحترام بحكم عوامل على النقيض من أبناء البلد الأصليين من أبناء مصر الوافدين إليها من شتى أقاليم مصر بحثاً عن حياة أكثر رخاءاً وهناءً عن تلك البسيطة والفقيرة فى ديارهم الأصلية إلا أن الحروب التى كرت على بورسعيد وعلى رأسها حروب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ كانت عوامل طرد لبعض من سكان بورسعيد وبالأخص الأجانب الذين عادوا إلى بلادهم .

وسردى للأحداث فى بحثى هذا عن تاريخ الجاليات الأجنبية فى بورسعيد سوف يمثل فترة تواجدهم على أرض بورسعيد منذ دق أول معول فى أرض قناة السويس من عند بورسعيد فى يوم الإثنين ٢٥ أبريل ١٨٥٩ مروراً بافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ انتهاء بحرب يونيو ١٩٦٧ وما استتبع ذلك لهجرة اجبارية لأهل بورسعيد فى محافظات مصر إلى هجرة نهائية للأجانب منذ أوائل ١٩٦٨ وبعد انتصارات حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعودة الحياة الطبيعية لمدينة بورسعيد التى لم يعد إليها إلا القلة القليلة من الأجانب ومن اليونانيين بالذات الذين لم يعد لهم أى كيان يذكر .

كان التكوين السكانى لمدينة بورسعيد فى أول عهدها يعتمد على تجمعين للسكان.

الأول : فى أقصى الغرب من المدينة حيث قرية العرب (حى العرب فيما بعد) وهو عبارة عن مجموعة من العشش الخشبية المتواضعة المصنوعة من أخشاب صناديق البضائع الواردة للمدينة على ظهر البواخر التى ترسو فى الميناء، وكان يقطن قرية العرب المصريون الوافدون على المدينة الوليدة من شتى أقاليم مصر للعمل فى المهن الدنيا فى المدينة كفحامين يقومون بشحن السفن العابرة فى القناة بالفحم الذى كانت تستخدمه السفن فى ذلك الوقت لتشغيل آلاتها، أو للعمل كسقائين وظيفتهم امداد مساكن المدينة بالمياه التى ترد لبورسعيد بالمراكب

الشرابية عبر بحيرة المنزلة المتاخمة للمدينة في جهتيها الغربية والجنوبية وكانوا يقومون أيضاً بامداد السفن بما تحتاجه من الماء، وهناك مجموعة من الفواعلية الذين يعملون تحت رحمة المقاولين البحريين الأجانب (الكومندات) في شحن وتفريغ السفن العابرة للقناة بالبضائع، وأناس كثيرون لا عمل لهم إلا اكتساب أرزاقهم اليومية إلا بالكاد (بالعافية).

وكانت فرقة العرب ومساكنها خالية من أي مقومات آدمية ضرورية لحياة صحية، فشوارعها رملية غير مرصوفة تلقى فيها القاذورات والمياه غير النظيفة في كافة أرجائها مما يجعل انتشار الأمراض والأوبئة سهلاً بالإضافة إلى انتشار الذباب والبعوض اللذين ينقلان الأمراض، يضاف عدم توفر الاضاءة فيها ليلاً، ولقد دام لهذا الحى أن يكون خالياً من أية وسائل للترفيه والتسلية (سينمات، مسارح مكتبات عامة، نوادي...) وفي أقصى قرية العرب جهة الغرب ظهر تجمع سكانى أطلق عليه حى المناخ نسبة إلى اناحة ابل القوافل التى كانت تأتى محملة بالبضائع من دمياط..

أما التكوين السكانى فيقع فى شرق المدينة وهو حى الافرنج (نسة للفرنج الأجانب) فهو على النقيض يحظى بالأهمية الكبرى فهو ملاصق للميناء ولقناة السويس مما يرفع من أثمان أراضيه ويعطيها أهمية فبنت فوق أرضه المساكن الحجرية المكونة من عدة أدوار وطوابق Et-age تصل إلى أربعة أو خمسة ذات شرفات (بلكونات أو ترسينات بلغة أهل بورسعيد) مصنوعة من الخشب أو الحديد المشغول Fer Battu التى تطل على الشوارع الطولية والعرضية المتعامدة والمرصوفة والمفروسة على جانبها أندر أنواع الأشجار المجلوبة من أوروبا لتظلل المارة والسيارة عند غدوهم ورواحهم صيفاً وقاية من لهيب الشمس والمضائة بفوانيس غاز الاستصباح ليلاً والتي استبدلت بالكهرباء فيما بعد ويتولى عمال المجلس البلدى (افتتح أول مجلس بلدى لمدينة بورسعيد فى ٢٣ فبراير ١٩١١ فى عهد المحافظ محمد محمود بك ليكون مختلطاً بين المصريين والأجانب) ومن قبله نادى المحافظ محمد ماهر باشا بتكوين مجلس أهلى يتولى جباية العوايد والصرف منها على رقبى مدينة بورسعيد مكون من ٢٤ عضواً نصفهم مصريين والنصف الآخر أجانب افتتح فى ٢٦ فبراير ١٨٩٤) فيتولى كنس شوارعها فى الصباح الباكر ورشها بالمياه. وأسفل تلك العمارات الشاهقة بحى الافرنج كثرت الحوانيت الكبيرة التى تعج بشتى صفوف البضائع التى ترد لبورسعيد فى شتى بقاع العالم وتنتشر المقاهى والبارات التى تصرح أمامها الفرق الموسيقية بأعذب المعزوفات وبالأخص فى حالة

وصول باخرة تحمل ركاباً (بساجيرى بلغة أهل بورسعيد) Passenger من شتى بقاع العالم فتسمع أصحاب تلك المحلات ينادون عليهم بشتى لغات العالم لتمتلى جيوبهم بشتى أنواع العملات الأجنبية بعد أن يقوموا بشراء عادات وتذكارات تذكروهم بمدينة بورسعيد فتنتعش الحياة الاقتصادية بوصول مثل تلك البواخر، لقد عرف حى الافرنج وسيلة مواصلات كانت فى ذلك الوقت متقدمة هو الترام الذى تجره البغال وقام بتشغيله الاقتصادى اليونانى قسطنطين زوروس ١٨٩٢ لتجوب عرباته أرجاء المدينة .

تلك صورة مختصرة عن حى الافرنج الذى كانت تقطنه كافة الجاليات الأجنبية ويكاد يكون محرماً على المصريين أن يقطنوا فيه أو يدخلوا إليه إلا للعمل طرف الأجانب كخدم منازل أو قواصه (حراس) أو عمال فى المحال والمخازن المنتشرة داخل هذا الحى.

وأحب أن أنوه أنه فى التخطيط المبدئى لمدينة بورسعيد خطط لنشأتها بأن تكون غرب القناة سواء كان ذلك حى الافرنج أو قرية العرب (حى العرب فيما بعد) هم حى المناخ .

ففى الضفة الشرقية للقناة التى كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة أو كما يطلق عليها الاجانب Bousqvét كانت عبارة عن تجمع للورش الخاصة بشركة قنال السويس لاصلاح السفن ومعداتنا إلى أن جاء الوقت لاقامة ضاحية سكانية فوقها عرفت بمدينة بور فؤاد نسبة للملك مصر فؤاد الأول الذى افتتحها فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ تكفلت شركة قنال السويس ببنائها للعاملين فيها فصممت فيلاتها على نمط واحد أخذ أسلوب العمارة الفرنسية.

الجالية اليونانية

الجالية اليونانية كانت أكبر الجاليات الأجنبية تواجداً على أرض بورسعيد .

ففى عام بداية الحفر ١٨٥٩ بلغ عدد الأجانب الذين وصلوا إلى بورسعيد ٤٩ أجنبياً أغلبهم من الفرنسيين وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عددهم ١٥٨ أجنبياً أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين . أما فى سنة ١٨٧٦ بلغ عددهم ٣٤٥١ أغلبهم من اليونانيين واستمر عدد الأجانب فى الزيادة بعد احتلال إنجلترا لمصر سنة ١٨٨٢م وفى تلك السنة تم اجراء أول تعداد للسكان فى مصر كان إجمالى السكان فى بورسعيد ١٦٩٧٨ نسمة منهم ٢٩٣٧ أجنبى واليونانيون منهم ١١١٦ يونانى .

أما فى التعداد التالى سنة ١٨٩٧ فوصل عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة وصل عدد الأجانب فيها ١١٤٨٠ أجنبى أكثرهم اترك وشوام ويونانيون وبريطانيون وإيطاليون وفرنسيون.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهرت تعداد الجالية اليونانية

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
٣٤٦١	٤٠٤٧	٥٣٤١	٦٢٠٦	٤٠٤٧ يونانى

لقد اشتهر أبناء الجزر اليونانية بأنهم بحارة مهرة ذو خبرة فى أعمال لذلك استعان بهم دى ليسبس عندما بدأ مشروعه فى حفر قناة السويس من بورسعيد ١٨٥٩م وفى ذات السنة قام دى ليسبس بإنشاء فناء على أعمدة خشبية بارتفاع ٢٠ متراً لإرشاد السفن القادمة للميناء المرتقب والمحملة بأدوات الحفر والمياه والأطعمة لعمال الحفر (فى منطقة المرسومة الحالية) وعين له دى ليسبس اليونانى من أبناء جزيرة كاسوس Gorge Anetas لتشغيله الذى توقف فى ١٨٦٩ عند افتتاح القناة بعد أن حل محله الفناء الحجرى المشهور المطل على ميناء بورسعيد واستمر عمل اليونانى انستاس بشركة القنال ٤٦ سنة أحيل بعدها للمعاش وله ذكريات كثيرة قصها فى المرجع اليونانى ذكريات وأحداث عن مدينة بورسعيد لديمتريوس خالدوبيس المطبوع فى الاسكندرية ١٩٣٩ .

وازدادت أهمية اليونانيين بعدما ألغى دى ليسبس السخرة فى حفر قناة السويس ١٨٦٤ وقامت الحكومة المصرية بسحب ٢٠ ألف عامل مصرى فى المشروع بإيعاذ من إنجلترا فاضطر دى ليسبس فى النشر فى الصحف العالمية وعن طريق البعثات الدبلوماسية الفرنسية عن رغبة شركة قنال السويس فى تشغيل عمال أوربيين فى أعمال حفر قناة السويس وتلبية لهذا النداء وصل إلى مناطق الحفر خمسة آلاف عامل من أبناء الجزر اليونانية أغلبهم بحارة من جزيرة كاسوس والذين كانوا يطلقون على تلك النقطة التى نشأت عليها بورسعيد Kavo Poulio أى محطة العصفير لكثرة طيور البحر المهاجرة فى تلك المنطقة وقد اشتهروا بالكاشوتية « والذين فضلوا العمل فى حفر قناة السويس عما يتعرضون له من مخاطر البحر حيث وصل أجر العامل اليونانى من ١٥ إلى ٢٥ ريال فى الشهر فكان هذا الأجر مرتفعاً إذا ما قورن بما يتقاضاه الواحد منهم على ظهر إحدى السفن.

لقد ذكر لنا المرجع اليونانى أن أول حفل زفاف تم على أرض بورسعيد سنة ١٨٦٣ للميكانيكى اليونانى Manolis Kalangas والذي أقام مراسم الزواج القسيس Papanikits (مما يدل على أن اليونانيين كانوا يصحبون معهم زوجاتهم وأسرهم فى مناطق الحفر).

وأكمل العمال اليونانيون أعمال الحفر التى توقفت ابتداء من سنة ١٨٦٥ وعمل بجانبهم بعض العمال المصريين الذين عادوا لمناطق الحفر برغبتهم وعرفوا «بالرغوبية» وأكمل الجميع الحفر حتى افتتحت القناة للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .

وقد تولى اليونانى Klodrs مهمة توزيع البريد على المحطات المنتشرة على امتداد قناة السويس.

وفى حفلات افتتاح القناة والتى بدأت بيوم قبل تاريخ الافتتاح من بورسعيد حيث اقيمت ثلاث منصات الأولى لكبار الزوار وعلى رأسهم الامبراطورة أوجينى زوجة نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذى انشغل بالقلق التى كانت دائرة بفرنسا وأتاب عنه زوجته أوجينى، والمنصة اليمنى لرجال الدين الإسلامى واليسرى لرجال الدين المسيحى لتبريك المشروع كان من بينهم بطريرك اليونانيين Sofronios بل أن المرشد اليونانى فى شركة قنال السويس Ag-isiladis Podimitras هو الذى قاد اليخت L'Aigle أى النسر الذى كان يقل أوجينى عند عبوره القناة يوم الافتتاح ومنحته نيشان فرنسى بعد نجاحها فى عبور قناة السويس وأصبح من بعدها المرشد المتخصص فى قيادة سفن الملوك والأمراء وكبار الشخصيات العالمية المارة بالقناة ومنح منهم العديد من النياشين والأوسمة لبراعته فى قيادة السفن .

ومن مرشدى شركة القنال المشهورين فى أول عهدها الأخوان مليكاديس وأبوليونيس زاخبوليس اللذين وصلا إلى بورسعيد من اليونان لأول مرة ١٨٨٥م على الوابور الخشبى Crocodile الذى كانت حمولته ٥٠٠ طن والذي كان يعتبر فى ذلك الوقت شئ خرافى، المرشد الأخير كان مشهوراً بأنه مرشد المهام الصعبة فى شركة قنال السويس لما يمتاز به من شجاعة ، فلما جنحت إحدى السفن العابرة للقناة وأضرمت فيها النيران وكان على ظهرها شحنة متفجرات تقدم نحوها بقاطرة الانقاذ التى يقودها وقطرها بعيداً عن مجرى القناة كذلك منع عند نهاية خدمته نيشان من شركة القنال على خدماته البطولية.

ولا يمكن أن نجهل المرشد نيقولا سيتيناس وكانت له عمارات شاهقة ببورسعيد والاسماعيلية، وكان اليونانيون من أولى الجاليات التى تقدمت لافتتاح توكيلات ملاحيه فقبل

افتتاح القناة قامت السيدة اليونانية Helnh Gilierme Zannos بافتتاح مكتب ملاحى وذلك لخدمة البواخر وبالأخص التى تملكها كما شارك CH.M.Lambis المصرى رجب القصيفى بافتتاح توكيل ملاحى شارع ممفيس.

نعود إلى حالة الجالية اليونانية فى بورسعيد فبعد افتتاح القناة للملاحة عاد لليونان من عاد وبقى من بقى بعد أن قاموا باحضار عائلاتهم من كافة الجزر اليونانية وعلى رأسهم أبناء جزيرة كاسوس الذين كان لهم دلالة الخاص والتميز عند دى ليسبس وأقاموا تجمعاً سكانياً خاصاً بهم فى أقصى حى الافرنج وبالقرب من قرية العرب عرف بحارة الكاشونيه فملكهم تلك الأرض ليقيموا فوقها مبانيهم وكان مجتمعهم مجتمعاً مغلقاً على عكس باقى أبناء الجزر اليونانية فهم قوم محافظين كابناء صعيد مصر لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وكان من شدة دلالة عند دى ليسبس أنه كان أول ما يخطب فيهم يقول لهم «يوناي» أى اليونانيين المحبين إليه وفى أحد المرات ذكر لهم أنه لايمكن أن يؤخر لهم طلباً فاغتنموا تلك الفرصة وطلبوا من دى ليسبس أن يطلق على بور سعيد اسم «كاسوس الصغرى» إلا أنه تأسف لهم خوفاً من الخديوى اسماعيل . وهذا ما ذكره المرجع اليونانى لخالدوبيس ص ٥٣ .

وكان للكاشوتية جمعياتهم الاجتماعية الخاصة ففي سنة ١٩٠٦ تأسست جمعية للخدمات الاجتماعية باسم القديس (سان ديمترى) لتقديم المساعدات الاجتماعية للكاشوتية . بالإضافة إلى جمعية أبناء كاسوس . وفى ٧ يونيو من كل عام كانوا يحتفلون بذكرى اباداة تركيا لأبناء جزيرة كاسوس فى ٧ يونيو ١٨٢٤ وكان أشهر رؤساء جمعية أبناء جزيرة كاسوس الكريو Evan. Arvanitopovlos فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين وكان يتصدر احتفال تأبين قتلى كاسوس مع القنصل Avramid .

كما أصدر أبناء كاسوس جريدة خاصة بهم تحت اسم Voix De Cassos أى صوت كاسوس ومديرها المسئول جورج جرمانوس (وهو فى ذات الوقت لاعب مشهور لكرة القدم فى نادى اسبيريا اليونانى فى بورسعيد) ومدير تحريرها «جورج يوانو» وفى العدد الصادر ٢٤ أبريل ١٩٥٩ كتب العلامة اليونانى Philippe Glytsis مدير مدارس الجمعية اليونانية ببورسعيد مقالاً بمرور مائة عام على حفر قناة السويس يشع حباً لبلده الثانى مصر ولزعيمها جمال عبد الناصر يعيد فيه تأييد الجالية اليونانية لاستعادة مصر حقها المسلوب بتأميم شركة قنال السويس العالمية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ كما تأسست جمعية نسائية لسيدات كاسوس

برئاسة مدام Arvanitopulos ونائبتها مدام Papadimtriou والسكرتيرة مودموزيل Macris.

وكما هو معروف عن اليونانيين بأنهم بحارة مهرة معروف عنهم أنهم تجار محنكين نافسوا الفرنسيين فى التجارة خلال نقاط الحفر وأصبحت تجارة التجزئة بصفة عامة فى أيديهم.

وكانت تجارة الدقيق والبقالة والدخان يسيطر على غالبيتها تجار يونانيون وكان على رأس تجار الجملة للبقالة والتجزئة فى بورسعيد ١٨٨٥ Stavan Panayotos وكان من بلدة زعيرن وكان محترماً بين عشيرته وفى نفس الوقت كان محبوباً جداً من المصريين وكانوا يطلقون عليه الشيخ ستافرو لأنه كان يرتدى الطربوش على رأسه فى تجواله وتبرحاله . أما تاجر البقالة الآخر فهو Parlis Livieatos وكان من بلد كيفالونيا . ورأسمالها فى التجارة يقدر بعشرة آلاف جنيه وهو مبلغ كبير جداً فى ذلك الوقت ١٨٨٥ . وبمناسبة حب المصريين لليونانيين والعكس بمناسبة اطلاق الشيخ استافرو على أحدهم كانوا من أسرع الجاليات الأجنبية فى تعلم اللغة العربية ونطقها بطريقة محببة .

أما أول سوق للمأكولات فى بورسعيد خرج بشكل حضارى نسبياً لوقت إنشائه سنة ١٨٧٠ فهو السوق الذى انشأه Poul Lovzides بشارع فرعون (الشهيد عطوط) وهو موجود حتى الآن ويعرف عند أهل بورسعيد بسوق البازار Bazar.

أما أشهر أسواق حى الافرنج لغير المأكولات فكان شارع التجارة وكان أغلب تجاره من اليونانيين (شارع عبد المنعم رياض حالياً) وأهم المحلات Mikado و Boudoah و Selecta بلغت جملة محلات هذا الشارع ٣٠٠ محل .

أما أشهر الحلوانية فى بورسعيد كيريوكوستيفتديس « بميدان دى ليسبس (المنشية) وقام ببناء منزل من ثلاث أدوار فى أراضى طرح البحر بشارع صلاح الدين كان يطل على نادى الطلبة وقام ببنائه فى نهاية القرن التاسع عشر وقام والدى بشرائه منه سنة ١٩٥٢

أما أول من أدخل نظام الميكنة فى المخبوزات فكان «جريجوار دارس» صاحب المخبز الشهير Dimitra وحول تجارته فيما بعد لتجارة الدقيق حيث استورد ماكينة لتقطيع العجين وتشكيله فى مايو سنة ١٩٠١ .

وحذى حذوه فيما بعد الافران التى يملكها خريستوفيديس ، ألكسندراس جريك نريك،

خزائني (بالبزار) ، كستنويديس (بجوار قهوة البلياردو) ، إخوان ساس (نهاية البزار) ، لوز باديس (خلف الكنيسة اليوناني) .

أما أشهر تجار الدخان والسجائر دوروس وميرزانس وثافيديس وكان محله خمسين ألف صنف Bazar Egyptien بميدان المنشية للأدوات المنزلية أما تجار البن والشاي فهم اسطفانوس وداراس.

وقد أثرى هؤلاء التجار ثراءً فاحشاً من الصفقات التجارية التي عقدت في زمن الحرب العالمية الأولى حيث وضعوا أيديهم على تجارة مصر الداخلية بعد أن قطعت الغواصات الألمانية طريق القوافل التجارية في دول أوروبا فعقدوا صفقات مع دول الشرق الأقصى وأقاموا المستودعات الضخمة والمخازن لبضائعهم في بورسعيد ليعيدوا توزيعها على مدن مصر ، وادى هذا الثراء الفاحش إلى شرائهم الأراضي من شركة قناة السويس في المناطق المميزة بسعر المتر ٢٠ فرنك فرنسي للمتر الواحد وأقاموا فوقها العمارات الشاهقة ذات الطابع المعماري الفريد كما أقام البعض فيلات خاصة لهم كفيلا Papanikita بشارع توفيق (عرايى) التي اشتراها المقاول البحري محمد على سودان باشا . ومن المهن النادرة في بورسعيد التريزى -Pet- rids الذى تخصص فى حياكة وتطريز بدل التشريفة والبدل الرسمية وافتتح محل سنة ١٩٠١م.

وكان للجالية اليونانية ثقلها الاجتماعى فى المجتمع البورسعيدى فسعوا لدى دى ليسبس للحصول على قطعة أرض لبناء فوقها كنيسة أورثوذكسية للجالية اليونانية تليق بهم بعد أن كانت لهم كنيسة خشبية (سان جون) تطل على شارع اسماعيل (نهاية صلاح سالم) وبالفعل حصلت على قطعة أرض هبة من دى ليسبس سنة ١٨٦٤ وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى ١٣ أبريل ١٨٨٨ ونظراً لقلة الموارد المالية للجمعية اليونانية فقد تعطل بناؤها إلى أن جاءت سنة ١٨٩٧ . فاسند تصميمها للمهندس الفرنسى Iroum المتخصص فى العمارة البيزنطية إلى أن قامت الجمعية اليونانية بالاقتراض من البنك العثمانى ستين ألف فرنك ذهب قامت بسداده عن طريق اصدار ورقة يانصيب وفى يوم الأحد الأول من نوفمبر ١٩٠٣ افتتحت الكنيسة للصلاة بحضور بطريرك الاسكندرية فوتيوس وقنصل اليونان بالاسكندرية -Fen-naous وقنصل اليونان فى بورسعيد Paprdakis ونائبا قنصل اليونان فى كل من الزقازيق (ماقروودس) والمنصورة (ساختوريس) ورئيس الجمعية اليونانية فى بورسعيد Crdnos

ومحافظ القنال حسين واصف باشا . والحق بكنيسة (سان جورج) مدرسة للبنين ثم مدرسة للبنات وجمعية للكشافة . وفي فناء الكنيسة وضع نصب تذكاري للجنود اليونانيين القتلى بالمارتنيك وتلك المدرسة خلاف أول مدرسة يونانية في بورسعيد كان عامها الدراسي الأول ٧١ / ١٨٧٢ وناظرها Yannis Varkas وكانت خلف الكنيسة الحالية بشارع اسماعيل (صلاح سالم) وعدد فصول البنين ٣ فصول . أما مدرسة البنات فكانت بشارع دى ليسبس (سعد زغلول) في دور أرضى وعدد التلاميذ في تلك السنة ٣٠٠ تلميذ والعطلة الاسبوعية الخميس . ويقوم بالتدريس فيها Constantis Porianos ومدرس آخر للتربية البدنية Simon Kallergis ودرس في بيروت وله أملاك بشارع القسطنطينية (الجيش) ، وبابل وفيها محلات الخواجة بنى للملبوسات وكان لا يتقاضى أجراً بل يقوم بالصرف من جيبه الخاص على تشجيع التلاميذ .

أما جمعية الكشافة اليونانية فقد منحت قطعة أرض بتقاطع شارع أوجيني (صفية زغلول) والسلطان محمود غرب مدرسة الفرير وقد اشترط في عقد ايجارها عدم استخدام البروجي إلا في أوقات معينة لعدم أقلق راحة السكان بالأماكن المحيطة بها . وتم اخلاء جمعية الكشافة اليونانية وبنى مكانها سوق البلدية سنة ١٩٢٩ وافتتح سنة ١٩٣٠ Marché Municipal على النسق الفرنسي وبناه المقاول الايطالى جوستاف البرتى ومنحت جمعية الكشافة قطعة أرض على شاطئ البحر . ووصل عدد أفراد فرق الكشافة الأجنبية في بورسعيد سنة ١٩٢١ إلى ألف كشاف يوناني وفرنسي وإيطالي وإنجليزى ، قاموا باستقبال الكشاف الأعظم بادن بلول عند وصوله لبورسعيد ١٩٣٧ .

وكانت للجالية اليونانية نوادى رياضية كثيرة أهمها نادى إسبيريا لكرة القدم ومنح قطعة أرض جنوب بورسعيد غرب شارع محمد على وانضم هذا النادى فى مباريات كأس الملك فؤاد واتحد مع نوادى بورسعيد الأخرى المصرى بورسعيدى وقرتوس الايطالى والاشكرية الفرنسى وتم الفوز الملك فؤاد مرتين ٣٥ / ١٩٣٦ ، ٣٦ / ١٩٣٧ حيث ضم منتخب القناة تلك الأربع فرق القوية فى بورسعيد وكان هناك نادى يونانى آخر لكرة القدم هو نادى كيكلوس .

وفى أواخر نوفمبر ١٩٠٥ تأسس نادى يونانى لألعاب القوى خلف الكنيسة اليونانى اسمه كونستانتاس سوخويلوسى وضم ٢٣٠ عضو من مفتولى العضلات .

وكان للجالية اليونانية فرقها الموسيقية الخاصة أشهرها الجلاء ثم تأسست فرقة ثانية فى

ديسمبر ١٨٩٠ تحت اسم Wexartisia أى الحرية من عشرين موسيقى بقيادة موسيو لويس مدرس الموسيقى وقائد أوكترا بصالة مسرح الالدرادو وصالة فندق جراند اوتيل. ثم تكونت فرقة ثالثة Efterpi ومديرها الموسيقى Amphion التى لم يكتب لها النجاح ، فتكونت فرقة رابعة تحت اسم Eftera التى استمرت هى والجلء وكانتا تقدمان المقطوعات الموسيقية والعزف فى حديقة دى ليسبس (المنشية) فى أيام الأحاد والاعياد الرسمية اليونانية كما كانتا تعزفان فى أشهر المقاهى والبارات اليونانية وعلى رأسها «الخديوية» شارع فرانسو جوزيف (الميناء) مكان شركة كول كومباني وبار آخر فى ميدان فرنسوا جوزيف لصاحبه اليونانى نيقولا رويديس الذى كان فى ذات الوقت متعهد تموين السفن الروسى مكان شركة التلغراف الإنجليزى Eastern Telegraf إلا أنه أغلق هذا البار لانشغاله فى أعماله البحرية بالإضافة إلى أن أسعاره كانت عالية جداً . وفى مقهى Yoreis Pantels بشارع السلطان عثمان (الجمهورية) وبابل .

ونعود للفرق الموسيقية اليونانية وأحياءها حفلات الجالية اليونانية فاقامت الزينات ورفعت الأعلام اليونانية وكانت الفرقة الموسيقية الجلء تجوب شوارع مدينة بورسعيد ابتهاجاً بزواج الأمير كونستانتين «ولى عهد اليونان والذى أصبح ملكا على اليونان من ١٣ - ١٩١٧» بالأميرة صوفيا ، وقد اختارت الجالية اليونانية فى بورسعيد Akdvos Kouppa للسفر لليونان لتمثيلها فى حفل الزواج فى ٢٢ أكتوبر ١٨٨٩ .

وفى أوائل سنة ١٨٩٧ هبت الثورة فى جزيرة كريت ضد الحكم التركى فما كان من رئيس الجالية اليونانية جورج كرونس إلا أن شكل جمعية وطنية يونانية تحت اسم Aris غرضها جمع تبرعات لمناصرة ثوار كريت فاحت فرقتا الموسيقى الجلء وافترا عدة حفلات موسيقية بالإضافة إلى حفل راقص وحفل تنكرى بلغ إجمالى دخل هذه الحفلات خمسة آلاف فرنك ذهب قام قنصل اليونان فوندوليس بإرسالها لليونان .

وفى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ استقبلت الجالية اليونانية برئاسة جورج كرونس فى بورسعيد الأمير جورج «الابن الثانى للملك جورج الأول والذى أصبح ملكا على اليونان من ٢٢ - ١٩٣ الذى وصل لبورسعيد لوداع خاله ملك الداغرى فلدمار اللذان وصلا إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Virman ورفعت الأعلام اليونانية والداغرى فى أنحاء بورسعيد وأقواس النصر واعدوا للأمير خمسة حناطير ركبها هو وحاشيته يتقدمهم فرقتا الجلء وافترا التى قامت بعزف الاناشيد الوطنية اليونانية.

ولما وصل بالقرب من الكنيسة اليونانية أصر اليونانيون على نزوله للصلاة فيها إلا أنه رفض في بادئ الأمر لأن زيارته لم تكن رسمية نظراً لأن العلاقات المصرية اليونانية شابها الفتور بعد انتصار تركيا على اليونان في حربها في جزيرة كريت وما تلى ذلك من قطع مصر علاقاتها باليونان في نهاية تلك الحرب في ٢٤ مايو ١٨٩٧ .

لايفوتنا هنا أن يفوت على اليونانيين الحكمة التي تقول إن «المسرح أبو الفنون» أسس اليوناني جريجوار سوليدس أول مسرح في بورسعيد أطلق عليه مسرح الالدرادو بشارع التجارة (النهضة) وكان يتعاقد مع أشهر الراقصات الفرنسيات والايطاليات لعرض أحدث الاستعراضات في أوروبا ، وكانت الجاليات الأجنبية تقيم فوق خشبة مسرحه كثير من احتفالاتها الوطنية وتم تطويره في يونيو ١٨٩٦ وبالأخص في الديكورات الداخلية بإضافة مجموعة من الصور الزيتية على حوائطه وتم تمثيل مسرحيتي Traviata , Trivatore من أهم أعمال الموسيقى الايطالي فيردى . كما وصلت إلى بورسعيد الفرقتان المسرحيتان الشهيرتان في نوفمبر ١٩٠٠ Kondopoles, Pandopules وقامتا بعرض مسرحياتهما على مسرح الالدرادو وحضور جمهور غفير وكانت الحفلات تحت اشراف زوجة القنصل باداكييس وقد أدخل عليها آلة عرض سينمائي وكان من السهولة تحويلها من مسرح إلى سينما والعكس وذلك بعد انتقال ملكيتها لليوناني مريكوبولوس .

وفي ديسمبر ١٩٠٥ قامت جمعية الأدباء اليونانيين ورئيسها Spiro Valentes حفل على مسرح الالدرادو بلغت حصيلته ٢٥٠٠ فرنك وجهت لتشجيع الأدباء اليونانيين وتولى الخطابة اثنان من أشهر المحامين اليونانيين ثياجوس وبانيوتوس .

وارتبط مسرح وسينما الالدرادو بالحركة المسرحية المصرية في بورسعيد فكانت تقام فيه الحفلات العامة لمبرة رمسيس للخدمات الاجتماعية ، خصصت ايرادها للفقراء والمرضى المعوزين والمستشفيات الحكومية فمثلت أحد روائع نجيب الريحاني «الشايب لما يدلع» تحت شرف محافظ القنال عبد الهادي غزالى بك في ١٢ أبريل ١٩٥١ كما كانت حفلات نهاية العام للمدارس الحكومة المصرية تقام على خشبته .

ونظمت الجالية اليونانية في بورسعيد كثير من حملات التبرع للمساعدة في كثير من الحوادث التي تلم بالجالية اليونانية أو ما يلم بالوطن الأم وكانوا يستخدمون المناديل في جمع التبرعات .

ففى أكتوبر ١٨٩٠ نظمت حملة تبرعات لمنكوبى حرائق سالونيك باليونان بلغت قيمة التبرعات ٢٦٧٥ فرنك قام القنصل N. Londos بإرسالها لليونان، والذي أصر على تنظيم عمليات التبرع التى يتولاها أفراد وأن تجمع تلك التبرعات تحت مسئولية جمعية خاصة لذلك، وتم تشكيل جمعية لهذا الغرض تحت اسم Eteria وتكون لها مجلس ادارة فى يناير ١٨٩١ برئاسة Dimitris Mavrio .

فى أبريل ١٩٠٢ تم جمع ٨٠٠ فرنك وأرسلت لوزير البحرية اليونانى للمساهمة فى تحسين الأسطول اليونانى.

وفى أكتوبر ١٩٠٦ تم تنظيم حملة تبرعات للحرب الدائرة فى بلغاريا وبلغ اجمالى التبرعات ٤٢٠٠ فرنك قام القنصل جورسورس بارسالها لليونان وفى ذات الوقت استعدت الجالية اليونانية لتدريب شبابها على حمل السلاح وإرسالهم لليونان .

وفى ١٥ سبتمبر تأسست جمعية هدفها مخو أمية أبناء الجالية بالمجان وقد مثلت تلك الجالية فى أول مجلس بلدى لبورسعيد ، انعقدت أولى جلساته فى ٢٣ فبراير ١٩١١ ومنهم بابا ديمترى وجرانجبيوتى والدكتور اسكوفو بلو والكسندرانوس .

وفى الرابع من أبريل أقيم حفل خيرى لجمع التبرعات لضحايا الزلازل باليونان وكان لتلك الجالية متحفها وكانت تطالب بمصالح اليونانيين فى بورسعيد وتطور الأمر بها إلى تعييبها على الحكومة المصرية ومثلها محافظ القنال.

وأقدم الصحف Progres أسسها اليونانى Lazarides سنة ١٨٨١ وهى أسبوعية من أربع صفحات نصفها الأول باللغة الفرنسية والنصف الأخير باللغة اليونانية وانتشرت انتشاراً واسعاً ولفتت أنظار اليونانيين المقيمين بالقاهرة التى انتقل إليها لازاريدس وأصدرها من القاهرة.

وفى يوليو ١٨٨٩ أصدر جورج فلاماتيوس جريدة سندزجموس وبوفاته فى ١٨٩٩ قام بشرائها استماتيو لنيجرس صاحب مدارس Pythagous وجريدة سندزجموس جريدة نصف أسبوعية ثم صدرت اسبوعية وقامت بنشر حديث مع شاعر اليونان Spero Matsoukas الذى يزور بورسعيد ضمن جولة لزيارة دول العالم لجمع التبرعات لبناء الأسطول اليونانى.

وفى سنة ١٩١٢ أصدر الصحفى جورج سلطناكى جريدة نصف أسبوعية New Echo أى

الصوت الجديد ثم تحولت إلى أسبوعية لارتفاع أسعار الورق والطباعة بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومن مآثر هذا الصحفى أنه أصدر كتاباً بعنوان «تاريخ مدن القنال بورسعيد والاسماعيلية والسويس» وطبعه فى ألمانيا سنة ١٩٢٢، وحذا حذوه «ديمترىوس خالدوييس» فأصدر كتاباً بعنوان «ذكريات وأحداث عن بورسعيد» طبع بمطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ كما أصدر «ايمانويل روئاس» كتاباً بعنوان «تاريخ قنال السويس» من سنة ١٩٥٥ وهذه الكتب تتحدث عن تاريخ مدن القنال الثلاث وتاريخ شامل عن الجالية اليونانية وهى أحد مراجعنا الموثوق بها والمتعة فى سردها .

وامتد نشاط أصحاب هذه الصحف إلى اقامة المدارس الخاصة والاشراف عليها كما حدث أن انشأ اتسماتيونيوجريس صاحب جريدة سندزجموس السابق التنويه عنه أن أسس سنة ١٨٩٤ مدرسة Pytha Gous من سبعة فصول ابتدائى وثانوى منها فصول للبنات .

وكانت للجالية اليونانية عاداتها الخاصة كعادة حرق الجوداس وهى دمية محشوة قش ويتم حرقها فى احتفال الجالية اليونانية بعيد القيامة المجيد وقد أخذ عنهم أبناء بورسعيد فيما صنعوه من دمية محشوة قش أطلقوا عليها دمية اللبى نسبة إلى اللورد اللبى المعتمد البريطانى أثناء ثورة ١٩١٩ والذى غادر القطر-المصرى عن طريق ميناء بورسعيد فى ١٥ يونيو ٢٥ يونيو ١٩٢٥ ومنذ هذا التاريخ وحتى الآن وأهل بورسعيد يحرقون تلك الدمية فى يوم شم النسيم.

وكان للجالية اليونانية مستشفى خاص تم استئجار أرضها من الحكومة المصرية بعد أن جمع لبنائها ١٠٠٠٠ فرنك كتبرعات من أبناء الجالية فى بورسعيد وتم بناءها من الخشب سنة ١٩٠٧ كمستشفى للأمراض المعدية أمام الركن الجنوبى الشرقى لميدان توفيق (ميدان الشهداء) إلا أنها لم تستخدم كمستشفى بل استخدمت سكناً لمدرسى المدارس اليونانية ثم سلمت الأرض للحكومة المصرية.

كد أن يفوتنى ذكر الجمعية اليونانية ببورسعيد التى تأسست سنة ١٨٨٨ وإن أول انتخابات لمجلس ادارتها انتهت بفوز ترينوق فاسيليوس (أول رئيس لها) وخارلمبوس زيمريادس (أمين الصندوق) ونيقولا زيزينياس (المحامى الشهير) وبولى لويزديس (سكرتير الجمعية) .

وظهرت نوادى وجمعيات يونانية أخرى فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين كنادى المحاربين القدماء أعلى حلوانى رويال بشارع فؤاد (الجمهورية) ورئيسه المسيو G. Parlis

وكانت احتفالات الجالية اليونانية ذكرى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ عندما أطلق الجنرال Metaxas صيحته لها للعناصر الفاشستية التي تريد ضم اليونان للمحور ، وكانوا يتوجهون للقنصلية اليونانية بشارع فؤاد (الجمهورية) للتوقيع فى دفتر خاص .

من الوقفات الوطنية للجالية اليونانية للوطن الثانى مصر انسحاب العمال اليونانيين من المعسكرات البريطانية تعاونًا مع إخوانهم المصريين فى أكتوبر ١٩٥١ (أثناء معارك القناة) قيام رئيس الجالية اليونانية ببورسعيد الدكتور Paradimitriov بإرسال تلغراف للرئيس محمد نجيب قائد الثورة بتأييده هو وزملائه من مجلس قيادة الثورة بطرد الملك فاروق خارج مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

فى ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ ونعد تأمين شركة قنال السويس العالمية التى شجعت المرشدين الأجانب على الانسحاب من العمل مع القيادة المصرية حتى يرتبك العمل فى المرور بالقناة رفض المرشدون اليونانيون الانسحاب .

فى النهاية اشتهرت مدافن اليونانيين بغرب المدينة بالشراء الفنى فى العمارة والزخرفة والتماثيل المعبرة عن روحانيات تلك الجالية

الجالية الإيطالية

تعتبر الجالية الإيطالية ثانى الجاليات الأجنبية من حيث كثافة عدد السكان.

ولما أجرى أول تعداد رسمى للسكان لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ إجمالى عدد السكان فى بورسعيد حوالى ٦٩٧٨ نسمة وبلغ عدد مجموع الأجانب فى هذا التعداد ١٩٣٧ أجنبى منهم ٥٦٣ ايطالى .

وفى التعداد التالى سنة ١٨٩٧ بلغ إجمالى عدد السكان فى بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة خص الأجانب ١١٤٨٠ أجنبى أكثرهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيون والبريطانيون والايطاليون والفرنسيون، أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الجالية الإيطالية :

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
٢١٥٩	٣٠٢٨	٤١٢٢	٥١٥٠	٣٠٣٨ ايطالى

وكان الايطاليون مثار إعجاب دى ليسبس فكان السينيور Dori المترجم الخاص لدى ليسبس الذى كلف الايطالى الشهير فى تخطيط المدن Pietro Paleocapa فى تخطيط المدينة الواعده بورسعيد حيث ظهرت شوارعها ممتدة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها متعامدة.

ومتحف اللوفر يحتفظ بمنظر مجسم لمجرى قنال السويس من الشمال عند بورسعيد حتى الجنوب عند السويس فى شكل خريطة ذات مناظر شبه مجسمه ذكر أن هذا المنظر كما لو رآه طائر محلق فى سماء قناة السويس وهذا الرسم لا يمكن تنفيذه الآن إلا بالأقمار الصناعية وهذا الرسم الدقيق تنفيذ الأستاذ الفارس الكبير Revoltella نائب رئيس شركة قنال السويس العالمية مع المهندس اللامع Givseppe Sforzi وهما إيطاليان ويتكليف من دى ليسبس على إثر افتتاح قنال السويس سنة ١٨٦٩ .

ومنذ ١٨٧٨ وافق الحديوى اسماعيل على اقتراح محافظ بورسعيد بتعيين ثلاثة من الأوربيين من بينهم ايطالى لمساعدة مفتش البوليس فى الأعمال المتصلة بالأجانب ثم توسعت تلك القاعدة وانتشر الأجانب ومنهم الإيطاليون فى أعمال البوليس ومن أشهر هؤلاء Boelli مأمور بوليس قسم الأفرنج (الشرق) فى سنة ١٩٠٠ ومدير بوليس الميناء كان الضابط دى البونو وذلك فى مبنى خشبى فى امتداد شارع السلطان عثمان (الجمهورية) أمام حوض الفحم عند باب الجمرك رقم ١٦ حيث موقف أول معدية ، وكان يمتلك عمارة كبيرة أمام المحكمة الحالية بشارع توفيق والسلطان عبد المجيد (عرايى وعبدالهادى غزالى) .

ومع إحدى الحقائق التى ذكرها المرجع اليونانى لديمتريوس خالدوبيس « ذكريات وأحداث عن بورسعيد » والمطبوع فى مطبعة فترالى بالاسكندرية ١٩٣٩ ، ص ٣٥ «المسيرو De Franchi مدير عام خزانة شركة قنال السويس والمسئول عن بيع الأراضى فى بورسعيد عرض ١٨٧١م على والدى (والد الكاتب خالدوبيس) شراء بعض قطع الأراضى فى بورسعيد تعرضها شركة قنال السويس وقدرها خمسة عشر ألف متر مربع بخمسة عشر ألف فرنك أى سعر المتر المربع الواحد فرنك (الفرنك أربعة قروش) فى الأراضى المبنى عليها الآن (١٩٣٩ تاريخ نشر الكتاب) عمارات ماكس موشلى وماردوس (حاليا فى أرقى موقع فى بورسعيد تطل على شارع الميناء والحديقة الدولية) إلا أن والدى (والد خالدوبيس) رفض هذا العرض الذى قدمه له صديقه الايطالى دى فرانشى لأن تلك الأراضى كانت تغمرها مياه البحر الأبيض المتوسط قبل

انحسارها شمالاً تاركة أرض يطلق عليها أراضى طرح البحر) ورد عليه قائلاً : « ما هذا الكلام غير المعقول يا صديقى فرانشى أرمى خمسة عشر ألف فرنك فى المياه وهى جميع ثروتى ؟! » ... ولم تمر مدة أربع أو خمس سنوات وأصبح من قام بشراء تلك الأراضى من المحظوظين ذو الثروات الكبيرة لأن قيمة تلك الأراضى زادت مائة مرة عن ثمنها الأسمى .

من المراكز الهامة التى شغلها الايطاليون فى بورسعيد وظيفة أول مدير للبوستة المصرية فى بورسعيد التى كانت تطل على الميناء مباشرة فى مبنى خشبى (مكان ادارة أمن الموانئ الحالية) تولى تلك الوظيفة السنيور Giordno ١٨٧٨م وكان يعاونه من الموظفين Pace, Nani ثم تولى ادارة البوستة من بعده السنيور Konte .

كانت أهم بقعة فى مدينة بورسعيد ميدان المنشية أو ميدان دى ليسبس (ميدان سعد زغلول) وكانت تتوسطه حديقة اهتمت شركة قنال السويس بزراعتها بالأشجار والورود والأزهار وكان فى وسطها كشك خشبى تقوم الفرق الأجنبية بعزف المقطوعات الموسيقية فى أيام الأعياد والمناسبات الرسمية وأعياد الأوربيين فعينت لها شركة قنال السويس مهندسا زراعياً ايطالياً ١٨٧٨ هو السنيور Michel Elvdy المسئول الأول عنها .

وبمناسبة الحديث عن حديقة المنشية تكونت جمعية برئاسة السنيور Pacho الايطالى الجنسية مدير جريدة Phar Port- Said لجمع الأموال بغرض اقامة تمثال نصفى لى ليسبس صممه الممثل الايطالى Mantovani وتم ازالة الستار عن هذا التمثال فى ١٦ يونيو ١٨٩٥ إلا أن الحالية الفرنسية كانت هى الحالية الوحيدة التى قاطعت هذا الحفل بالرغم من أن المحتفى به فرنسى بحجة أن هناك نية لاقامة تمثال ضخم لى ليسبس عند مدخل القناة وأن هذا التمثال النصفى لا يليق بدى ليسبس .

وبمناسبة الفرق الموسيقية التى كانت تعزف فى ميدان دى ليسبس فمن الفرق الايطالية Lira وهى أقدم الفرق الموسيقية فى بورسعيد أسسها Lazzaro Cohen سنة ١٨٨٣م وأعاد تشكيلها C . Padovani سنة ١٩٠٠ وهناك فرقة Nternatonal التى تأسست سنة ١٨٨٨ وكانت هاتان الفرقتان تصرحان بالموسيقىات فى أيام الأعياد والأعياد القومية الايطالية وأعياد باقى الجاليات فى ميدان المنشية وامتدت مشاركتها للمصريين عند الزيارات الخاصة بالشخصيات الرسمية ابتداءً من خديو مصر، بل لما أسس على بك لهيظه أول عضو مجلس نواب عن دائرة القنال أول فرقة مصرية موسيقية فى بورسعيد أسندها للإيطالى Lopez لتدريب أعضائها ال ٣٥ موسيقياً .

وكان متعهد الزينات للاحتفالات الرسمية بالمدينة تاجر الأخشاب الايطالي Ramacciotti الذي كان يتولى توفير الأعمدة الخشبية الطويلة التي تثبت فوقها الأعلام ، كما كان يتولى استجلاب سعف النخيل من صعيد مصر ، كما حدث عند زيارة الخديوى توفيق لبورسعيد سنة ١٨٨١م.

وكانت قمة الحركة الفنية والثقافية للجالية الايطالية فى بورسعيد بعد انتهاء كابوس الحرب العالمية الثانية بعد هزيمتها مع ألمانيا بسبب ديكتاتورية زعيمها موسليني حيث زاق الرعايا الايطاليون الأمرين من القوات البريطانية التي كانت تحتل مصر فأعدت لهم معسكرات الاعتقال على امتداد قناة السويس تجاه مدينة السويس فى جنيفة وفايد والشلونة وتم تعيين الأستاذ عبد الحميد سعيد حارساً على أموالهم وأملاكهم فى بورسعيد.

وكانت Casa D'Italia أو بيت الايطاليين من أشهر مؤسساتهم الثقافية وحاضر فيها الدكتور Umberto Zanni (دكتوراه فى القانون) والذي كان فى نفس الوقت رئيس جمعية Dante Alighieri الثقافية . وفى ١٣ ديسمبر ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن دانتي البجيرى فى محل عمله التاريخى الخالد الكوميديا الالهية La Divine Comedie وقد ولد هذا العالم المشهور ١٢٦٥ .

وفى ٢١ يناير ١٩٥١ وأيضاً وفى الكازادى اتليا وتحت رعاية جمعية دانتي البجيرى أقيم حفل غنائى بمناسبة مرور خمسين عاماً علي وفاة الموسيقار العالمى Giuseppe Verdi والمتوفى (١٩٠١) وقامت مجموعة من الهواة بأداء مقطوعات من أعماله الخالدة ريجيليتو والترفاتورى ولا تراثيتا ودون كارلوس وعائدة تحت رعاية قنصل ايطاليا Mario Franzى الذى لم يقض إلا عشرين شهراً فى عمله هذا ونقل فى نهاية فبراير ١٩٥١ فى وظيفة دبلوماسية أعلى سفارة ايطاليا فى باريس وتلك المناسبة أقيمت له حفلة لوداعه احييتها الفرقة الايطالية Teatro Sperimantale للأوبرا بروما على مسرح الكازادى ايطاليا فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٥١ وحل محله المركز الدكتور G . Serafini وله تاريخ دبلوماسى حافل فى سنة ١٩٢٨ عين نائب قنصل ايطاليا وفى سنة ١٩٣١ قنصلاً لإيطاليا فى نيويورك ثم سكرتيراً فى سفارة ايطاليا بموسكو ثم بأثينا وفى سنة ١٩٣٩ عاد لروما والحق بوزارة الخارجية الايطالية ثم قنصلاً بمدينة جراد بالنمسا حيث كانت تنتظره مهمة دقيقة نظراً لظروف النزاع الأوروبى واندحار ايطاليا فى الحرب . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد إلى روما حيث أشرف على المبادلات التجارية بين ايطاليا وأمريكا من جهة وايطاليا والشرق الأقصى من جهة أخرى

وأظهر كفاءة ممتازة حيال الاقتصاد المنهار لبلاده بسبب الحرب ، ثم عينته إيطاليا قنصلاً لها في بورسعيد بما يدل على أهمية مدينة بورسعيد ومينائها .

ومن الأخبار الفنية للجالية الإيطالية أن حصلت الآنسة Anrée Darras على شهادة من كونسرفتوار روما Cecilia حيث جازت امتحان مواد الهارموني وتاريخ الموسيقى بتفوق وذلك بفضل معلمة الموسيقى الإيطالية D. Movizzo مما اثلج صدور الإيطاليين في بورسعيد .

ومن الأخبار الثقافية للجالية الإيطالية قيام جمعية دانتي السيجيري بعقد دورات لتعليم اللغة الإيطالية وكانت تعلن عن أن المتفوقين فيها سيتم سفرهم لإيطاليا لاستكمال تعليمهم وكانت الدراسة تتم بالصالة الكبرى في الكازادي اتاليا وكان الدكتور حسن أحمد البرعى أحد هؤلاء النابهين في اللغة الإيطالية الذي تم إيفاده سنة ١٩٥٢ لجامعة Perrugia بروما وحصل على دبلوما في اللغة الإيطالية تعادل الدكتوراه وأصبح أستاذاً لامعاً في اللغة الإيطالية.

ومن المحاضرات التاريخية عن نشأة مدينة بورسعيد ونشاط الجالية الإيطالية منذ الحفر نظمت جمعية دانتي السيجيري محاضرة في نهاية فبراير ١٩٥٢ عن نشاط تلك الجالية وقام بالقاء المحاضرة Luigi Dori . ومن الجمعيات الخيرية الإيطالية Santa De Mutuo Soc- corso .

كما كانت للجالية الإيطالية صحفهم المستقلة المعبرة عن آرائهم أولها El Mosquito وهي من أقدم الصحف التي ظهرت على أرض بورسعيد ، أصدرها موفتليتتى سنة ١٨٦٧ ، ثم صدرت جريدة Telegrafo التي أصدرها المسير Compo سنة ١٨٩٣ ومحررها السينيور فرانسيسكو سانتورى ، كما ظهرت صحيفة Faro ثم جريدة Ellettrico لصاحبها السينيور Vilttrio Dello Strologo (مثل الجالية الإيطالية في مجلس بلدى بورسعيد في أول مارس ١٩١٣) (وكان تاجر ثلج وصاحب مصنع مياه غازية كازوزة وصاحب اكشاك بيع مرطبات) . وكانت الصحف الإيطالية جميعها يطبع في بورسعيد .

وقد تركزت الحركة الفندقية ومحال الحلويات والبارات والمطاعم في أيدي أبناء تلك الجالية وكان أشهر هؤلاء Silvio Simonini الذي وصل إلى بورسعيد وهو شاب صغير مع والده وكان يمتلك عدة فنادق أشهرها Marina Palace Hotel وكان يقع بشارع السلطان عثمان والنجارة (الجمهورية والنهضة حالياً) L'Eastern Exchange Hotel الذي اشتهر عند أهل بورسعيد بالبيت الحديد لأنه بنى بالكامل من الحديد من خمسة طوابق وحل به شخصيات عالمية كثيرة وكان يقع بشارع السلطان عثمان وأوجيني (الجمهورية وصفية زغلول) Le Ca-

sino Palace Hotel وعند نشأته كان يطل على شاطئ البحر الأبيض مباشرة قبل انحساره شمالا تاركاً أرض أطلق عليها طرح البحر في جهته الشمالية ، أما جهته الشرقية فتطل على قناة السويس وقد حلت به شخصيات عالمية وقومية وثقافية ففي ٤ يناير ١٩٠٥ حلت به الامبراطورة أوجيني كمواطنة فرنسية عادية حيث سبق لها أن حلت على بورسعيد وهي امبراطورة فرنسا والتي حضرت بالنيابة عن زوجها نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذي اعتذر عن حضور تلك الحفلات لوجود قلاقل داخل فرنسا وأصاب عنه أوجيني حيث بدأت حفلات افتتاح قناة السويس يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ (وهو اليوم السابق للافتتاح) كما حل بهذا الفندق الزعيم سعد زغلول باشا ورفاقه وهم (محمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل) عند نفيهم من بورسعيد إلى مالطة في ٨ مارس ١٩١٩ كما حل به شاعر النيل حافظ ابراهيم بك في ٢٩ مايو ١٩١٠ عند افتتاح أول مدرسة للبنات في بورسعيد (تابعة للجمعية الخيرية الإسلامية) كما حل بهذا الفندق الشاب المناضل الهندي جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر الهندي في ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ عند عودته لبلاده بعد مباحثات مع الساسة الانجليز (أصبح رئيساً للوزراء في الهند في خمسينيات القرن العشرين وقطب من الأقطاب البارزين لكتلة عدم الانحياز وصديق الزعيم الراحل جمال عبد الناصر) .

كما كان الفضل للمسيو سيمونيني في إنشاء أول كازينوهات على شاطئ بورسعيد وبور فؤاد داخل المياه مما شجع عظماء مصر على تفضيل مصيف بورسعيد الهادي عن مصيف الاسكندرية أو التوجه إلى المصايف الأوربية باهظة التكاليف وهما:

Le Pavillon Balneaire de Port - Said.

Le Pavillon Balneaire de Port- Fouad

لذلك تم انتخاب مسيوسيلفيو سيمونيني في أول مجلس بلدى، مختلط لبورسعيد الذى انعقدت أول جلساته في ٢٣ فبراير ١٩١١ اعتباراً من ٤ مايو ١٩١٢ لذلك اختارته الجالية الايطالية عميداً لها في بورسعيد وهو يحمل لقب Commandeur التاج الإيطالى كما يحمل وسام Phoenix اليونانى ولقب فارس النيل المصرى ونيشان الافتخار التونسى وعند دخول ايطاليا الحرب مع المانيا (المحور) سنة ١٩٣٩ كان يأمل في انتصار المحور على الحلفاء فأعد حصاناً أبيضاً ليمتطيّه وينصب محافظاً للقنال إلا أن الهزائم أدت إلى وضع منشآته تحت الحراسة وكانت وفاته في الثامن من أكتوبر ١٩٥١ وتم دفنه في المقبرة الخاصة به ذات الشراء

الفنى التجارى للمقابر المصنوعة من أرقى أنواع رخام محاجر كرامة كبقية الإيطاليين الأغنياء .

وظهرت براعة أبناء الجالية الايطالية جلية فى فن العمارة والهندسة المعمارية -Archi- tecture وأعمال مقاولات البناء ومن أشهر هؤلاء المقاول Albeti الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٣ والمقاول Camidis Betraia الذى مثل الجالية الايطالية فى المجلس البلدى ابتداء من يوليو ١٩٢٩ وكان لهما الفضل فى شهره مدينة بورسعيد من ناحية عمائرها ذات الطابع القوطى والبيزنطى ، حتى ظهرت وأنها قطعة من أوروبا أو باريس وطبعاً كان هذا الثراء المعمارى قاصراً على حى الافرنج الذى تقطنه الجاليات الأجنبية .

وخير مثال على ذلك مبنى ادارة شركة قنال السويس ببورسعيد الشهير ذو الثلاث قباب من الفسيفساء Mosaics الذى بنى سنة ١٨٩٣ خير شاهد إلى الآن على جمال فن العمارة عندهم .

كما كان للمهندس الايطالى Kastlino الفضل على بورسعيد عند تشييده ١٨٩٤م خزانات توزيع مياه الشرب بالرسوة لتغذية العمائر ذات الطوابق المرتفعة بالمياه العذبة . وقامت الجالية الايطالية بشراء قطعة أرض كبيرة كمربع كامل على أربعة شوارع بأرقى منطقة من مناطق طرح البحر بحى الافرنج سنة ١٩٠٧ بموافقة من محافظ القنال محمد محب باشا تطل على شارع الغربية (٢٣ يوليو) وبنى بجوارها كنيسة ذات طابع قوطى كما ألحق بها نادى للجالية الايطالية لكرة السلة والقوقلى بول .

وبجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة السبت ٢٣ نوفمبر ١٩٢٩ تم عرض طلب القنصلية الايطالية ببورسعيد « تثبيت لوحة تذكارية من البرونز على جدارها للمسؤول لوجى ميجرلى المهندس الايطالى الذى أكد لأول مرة فى التاريخ أنه لافرق بين ارتفاع سطحى الماء فى البحرين الأحمر والأبيض » . وقد دافع عن هذا المطلب أعضاء المجلس البلدى من الإيطاليين المهندس كامديس بترابا والمقاول المعمارى ألبرتى .

وبالفعل أقيمت تلك اللوحة على جدار القنصلية عند تقاطع شارعى الأهرام بابراهيم (شارعى جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف) وفى الثانى من يونيو من كل عام كان يحتفل بالعيد الوطنى الايطالى (ذكرى انتخاب ايطاليا برلمانها سنة ١٩٤٦) .

ومن أشهر النوادي الإيطالية نادي فيرتوس لكرة القدم وكان يقع جنوب بورسعيد غرب شارع محمد علي أمام معسكرات القوات البريطانية . وفاز نادي فرتوس بالكأس السلطاني في موسم ٣٥ / ١٩٣٦ على فرق المملكة المصرية ضمنها النادي الأهلي والمختلط (الزمالك) والمصري والاتحاد السكندري.

وكان هذا النادي يقيم جيمخانة للسيارات الإيطالية في نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينات من القرن العشرين يعرض فيها آخر صيحة لموديلات السيارات الإيطالية وكان يحضرها محافظ القنال عبد الهادي غزالي بك والسينيور فرنزي قنصل إيطاليا في بورسعيد وكان رئيس هذا النادي الدكتور چيدويدي كاسترو صاحب أشهر توكيل ملاحى ايطالى شركة دي كاسترو بشارع فؤاد (الجمهورية) بالقرب من أوجيني (صفية زغلول) بجوار محل الحلويات الشهير العصفور الأزرق .

ونظراً للحركة التجارية الكبيرة داخل المجتمع بورسعيدى ففي ديسمبر ١٩٥٠ تم تسجيل أول غفّة تجارية للإيطاليين في بورسعيد برئاسة Enrico Benderli (يهودى ايطالى) شريك في أكبر مؤسسة تجارية في بورسعيد هي سيمون آرزت Simon Arzt .

كما كانت أشهر كنائسهم Santa Eugenia القديسة أوجيني وهي تتبعها رهبان الفرنسيون وملحق بها مدرسة Terra Santa أى الأرض المقدسة .

وكان للجالية الإيطالية نادي «إيبس» بشارع توفيق عرابي (مكان محطة البولمان) واشتهرت بورسعيد بسفن صيد الأسماك الميكانيكية ذات الشباك الطويلة التي تصل لأعماق البحر عرفت عند أهل بورسعيد بالنابولتان Napoltan حيث أن صياديهما من أبناء ميناء نابولي الإيطالى ويقومون بصيد أفخر أنواع أسماك البحر الأبيض التي يبيعونها للمطاعم والفنادق الكبيرة بالمدينة . وعلى رأس تلك الأسماك الوقار والبريوني ، كما اشتهروا بتمليح الأسماك (الانشوجة) ففي عام ١٨٩٩ حصل الإيطالى ميشيل جاستيلا على امتياز استغلال ملاحات البر الشرقى (بور فؤاد حالياً) .

كما اشتهر الإيطاليون بالخبرة في صناعة المكرونة وبالأخص الاسباكتي والاسباكيتينا فكانت لهم مصانع في شارع الوكيل وصلاح الدين (البازار) .

ولا يمكن لنا اغفال موقف جرى للجالية الإيطالية بانسحاب عمالها في المعسكرات البريطانية مع العمال اليونانيين سنة ١٩٥١ تضامناً مع انسحاب العمال المصريين، ولا يمكن

اغفال ذكر اثنين من ابطال الكره الايطالية فى بورسعيد انضموا للنادى المصرى هما Aldo وحارس المرمى موسكاتيللى الذى صور معركة ١٩٥٦ بكاميرته .

الجالية الفرنسية

كان الفرنسيون أول الجاليات الأجنبية وصولاً لأرض بورسعيد فعند دق أول معول فى أرض قناة السويس فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ حيث احتفل دى ليسبس بهذا الحدث الهام حيث اصطحب معه ١٥٠ فرداً عبارة عن مجموعة من العمال المصريين وهم غالبية هذا الجمع ومجموعة من الفنيين والمهندسين الأجانب أغلبهم فرنسيين على رأسهم موجيل بك (فرنسى يشغل مهندس الطرق والكبارى فى الحكومة المصرية) ولاراوس (رئيس قسم الأعمال والأشغال المائية بشركة قنال السويس) ولاروش (رئيس قسم الأعمال الخاصة بمدينة بورسعيد) ودى مونتو (مدير مشروع الحفر) وألفس هاردن (المقاول العام لأعمال الحفر) وأوبرت روش (طبيب شركة القنال) . وبلغ إجمالى عدد الأجانب الواصلين لبورسعيد فى عام الحفر ١٨٥٩م ٤٩ أجنبياً وفى العام التالى ١٨٦٠ بلغ عدد الأجانب ١٥٨ أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين .

ولما أوقف الخديوى اسماعيل السخرة فى حفر قناة السويس سنة ١٨٦٢ حيث أحضر دى ليسبس بدلاً عنهم خمسة عامل من أبناء الجزر اليونانية عززهم بألف عامل فرنسى من أبناء مارسيليا فى سنة ١٨٦٥ إلا أن أغلبهم لم يستمروا لم يصمدوا أمام صعوبة أعمال الحفر وعادوا إلى مارسيليا مرة أخرى .

ويحب أن ننوه أنه فى سنة وصولهم ١٨٦٥ أنيط تخطيط مدينة بورسعيد المرتقبة إلى مهندسين وفنيين فرنسيين فجعلوا شوارعها متعامدة تبدأ من شرق المدينة وتنتهى فى غربها وأيضاً تبدأ من الشمال وتنتهى عند جنوب المدينة ، وقاموا ببناء منازل خشبية للسكنى من دور أو دورين وكان التنقل فى المدينة فى زمن فيضان النيل بمراكب (كما لو كنت فى فينيسا) وركزت تجارة التجزئة فى مناطق الحفر فى أيدي الفرنسيين فأقام لهم دى ليسبس مستودعات خشبية ضخمة لتموين المدن الثلاث (بورسعيد والاسماعيلية والسويس) وما بينها فى محطات ملاحية وكان أشهر هؤلاء التجار وأشهر شركاتهم L. Bazinzco و F. Srre و L. Savon و Zco وقد أثرى هؤلاء التجار ثراء فاحشاً من وراء تجارتهم وحولوا نشاطاتهم بعد افتتاح القناة إلى امتلاك الشركات الملاحية ومن جراء ما جنوه من ثروات طائلة أقاموا العمارات الشاهقة والقيلات الفخمة وجلبوا لها فى فرنسا أفخم الرياش والتحف .

ويكفى أن دي ليسبس بعد أن أنهى مشروعه وقام بإفتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وبعدها بإثنى عشر يوماً أى فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ تزوج دي ليسبس للمرة الثانية على أرض قناة السويس من الين دي براجار وشاهدا العقد فوزان بك (مدير الأشغال) و Le Valet مدير شركة المساجيرى مارتيم.

وفى سنة ١٨٧٦ كان تعداد الاجانب فى بورسعيد ٣٤٥١ أجنبى أغلبهم من اليونانيين والفرنسيين.

وفى أول تعداد رسمى للسكان أجرى بمصر إلى سنة ١٨٨٢ وهى سنة الاحتلال التى تزايد فيها عدد السكان الأجانب الذين وصل عددهم إلى ١١٤٨٠ أجنبى أغلبهم من الأتراك والسوريين يليهم اليونانيين والبريطانيين والايطاليين والفرنسيين من احمالى سكان بورسعيد البالغ ٩٧٢, ٤٢ نسمة.

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ فظهر تعداد الفرنسيين :

١٩٤٧	١٩٣٧	١٩٢٧	١٩١٧	١٩٠٧
٩٠٦ فرنسى	١٦٩٧	١١٩٤	٩٠٥	٧٦٩

كان الفرنسيون من أول أبناء الجاليات الذين احتلوا المراكز الادارية العليا فى شركة قنال السويس والشركات الملاحية والبنوك بل وداخل الحكومة المصرية . فأقوى هؤلاء نفوذاً هم رؤساء مجالس إدارة شركة قنال السويس العالمية وأهم هؤلاء بعد دي ليسبس :

Guichard, Prince D' Arenberg, Charles Jonnart, Marquis De Vogue , Francois Charles- Roux .

وكانوا يعتبرون أنفسهم حكاماً لمنطقة قنال السويس ولقد صدق الخديو اسماعيل فى قوله «أنا أريد القناة لمصر وليست مصر للقناة » كما صدق من بعده الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عندما ذكر فى خطاب التأميم فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ «إن شركة قنال السويس العالمية تعتبر دولة داخل دولة» .

وكانت أغلب المصالح الخدمية وأعمال الادارة منذ عام دق أول معول فى أرض قناة السويس ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٠ فى يد شركة قنال السويس ، فحكمدار البوليس فرنسى ويدعى Brouchet وتحت امرته ضباطاً فرنسيين ويونانيين والخدمات الصحية تحت اشراف أطباء

فرنسيين على رأسهم الدكاترة Cambouliu و Couvidou واستمرت أعمال البوليس لفترة طويلة لهم H. Beaumont Bey شغل وظيفة وكيل حاكم القنال برتبة قائم مقام .

وكان أفراد تلك الجالية يمثلون قمة الأرستقراطية في السلم الاجتماعي داخل مدينة بورسعيد نظراً لأنهم الأكثر ثقافة وتعليماً وثراءً وكانوا يرتادون أرقى الأماكن العامة وأفخرها وكانوا نادراً ما يختلطون بغيرهم من أفراد الجاليات الأخرى وإذا أقاموا حفلاً ساهراً لا يتعدى أبناء جلدتهم وامتد ذلك إلى ما قبل تأميم شركة قنال السويس العالمية في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وأمثلة ذلك في الثاني من ديسمبر ١٨٩٣ مرور البارجة الحربية الفرنسية Cosmao من القناة بين حفاوة الجالية.

وفي أول أكتوبر ١٨٩٥ أقيم حفل للمسيو Mousscou كبير موظفي شركة قنال السويس تلاه احتفالات كبيرة للجالية الفرنسية في بورسعيد بمناسبة استيلاء القوات الفرنسية بقيادة القائد Dussen على جزيرة مدغشقر .

وفي ١٨ يونيو من كل عام كانت الجالية الفرنسية في بورسعيد تحتفل بذكرى إعلان المرشال شارل ديغول فرنسا الحرة في ١٨ يونيو ١٩٤٠ حيث رفض عرض المرشال بيتان يتسلم فرنسا لألمانيا النازي ونادى باستمرار النضال وذلك برئاسة الدكتور Gutier عميد الجالية الفرنسية في بورسعيد وطبيب الأسنان المشهور والمسيو Touchalaune رئيس رابطة الفرنسيين الأحرار. وفي الذكرى العاشرة لتلك المناسبة في ١٨ يونيو ١٩٥٠ أقيم حفل كبير في صديقه الكازينو بالاس حضره وكيل محافظة القنال أحمد شكرى بك وقناصل الدول ووجهائها .

وفي يوم الأحد ١٤ يناير ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد سفير فرنسا بالقاهرة Couve De Murville حيث استقبل استقبالا حافلاً من الجالية الفرنسية ببورسعيد وقنصل André Bre-na ونظراً للصدقة المتينة التي تربط كوف دي مورثيل وشارل ديغول منذ أن كون حزبه فرنسا الحرة فكان وقتها ساعده الأيمن فقد استدعاه بعد فترة وجيزة وعينه وزيراً للخارجية في وزارته وبعدها أصبح كوف دي مورثيل رئيساً لوزراء فرنسا وكان من المحبين لمصر.

وبمناسبة الاحتفالات فكان أهم أعياد الجالية الفرنسية هو عيد قيام الجمهورية الفرنسية وقد اشتهر عند أهل بورسعيد القدامى من المصريين بعيد الربوبليك حيث يحتفل به سنوياً في يوم ١٤ يوليو وكانت بورسعيد تلبس أبهى حللها في ذلك اليوم فتزين شوارعها بالأعلام

الفرنسية وأقواس النصر وبالزينات الكهربائية حتى مبنى شركة قناة السويس ذو الثلاث قباب وورشها المظلة على الميناء وجميع معداتها فتتألق في الماء وتطلق الألعاب النارية.

أما في مياه القناة في ميناء بورسعيد فتقام الاستعراضات والألعاب والمسابقات المائية.

وفي المساء يقام حفل راقص بتراس الكازينو بالاس المطل على القناة.

وتنتهى تلك الاحتفالات بإطلاق عدة صواريخ في سماء بورسعيد يقرأ Vive France أى تحيا فرنسا .

وكان يأتى لبورسعيد فى هذا اليوم أفواج من أهالى المدن القريبة من بورسعيد بالمراكب الشراعية ولنش شركة قناة المنزلة عبر بحيرة المنزلة من دمياط والمطرية والمنزلة للاستمتاع بمشاهدة هذا الكرنفال الفرنسى على أرض بورسعيد .

وآخر احتفال بعيد الروبيليك على أرض بورسعيد كان فى ١٤ يونيو ١٩٥٦ وما تلاها من أحداث بالانذار البريطانى الفرنسى لمصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ والعدوان الثلاثى على مصر وما - من رحيل رعايا الدولتين عن أرض بورسعيد .

فى سنة ١٨٩٤ قامت أرملة المهندس Couvreu ببناء ملجأ للأيتام من كافة الجنسيات سنة ١٨٩٤ . وكان لتلك الجالية صحفها الخاصة التى اعتبرت من أقدم الصحف المحلية على أرض بورسعيد ففي سنة ١٨٦٧ تم طبع أول جريدة محلية فرنسية تحت اسم Journal Du Canal قام باصدارها Piere Moll وكان من أشد المدافعين عن دى ليسبس ومشروعه فى حفر القناة ضد المعارضة الانجليزية، وفى سنة ١٨٧٠ صدرت جريدة Journal de Port - Said وكتب فيها طبيب شركة القناة الدكتور H. Couvidou . عن ضرورة ربط بورسعيد بدمياط بطريق برى (العجيب هذا الاقتراح نفذ بعد مائة عام تقريباً خلال حرب الاستنزاف فى أول السبعينيات من القرن العشرين لخدمة العمليات الحربية) وهذه الجريدة اسبوعية تصدر صباح كل خميس ، وتقع فى أربع صفحات ورئيس تحريرها المسيو Joule Barbier وأغلقت سنة ١٨٧٢ لتطولها على ذات الخديوى اسماعيل ، وأعيد اصدارها تحت اسم جديد Moniteur de Port- Said أى المخبر لبورسعيد-فى ذات السنة بمعرفة المسيو Barbier وصدرت لفترة وجيزة فى بورسعيد إلى أن انتقل صاحبها للقاهرة، وفى سنة ١٨٧٣ صدرت جريدة Avenir Co- mercial أى المستقبل التجارى التى أصدرها المسيو Emeil Roux إلا أنها لم تستمر طويلاً، ثم اصدر بعدها « لافورنيرون سالى بورسعيد » التى لم تتطرق للأمور السياسية

كسابقتها بل اهتمت باخبار الفنون والأنشطة البحرية لدرجة أن جريدة الوقائع المصرية كانت تنشر عنها بعض الموضوعات المتعلقة ببورسعيد .

ثم ظهرت عدة صحف فرنسية كثيرة المجال هنا لايسمح بذكرها ويمكن الرجوع إلى المرجع القيم لصديقى الدكتور زين العابدين شمس الدين نجم «بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩-١٨٨٢» فهو أحد مراجعى لهذا البحث .

وفى النهاية أذكر جريدة Verité أى الحقيقة التى أصدرها سنة ١٨٩٥ Edward Horn وبوفاته سنة ١٩٠٧ أدارها ابنه Louis . وكانت مكتبة هورن من أولى وأشهر المكتبات التى افتتحت فى بورسعيد وكان مقرها بشارع التجارة (النهضة) أمام تياترو وسينما الألداردو وكانت القرية هى جريدة مجلس بلدى بورسعيد منذ انشائه سنة ١٩١١ وإن كانت فى بعض الأحيان تخرج عن المألوف وتتطاول على المجلس واعضائه الذين كثيراً ما كانوا يطالبون بانهاء التعامل معها .

وبالإضافة لمطبعة ومكتبة هورن كان هناك مكتبة ومطبعة Riffis وبمناسبة ذكر المجلس البلدى كانت الجالية الفرنسية فى بورسعيد ممثلة باعضاء بحكم القانون وهم ممثلو شركة قنال السويس فى مصر وكان لهم التأثير الأكبر على مجريات الأمور فى المجلس فى أوائل عهده وفى الجانب الآخر كانوا يساهمون فى تمويل كثير من متطلبات المجلس عندما يشار تمويل تنفيذ - اصلاح معين ليس حبا فى مصر أو المصريين بل كانوا يعتبرون بورسعيد جزءا من شركة القنال فيجب أن تظهر أمام أعين العالم فى أبهى حللها وكان أول هؤلاء الأعضاء فى المجلس الكونت دى سريون والمسيو دى بنوا والمسيو فسييه كما كان يمثل كبير مهندسى شركة القنال كالمسيو رينو والمسيو سرجون والمسيوليقياسبير.

أما الجالية فكانت تختار وتنتخب فيما بينها أعضاءا يمثلوها بمجلس بلدى بورسعيد كالمسيو أوليه والمسيوياردو.

وكان لهم التأثير والنفوذ فى الاهتمام بحى الافرنج فى بورسعيد الذى يقطنه الأجانب لدرجة أن الأعضاء المصريين بالمجلس وعلى رأسهم على بك لهيظ والشيخ عبد الفتاح الجمل والشيخ ابراهيم عطا الله وغيرهم يضجون من هذا الاهتمام بينما حنى العرب لا يلاقى نفس الاهتمام نظراً لأن غالبية قاطنيه من المصريين !؟

ومن أهم التسميات للشوارع والميادين بأسماء فرنسية هو أقدم شارع فى بورسعيد وكان يطل على شاطئ البحر مباشرة عند الحفر وحتى احتفالات افتتاح قناة السويس حتى أطلق عليه رصيف أوجينى (نسبة للإمبراطور أوجينى) ثم شارع أوجينى بعد انحسار البحر شمالاً تاركاً أرض أطلق عليها أراضى طرح البحر وهو حالياً شارع صفية زغلول وشارع وميدان دي ليسبس وهو أوسع شوارع بورسعيد من ناحية العرض حتى عرف عند أهل بورسعيد القدامى بالثلاثينى لأن عرضه ثلاثين متراً والميدان كان يطلق عليه ميدان المنشية (نسبة إلى نشأة المدينة) وهو حالياً شارع وميدان سعد زغلول.

فى سنة ١٩٠٢ تولى المهندس والمقاول الفرنسيان Getaain Et. Sarvev بتنفيذ بناء البوستان المصرية وكان للفرنسيين كثير من الفضل فى التأريخ عن حفر قناة السويس ونشأة مدينة بورسعيد أمثال M. Riou, Marius Fontane Gabriel Hanotiaux, Reymond, Charles Roux ومن الاهتمامات الفرنسية بتاريخ قناة السويس وحفرها ونشأة مدينة بورسعيد القى الدكتور Lugi Dori (إيطالى متخصص فى تاريخ قنال السويس وتاريخ بورسعيد ووالده كان مترجماً لدى ليسبس) محاضرة فى قاعة مدرسة اليسيه فى يوم الاثنين ١٢ مايو ١٩٥٢ عن الدراسات التاريخية والجغرافية لخليج السويس لاقت نجاحاً وترحيباً من المعمرين الفرنسيين الذين حضروا المحاضرة. التى نظمها المسيو فيكتور مارتان مدير مدرسة اليسيه ببورسعيد (أقدم مدارس ليسيه مصر وافتتحت فى ٣٠ يناير ١٩١٠ بحضور البارون دى أزيغال الرئيس الأعلى لشركة القنال). ونظراً للنجاح غير المتوقع فقد استمر أسبوعاً آخر.

مما شجع مدير النادى الفرنسى ببورسعيد L'Alliance Francaise «بتقاطع شارعى فؤاد وأوجينى بجوار سينما ماجيتيا» بأن يستضيف فى ذات الشهر مايو ١٩٥٢ المسيو Pierre Villforth- Jomini (مدرس اللغة الفرنسية فى المدارس اليونانية والإنجليزية ببورسعيد) لإلقاء محاضرة عن تاريخ الجالية الفرنسية خلال ٨٩ عاماً فى بورسعيد (١٨٦٣ - ١٩٥٢) وقد أشاد فيها بالوثائق التى أمدّها به الدكتور دورى عن بورسعيد ونشأتها منذ عهد محمد سعيد وحتى ١٩٥٢.

ومن الأنشطة الثقافية الأخرى الأدبية والفنية والعلمية قيام البروفوسير Emile Henriot عضو الأكاديمية الفرنسية ورئيس الرابطة الفرنسية العامة بالقاء محاضرة أدبية بعنوان

Femmes des Lettrese et Lettres des Femmes أى « نساء الأدب وأدب النساء » بصالة الأعياد فى مدرسة اللبسية فى السادسة من مساء ١٤ نوفمبر ١٩٤٩ ثم يتوجه للاسماعيلية ويلقى محاضرة عن تاريخ الرواية فى Proust . ولم يمر إلا عشرة أيام إلا وتقوم الرابطة الفرنسية فى ٢٤ نوفمبر ١٩٤٩ بدعوة عازف البيانو الفرنسى Pierre Sancan الحائز على الدرجة الأولى من معهد الكونسرفتوار بباريس والدرجة العظمى من كونسرفتوار روما . بتقديم الأعمال الشهيرة لبيتهوثن وشومان وشوبان وليست بصالة مدرسة اللبسية .

أما قمة الفنون فتمثلة فى فريق الكوميدى فرانسيز الذى يصل إلى بورسعيد فى يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٩ ويقدم مسرحية La Part du Feu للروائى الفرنسى الشهير Louis Ducreux وقد بدأ تقديمها الكوميدى فرانسيز على مسارح مدينة ليون الفرنسية فى ١٨ مايو ١٩٤٣ وبنجاحها الساحق مثلت على مسارح مدينة باريس إلى أن انتهى بها الأمر إلى تقديمها على مسرح الاليزية قمة مسارح باريس ، حيث مثلت على مسرح سينما ديانا ولاقت إعجاب بورسعيدين . وفريق L'Equipe للتمثيل المكون من الخرجين القدامى لمدرسة اللبسية ومدرسيها يقيم حفلاً فى يوم ٢١ مايو ١٩٥٠ للرواية الشهيرة Les Dames Aux Chapeaux Vertes السيدات ذوات القبعات الخضراء . وهى من أشهر أعمال الكاتب Ro-man De Germaine Acremant وقد حضر الحفل محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك وحرمة وحكمدار بوليس القنال اللواء محمود طلعت وقنصل ايطاليا وقنصل اليونان وقنصل لبنان غالب بك الترك وزوجاتهم والدكتور Gautier رئيس الجالية الفرنسية والمسيو Marquet رئيس جمعية المحاربين القدماء والمسيو Touchalaune رئيس الفرنسيين الأحرار وزوجاتهم .

وفى يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٥٠ يعم الفرح والسرور بين الجالية الفرنسية ببورسعيد بوصول الأب Pierre Du Bourget أمين متحف اللوفر للتاريخ المصرى القديم (بصفة عامة) ولتاريخ الفن المصرى القديم (بصفة خاصة) حيث ألقى محاضرة فى مجال تخصصه تخللها عرض القطع الفنية المصرية الموجودة بمتحف اللوفر بالألوان بجهاز البروجيكتور وعرج فى محاضراته عن نسيج القباطى (الأقمشة القبطية القديمة) .

وفى أول أبريل ١٩٥٢ قامت الرابطة الفرنسية بعرض أفلام وثائقية لرسومات وصور من العصر القوطى رسمها الفنان العالمى المشهور Louis de Broglie وتم عرضها بصالة L'Eastern Exchange Hotel (المعروف عند أهل بورسعيد بالبيت الجديد) كان مديره الفرنسى المسيو Daromont .

هذا عن مدرسة الليسيه الفرنسية ، أما مدرسة الفرير فيعود تاريخ انشاءها إلى سنة ١٨٨١ ويرجع الفضل في انشاءها إلى مدير مدارس الفرير بفرنسا الذي زار بورسعيد فلم يجد على أرضها مدرسة فرنسية تليق بالجمالية الفرنسية فأسرع بالدخول في مفاوضات مع السلطات المحلية في بورسعيد بتشجيع من قنصل فرنسا العام في بورسعيد Lucien Monge ومدير عام شركة قنال السويس الكونت Rouville وأثمرت المفاوضات عن افتتاح مدرسة للفرير في مارس ١٨٨١ على رصيف أوجيني ، بدأت بفصلين التحق بهما ثمانية تلاميذ وقبل انتهاء العام الدراسي وصل عدد تلاميذها إلى ٤٦ تلميذاً بيانهم حسب جنسياتهم كالآتي ١٢ فرنسي ، ١١ يوناني ، ١١ نمساوي ، ٤ إيطالي ، ٣ مالطي ، ٢ مصري ، ٢ تركي ، برتغالي واحد ، أما حسب ديانتهم ٣٥ كاثوليكي ، ٨ أورثوذكسي ، مسلمان ويهودي .

وبافتتاح مدينة بور فؤاد - نسبة للملك فؤاد الأول ملك مصر والذي حضر افتتاحها في ٢١ ديسمبر ١٩٢٦ في حفل مهيب تفوح منه العظمة والأبهة على الشواطئ الشرقية لقناة السويس التي كان يطلق عليها بالشواطئ الخالدة Bousquet في أوائل القرن العشرين والتي لم يكن بها حتى تاريخ افتتاح مدينة بور فؤاد إلا مجموعة من الورش والمعدات الخاصة بشركة قنال السويس.

وبافتتاح بور فؤاد اعتبرت الجمالية الفرنسية جزءاً من فرنسا بل كانوا يطلقون عليها باريس الصغرى نظراً لتوحيد قبلايتها التي بنتها شركة قنال السويس على النمط الفرنسي وكان أغلب قاطنيها من الفرنسيين العاملين بشركة قنال السويس وفي مارس ١٩٣١ تم افتتاح نادي Scarabee أي الجعران وهو شعار شركة قنال السويس وعرف عند أهل بورسعيد القدامى بالاشكاريه للجمالية الفرنسية كما كان لها نادي يطل على القناة مباشرة للتجديف كان معروف عند أهل بورسعيد بالنوتيك . كما قامت شركة قنال السويس ببناء المحكمة المختلطة وأخذ في شكلها المعماري مساجد المغرب العربي وافتتحت في مايو ١٩٣٤ تحت إشراف البارون دي بنوا رئيس مجلس إدارة شركة القنال كما أعدت شركة قنال السويس بلاجاً خاصاً للعاملين فيها يطل على شاطئ البحر الأبيض بل وبلاجاً خاصاً بأطفال العاملين بشركة القنال Plage Des Enfants وعرف عند أهل بورسعيد باليزنفان .

النهاية بغرائب وعجائب فرنسية

كان أول منشأ في بورسعيد سنة ١٨٦٥ انتسأته مدام بانيو يليه فتدقى هوتيل دى فرانس أول وسيلة مواصلات في بورسعيد عربية بحصان يطلق عليها لاندو Landaulet أحضرها الموسيقى الفرنسى المسيو سريس سنة ١٨٨١ من فرنسا كانت تنقل الأحياء والأموات الذين كانوا قبل وصولها تنقل جثثهم إلى المقابر في جنوب مدينة بورسعيد سيراً على الأقدام على اكتاف المشيعين . كان للميكانيكى الفرنسى بشركة قنال السويس المسيو Le Masson الفضل في اختراعه الكشافات الكهربائية سنة ١٨٨٣ التى يمكن اضاءتها ليلاً على ضفتى القناة فتمكن من عبور السفن ليلاً بعد أن كانت تنتظر في ميناء بورسعيد حتى الصباح ، كانت المطافئ في بورسعيد عبارة عن جهود فردية حيث أسس الفرنسى الموظف بشركة القنال Mousscu أول فرقة مطافئ أهلية بتقاطع شارعى القسطنطينية ودى ليسبس (الجيش وسعد زغلول) إلى أن تشكلت فرقة المطافئ الحكومية فى ٢١ ديسمبر ١٩١١ اليوزباشى سيد حسن.

الرعايا الفرنسيون

وكان يطلق على هؤلاء بالحماية الفرنسية وكانوا من قبل أوائل القرن العشرين ضمن الرعايا العثمانيين وهؤلاء هم الشوام أبناء الشام سوريا ولبنان وأبناء المغرب العربى من مغاربة وجزائريين وتونسيين لكن المجموعة الأخيرة كانت قلة لم يؤثروا تأثير الجاليات الأخرى وأغلبهم ذاب فى المجتمع المصرى وجنسوا بالجنسية المصرية بل أن أحفادهم كانت تشغل مناصب راقية كعائلة المغربى لذلك سيكون حديثنا عن الشوام.

الشوام

وصل أفراد تلك الجالية من الشام أو من داخل مصر كالاسكندرية والقاهرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر للاشتغال بالتجارة وتمركزوا فى تجمع فى غرب حى الافرنج عند تقاطع شارعى دى ليسبس (سعد زغلول) ومحمد على ، عرف بحارة الشوام ، وكانت لهم كنيسة خشبية (كنيسة القديس يوسف للموارنة) ثم تهدمت وبنى مجموعة من أعيان الشوام وعلى رأسهم عيسى أفتيموس (تاجر اصواف واجواخ بشارع السلطان عثمان الجمهورية حالياً) وجورج مشبهانى (المحامى) كنيسة القديس نيقولاوس للروم الأرثوذكس سنة ١٩٢٦ كذا عائلات حرفوش وخشة وشورى وسردوش وطرباى وأشهر جمعياتهم الخيرية Ste. Syrienne Orthodoxe De Bien Faisin وكانوا أصحاب محال بقاله وحلويات شامية ومطاعم صوفر وبار عباس ومراسلى صحف فيليب الصولى.

وقد تمصر الكثير من أفرادها بحكم طول الإقامة بمصر حتى يتمكنوا من الإقامة بمشاريع اقتصادية قد يحصلون على ميزات عند انشائها وإدارتها كمصريين وكان على رأس هؤلاء عميد عائلة نجيم عبده نجيم والذي حصل على رتبة الباشوية لمساهمته فى كثير من المشروعات الخيرية وعلى رأسها التبوع بمبالغ ضخمة لبناء مقبرة فوزية الخيرية بشارع الملك (٢٣ يوليو حالياً) ورئيساً لجمعية الاسعاف وعضواً بمجلس بلدى بورسعيد اعتباراً من ٣ يوليو ١٩٤٩ وكانت زوجته ونجله شبل نجيم يقيمون الحفلات الراقصة والتنكرية فى ناديهم .

وكان لهم نادى بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) يعرف بالنادى الشرقى ورئيسه الشرفى غالب بك ترك قنصل لبنان فى بورسعيد .

الجالية البريطانية

ظهر تأثير تلك الجالية فى الحياة البورسعيدية بعد شراء انجلترا نسبة كبيرة من أسهم شركة قنال السويس للملاحة البحرية بعد استدانة مصر بسبب اسراف الخديوى اسماعيل خصوصاً فى حفلات افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ وفاقت تلك الاحتفالات ما يفوق الخيال فى ليالى ألف ليلة وليلة ، وقد اشتهرت صفقة شراء أسهم شركة قنال السويس بأنها أبخس الصفقات فى تاريخ مصر فقد اشتهر «دزرائيلى» رئيس بريطانيا بدهائه ومكره فأخطره وزير خارجيته اللورد «ربنى» عن نية الخديوى اسماعيل بيع حصة مصر فى أسهم شركة قنال السويس لسد العجز الذى حدث فى ميزانية الدولة نتيجة لاستدانته بملايين الجنيهات فى الدول الكبرى للصرف على حفلات افتتاح قناة السويس ... وانتهت تلك المؤامرة باقتراض دزرائيلى أربعة ملايين من الجنيهات من « روتشيلد» رجل المال البريطانى وتم شراء حصة مصر من أسهم فى شركة قنال السويس وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ تم توقيع اتفاق بيع تلك الأسهم، وقد وقع «اسماعيل صديق» باشا ناظر المالية باسم مصر ووقعه نيابة عن الحكومة البريطانية الجنرال «ستانتون» وكان عدد الأسهم المباعة ١٧٦٦٠٢ سهماً ، وأمرت الحكومة البريطانية سفينتها «ملابار» القادمة من الهند بالتوجه إلى ميناء الاسكندرية فى منتصف ديسمبر ١٨٧٥ لشحن الأسهم وتم وضعها فى أربعة صناديق مصفحة بالزنك لحمايتها من المياه فى حالة ما إذا تعرضت السفينة «ملابار» للغرق .

كما ازداد نفوذ انجلترا فى مصر أكثر وأكثر بعد أن ضربت الأساطيل البريطانية مدينة الاسكندرية فى صباح الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ بقيادة الأميرال «سيمور» وكانت أول طلقة فى البارجة «الكسندرا» على طابية «الاسبتالية» برأس التين ومن بعدها على الطوابى

المنتشرة على شاطئ الاسكندرية التي تم احتلالها بعد دفاع شرس ومستميت من أهلها ثم وجهت انجلترا وجهتها شطر قناة السويس ففي ٢٩ يوليو ١٨٨٢ وصلت ميناء السويس أربع سفن حربية بقيادة الادميرال هويت Hewett وبعد عناد واصرار من محافظ السويس وأهلها في عدم التسليم وبعد مقاومة شديدة تم احتلال السويس في الثاني من أغسطس ١٨٨٢ .

وفي الشمال وعند بورسعيد كان قنصل انجلترا في بورسعيد المترويلز Wallis أصدر أوامره للرعايا الإنجليز ببورسعيد بالرحيل إلى بواخر تم إعدادها لهم في الميناء وذلك في ١٠ يوليو ١٨٨٢ وتبعهم في ذلك رعايا فرنسا وإيطاليا واليونان وألمانيا والنمسا المقيمين في بورسعيد وأعطى الجنرال ويسلى أوامره للاميرال هوب كنسى Hopkins بالاشراف العام على الحملة البريطانية لاحتلال قناة السويس، على أن يتم الاتصال بالادميرال هويت المرابط في ميناء السويس، وغادر هوب كنسى الاسكندرية في مساء السادس عشر من أغسطس ١٨٨٢ على سفينة القيادة بنيلوب Penelope وبلغ اجمالى السفن الحربية المتجهة لميناء بورسعيد ٣٢ سفينة ، وفي يوم الأحد ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ سيطرت السفينة فالكون Falcon على الشاطئ حتى الجميل إلا أنها لم تستطع الاقتراب من طابية الجميل لجسارة قائدها البكباشى بيادة محمد نجم الموالى للعراقيين . يضاف جسارة أهل بورسعيد وبالأخص طبقة عمال الفحم في قرية العرب الذين قاوموا القوات الغازية بقيادة البكباشى محمد أبو العطا رئيس البوليس ببورسعيد وكانت النهاية احتلال بورسعيد . ومنها توجهت القوات البريطانية إلى الاسماعيلية في ٢١ أغسطس ١٨٨٢ وتم احتلالها بعد عناد شديد من أهلها ، وتقدم الجيش البريطانى صوب التل الكبير ودارت معارك ضارية وغير متكافئة بين الإنجليز والعراقيين بعدها دخلت القوات البريطانية إلى العاصمة القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ الاحتلال لمصر دام ٧٤ عاما . وقامت القيادة البريطانية ببناء استراحة للبحارة والجنود الانجليز على ناصية شارع واجهورن (مصطفى كامل) ولما أجرى أول تعداد رسمى لمدينة بورسعيد سنة ١٨٨٢ بلغ عدد سكانها حوالى ١٦٩٧٨ نسمة مجموع الأجانب في هذا التعداد ٢٩٣٧ أجنبى منهم ٤٤٤ بريطانى .

وفي التعداد التالى سنة ١٨٩٧ بلغ عدد سكان بورسعيد ٤٢٩٧٢ نسمة أصبح عدد الأجانب ٤٨٠ ، ١١ أجنبى أكثرهم من الاتراك والسوريين يلهم اليونانيين والبريطانيين والإيطاليين والفرنسيين .

أما التعدادات التالية من ١٩٠٧ حتى ١٩٤٧ مظهر تعداد الجالية البريطانية :

١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
١.٦٩٣	٢٢٣٣	٣٨٠٩	٣٦٧٣	٢٣٤٣
				بريطانى

وبعد الاحتلال البريطاني أنيط بهم أعمال الأمن بنظارة الداخلية فاشتهروا بالشدة والصلف والبطش ضد المصريين والمتمثل فى الكونستبلات الإنجليز، وعين على رأس رجال البوليس البريطانى مفتش بريطانى أطلق عليه حكمدار بوليس القنال وأشهر هؤلاء فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين Hen Bey , Ablittby ويعمل تحت امرتهم مأمورى أقسام مدينة بورسعيد الثلاث الأفرنج والعرب والمناخ . كذا مأمور ضبط انجليزى ومفتش مباحث القنال (بور سعيد والاسماعيلية والقنطرة) إنجليزى. وكان البوليس الحربى البريطانى P.M يحفظ النظام للقوات البريطانية . وعرف عند البورسعيدية بالبيكت . وقد تملك أفراد تلك الجالية أكبر الشركات الرأسمالية فى بورسعيد وعلى رأسها الشركات الملاحية.

فوجد المسترولز Wallis قنصل بريطانيا فى بورسعيد سنة ١٨٨٢ يقوم ببناء أكبر ثلاجة بالقرب من الميناء بتقاطع شارع بابل مع السلطان عثمان (الجمهورية حالياً) كان يتم فيها تخزين اللحوم التى تصدر للمراكب المارة بالقناة واللحوم الواردة ترانزيت من استراليا كما انشأ مصنع للثلج ليمد السفن العابرة للقناة بالثلج.

أما المستر George Royle عمل مديراً لشركة اللويدز ثم انتهى به الأمر إلى تملك شركة من أكبر الشركات الملاحية فى منطقة القنال هى Lambret & Brothers Co. ولدرجة أن إحدى الصحف البريطانية Great Thoughts تجرى معه حديثاً فى شكل روبرتاج وتطلق عليه ملك بورسعيد من كثرة ثرائه الفاحش.

ومن ضمن المؤسسات الملاحية الإنجليزية الشهيرة ومديرها المستر Kortin فحومات بورسعيد - السويس Port- Said & Suez Coal Co. ومديرها المستر W.G. Woodhead English Coaling Co. Ltd وفى ذات الوقت كان يشغل نائب قنصل الدانمرك فى بورسعيد (منصب شرفى) ومبنى شركة انجلش كولنج يقع على الميناء بالتقاطع مع شارع أوچينى وقد مثل فيه أحد الأفلام المصرية فى الخمسينات: ومديرها المستر Elkington Hull Blaith Co.

وتشارك هل بلايت وشركة فحومات السويس فى مبنى خشبى يطل على الميناء، كان مدهوناً بخطوط عرضية بنية وبيضاء ، وبعد التأميم أصبح توكيل دمنهور للملاحة . ويقع مبنى شركة ورموس الخشبى على حوض الفحم بشارع الطور Worms & Co. والسلطان عثمان (الجمهورية) توكيل أسوان للملاحة حالياً ويجواره مخازن وجراج مرموس.

W. Stapldon & Sons , Cory Brothers & Co. Ltd.

كما تمركزت في أيديهم الأعمال المصرفية والبنكية - Anglo Egypt Bank = Bark lays Bank وهو من أقدم المصارف في بورسعيد بدأ نشاطه في مكان مبنى ميمون آزوت المثل على الميناء ثم بنى له مبنى بشارع النيل (الجزء الشمالي من الجمهورية) والجبرتي وهو حالياً بنك الاسكندرية.

وفي وسائل النقل البحري الداخلي تأسست في الخامس في فبراير سنة ١٩٠٦ شركة An- glo- American للنقل البحري عبر قنال المتزلة بين بورسعيد والمطرية وكانت توفر الوقت الذي كانت تقوم به المراكب الشراعية في نقل الركاب والمواد الغذائية بين المدن الواقعة على بحيرة المتزلة ، وشغل ادارتها أحد اليونانيين المسير Kourkould في مبنى بجوار بنك باركليز بشارع النيل (شمال الجمهورية حالياً والقرات) .

وبنيت لهم كنيسة خاصة سنة ١٨٨٢م The Church of The Epiphany بشارع التجار (النهضة أو عبد المتعم رياض حالياً) والمغرب وملحق بها صالة عبارة عن متلدى ثقافى للجالية البريطانية ويطلق عليها Memorial Hall فكان المستر Clerk مدير شركة شل من المحاضرين البارزين فى تلك القاعة .

فى ٣٠ مايو ١٩٥٠ ألقى محاضرة عن حياة الفنان موتسار حضرها جمع غفير من الجالية البريطانية وكبار الشخصيات الأجنبية فى بورسعيد وتحت شرف قنصل بريطانيا - Mr. Tom- lin وفى ٨ أغسطس ١٩٥٠ ألقى المستر كلارك محاضرة عن حياة الموسيقار العالمى بيتهوفن وأهم أعماله وفى نهاية كل محاضرة تعزف أعمال هذين الفنانين وكانت ما دام Zamit (زوجة رجل أعمال مالطى رعية بريطانية) تتولى عزف المقطوعات والسينفونيات على البيانو وفى ١٧ يونية ١٩٥١ أقيم بها حفل استقبال على شرف بحارة الأسطول البريطانى المار بقناة السويس وهما البارجتان الحربيتان البريطانيتان Surprise , Gambia بقيادة الأدميرال Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط والذي توجه مع القنصل البريطانى المستر توملين لسراى محافظة القتال لمصافحة المحافظ عبد الهادى غزالى بك الذى رد لهما الزيارة على الباخرة جامبيا وتلك الزيارات المتبادلة تعتبر كتوع من حسن الضيافة. وفى ٢٥ أغسطس ١٩٥١ وصل إلى بورسعيد مرة أخرى Amira Sir John Edelsten قائد الأسطول البريطانى فى الشرق الأوسط (ترقى فى وظيفته) فاستقبله أحمد بك شكرى وكيل محافظة القنال يصاحبه J. Caruana. قنصل بريطانيا بالنيابة وصعدا لتحيته على باخرة

القيادة ورد الأدميرال الزيارة بالتوجه لسراى المحافظة لشكر محافظ القنال . وكان لهم مبنى الكتاب المقدس British Bible بنى سنة ١٩١٠ من الرخام الملون (ما زال بشارع الجمهورية).

ومن الأماكن الثقافية الأخرى للجالية البريطانية Union Clup بشارع النيل (شمال الجمهور حاليا) والفرات أعلى البنك المركزى حالياً وكان ملحق به مكتبة كبيرة، وفيه تم الاحتفال بوداع الجالية البريطانية للسير Sir Ronald Cmbell سفير بريطانيا بعد إنتهاء فترة عمله فى مصر فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ الذى سيبحر إلى إنجلترا على الباخرة Capsa كما تم استقبال Lady Howe زوجة الحاكم البريطانى العام للسودان فى ١١ أبريل مايو ١٩٥١ وهى عائدة لبلادها على ظهر الباخرة Salween وفى ١١ مايو ١٩٥١ استقبل السير Sir Ralef Stinson وزوجته (سفير إنجلترا فى مصر) حيث قضى عطلة نهاية الاسبوع فى بورسعيد بين الجالية البريطانية).

كما كانت دار القنصلية البريطانية الواقعة بشارع السويس (الجيش حاليا) والفرات محلاً للاستقبالات والحفلات الرسمية فى الخامس من يونيو ١٩٥٠ أقام المستر Tomlyn قنصل بريطانيا فى بورسعيد وزوجته حفل استقبال بصالونات القنصلية البريطانية بمناسبة عيد ميلاد الملك جورج السادس وكان على رأس المهنيين محافظ القنال عبد الهادى غزالى بك.

ومن المؤسسات الثقافية البريطانية فى بورسعيد المدرسة الإنجليزية وكانت واقعة بشارع (ابراهيم عبد السلام عارف حاليا) والسلطان محمود أعلى الشركة البريطانية ميتشل كوتس للمقاولات حيث اعتاد مديرها Mr. Danby دعوة محافظ القنال لحضور حفلها السنوى لتوزيع الجوائز على المتفوقين كما حدث فى نهاية العام الدراسى ١٩٥١ / ٥٠ .

وكان من أشهر مكتبات بيع الكتب الإنجليزية Colonial Book بشارع الميناء بجوار سيمون أرزت .

وكانت الجالية البريطانية تحتفل كل عام بذكرى ميلاد الملكة فيكتوريا وذكرى جلوسها على العرش إلى أن جاءت الذكرى الستين لجلوسها على العرش ١٨٩٧ تم الاحتفال بازاحة الستار عن تمثال لها الذى تتوسط قاعدة عليها أربعة أسود (ترمز للأسد البريطانى) من الجهات الأصلية الأربعة تخرج من أفواهها المياه كان يرتوى منها المارة على رصيف الميناء حتى عرفت عند أهل بورسعيد القدامى بسبيل فيكتوريا وقد حضر حفل ازاحة الستار المعتمد البريطانى اللورد كرومر .

وفى ذات الشارع الهام المطل على الميناء مباشرة احتفلت قوات الاحتلال البريطانى فى مصر فى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ بازاحة الستار عن تمثال الجنود الاستراليين والنيوزيلنديين الذين اشتركوا فى صد العدوان التركى عن قناة السويس فى زمن الحرب العالمية الأولى ١٤ - ١٩١٨ بحضور المندوب السامى البريطانى فى مصر السير برسى لورين ورئيس الوزراء الاسترالى Mr. Hiouz كما تم تخصيص قطعة أرض غرب المدينة لقتلى الحرب العالمية الأولى عرفت بجبانة الإنجليز .

وكثيراً ما قامت الجالية البريطانية بجمع التبرعات من الجاليات الأخرى مثل ما حدث عندما نشبت الحرب فى اقليم ترنسفال بجنوب أفريقيا فنظم القنصل Kameronou تلك الحملة فى الأول من فبراير ١٩٠٠ .

وكانت لهم التأثير داخل المجلس البلدى الذى أنشئ سنة ١٩١١ فتم تغيير اسم شارع الغربية فى شمال المدينة والمطل على شاطئ البحر مباشرة إلى شارع كتشنر وهو وزير الحربية البريطانى فى زمن الحرب العالمية الأولى والذى عرفت به البارجة التى كانت تقله فى مياه الدردنيل فى ٥ يونيو ١٩١٦ (شارع ٢٣ يوليو الحالى) .

كما تم اطلاق اسم Waghorn الذى مهد طريق برى يربط الاسكندرية بالسويس قبل حفر قناة السويس لربط انجلترا وأوروبا بمستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى فى الشارع الجنوبي للمدينة المطل على محطة السكة الحديد الخشبية التى افتتحها الخديوى عباس حلمى الثانى فى الثانى من ديسمبر ١٨٩٣ (حالياً شارع مصطفى كامل) ، وكان للكابتن واجهورن الحظ فأقيم له بالسويس تمثالاً نصفياً يطل على الميناء .

كان للجالية البريطانية ناد خاص Sporting Club حيث استولوا على قطعة أرض وسط حى الافرنج كان مخططاً لها أن تكون ميداناً يطلق عليه ميدان عباس وكان لايسمح بدخوله إلا لهم وكان الاستثناء الوحيد لحسين صبرى بك سنة ١٩٢٢ ليس بصفته وكيل محافظة القنال بل بتدخل من الملك فؤاد شخصياً لكونه شقيق زوجته الملكة نازلى وكانت القنصلية تطل عليه (حديقة فريال حالياً) .

وفى جنوب بورسعيد وعند الرسوة كان يطلق عليها بر الإنجليز حيث قامت القوات البحرية البريطانية سنة ١٩١٤ بشراء قصر لأمير هولندى اقامه فى تلك المنطقة النائبة الهادئة وعرف بالنيقى هاوس وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ انزل من على سارية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

ورفع العلم المصرى بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن تراب مصر بعد احتلال دام ٧٤ عاماً . وفى الشمال الشرقى لمدينة بورسعيد وبعد احتلال انجلترا لمصر فكر الإنجليز فى انشاء مستشفى انجليزى لعلاج رعاياهم والإنجليز المارين بالقناة . ففى لندن تأسست جمعية لهذا الغرض سنة ١٨٨٥ برئاسة Lady Strangford وقامت بشراء الأجهزة الخاصة بالمستشفى فى لندن سنة ١٨٨٧ تم شحنها لبورسعيد وبعد الانتهاء من انشاء تلك المستشفى وجهت الدعوة للكونتيسة سترا نچفورد لحضور حفل افتتاح المستشفى التى اهدتها الحكومة المصرية الأرض غير أن الموت داهمها أثناء إبحارها على ظهر الباخرة لوزيانا . وعند الافتتاح قرر مجلس الادارة اطلاق اسم الكونتيسة على المستشفى والتى عرفت بالمستشفى الإنجليزى القديم .

وفى سنة ١٩١٢ شرع فى بناء مستشفى إنجليزى أكبر بتشجيع من اللورد كتشنر واشرف على جمع التبرعات لتلك المستشفى الجديدة Sir Charles Fremantle وتم الاحتفال بافتتاحها فى الثامن من نوفمبر ١٩١٥ فى حفل بسيط نظراً لقيام الحرب العظمى ، وتولى ادارتها المايجور دافيد هيرالد كينارد بشارع كتشنر (٢٣ يوليو) وسلمتها القوات البريطانية بعد جلاءها فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ للقوات المسلحة المصرية باعتبارها مستشفى عسكرى .

الرعايا البريطانيون

كان يطلق على الرعايا البريطانيين بالحماية البريطانية ومن هؤلاء :

١- المالطية Maltese

وهم أبناء جزيرة مالطة وكانت لهجتهم قريبة من العربية بل فيها الكثير من العربية.

وكانت لهم السطوة والنفوذ فى داخل المجتمع البورسعيدى وبين الجاليات الأجنبية فهم حماية للدولة المحتلة لمصر ويكفى خير دليل حكاية الحمار والمالطى الذى ماطل الحمار فى سداد أجرته فى الاسكندرية سنة ١٨٨٢ وانتهى الأمر بقتل الحمار للمالطى فما كان من انجلترا إلا أن احتلت مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ ولمدة ٧٤ عاماً .

ويعتبر الدكتور جوزيف هيربرت زارب أقدم شخصية مالطية وطأت قدماها أرض قناة السويس وأرض بورسعيد فهو من مواليد مالطة ١٨٢٧ وعين منذ ١٨٥٩ بوظيفة رئيس أطباء ديوان الصحة وبعدها التحق بخدمة شركة قنال السويس كطبيب أول.

قام ببناء فيلا على أراضى طرح البحر بشارع توفيق (عرايى) وأطلق عليها فيلا ايثون ثم حولها ورثته إلى بنسيون راقى ، قمة فى النظام والنظافة وكان يقدم وجبة الافطار لرواده ويقوم بغسل وكى الملابس لهم وفيه مكتبة لقراءة الكتب والصحف الانجليزية والفرنسية كذا تقديم دروس لتعلم تلك اللغتين وباعتبار أسرة زارب من رعايا الأعداء عام ١٩٥٦ فتم استيلاء الحكومة عليها وتحويلها لإدارة للتعويضات للمضارين من جراء الغزو البريطانى الفرنسى .

كما كان لتلك الجالية « نادى المكابى » بشارع عبادى بجوار مستشفى الدلثراند .

وكانت مقاولات جمع القمامة فى حى الافرنج يتولاها مقاولون ملطيون وينقلوها خارج المدينة فى الجهة الغربية منها ويقومون بتربية الخنازير عليها ويقومون ببيع لحومها للسفن العابرة للقناة وأثروا من وراء ذلك ثراء فاحش .

وكان نادى إيبيس Epise أشهر نواديهم الرياضية وبالأخص كرة القدم وكانت لهم Malta House بشارع دى ليسبس والسلطان عثمان (سعد زغلول والجمهورية) تقام فيه حفلاتهم الخاصة والعامة وهذا خلاف Maltese House الموجود بشارع أوجينى (بجوار سينما ماجستيك) وكان يحتفل فيه بالعيد الوطنى المالى فى ١٥ أغسطس من كل عام بحضور Mr. Carvana قنصل بريطانيا فى بورسعيد فى نهاية الأربعينيات من القرن العشرين ويمتد الاحتفال بالعيد الوطنى المالى بكنيسة سانت أوجينى ، وكانت مدام Zammit من أشهر عزفات البيانو التى كانت تقدم كونشرتات موسيقية من معزوفاتهم فى مثل تلك الأعياد .

كما كان لتلك الجالية نادى للتجديف Rowing على الشاطئ الشرقى للقناة بمدينة بور فؤاد ومديره المستر كروانا قنصل بريطانيا . وأشهر العائلات المالطية جرانة (يملك توكيل ملاحى) وبودجى (مقاول أشغال كهربائية) وبوهجير المشهور عند أهل بورسعيد بأبوحجر (مقاول أدوات صحية) وقيلا وبونتشى وسليد وكانت لهم أملاك فى أرقى مواقع بحى الافرنج .

٢- الهنود :

كانت الهند تعتبر درة التاج البريطانى إلى أن استقلت عن بريطانيا فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وأصبحت جمهورية من ٢٦ يناير ١٩٥٠ وكان الهنود يعملون بحارة على السفن

البريطانية وكانوا يشتغلون بتجارة العطور والمنسوجات الحريرية والتحف المصنوعة من العاج والمشغولات الفضية والأحجار الكريمة وكان أشهر هؤلاء Chellaram , Dialdas وكانت تفوح من محلاتهم أذكى أنواع روائح البخور.

وكان للجالية الهندية نشاط فى استقبال كبار الضيوف الهنود المارين بقناة السويس.

فى ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ تم استقبال الزعيم الشاب جواهر نهرو رئيس حزب المؤتمر بالهند وذلك عند عودته من لندن عائداً لبلاده (أصبح رئيس وزراء الهند فى الخمسينيات من القرن العشرين وقطب من أقطاب عدم الانحياز) .

ومرور كريشنان مينون سكرتير العلاقات الخارجية الهندية لقناة السويس فى ١٠ مايو ١٩٥١ (أصبح وزيراً للخارجية الهندية أيام الرئيس نهرو) . واستقبال الدكتور Inderjeet Singh الطبيب النفسى الهندى لحضور مؤتمر الطب النفسى فى نيويورك ممثلاً عن الهند فى ١٥ مايو ١٩٥١ على الباخرة Corfu واستقبال العديد من مهرجات الأقاليم الهندية كالمهراجا Nabha, Palampour .

وبرع الهنود فى ألعاب الخواة والسحر والشعوذة وكانوا يقومون بعرض فنون حرفتهم المتوارثة والتى لا يعرف أسرارها إلا أفراد العائلة على ركاب السفن المارة بالقناة وأشهر هؤلاء الساحر الهندى Alla .

وفى مساء السبت ١٦ ديسمبر وصلت إلى بورسعيد على ظهر الباخرة Canton التابعة لشركة P& D فرقة الرقص الهندى الشهيرة Darpana . برئاسة الراقصة الشهيرة Mrinalini Sarabhai وتتكون من خمسة عشر راقصاً وعازف موسيقى.

٣- القبارصة :

وهم أبناء جزيرة قبرص وكان أغلبهم يمتلكون الخمارات والبارات والمقاهى .

٤- أبناء عدن والصومال البريطانى فباعثبارهم من أصول عربية فتجمع أغلبهم فى أوائل قرية العرب عند شارع محمد على الحد الفاصل بين مدينتي المدينة الشرقية والمدينة الغربية. ومن أشهر العائلات الصومالية عائلة سمنظر وله مسكن كبير يطل على شارع محمد على. ومن أشهر عائلات أبناء عدن عائلة العدنى وهؤلاء تمصروا بطول الإقامة وانصهروا فى بوتقة المجتمع البورسعيدى .

الجالية الأمريكية

كان تعدادها قليل بالنسبة للجاليات الأجنبية إلا أن لهم نشاطاً فى تجارة المواد البترولية وعلى رأسها شركة شل وفاقوم سكونى . وتم بناء مستودعات بترولية ضخمة فى منطقة الرسوة جنوب بورسعيد وظهر فى الأفق أهمية تلك التجارة للسفن العابرة للقناة بعد الاستغناء عن الفحم فى تشغيل آلاتها وإحلال المواد البترولية محلها .

وتبع تلك الشركات نوادى أهمها نادى شركة شل ببورفؤاد ، وفى أغسطس ١٩٤٩ تم عرض فيلم سينمائى بعنوان البترول وأهميته العالمية وقام بالتعليق Mr. Clark بل كان لتلك الجالية نشاط ثقافى ، فتم افتتاح معرض للكتب العلمية التى تصدر بالولايات المتحدة خلال الفترة من ٧-٩ نوفمبر ١٩٤٩ بلوكاندة البيت الحديد .

كما كانت هناك المكتبة الأمريكية بشارع محمود صدقى خلف حديقة الكازينو بالاس وكانت الاستعارة مسموح بها . ومن الأنشطة الثقافية المبكرة للجالية الأمريكية فى بورسعيد مدرسة بنايل للبنات بشارع الغربية (٢٣ يوليو) والغازى مختار وتم افتتاحها سنة ١٨٩٧ وكانت معروفة عند أهل بورسعيد بمدرسة الأمريكان .

وكانت القنصلية الأمريكية تحتل موقعاً ممتازاً على ميناء بورسعيد حيث دأب قنصل أمريكا على استقبال كبار شخصيات بورسعيد فى الأعياد القومية الأمريكية وكان أهم تلك الأعياد عيد الاستقلال فى ٤ يونيو من كل عام ، وكان الاحتفال بمرور ١٧٥ على استقلال أمريكا فى يونيو ١٩٥٠ وكان على رأس المحتفلين قنصل أمريكا M. Johnson كذا الاحتفال بذكرى ميلاد جورج واشنطن . واستلم قنصل أمريكا هدية الرئيس الأمريكى هارى ترومان للملك فاروق بمناسبة زواجه وهى عبارة عن قازة نادرة ، وقد وصلت الهدية على الباخرة Pres-ident Arthur فى ٢٧ مايو ١٩٥١ . وتم إطلاق اسم أمريكا على الشارع الذى يلى شارع الميناء وترسل المجلة الشهيرة مندوبها المصور Joseph Baylor Robert فى ٢١ مايو ١٩٥١ وهى مجلة National Geographio Magazin ليعد موضوعاً مصوراً عن مدينة بورسعيد وميناءها .

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى أرسلت الولايات المتحدة الأمريكى بأساطيلها البحرية لمساندة انجلترا وفرنسا حيث قامت بدوريات فى القناة من الشمال حتى الجنوب وأهم تلك القطع البحرية .

Illinois , Kansas, Rhode Island, Louisiana, Virginia, Connecticut, Kentucky, Wisconsin.

الرعايا الألمان

وكانوا قلة في بورسعيد إلا أنه كان لهم تمثيل قنصلي في بورسعيد، فالقنصلية الألمانية كانت في عمارة محمد حسنين بك لهيطة- المظلة على الميناء وبها شركة الفحومات الألمانية .

وفي سنة ١٨٩٠م هرع الرعايا الألمان لتحية السفينة القيصر ويلهام العابرة للقناة.

وكانت تجارة البيرة في يد الألمان وكان أشهر محلاتهم بميدان دى ليسبس (ميدان المنشية أو سعد زغلول حالياً) بمنزل أحد اليونانيين ويدعى مانولى استماتيو (قبطان بشركة قناة السويس في أوائل القرن العشرين) .

وقد تأثرت أملاك وأموال الرعايا الألمان بقيام الحربين فتم تعيين حارس عليها حين انتهاء الحرب فخلال الحرب العالمية الثانية تم تعيين الأستاذ محمد السيد سرحان (والد المحافظ السيد سرحان) وعضو مجلس النواب عن الحزب السعدى حارساً على أموال الرعايا الألمان في بورسعيد ١٩٣٩ لأمانيته ونزاهته . وفي يونيو ١٩٥٢ وصل أول سفير لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لميناء بورسعيد الهرفون Henting .

الرعايا الإيرانيون

ويطلق عليهم أهل بورسعيد العجم ، وقد اشتهروا بتجارة السجاد وكان أشهر محلات هؤلاء أحمد يزدي بشارع السلطان عثمان (الجمهورية حالياً) ومن أولاده أشهر أطباء بورسعيد في الخمسينيات روشن يزدي إلا أنه رحل إلى خارج البلاد بعد عدوان يونيو ١٩٥٦ وشغل أحمد بك يزدي منصب قنصل إيران في بورسعيد.

وفي يونيو ١٩٥١ تم تأسيس شركة مصرية إيرانية في بورسعيد للتصدير والاستيراد ومقرها بشارع أوجيني (صفية زغلول) بالقرب من شارع فؤاد (الجمهورية) بملك اليوناني الياديس من الشركاء ميرزا أسد الدين شيرازي ومحمد جمال الدين شيرازي (إيرانيان) وعبد المنعم عبد الرازق حجاب (مصرى) .

الجمالية النمساوية

أول نمساوى يصل لبورسعيد كان Albert Cohen ولمزيد من التفاصيل عنه نرجع إلى المرجع اليونانى ذكريات وأحداث عن مدينة بورسعيد لديمتريوس خالدوبيس المطبوع فى مطبعة متزانى بالاسكندرية سنة ١٩٣٩ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، وفى ذات الوقت سوف نرى من السرد كيف كانت المشقة التى يتحملها الأجانب المعدمين فى الوصول لميناء بورسعيد ويعيشون معيشة بسيطة ثم ينتهى بهم الأمر إلى تملكهم كبريات المؤسسات الاقتصادية التى تدر عليهم دخلاً عظيماً يستثمروه فى تملك العقارات فى البقع الهامة من بورسعيد .

« ألبرت كوهين ... اتذكر ما أخبرونى عنه أنه يهودى نمساوى وصل فى شبابه إلى مناطق الحفر فى بورسعيد سنة ١٨٦٢ عن طريق ميناء تريستا الايطالى وكان السفر بالبحر شاق فى تلك الأيام ويتحمل المسافر مصاعب كثيرة فى رحلة قطعها الوابور فى عشرين يوماً وبوصوله رسى الوابور أمام الشاطئ لأن ميناء بورسعيد لم يكن معد لاستقبال السفن وأنزل ركابه القلائل عن طريق أقفاص إلى الفلايك المنتظرة لنقلهم لشاطئ بورسعيد ، ولما كان ألبرت كوهين قد نال قسطاً من التعليم وجيد عدة لغات فقد عينه دى ليسبس كمحاسب فى شركة قنال السويس وأصبح من المقربين له وخلال عمله هذا كسب مكاسب كثيرة من الفرنسيين وكان له الفضل فى تأسيس شركة اللويدز النمساوية فى بورسعيد وتولى منصب قنصل النمسا فى بورسعيد وساعد كثير من النمساويين والحقهم بالعمل فى شركة قنال السويس وبالأخص كمرشدين وبحارة بجوار اليونانيين أبناء جزيرة كاسوس والجزر اليونانية الأخرى . كما أشتهر النمساويون بأنهم فنيون فى الأعمال الدقيقة ، لقد عاش ألبرت كوهين طيلة السبع سنوات الأولى وحتى افتتاح القناة داخل الخيام مع زوجته كباقى موظفى شركة القنال من الأوربيين وكثيراً ما كان يسهر الليالى خوفاً من الفئران الكبيرة وحيوان النمس المنتشرة فى البقع الصحراوية فى مناطق الحفر .

ورغم أنه توفى شاباً عن سن ٥٤ سنة إلا أنه ترك أبناءاً ناجحين أعرف منهم إبنه Mario Cohen الذى عمل مديراً بالشركة الملاحية الكبرى Worms لمدة ستة وأربعين سنة أما إبنه الثانى Joseph Cohen فقد عمل بالتجارة وشريك فى الشركات الملاحية أما ابنته البكر Eugenie فتعتبر أول أوروبية تولد فى صحراء منطقة القنال سنة ١٨٦٣ وتم تسميتها بالكنيسة الخشبية التى بناها دى ليسبس وشهود التعميد اثنين من مديرى شركة القنال إلا

أنها توفيت بعد ٣ و ٤ سنوات من ولادتها لاصابتها بالدستاريا ...» إلى هنا انتهى كلام وسرد خالدوبيس . ومن عائلة كوهين أحد مديري بنك كريدى ليونيه سنة ١٨٩١ وهو Elie Cohen لقد عاصر البيركوهين حفلات افتتاح قناة السويس واشترك امبراطور النمسا والمجر Franz Josef الذى أطلق اسمه على أهم شوارع بورسعيد المطل على ميناء بورسعيد مباشرة ، وقيام الحرب العالمية الأولى ويجلسة مجلس بلدى بورسعيد المنعقدة ١٩ يونيو ١٩١٥ تم اطلاق اسم السلطان حسين كامل على هذا الشارع لاشتراك النمسا مع ألمانيا فى الحرب.

ويمتاز النمساويون بالهدوء وحب الفنون وبالأخص الموسيقى ، وكان للجالية النمساوية ممثل بمجلس بلدى بورسعيد Emilo Pavievich ومثلهم عن المدة من الرابع من مايو ١٩١٢ حتى السابع من يوليو ١٩٢٣ حيث عين بعدها كوزير روسيا المفوض فى بورسعيد ثم قنصلاً للمجر. والمسieur امليو باثيقتشى ولد أساساً فى يوغسلافيا وقدم لبورسعيد سنة ١٨٨٤م وتخصص فى تجارة الاخشاب وكون من ورائها ثروة طائلة استثمرها فى بناء العمارات الشاهقة . واستقبلت الجالية النمساوية فى أول يناير ١٩٥٢ الصحفى النمساوى الشهير الدكتور Adam Wamdruszka موفد من جريدة Die Press فى زيارة رسمية لمصر .

الجالية اليهودية

وهى تنقسم إلى قسمين يهود شرقيين ويهود غربيين، فاليهود الشرقيون احتلوا قجماً فى القسم الجنوبى الغربى لحي الافرنج المتاخم لقرية العرب، عرف هذا التجمع بحارة اليهود وكانت حارتان لليهود.

١- حارة اليهود القديمة متمركزة بشارع التجارة (النهضة) بالقرب من شارع محمد على حيث بنى فيها أقدم معبد يهودى أطلق عليه معبد سوكات شالوم قام ببنائه التاجر العدنى اليهودى مناحم مدشا بتقاطع شارع النهضة والمشرق وأهداه لجمعية التوراة الاسرائيلية، كان لها مقر بشارع النيل (القسم الشمالى فى شارع الجمهورية) ثم تحول هذا المعبد لليهود الإسبان بعد بناء معبد جديد لليهود.

٢- حارة اليهود الجديدة بشارع أوجينى بالقرب من محمد على وشارع الوكيل الذى يتقاطع مع شارع أفريقيا ، قام تاجر البفنة والكتان Bennin عدنى يهودى ببناء معبد Mo- cheh Ohiel سنة ١٩١١ والحق بجواره مدرسة لليهود واعد فوقها منزل للحاخام .

وكان اليهود الشرقيون أغلبهم تجاراً للذهب والفضة والمصنوعات بشارع السلطان عبد العزيز (التجاري حالياً) وكانوا مشهورين باقراض المعوزين نظير رهن مصاغهم وأنيتهم النحاسية بفوائد عالية أو ما يعرف عند أهل بورسعيد (الفايظ) ، وأشهر الجواهرجية اليهود داقيد راحمين وشالوم منصور وسليم مناحم ، أما نسيم باروخ فكان تاجر سجاد من ايران وعميد الجالية اليهودية لجبر ليقى (اليهود الشرقيين) .

أما اليهود الغربيون فكانوا ذو ثراء فاحش ومنتشرين داخل حي الافرنج وأغنى هؤلاء Benderli (يهودى ايطالى) أسس مع ماكس موشلى (يهودى فلسطينى) أكبر تجمع تجارى فى الشرق الأوسط Simon Arzt سنة ١٨٦٩ وهو يطل على القناة مباشرة على رصيف فرانسوا جوزيف (شارع فلسطين حالياً) وكان السواح من ركاب البواخر يرتادونه فيجدون فيه صالون الحلاقة وقسم لتصليح الساعات وقسم لأدوات التصوير وتحميض الأفلام وقسم لمسح الأحذية.

وكان اليهود الغربيون أصحاب توكيلات ملاحية ومكاتب لخدمات البواخر بحى الافرنج ومديرى المحلات الكبرى لحنكتهم التجارية فكان David Costi مدير لأشهر المحلات Etam بشارع التجارة (النهضة) وأهم نواديهم نادى الشبيبة اليهودية بشارع صلاح الدين وتوفيق (عربى) ورئيسه الفخرى عميد الجالية اليهودية (من الغربيين) Arone Gourevitch وكان يمتلك مطبعة كبيرة بشارع محمد محمود . أما رئيسه الادارى E. Rozanes وأشهر أعضائه E. Azori و Robpert Arie وكان مشهور عن هذا النادى ألعاب القمار والبريدج حفل للبوريم .

وكان الدكتور Carmn من أشهر أطبائهم فى بورسعيد .

وأهم جمعياتهم بجانب جمعية التوراة السابق ذكرها كان هناك جمعية أخرى باسم هرزاليا .

وكانت لهم مقابرهم الخاصة فى أقصى غرب المدينة.

وبعد قيام حرك فلسطين سنة ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل ومن بعدها قيام ثورة يوليو المباركة سنة ١٩٥٢ بدأ رحيل كثير من يهود مصر خارجها ، أما وجودهم بعد حرب سنة ١٩٥٦ يكاد يكون معدوما .

مراجع البحث

١- موسوعة تاريخ بورسعيد جزء أول جزء ثانى

إعداد / ضياء الدين حسن القاضى

٢- محاضر مجلس بلدى بورسعيد

٣- جريدة Progres Egyptien (صباحية)

جريدة Bourse Egyptienne (مسائية)

من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٢ مقالات الأستاذ كمال مروان مراسليها فى بورسعيد وكان ينشر فيها الأحداث التى تهم الجاليات الأجنبية فى بورسعيد وأصبح عضو مجلس أمة فى أول مجلس نيابى بعد قيام الثورة وتم انتخابه فى يونيو ١٩٥٧ .

٤- بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها (١٨٥٩-١٨٨٢) الدكتور زين العابدين

شمس الدين نجم .

٥- مدن القنال فؤاد رفج

٦-٦ الأطلس التاريخى لبطولها شعب بورسعيد سنة ١٩٥٦ .

دكتور مقلاتى عبدالله *

موقف المغرب من دعم الثورة الجزائرية

١٩٥٤ - ١٩٥٨

إن اندلاع الثورة الجزائرية الذى جاء بعد انتشار المقاومة المغربية وتطور المشكل المغربى أعاد من جديد مسألة خلق جبهة كفاح موحدة تحقق طموح الوطنيين بالقطرين الشقيقين وهو ما تجسد سنة ١٩٥٥ بالتحام المقاومتين الجزائرية والمغربية ، وإنشاء لجنة تنسيق بينهما كان لها تأثير فى تجسيد الاستقلال المغربى ، وأمام ذلك لجأت الإدارة الفرنسية للاتفاق مع القيادة المغربية على مشروع الاستقلال الصورى الذى تم بموجبه عودة الملك محمد الخامس من منفاه وحصول المغرب على استقلاله ، وتفرغت الحكومة الفرنسية بعدها لإخماد الثورة الجزائرية وعزلها عن الدعم الذى تلقاه من المغرب وتونس ، وانتهجت سياسة التعاون لكسب موقف البلدين لأطروحة الجزائر الفرنسية.

وأمام المواقف الصعبة التى واجهتها الحركة الوطنية المغاربية وتزايد الاهتمامات القطرية الضاغطة للحكومة المغربية فإن القضية الجزائرية ستلقى اهتماما سياسيا ومساندة شعبية وستفرض تأثيراتها المباشرة على المغرب حكومة وشعبا ، وعلى طبيعة العلاقات الفرنسية المغربية التى ستواجه تازما بسبب المشكل الجزائرى ، وستعمل جبهة التحرير الوطنى للاستفادة قدر الإمكان من الاستقلال المغربى لتفعيل نشاطاتها ودعم الكفاح التحررى انطلاقا من الأراضى المغربية ، ووجدت نفسها فى مواجهة مواقف مغربية متبانية فى مساندة الثورة الجزائرية يمكن أن نميز فيها ثلاثة قوى ظهرت خلال الفترة المدروسة وهى :

- حركة المقاومة المغربية التى أكدت تدعيمها للثورة الجزائرية وضرورة استكمال السيادة المغربية.

- الحكومة المغربية مشكلة من حزب الاستقلال وإلى تيارات سياسية أخرى وعناصر موالية للقصر، أكدت على مؤازرتها للثورة الجزائرية في إطار اهتمامها بالمسائل القطرية.

- القصر ممثلا في الملك محمد الخامس وولي عهده الأمير الحسن، وقد عبر عن دعمه المادي والمعنوي للجزائر كلما سمحت الظروف^(١).

وهذه القوى المتباينة والمرتبطة بمصالح وضغوط جعلت من مهمة دعم الثورة الجزائرية صعبة ومتباينة، وذلك في وقت أكد فيه تواصل الحرب الجزائرية واستمرار العدوان الفرنسي وضغوطه المستمرة على المغرب اندماج القضية الجزائرية ضمن التصور المغربي الذي ربط بين قضية استقلال الجزائر ومسألة استكمال السيادة المغربية وتحقيق الوحدة المغاربية، وعليه فإن الموقف المغربي الرسمي سيكون له دور متميز في التفاعل مع القضية الجزائرية ودعم الثورة الجزائرية ماديا ومعنويا، وهو ما سنحاول تبينه وتحديد مستوياته على ضوء علاقات الثورة الجزائرية مع المغرب وتوسع حدود نشاطاتها السياسية والعسكرية.

أولا : استقلال المغرب ومطلب دعم الثورة الجزائرية

شكل المغرب موقعا استراتيجيا للثورة الجزائرية بحكم الجوار الجغرافي، ذلك أن طول الواجهة الحدودية ووضعية الكفاح المغربي سمحت للثوار الجزائريين اعتماد قواعد خلفية لها بالحدود المغربية وكسب التضامن الشعبي، كما أن حزب الاستقلال المغربي أعرب عن مساندته للثورة الجزائرية على لسان زعيمه علال الفاسي^(٢)، الذي كانت له اتصالات وتنسيق مع قادة جبهة التحرير الوطني بالقاهرة، وتبنى فكرة وحدة الكفاح المغربي الجزائري^(٣) قبل أن يتحقق استقلال المغرب، ومن جهة أخرى أعلن عبد الكريم الخطابي^(٤) رئيس لجنة تحرير المغرب العربي مباركته للثورة الجزائرية ورفضه لما آلت إليه الاتصالات الفرنسية المغربية، داعيا المقاومة المغربية إلى مواصلة الكفاح ومعاضدة الأخوة الجزائريين، وكان يرى في قبول الملك محمد الخامس لاتفاقية (أكس - لبنان) طعنة لكفاح شعوب المغرب، وأنه لا يمكن أن تنتصر الجزائر وأن تستقل إلا بشمولية الكفاح المسلح كامل الشمال الإفريقي وإزاحة محمد الخامس عن عرش المغرب^(٥)، وكان هذا الموقف بقدر ما يعبر عن طموحات شخصية ونزوة خاصة للزعامة فإنه يشير حماس المغاربة ويؤجج ضراوة المقاومة المغربية، فضلا أنه يشكل دعما سياسيا للقضية الجزائرية.

لكن مواقف المساندة التي كانت تتلقاها جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة من قادة الحركة الوطنية المغربية لم تكن تعبر عن واقع ما آل إليه الوضع الداخلى للمغرب الأقصى، لأن حزب الاستقلال المغربى وفى غياب زعيمه وتطور الوضع السياسى وافق على الخطوط الأولى لاستقلال المغرب عن طريق المفاوضات، وأعلن وقوفه إلى جانب الملك ودعا حركة المقاومة إلى توقيف نشاطها الثورى، ولاشك أن نفوذ الحزب بالداخل وتأثير قيادته المحلية جعله يتخلى عن خيار الكفاح المسلح وتنسيق العمل المغاربى المشترك، واهتم أكثر بصوغ أهدافه المرحلية، وهى المشاركة فى السلطة وتحقيق الاستقلال القطرى بأقل الخسائر الممكنة، لذا فعندما انعقد المؤتمر الاستثنائى لحزب الاستقلال فى ديسمبر ١٩٥٥ لم يتخذ أى موقف بخصوص الجزائر وكرس اهتماماته بالمسائل الوطنية والتنظيم الداخلى للبلاد^(٦)، وكان لاتجاه الأمين العام للحزب أحمد بلافريج والقادة المفاوضين تأثير كبير فى ربط مصير الحزب بتوجهات القصر وتحبيد التوجهات الرحدوية التى ينادى بها الفاسى والخطابى، فأصبح التوجه الجديد لحزب الاستقلال يفرض حياد المغرب وقطع تنسيق حركة المقاومة المغربية مع الثورة الجزائرية، وذلك فى وقت كانت جبهة التحرير الوطنى تطمح لمواصلة تنسيق العمل المشترك خاصة فى تمرير الأسلحة وتخفيف ضغط القوات الفرنسية وإتاحة الفرصة للاستفادة من المناطق الشمالية المغربية^(٧)، غير أن ضغوط حزب الاستقلال على عناصر المقاومة المغربية جعلت إمكانية الاستفادة من تأييدهم تضحل شيئاً فشيئاً حسب ما أكدده مسؤول جبهة التحرير الوطنى بالمغرب الطيب الثعالبى^(٨). «لقد ظهر لنا من خلال اتصالاتنا بقيادات المقاومة المغربية أن بوادر شكوك ظهرت لدى حزب الاستقلال من إمكانية الالتحام بين المقاومة المغربية والثورة الجزائرية ذلك الالتحام الذى يفوت على قيادة الحزب الوصول إلى التفاوض مع فرنسا لإيقاف الحرب. وهكذا استطاع حزب الاستقلال أن يفصل بيننا وبين عناصر المقاومة الذين كانوا يتعاونون معنا»^(٩).

لقد دعا حزب الاستقلال والحكومة المغربية إلى إيقاف القتال لكن عناصر المقاومة وجيش التحرير المغربى أبدت تحفظاتها وأكدت مواصلة دعمها للثورة الجزائرية، إذ لم يكن بمقدورها التنصل من التزاماتها المغاربية وإيقاف جهود التنسيق التى باشرتها مع الكفاح الجزائرى، وكان القرار السياسى حازماً بعد استقلال المغرب مما اضطر بعض عناصر المقاومة للاتضمام إلى جيش التحرير الجزائرى، وشكل قادة المقاومة بعد انتقالهم إلى الجنوب المغربى عامل ضغط

على الحكومة المغربية بضرورة مواصلة دعم الجزائريين^(١٠)، وبذلك استمرت العلاقات بين جيش التحرير الوطنى ورجال المقاومة المغربية ، واستمرت الولاية الخامسة فى الاستفادة من نفوذها بمناطق الريف المغربية لتمير الأسلحة وتركيز وحدات جيش التحرير واستقبال اللاجئين ، وظلت مناطق الريف مراكز حيوية للجزائريين إثر توسع سلطة الجيش المغربى بها، خاصة وأن تجربة الكفاح المشترك أرسى تضامن الشعب المغربى واستمرارية الدعم والمساندة المقدمة للثورة الجزائرية كما يؤكد عبد الحفيظ بوصوف ، وفى الوقت نفسه أوضح هذا الأخير أن بعض الشكوك تحوم حول مدى تعاون السلطة المغربية وأن هناك مواقف سلبية لبعض العناصر الموالية للاستعمار^(١١).

إن سياسة التعاون التى انتهجتها فرنسا مع الملك محمد الخامس كانت تهدف إلى تحييد المغرب وقطع مساعدهاته للثورة الجزائرية ، وأكدت ذلك بإبقائها لقواتها العسكرية فى المغرب ولنفوذها السياسى والاقتصادى، ولكن استمرار ثورة الجزائر وتركها وحيدة تواجه الاستعمار الفرنسى ليس بالإمكان الاحتراز منه بحكم الروابط والمصالح المشتركة للمنطقة وامتداد نفوذ الثورة الجزائرية داخل المغرب وحجم التجاوب الشعبى معها^(١٢)، وهذا ما جعل النظام المغربى يصطدم مع بداية الاستقلال بالموقف الفرنسى المتشدد بخصوص الجزائر، وبالمطالب الجزائرية لدعم الثورة التحريرية .

ولم ييأس مسؤولو جبهة التحرير الوطنى من السياسة الفرنسية التى ولدت استقلال المغرب وحزمت أمرها لعزل الثورة الجزائرية ، فمن الناحية السياسية بات من المستحيل حرمان الجزائر مما حصلت عليه جاراتها ومن جهة أخرى أصبحت الجزائر تواجه لوحدها قوة التكالب الاستعمارى ، غير أنه كان بالإمكان الاستفادة من الوضع الجديد، وتحقيق مكاسب للجزائر تكون أكثر فعالية إذا ما قورنت باستعدادات رسمية لدعم وتسهيل نشاط الثورة بالقواعد الخلفية ، إذا لم تعد الرقابة الفرنسية تشكل خطرا كبيرا كما فى السابق^(١٣)، وأبدى المسؤولون المغربيون استعدادهم لذلك، وقد دلت الاتصالات الأولى التى هياها عبان رمضان مع الملك محمد الخامس عن إمكانية الاستفادة من الاستقلال المغربى^(١٤)، وكلف الشيخ خير الدين فى سنة ١٩٥٦ بالإشراف على النشاط السياسى لجبهة التحرير الوطنى ومؤازرة جهود بالصوف فى تمكين نشاط الثورة بالمغرب .

إن التجربة المبررة التى عايشها الملك محمد الخامس فى مجابهة الاستعمار ومواقفه

التضامنية وإيمانه بحتمية الوحدة والمصير المشترك جعلته منذ البداية يعرب عن تضامنه مع الثورة الجزائرية ، ويؤكد على دعمها بشكل سرى حفاظا على علاقات التعاون مع الحكومة الفرنسية، وقد التزم بالبحث عن حلول سلمية للمشكل الجزائري إيمانا منه أن مصير الشعب الجزائري هو الاستقلال ، وأدى اهتمامه بالقضية الجزائرية إلى عقد عدة اتصالات مع قادة جبهة التحرير الوطني، فقد طلب من بوصوف تهيئة اجتماع مع مسؤولي الجبهة بالخارج للتشاور معهم في القضايا التي تهم الثورة ^(١٥)، وذكر أحمد بن بلة أنه ذهب لمقابلة محمد الخامس بمدريد في أبريل ١٩٥٦، وأن اللقاء كان في منتهى الصراحة ، ووجد الملك مهتما بالقضية الجزائرية وعواقب إيقاف القتال بالمغرب على الثورة الجزائرية ، وقال بن بلة بخصوص نتائج اللقاء : « انتهت محادثاتنا بنتائج هامة، لقد وعدنا محمد الخامس في غيبة المساعدة العسكرية المباشرة بمساعدات كبرى لقد أعطانا فيما أعطانا تأكيدا بأن تكون الحدود المغربية في كل لحظة بالنسبة لنا حدودا صديقة وممكنة العبور دخولا وخروجا للأسلحة والرجال » ^(١٦). وكانت رغبة الملك من خلال هذا اللقاء الاطلاع على مواقف الجزائريين ومطالبهم وإمكانية تقديم مساعدات سرية وتسهيلات غير معلنة، وذلك حتى لاتشير انتباه الفرنسيين ولا تسبب مشاكل لسياسة التكافل التي تسير وفقها العلاقات الفرنسية المغربية.

وإن تخلى حزب الاستقلال عن مبادئ التعاون المغاربي المشترك وانصياع عناصر جيش التحرير المغربي مرغمين للتعاون مع السلطات المغربية جعل جبهة التحرير الوطني تقرر خلال مؤتمر الصومام تغيير استراتيجية علاقاتها المغربية ، وقد تأكد لها أن حصول الاستقلال المغربي جاء نتيجة للتغير المفاجئ في السياسة الفرنسية الهادفة إلى « منع تكوين جبهة ثانية حقيقية لإنهاء الاتحاد بين الكفاح المسلح في الريف بالمغرب وفي الجزائر » ، ولكن قوة التضامن الشعبي للشمال الإفريقي فرضت على قادة البلدين الشقيقين تونس والمغرب الوقوف إلى جانب القضية الجزائرية المندمجة في القضيتين المغربية والتونسية ولن يكون هناك في نظرها أي معنى لاستقلال المغرب وتونس ما دامت الجزائر لاتزال مستعمرة ^(١٧). وتأكدت هذه الحقائق باقتناع شعوب المغرب العربي بأن الكفاح المشتت ضد عدو مشترك مآله الفشل ، وقد بدى لبعض قادة حزب الاستقلال أن الاستقلال المغربي المتوصل إليه لا يزال ناقصا وأن المعركة لاتزال مستمرة ، وشكلت هذه المواقف بتأثيرها الشعبي والسياسي ضغوطا على الحكومة المغربية لإبداء تضامنها مع القضية الجزائرية ^(١٨).

ثانيا : محمد الخامس ودوره فى تكريس الدعم للثورة الجزائرية

أكد الملك محمد الخامس انشغاله بتطور المشكل الجزائرى وأوضح أن الجزائر ستبقى مشكلة الشمال الأفريقى ومحل اهتمام المغرب إلى أن تجد لها فرنسا حلا عادلا ، وأبدى استعداد بلاده للمساهمة فى إيجاد حل سلمى وتقريب وجهات النظر بين طرفى النزاع الفرنسى والجزائرى ، وكان الملك محمد الخامس باتجاهه المسالم للسلطات الفرنسية يسعى لتحقيق الاستقرار والتعاون وفى نفس الوقت يقدم دعمه للمسؤولين الجزائريين وتضامنه مع الشعب الجزائرى ، وذلك فى غياب التأييد المباشر لأهداف ومبادئ جبهة التحرير الوطنى نتيجة بعض الاختلافات الايديولوجية ، وقد أكد بأن المساعدة التى يمكن أن يؤديها المغرب المستقل هى أن يساعد على إيجاد حل للقضية الجزائرية ، وأن أفضل خدمة يمكن أن يؤديها للجزائريين ولفرنسا هى أن يساعد على تسوية المشكلة الجزائرية بوساطته (١٩)، ولم يستكن ولم يهدأ له بال رغم أن فرنسا ظلت متحفظة على مواقفها باعتبارها القضية الجزائرية شأنا فرنسيا داخليا.

وانتهجت جبهة التحرير الوطنى سياسة التقارب والتحالف مع المغرب للحصول على تعاون ودعم السلطات المغربية، وقوبلت من المغرب حكومة وملكا بمواقف إيجابية، فقد نددت الحكومة المغربية بسياسة القمع والاضطهاد الفرنسية بالجزائر ودعت إلى وضع حد لإراقة الدماء ، وإلى حل القضية الجزائرية سليما (٢٠)، كما استنكر محمد الخامس تواصل الاضطهاد الذى يتعرض له الجزائريون ، وأكد أن مشكلة الجزائر تقف عائقا أمام سياسة التعاون المغربية-الفرنسية قائلا : «إنى أجد نفسى مضطرا إلى أن أقول لكم بأن كل ما نحاوله من مفاهمة مع فرنسا سوف يكون ضعيفا ولا أساس له ما دام الوضع الراهن بالجزائر»، وطالب الملك بإيجاد حل سلمى للمشكل الجزائرى يحقق الدماء ويحد من اضطهاد الشعب الجزائرى، وأوضح أن الاحتراز والحياد الذى تطلبه فرنسا من المغرب لا يمكن تحقيقه لأن الشعب المغربى لا يمكنه السكوت عما ي طال الشعب الجزائرى من اضطهاد وتعسف (٢١).

وقد ارتكز التوجه السياسى للملك أساسا على إشار الحلو السلمية وأكد بذلك على ضرورة التوصل إلى حل سياسى بدل الخيار العسكرى الذى يتوجب إيقافه ، ومن هذه الوجهة فهو يلتقى مع نظرة بورقيبة لكنه يتحفظ عن تقديم مشروع جاهز أو برنامج لحل المشكلة الجزائرية، فقد أوضح أن مهمته ومساعيه تكمن فى تقريب وجهات النظر بين فرنسا وجبهة التحرير

الوطني دون التدخل في شؤون الجزائريين . وفي هذا الإطار كانت اتصالاته حثيثة مع المسؤولين الجزائريين خاصة بعد أن أبدت حكومة غي موليه ليونة في موقفها وأرسلت مبعوثيها للقيام بمشاورات مع مسؤولي جبهة التحرير الوطني، فأعرب الملك عن أمله في وضع حد لحرب الجزائر، وأكد ذلك في خطابه التاريخي بوجدة في سبتمبر ١٩٥٦م، إذ أشار إلى إمكانية حل المشكل الجزائري والتوصل إلى تسوية سلمية بدل سياسة الاضطهاد والدماء ، وأنه : « يمكن من بناء علاقات قوية بين الطرفين قوامها تلبية مطامح الشعب الجزائري في الحرية واحترام المصالح العليا لفرنسا وضمان مصالح الفرنسيين .. »^(٢٢) ويادر محمد الخامس إثر هذا الخطاب للإعلان عن مساندة حكومته ووقوفها إلى جانب القضية الجزائرية في الأمم المتحدة ، وأرسل الأمير الحسن مبعوثا شخصيا له لإطلاع الحكومة الفرنسية على انشغالات بلاده بخصوص المسألة الجزائرية ، والتعرف على الموقف الفرنسي وحدود تنازلاته ليتمكن من تقريب وجهات نظر الطرفين الفرنسي والجزائري .

وإثر التعرف على مدى استعدادات الحكومة الفرنسية للتفاوض اتصل بقيادة جبهة التحرير الوطني المجتمعين في مدريد ، وكانوا بدورهم يرغبون في إطلاع مسؤولي البلدين تونس والمغرب بعروض المباحثات الفرنسية ، وبحث سبل التنسيق معهما في إطار التضامن الشمال الإفريقي، فلبوا دعوة محمد الخامس لزيارة المغرب قبل التوجه إلى عقد ندوة تونس المقررة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ ، واستقبل مسؤولو جبهة التحرير الوطني رسميا من قبل الملك، وأجروا معه مشاورات قبل موعد مؤتمر تونس ، وقد أثارت مواقف التأييد الرسمية هذه السلطات الفرنسية بالجزائر ، وأظهرت حكومة غي موليه تحفظاتها من هذه الاقتبالات التي قول بها الجزائريون في الرباط^(٢٣)، ولكن مبدأ الاتصالات الموافق عليه من طرف الحكومة الفرنسية جعل الملك محمد الخامس يعتقد أن جهود الوساطة التي سيباشرها رفقة الرئيس بورقيبة والقادة الجزائريين في تونس أمر يستحق التشجيع ويساعد على بناء علاقات تعاون بين فرنسا والشمال الأفريقي ، وهذا ما تأكد منه الأمير الحسن وبورقيبة في باريس، وهذه الجهود كلها تعرضت لعرقلة خطيرة بعملية القرصنة الفرنسية للطائرة المغربية المقلدة للزعماء الجزائريين يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ ، وترتب عن ذلك عواقب حادة ليس على الجزائريين فحسب بل على كامل الشمال الأفريقي ، إذ أثارت ردود استنكار المغر ملكا وشعبا فضلا على أنها وضعت حدا لمساعي الحلول السلمية للمشكل الجزائري^(٢٤)، فقد أثارت حادثة اختطاف زعماء جبهة

الذين أعطوا دروسا للمغاربة والتونسيين، لقد كنا نقول لهم كيف لا تتهيأون لفعل السلم مع فرنسا والآن هم يقولون لنا ماذا يمثل الاستقلال الذي تزعمون أنكم أحرزتم عليه فالعالم أصبح يعرف أنه لا توجد قضية الجزائر أو تونس أو مراکش بل هناك المغرب العربى سنكون جميعا مستقلين أو نكون جميعا فى حرب» (٣٠).

لقد اجتهدت جبهة التحرير الوطنى فى الاستفادة من طاقات التأيد والمساندة التى فجرتها هذه الحادثة، وإن كانت تدرك أن مواقف الحكومة المغربية ستكون لصالح التضامن مع الجزائر إلا أن سياستها التعاونية مع فرنسا ستؤكد أكثر حضور الاهتمامات الوطنية، الأمر الذى جعل جبهة التحرير الوطنى تنتهج استراتيجية جديدة تهدف إلى تفعيل التضامن الشعبى من جهة وإلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الدعم الرسمى، وتحسين العلاقات مع السلطات الرسمية ما دام أن إمكانية الدعم المباشر للكفاح المسلح لم تعد مطروحة (٣١).

إن مظاهر التضامن الشعبى ومواقف التأيد التى أبدتها الملك أكدت الوعى بالمصير المشترك لشعوب المغرب العربى، وشكلت حازما فى وجه المصالح القطرية التى أبدتها الحكومة المغربية باسم الحفاظ على الاستقرار والاستفادة من المعونات الاقتصادية الفرنسية والحذر من امتداد حرب الجزائر (٣٢) فأصبح التأيد الشعبى وال جماهيري يلح على مساندة الجزائر ويدعو إلى إنهاء التواجد الفرنسى بالمغرب واستكمال وحدة الشمال الإفريقى، ومثل موقف الملك ضمانا قوية للتضامن المغربى الجزائرى، وقد حافظت الثورة الجزائرية على تفعيل التضامن الشعبى وجابهته بحزم بعض السلوكات والمواقف المضادة لنشاطات جيش التحرير الوطنى بالمغرب، واستطاعت بفضل المساعدات المغربية تنظيم نشاطها السياسى وتأطير الجالية الجزائرية والاستفادة من القواعد الخلفية رغم المضايقات التى تسببها القوات الفرنسية المتواجدة بالمغرب ومخابراتها وأعوانها، وعملت الولاية الخامسة لغرب الجزائر التى كانت تشرف على النشاط العسكرى والسياسى بالمغرب على توفير وسائل مواصلة الحرب والحفاظ على علاقات الصداقة مع السلطات المغربية للاستفادة من تسهيلاتهما ومساعداتهما المادية والمعنوية والتصرف بحرية فى القواعد الخلفية، وقد دلت الاتصالات المباشرة لمسؤولى جبهة التحرير الوطنى بالسلطات المغربية التزام المغرب بواجب مساعدة الثورة الجزائرية ودعم نشاطاتها السياسية والعسكرية بالمغرب (٣٣).

وشكلت حركة التضامن الشعبى والمواقف الايجابية للملك محمد الخامس دورا أساسيا فى مؤازرة الثورة الجزائرية والتأثير على الحكومة المغربية لاتخاذ مواقف أكثر إيجابية تجاه الثورة

الجزائرية ، فقد اعتبر محمد الخامس أن استقلال المغرب سيظل منقوصا ومهددا في سيادته ما دامت الحرب قائمة في الجزائر بتلك الشراسة الاستعمارية ، وأنه من الواجب مساندة الجزائريين في كفاحهم ، ومن هنا سعى الملك لتقديم بعض المساعدات والتسهيلات اللازمة لنشاط جبهة التحرير الوطني وأكد الاستمرار في الدعم السياسي والدبلوماسي للقضية الجزائرية^(٣٤).

ويمكن رصد الاهتمام السياسي والدور النضالي للملك محمد الخامس على ضوء اتصالاته العديدة مع المسؤولين الجزائريين داخل المغرب وخارجه وقد هيا لقاء مع مسؤولي الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني أثناء زيارته الرسمية إلى مدريد في فبراير ١٩٥٧ ، ويذكر أحمد توفيق المدني أنه انتقل رفقة الأمين دباغين من القاهرة للقاء الملك بمadrid ، وأن الملك كان حريصا على عقد لقاء تشاوري للنظر في تطور القضية الجزائرية وسبل دعمها ، وقد تم عقد اجتماع موسع بحضور عبد الحميد مهري وبوصوف وأحمد بلافريج وعبد الكريم الخطيب تم التطرق فيه للعلاقات الأخوية التي تربط الجزائريين بالمغرب ، ومناقشة سبل مؤازرة الثورة الجزائرية انطلاقا من المغرب ، وأكد الملك بخصوص ذلك استعداداته الكامل لتقديم المساعدات التي يرغب فيها الجزائريون وخاصة حرية مرور الأسلحة واتخاذ مناطق الحدود المغربية الجزائرية مراكز للنشاط العسكري وأكد على تأييده للثورة الجزائرية مهما كانت الظروف^(٣٥) ، وإثر انتقال وفد جبهة التحرير الوطني إلى المغرب استقبله الملك مرة أخرى في قصره ليلا ليحرب له عن دعمه ومساندته التي أبداهها في اجتماع مدريد ، وأكد له « أن المغرب كله لا فرق بين حاكم ومحكوم مشارك لكم في جهادكم إلى نهايته المشرفة »^(٣٦).

وهذا الدعم المادي والتأييد المعنوي للسلطات المغربية سمح بتفعيل نشاطات الثورة الجزائرية طوال سنة ١٩٥٧ حيث تضاعف النشاط السياسي بالمغرب ، وكانت الحدود سهلة العبور ونشطت مهمة تهريب الأسلحة وتسهيل وصولها إلى الثوار الجزائريين ، وتواصل الدعم المادي للملك محمد الخامس حيث كان التنسيق بينه وبين بوصوف يتم بطرق شتى وبواسطة معتمدين رسميين حفاظا على نشاطات الثورة وتقديم المساعدات العسكرية والمالية في سرية تامة^(٣٧) وقدمت الحكومة المغربية تسهيلات إدارية لنشاط الثوار الجزائريين داخل الأراضي المغربية مما أدى إلى دعم القدرات العسكرية للولاية الخامسة ، وأحيانا كان بوصوف يشتكى من صعوبات تطل نشاط الجزائريين بالمغرب ، وتتسبب في خلافات تعوق التضامن المغربي مع الثورة الجزائرية ، وذلك جراء معارضة بعض الأطراف السياسية لتوجهات جبهة التحرير الوطني ، ويذكر في هذا الشأن أحمد توفيق المدني أنه وبناء على طلب بوصوف اتصل رفقة

الأمين دباغين في فبراير ١٩٥٧ برجال المقاومة وحزب الاستقلال، وخلال اجتماع الوفد الجزائري بممثلي حزب الاستقلال تبين له وجود خلاف إيديولوجي بين الحزب وقادة جبهة التحرير الوطني حول أهداف الثورة ومبادئها، وذلك بسبب تصريحات بعض المسؤولين بما يفيد أن الجبهة تسير في طريق شيوعي وتعمل لفائدة الشيوعية، وعليه قال ابن بركة: «إنه يكاد يستحيل العمل على مساعدة حركة ليس لها أهداف واضحة»، وتصدى الوفد الجزائري لتكذيب ونفي هذه الأقوال والشائعات وشرح أهداف الثورة ومبادئ جبهة التحرير الصريحة، وأكد المدني لمخاطبيه: «لسنا شيوعيين ولانكون شيوعيين... إننا لانعمل إلا في دائرة الإسلام والعروبة ووحدة المغرب العربي»^(٣٨)، وأمام هذه التأكيدات اقتنع ممثلو حزب الاستقلال بوجهة نظر جبهة التحرير الوطني وأبدوا تضامنهم مع الكفاح الجزائري وقال ابن بركة: «إنه لم يبق لنا أي خلاف معكم حول المبادئ والأهداف وإننا سنخبر رفاقنا بهذا»^(٣٩)، وقد كان مبعوثوا مصالي وبعض المغرضين يتعمدون إلصاق تهمة الشيوعية بجبهة التحرير الوطني في الأوساط السياسية المغربية بهدف ضرب التضامن الشعبي والموقف الرسمي المغربي المساند لها، ولم تقتصر تحفظات حزب الاستقلال على هذه الوجهة الإيديولوجية فحسب فقد انتقد بعض قاداته موالاة جبهة التحرير الوطني للنظام الناصري المعادي للملكية وللحزبية، وخاصة على ضوء إذابتها للأحزاب السياسية. وازدادت حساسيتهم من هذا التوجه الثوري الذي يخالف مبادئ حزبهم^(٤٠)، ولعل هذه الخلافات السياسية وقفت أمام تأدية الحكومة المغربية لدورها التضامني تجاه الثورة الجزائرية نظرا للاهتمامات الوطنية الضيقة للاستقلاليين، كما أن بعض العناصر السياسية والاجتماعية المؤثرة فيها دفعت باتجاه إعادة ربط العلاقات المغربية الفرنسية، وقد أدركت فرنسا الموقف المضطرب للحكومة المغربية وحاجتها للمساعدات الاقتصادية، فسعت لمساعدتها من أجل إنقاذ المصلحة الفرنسية والحفاظ على نشاط قواعدها العسكرية بالمغرب^(٤١).

وأدى تصعيد الحرب بالجزائر إلى امتداد شرارتها لتعم المناطق الحدودية المغربية التي احتضنت الشوار الجزائريين، وكانت ملجأ للسكان اللاجئين والفارين من بطش القمع الفرنسي، وظلت هدفا عسكريا للهجمات الفرنسية المتكررة على التراب المغربي وهكذا فإن الحرب الشرسة التي شنّها الجيش الفرنسي على الجزائريين كانت توازيها حرب أخرى متواصلة على طول الحدود الجزائرية المغربية اتخذت أشكالا انتقامية في التهجم على المواطنين المغربيين عقابا على احتضانهم للشوار الجزائريين ودعم المغرب لنشاطات الثورة الجزائرية^(٤٢)، وهذا

الأمر دفع السلطات المغربية إلى أن تفكر جدداً في مخاطر امتداد حرب الجزائر إلى المغرب، وأدى تنسيق المواقف السياسية المغربية التونسية إلى إعادة طرح القضية الجزائرية والسعي لإيجاد حلول سلمية لها، ومثلما حاول الرئيس بورقيبة فرض ضغوط على جبهة التحرير الوطني للقبول بمفاوضات الاستقلال المرحلي، حاول الأمير الحسن في أغسطس ١٩٥٧ خلال اجتماعه بالوفد الجزائري (فرحات عباس، توفيق المدني) المطالبة بترتيب أهدافهم من الحرب، والنظر بواقعية للمشكل الجزائري للحد من المأساة التي ت طال الشعب الجزائري وقسم المغرب، وكان يهدف إلى محاولة تليين مواقف جبهة التحرير الوطني للقبول بمفاوضات لا تكون على أساس الاستقلال، لكنه فشل في مسعاه أخيراً (٤٣).

ولما شعرت جبهة التحرير الوطني بجدية الاتصالات بين المسؤولين التونسيين والمغربيين أكدت أنها تلتزم بالتنسيق المغربي المشترك، وتقبل بالحلول السلمية التي تضمن حقوق الشعب الجزائري، وتحسباً لما قد يقدم عليه البلدين من مواقف لا تخدم أهداف الكفاح الجزائري أوضحت تمسكها بأن إيقاف القتال وإجراء المفاوضات مع فرنسا لن يكون إلا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائري، وعندما أثارت اجتماعاتها مع بورقيبة اختلافاً حاداً في وجهات النظر انتقل وفدها إلى المغرب للقاء الملك محمد الخامس قبيل انعقاد لقاء القمة بينه وبين الرئيس بورقيبة وأكدت مشاوراتها معه التمسك بوجهة النظر الجزائرية ورفض المساعي التي لا تحقق للشعب الجزائري أهدافه في الاستقلال، واقتنع الملك محمد الخامس بمطالب الجزائريين وأكد أنه سيعمل بكل استطاعته لتحقيق أهداف كفاح الشعب الجزائري، وذلك في جو من الأخوة المغربية والنصح لفرنسا (٤٤)، وصدر بيان الرباط مؤكداً لأهداف جبهة التحرير الوطني، وقد اقترح وساطة الدولتين التونسية والمغربية بين طرفي النزاع لإجراء مفاوضات تنتهي بحل عادل يؤدي إلى تجسيد سيادة الشعب الجزائري، وشكل مشروع الوساطة هذا محورا لمساعي الملك محمد الخامس وممثل المغرب بالأمم المتحدة في التأكيد على الحل السلمي للقضية الجزائرية، وقد صدر نداء الوساطة قبل يوم من سفر الملك محمد الخامس إلى الولايات المتحدة الأمريكية في زيارة رسمية تباحث خلالها مع الرئيس الأمريكي إيزنهاور ومع وزير الخارجية الأمريكية حول المشكل الجزائري، وحاول خلالها إقناع المسؤولين الأمريكيين بتأييد مشروع الوساطة المقترح، وصدر إثرها بلاغ مشترك في واشنطن يؤكد انشغال الدولتين بمشكلة الجزائر ويدعو إلى ضرورة وضع حد لها بالطرق السلمية (٤٥)، وقد ظل الموقف الأمريكي مؤداً للسياسة الفرنسية، كما أن فشل مشروع الوساطة أدى إلى استمرارية الحل العسكري

بالجزائر، وظلت منطقة المغرب العربي تتعرض لمخاطر السياسة الاستعمارية، وانعكس ذلك كله على تقوية التضامن الشعبى وأعطى بعدا حيويا للعمل المغاربى المشترك.

ثالثا : مؤتمر طنجة والموقف المغربى: تضامن شعبى وانكسار سياسى

لقد واجه الشمال الإفريقى مع نهاية سنة ١٩٥٧ وبداية ١٩٥٨ مخاطر وتحديات أكدت تضامن شعوب المغرب العربى مع الثورة الجزائرية، وذكّرت النخب السياسية والحركات الوطنية بضرورة وحدتهم، فبالإضافة إلى استفحال المجابهة العسكرية بالجزائر ظلت القوات الفرنسية الموجودة بالجزائر تواصل اعتداءاتها على الحدود التونسية والمغربية وتنتهك سيادتهما، وواصلت القوات الفرنسية رفضها الجلاء عن تونس والمغرب واتخذت من ترابهما قاعدة لممارسة العدوان على الشعب الجزائرى، وازدادت المخاطر الاستعمارية بالمغرب إثر التحالف الفرنسى - الإسبانى الذى وجه ضربات قوية لجيش التحرير المغربى بمناطق الجنوب انتهت بسحقه فى فبراير ١٩٥٨^(٤٦)، ولعل هذه الهزيمة خصوصا والقصف الفرنسى لساقية سيدى يوسف واضطهاد الجيش الفرنسى للشعب الجزائرى جعلت حزب الاستقلال المغربى يوجه الدعوة لتنسيق التعاون الوحدوى الذى كان شعار الحركات الوطنية المغاربة وظل مطمحا أساسيا لشعوب المنطقة.

إثر اجتماع لجنته التنفيذية دعى حزب الاستقلال فى ٢ مارس ١٩٥٨ إلى عقد اجتماع لقادة أقطار الشمال الإفريقى يحقق التعاون المشترك والوحدة ويقف أمام استفحال المخاطر الاستعمارية، وأكد البيان أن اللجنة التنفيذية قامت «بتحليل الحالة فى مجموع الشمال الإفريقى على إثر حوادث جنوب المغرب وساقية سيدى يوسف وأمام استمرار الحرب فى الجزائر والتطورات التى طرأت على الحالة الدولية تعلن اللجنة التنفيذية عن احتجاجها ضد خلق منطقة تدعى الآن بـ منطقة الموت- فى التراب الجزائرى وعلى طول الحدود التونسية يطرد منها السكان الجزائريون طردا...»^(٤٧).

ويتضح أن تطورات الوضع بالمغرب العربى، ومخاطر حرب الجزائر على تونس والمغرب كانت وراء الدعوة لعقد مؤتمر طنجة، وقد أكد عبد الرحيم بوعبيد^(٤٨) أن الهدف منه «هو إظهار التضامن الكامل ما بين الأقطار الثلاثة إزاء الحكومة الفرنسية إذ ذاك»^(٤٩)، إلا أن هذا التفسير لم يخف بعض المطامع السياسية لحزب الاستقلال بعد أن انهارت ذراعه العسكرية، فضلا عن أنه تزامن مع مبادرة الوحدة الشرقية بين مصر وسوريا مما جعل مصر

تفسر الدعوة لوحدة المغرب العربى أنها معاكسة للوحدة المشرقية ، وأن المؤتمر محاولة مغربية تونسية لاحتواء جبهة التحرير الجزائرية وربطها فى الإطار الغربى (٥٠) ، ومثل هذه الرؤية المصيرية وغيرها من الاعتبارات لم تكن لتؤثر على قرار جبهة التحرير الوطنى بحضور المؤتمر بحكم اتجاهها المغاربى ، ونظرا للأهمية المتزايدة للبلدين المجاورين فى الكفاح الجزائرى ، ويؤكد قادة جبهة التحرير الوطنى أن الدعوة للمؤتمر لم يصحبها إعداد لجدول أعماله فكان هذا حافزا لحضور المؤتمر واستغلال هذا الفراغ لإعداد جدول أعمال حرصت فيه على أن يجمع بين مراعاة واقع البلدين من جهة ، وتحقيق مكاسب لفائدة الكفاح السياسى والعسكرى من جهة أخرى ، واعتمدت فى ذلك على ضغط القواعد الشعبية المنادية بتصفية الاستعمار واستكمال المعركة حتى تحقيق جلاء القوات الفرنسية عن كامل بلدان المغرب العربى (٥١) .

انعقد مؤتمر طنجة بحضور الأحزاب الوطنية الممثلة لأقطار الشمال الإفريقى ؛ حزب الاستقلال المغربى والحزب الدستورى الحر وجبهة التحرير الوطنى ، وخلال مناقشات الوفود الحزبية على امتداد أيام ٢٧ - ٣٠ أبريل ١٩٥٨ أكد المؤتمر على مخاطر السياسة الاستعمارية ، وحتمية التنسيق المشترك ووحدة أقطار المغرب العربى وضرورة مساعدة الجزائر وتخليصها من الاستعمار الفرنسى ، وخرج مؤتمر طنجة بقرارات هامة لمساعدة الثورة الجزائرية وتحقيق مشروع المغرب العربى تمحورها أساسا فيما يلى :

- إقرار مبدأ تقديم مساعدات مالية للجزائر فى حربها .
- التأكيد على حق الشعب الجزائرى فى الاستقلال كشرط وحيد لإنهاء النزاع الفرنسى الجزائرى .
- شجب مساعدات الدول الغربية لفرنسا ومساندتها فى حربها ضد الشعب الجزائرى .
- تقديم الأحزاب السياسية للشعب الجزائرى كامل مساندة شعوبها وتأييد حكوماتها .
- المطالبة بإلحاح على تصفية القواعد العسكرية فى كامل تراب المغرب العربى .
- اختيار الشكل الفيدرالى إطار لوحدة المغرب العربى على أن يتم إنشاء المؤسسات الفيدرالية فى اجتماعات قمة لاحقة .
- كما أوصى المؤتمر كذلك بـ :

- اجراء مشاورات مع حكومتى تونس والمغرب لإقامة حكومة جزائرية مؤقتة كلما سنحت الظروف .

- ألا تربط الحكومات على انفراد مصير شمال إفريقيا في حقل العلاقات الخارجية والدفاع إلا بعد إقامة المؤسسات الاتحادية^(٥٢).

ويظهر من خلال مقررات طنجة أن القضية الجزائرية نالت اهتمامات المناقشين ، وتأكد بخصوصها تقديم مساعدات هامة للكفاح الجزائري ، ورصد هدف تجسيد وحدة المغرب العربي واعتبار الجزائر قطرا كاملا للسيادة وعضوا في الوحدة الفيدرالية قبل أن تحصل على استقلالها ، إلا أن هذه القرارات لم تكتسب صبغة تنفيذية رغم موافقة رئيسا الدولتين محمد الخامس والحبيب بورقيبة ومساندتهما لما جاء في مؤتمر طنجة ، ورغم أن الحزب الدستوري الحر وحزب الاستقلال مشاركان في السلطة إلا أن قراراتهما كانت شعبية أكثر منها رسمية. وتم تأجيل تنفيذ قرارات طنجة إلى لقاء قمة على المستوى الحكومي، وإن كانت الأحزاب السياسية والمنظمات الشعبية تمسكت بقرارات طنجة وعبرت عن مطامحها في مساندة الثورة الجزائرية وإرادتها الفعالة لتحقيق الوحدة المغاربية فإن الحكومتين المغربية والتونسية تنصلتا تدريجيا عن تجسيد مقررات طنجة.^(٥٣)

واجتمعت الحكومتان المغربية والتونسية مع جبهة التحرير الوطني في مؤتمر المهدية بتونس في يونيو ١٩٥٨ إلا أنهما لم تجسدا شيئا ذا بال ، وكان تهرب الحكومة المغربية واضحا من التزامات مؤتمر طنجة ، وارتسم هذا الموقف ليؤكد من جديد المصالح والأهداف القطرية الضيقة على حساب التضامن الشعبي والحزبي المؤيد للثورة الجزائرية ، ويفسر هذا التنصل بمعطيات داخلية استجذبت وظروفا دولية كان لها تأثير مباشر نرصد أهمها فيما يلي:

- التخوف من انعكاسات التفاعل الشعبي مع الثورة الجزائرية مما يجعل النظام المغربي يخشى السيطرة على الموقف بازدياد نفوذ الجناح المتشدد داخل حزب الاستقلال .

- خطورة الموقف من توحيد المجابهة ضد فرنسا بشكل قد يهدد الاستقلال المغربي.

- مجئ الجنرال ديغول على رأس حكومة قوية أعادت الهيبة الدولية لفرنسا، وأكدت على سياسة الإدماج بالجزائر والتعاون مع المغرب، مما جعل النظام المغربي ييأس من إمكانية التوصل إلى حل المشكلة الجزائرية في الأمد القريب .

- وقوف السياسة الديجولية ضد تطبيق مقررات طنجة بتأكيدا على سياسة التعاون مع المغرب وتونس وتخطيطها لضرب التضامن المغاربي مع الثورة الجزائرية^(٥٤).

إن السياسة الفرنسية المتبعة مع المغرب لم تكن ذاتها المنتهجة مع تونس ، فقد طمأن الجنرال ديغول البلدين على استقلالهما وقبل بجلاء القوات الفرنسية عن تونس في حين أكد بلهجة متشددة على بقاء القوات الفرنسية بالمغرب ، وهدف من وراء ذلك إلى إلغاء التقارب بين البلدين وجعل المغرب يترقب تنازلات يمكن أن تبادر بها فرنسا لصالحه ، وهذه المعطيات جعلت السلطات المغربية تفكر في عدم رهن مصيرها بقرارات طنجة ، ولهذا أبدت الحكومة المغربية خلال مؤتمر المهدية ليونة في موقفها التقت مع رغبة بورقيبة في عدم رهن مصير شمال إفريقيا بحرب الجزائر ، وضرورة العدول تدريجيا عن الخط الوجودي لطنجة ، وتأجيل مقرراته بشكل يستجيب للظروف المستجدة على المستوى المغاربي والدولي (٥٥).

وعليه لم يخرج المؤتمر بأي نتائج مهمة، إذ أكدت مناقشات الوفد الحكومي المغربي (بالافريج- بوعبيد) خلال مؤتمر المهدية (٥٦) أن أوضاع الحكومة المغربية لا تسمح لها بتقديم مساعدات مالية، وأعطت تأويلات جديدة لمقررات طنجة ، إذ أوضح رئيس الحكومة بلافريج أن مسألة وحدة الشمال الإفريقي لا يمكن رهنها بمستقبل الجزائر ، وعندما طالبت جبهة التحرير الوطني بإدانة سياسة الإدماج وتأييد المطالب الجزائرية الواضحة في الاستقلال رد نائب رئيس الحكومة بوعبيد قائلا : « ينبغي أن نترك دائما هامشا للتقدير على صعيد السياسة وليس من الضروري أن يكون المرء بالغ الوضوح والدقة ، ينبغي اختيار اللحظة المناسبة » وأكد أن مجئ ديغول إلى السلطة قلب الوضع وهو يكسب الآن التأييد الدولي و« ينبغي إذن التفكير والرؤية بوضوح » (٥٧)، وردت جبهة التحرير الوطني على الموقف الحكومي المغربي ولم تستسلم لضغوطه ولضغوط التونسيين، وأدركت أن التعهد بمساعدة الكفاح الجزائري ماديا سيظل حبرا على ورق ، ورغم نجاحها في إقناع الطرفين لتأييد حقوق الشعب الجزائري في الاستقلال والتمسك بتنسيق المواقف السياسية إلا أنها شعرت بخضوع توجهات الطرفين لتأثيرات السياسة الديجولية، ومع ذلك اتبعت سياسة مهادنة للحكومة المغربية حتى لا تصادم موقفها في الحفاظ على التضامن الشعبي وصيانة المصالح المكتسبة بالمغرب ، ونجحت في تفعيل التضامن الشعبي وجعله يتمسك بمبادئ طنجة (٥٨) ، وقد كان النظام المغربي يخشى حدوث تعبئة جماهيرية تتأثر بتوجهات الثورة الجزائرية وتتمسك بقرارات طنجة ، خاصة ما تعلق منها بتصفية القواعد الأجنبية بالمغرب التي يقف وراءها حزب الاستقلال القوى بنفوذه الشعبي، ومن هنا تبلور شعور النظام المغربي بخطر جيش التحرير المغربي وبالنفوذ السياسي لحزب الاستقلال فخطط لضربهما حتى لا تتطور الأحداث وتندفع باتجاه تشكيل تضامن شعبي مطلق مع ثورة الجزائر (٥٩).

إن السياسة الفرنسية قد نجحت فى كسب الحكومة المغربية التى انتظرت طويلا مبادرة فرنسا بإنجاز خطوة اجلاء قواتها عن المغرب، وعقدت أخيرا الحكومة الفرنسية مع المغرب اتفاقية تعاون لتحقيق جلاء جزئى للقوات الفرنسية من بعض المناطق المغربية مما أعطى النظام المغربى نفسا للتغنى بتحقيق مطلب وطنى، الحقيقة أن القيادة الفرنسية وبفضل معرفتها للميدان قامت بإعادة تجميع قواتها فى نقاط استراتيجية تضمن استعمالها بصورة أكثر فاعلية لنشاطها المعادى للجزائريين (٦٠)، وإن ظلت القوات الفرنسية بالمغرب تضايق الجزائريين وتفرض رقابتها عليهم فإن القوات المسلحة المغربية التى تظاهرت فى البداية أنها تقدم حماية لجيش التحرير الوطنى أصبحت تضايق تحركاته وتشكل ضغوطا مختلفة عليه كما قامت بإغلاق ممر فجيج الاستراتيجى، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى عرقلة تسلل وإمدادات جيش التحرير الوطنى لجعل الجزائريين أمام الأمر الواقع والإقرار بسيادة المغرب على المناطق الشرقية التى يدعى مغربيتها، وشكلت هذه المسألة خلافات عميقة مع جبهة التحرير الوطنى، ولم تنفع الاجتماعات التى عقدها الطرفان فى إيجاد أية تسوية؛ ففى ٨ أبريل ١٩٥٨ عقد اجتماع بالرباط بين الشيخ خير الدين وعبد القادر معاشو وحسين قادري مع ابن بركة ومحمد البصرى عن الجانب المغربى، وعقد اجتماع آخر فى ٦ مايو من نفس السنة بين ممثلين عن جيش التحرير الوطنى والسلطات المغربية دون الوصول لأية نتيجة مما جعل الموقف المغربى يتحفظ فى دعم الثورة الجزائرية (٦١).

وقد أحست جبهة التحرير الوطنى بتدهور علاقاتها مع السلطات المغربية غداة مؤتمر المهدية وذلك من خلال بعض الممارسات والضغوطات التى اصطدم بها جيش التحرير الوطنى واللاجئون الجزائريون وقوافل الأسلحة، وترجع أساسا إلى الخلافات السياسية ومطالب المغرب بتعديل حدوده الجنوبية (٦٢)، وقد اتخذت الحكومة المغربية قرارا منفردا بإنشاء «لجنة الحدود» فى مارس ١٩٥٨، وأعلنت أن مفاوضات مغربية - فرنسية بشأن الحدود ستنتطلق فى أغسطس ١٩٥٨ وأن ملف لجنة الحدود جاهز لمناقشته مع الحكومة الفرنسية، واعتبرت جبهة التحرير الوطنى أن هذا الإجراء لا يقل فداحة وطعنا لمقررات طنجة من اتفاقية البترول التونسية الفرنسية، لأنه يعترف لفرنسا بسيادتها على الجزائر ويطعن فى شرعية تمثيل الجبهة، ويعارض قرارات التعاون والتنسيق المتفق عليها فى مؤتمر طنجة (٦٣).

وقد بدى لجبهة التحرير الوطنى أن السياسة الديجولية كان لها تأثير واضح على الحكومة المغربية التى أبدت رغبتها فى التعاون الاقتصادى بعد أن لوح ديجول بمشروع بترول الصحراء

الذى يقترح فيه إشراك المغرب وغيره من الدول المتاخمة لصحراء الجزائر فى استثمار خيراتها واعتبرت الحكومة المغربية أن قبولها بهذا المشروع سيدعم حقها فى المطالبة بالمناطق الصحراوية مستقبلا ، ورغم أن جبهة التحرير الوطنى لفتت أنظار السلطات المغربية إلى خطر هذه السياسة الفرنسية بشقيها الاقتصادى والسياسى ، وعرضت عليها مشروعها لاستغلال بترول المغرب العربى شراكة^(٦٤) ، إلا أنها لم تتلق أى رد منها ، وقد أثرت مغريات فرنسا الاقتصادية وسياسة التعاون معها ، ولم يكن هذا التوجه هو مبدأ الحكومة المغربية إذ عبرت من قبل عن رفضها لصفقة تكرير بترول صحراء الجزائر بمصفاة القنيطرة فى مايو ١٩٥٨ ، وسمحت بذلك لجبهة التحرير الوطنى أن تؤكد أنه ليس لفرنسا الحق فى استثمار خيرات الجزائر^(٦٥) ، ويظهر لنا من تباين الموقفين السابقين أن السياسة الديجولية أثرت كثيرا على السلطات المغربية لتظهر مواقف وتصرفات لا ترقى لمبادئ دعم الكفاح الجزائرى وتخدش التضامن المغاربى السياسى ، وبالمقابل تؤكد أن التضامن الشعبى ظل يؤثر على مواقف الحكومة المغربية وينتقد سياستها فى التعامل مع الحكومة الفرنسية ، ويواصل مؤازرته للثورة الجزائرية.

وقد سجلنا كثيرا من مظاهر الانتقاد للسياسة المغربية تجاه الجزائر ، وفضحت بعض النخب السياسية فى المغرب التقصير الحكومى فى دعم الثورة الجزائرية ، وأكد مثلا أحمد معينو عضو حزب الشورى والاستقلال بالمجلس الاستشارى المغربى تضاؤل الاهتمام السياسى بالقضية الجزائرية قائلا: « عندما يؤكد وزير الخارجية أن المغرب قدم كل مساعدة ممكنة للجزائر نشعر بألم يحز فى أفئدتنا إذ أننا نرى النار بأبوابنا ولا تهتم بها الاهتمام الواجب إن هذه المساعدة المقدمة بسيطة وبسيطة جدا والكلام فى شأنها لا يستر الحقيقة أو ينسيها »^(٦٦) ، ومهما كانت جوانب الصحة فى انتقادات حزب الشورى والاستقلال السياسية فقد شن حملة معارضة ضد الحكومة أكدت على واجب دعم الجزائر وكسب التأييد الشعبى لها . واصطفت وراء هذه الدعوة الجماهير الواسعة التمثيل والمنظمات النقابية ، ولعل الاختلاف حول مسألة دعم الجزائر زاد فى انقسام حزب الاستقلال ووقف وراء بعض الانتفاضات والمظاهرات الشعبية^(٦٧).

وقد رأت جبهة التحرير الوطنى أن تنشأ الحكومة الجزائرية المؤقتة فى سبتمبر ١٩٥٨ ، ولم تكن علاقاتها مع النظام المغربى على أحسن ما يرام ، وخشيت أن يقدم على معارضة إنشائها فى تلك الظروف الصعبة التى يمر بها الشمال الإفريقى والعودة القوية للنفوذ السياسى الفرنسى وإرسائه علاقات التعاون مع المغرب ، غير أن التوجه السياسى المغربى وبتوجيه من

الملك بدأ ينفتح على قوى الحياء ويتأثر بالضغط الشعبي المؤيدة للثورة الجزائرية ، وعليه لم تتأخر الحكومة المغربية فى الاعتراف بالحكومة الجزائرية المؤقتة ، وجاء اعترافها فى اليوم الثانى لإعلانها فى ٩ سبتمبر ١٩٥٨ فى بيان رسمى يحمل توقيع رئيس الحكومة أحمد بلافريج ، وقد تضمن ما يلى: «لى الشرف بأن أنقل إلى علمكم أن مجلس الوزراء المجتمع برئاسة صاحب الجلالة ملك مراكش قد قرر فى التاسع عشر من أيلول - سبتمبر ١٩٥٨ الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية» (٦٨).

وقد اختيرت مصر مقرا للحكومة نظرا لما تقدمه من دعم ومساندة على المستوى الإفريقى والأسوى وتجمع مختلف الدلائل أن تونس والمغرب لم تكونا آنذاك مكانا ملائما لاستقرار الحكومة الجزائرية المؤقتة لأن النفوذ العسكرى الفرنسى كان ما يزال متواجدا بهما، ولكون البلدين فى وضع لايسمح بتقبلهما لهذه الخطوة بحكم علاقاتهما المتشابكة مع فرنسا (٦٩)، فى حين كان على جبهة التحرير الوطنى أن تحزم أمرها للرد على المرحلة الجديدة للسياسة الفرنسية، وهذه الحقائق جعلتها لاتقيم مقر الحكومة الجزائرية فى تونس أو بالمغرب ونستبعد ما ذكره الباحث اسماعيل دبش ونقله عنه عمار رخيطة دون تحر من أن اختيار القاهرة كمقر للحكومة الجزائرية المؤقتة جاء نتيجة «رفض طلب جبهة التحرير الوطنى بتكوين حكومة جزائرية مؤقتة فى المغرب أو تونس» (٧٠)، وعموما فإن دعم مواقف الحكومة الجزائرية المؤقتة السياسية وتأييد أهدافها فى الاستقلال التام ومساندة ونشاطاتها تعرض فى البداية إلى تقصير واضح، واكتفى المغرب بالموافقة على فتح مكتب للحكومة الجزائرية المؤقتة بالمغرب وتسهيل نشاطاتها دون الاعتراف لها بالتمثيل الدبلوماسى (٧١)، وذلك نظرا لضغوط علاقات التعاون مع فرنسا والصعوبات المواجهة للعلاقات الجزائرية المغربية، فكان على الحكومة الجزائرية المؤقتة أن تعيد النظر فى سياستها المغاربية وأن تهتم أكثر بكسب التعاون المغربى وأن تفعل نشاطات التأييد للقضية الجزائرية، ومختلف أشكال الدعم للثورة الجزائرية.

والمؤكد أن بعض الخلافات أثرت على مسار العلاقات الجزائرية المغربية وتضاءل معها حجم التأييد السياسى للحكومة المغربية ، فى حين ظل التضامن الشعبى بمثابة الخيط الناظم لتواصل الدعم المعنوى للقضية الجزائرية ، وأدى تعرض الثورة الجزائرية لصعوبات داخلية ومضايقات خارجية بالحكومة الجزائرية المؤقتة إلى الاهتمام أكثر بكسب التأييد السياسى للبلدان المغاربية والحصول على دعمها المادى والمعنوى ، وخاصة بعد أن تزايدت أهميتها نتيجة تركيز نشاطات الثورة الجزائرية بها (٧٢). وهكذا تمكنت الحكومة الجزائرية المؤقتة بطريقة دبلوماسية من إيجاد حلول سلمية للمشاكل التى تعترضها بالمغرب بما فى ذلك المسائل

الحدودية، وانهزت فرص تدهور العلاقات بين فرنسا والمغرب من جهة ، وتزايد حجم التضامن الشعبى من جهة أخرى لتوطد علاقاتها مع المغرب ، وقد أقامت بعثة للحكومة الجزائرية المؤقتة برئاسة شوقى مصطفى منذ سنة ١٩٥٨م، تركزت مهامها فى تمثيل الثورة الجزائرية سياسياً ودبلوماسياً ، وإطلاع السلطات المغربية بكل تطورات القضية الجزائرية وتنسيق المواقف السياسية، والنظر فى المشاكل المواجهة للطرفين (٧٣)، ونهضت وزارة شؤون شمال إفريقيا للحكومة الجزائرية بنشاط سياسى واجتماعى معتبر لتنسيق أواصر التضامن ورعاية شؤون الجزائريين فى المغرب (٧٤)، وبذلك ارسى التنظيم السياسى المحكم ، وأشرفت الثورة الجزائرية على مختلف شؤونها ، ونظمت علاقاتها مع المغرب بالشكل الذى ضمن رعاية مصالح الثورة وعودة علاقات التضامن المشتركة والتى تأثرت كثيراً بفعل السياسات الفرنسية وبحضور الاهتمامات القطرية والايديولوجية المفضوحة .

وعلى ضوء ما سبق تحليله نخلص إلى رصد الاستنتاجات الآتية:

- لقد استجاب الموقف الرسمى المغربى لمطلب دعم الثورة الجزائرية ، وبالرغم من تباين مواقف الأطراف السياسية المختلفة إلا أن المغرب مثل قاعدة مهمة فى استراتيجية الثورة الجزائرية واحتضن نشاطات الثورة العسكرية والسياسية.

- إن الملك محمد الخامس اجتهد فى تجاوز الضغوط الفرنسية والاهتمامات القطرية ، وأظهر تجاوباً مع مطلب مؤازرة الثورة الجزائرية، وبفضل رعايته ومساعداته تمكنت جبهة التحرير الوطنى من ارساء قواعدها الخلفية وتأكيد حضورها السياسى، وبذلك تجاوزت كثير من الصعوبات التى كانت تسببها القوات الفرنسية فى المغرب وبعض الأطراف السياسية المعادية والتوجهات الوطنية الضيقة.

- لقد أرسيت علاقات وطيدة بين قيادة الثورة الجزائرية والسلطات المغربية، وكان مقرراً لهذه العلاقات أن تتوج بوحدة سياسية مغاربية أقرها مؤتمر طنجة ، لكن الحكومة المغربية أظهرت منذ مجئ ديجول للسلطة كثير من التحفظات ، وتهربت من التزاماتها ولم توطد علاقاتها مع الحكومة الجزائرية المؤقتة إلا بعد تليين كثير من العقوبات .

الهوامش

١- ينظر حول تأثيرات هذه القوى وفعاليتها ، الشاوي توفيق : حزب الاستقلال ، ط ١ ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ ، ص ٤٥ ، وفتحى الديب ، عند الناصر وثورة الجزائر ، ط ١ ، دار المسقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

٢- خلال القاسى (١٩١٠-١٩٧٤) : ولد بمدينة قاس ودرس بجامعة الفرويين ، بدأ نشاطه السياسى مبكرا وترغم قسلة العمل الوطنى ، تم حزب الاستقلال منذ تأسيسه فى سنة ١٩٤٤ ، أقام فى القاهرة منذ ١٩٤٧ وساهم فى تعزيز وتوحيد الكفاح الوطنى المقارنى ، ووقف عوقفا متحفظا من معادلات أقصى - يسار ثم تسلم فى تمثيل دور داخل حزب الاستقلال ، وواصل نشاطه السياسى بالإشراف على توجهه حسمى التحرير المعدى بالجيوب والدعوة لمواصلة تحرير الأراضى الغربية وتشييد وحدة المغرب العربى !

٣- تراجع القاسى خلال : نداء القاهرة ، ط ١ ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٥٩ ، ص ٦٣ ، ٦٥ .

٤- محمد بن محمد الكريه الحفناي (١٩٢١-١٩٦١) ولد بمدينة بالريد المغربى ، انتمى لحزب حركة التحرير من فرنسا الحزبية والاشتراكية ، استمرى به رئاسة الجمهورية ثم تم تعيينه سائلا لوزير لقطاعات الاقتصاد ، وأصبح حاكما لبلدية ، واستمر عبر هذه المناصرات " الحفناي القاسى " بوزارة سنة ١٩٢٩ ، تولى حتى سنة ١٩٦٩ فى عهد الملك الحسن الثانى ، حتى سنة ١٩٤٤ حيث انتظم فى الجبهة الشعبية التى كانت حركته داخلية ، فترجمت تحت قيادة المصطفى ، وحضر بوزارة الاقتصاد ، استمر فى قيادة الحركة الحزبية بعد انقراض هذه الحركة ، ثم عاد من المغرب العربى الى المغرب ١٩٤١-١٩٥٢ ، ظهر بعد ذلك مع اسرة " الحفناي " وعقد عدة لقاءات مع القادى فى الأندلس فى المغرب العربى .

٥- نشر الحفناي أثناء توليه منصبه كحاكم لبلدية ، جريدة الصباح ط ١ ، م ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ ، وشكلاش مصطفى ، سيرة الحفناي ، اسيرة الحزب ، ط ١ ، طلاس للدراسات - الموحدة ، ص ٢٦٩ .

٦- ناصر توفيق الشاوي : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

٧- Guerard Mohamed : Organisation Politique - Administrative et Militaire de l'Algérie Algérienne OPU, T2 , p. 704 .

٨- الطيب الشعايبى : ولد بمدينة سكيكدة وناضل فى صفوف حزب الشعب الجزائرى ، عين سنة ١٩٥٥ مشرفا على المنظمة المدنية لحركة التحرير الوطنى ، لعرب إلى غاية ١٩٦٠ ، حيث عين نفس المنصب بفاسدة تونس حتى سنة ١٩٦١ ، كما انتخب عضوا بالمجلس الوطنى بالثورة (١٩٥٦-١٩٦٢)

٩- ينظر حديث مع المجاهد الطيب الثعالبي، أول نوفمبر، مجلة تصدرها المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر، العدد ٩٣ (يونيو ١٩٨٨)، ص ٢٤ وما بعدها.

١٠- ينظر فتحى الديب، المصدر السابق، ص ١٢٧.

١١- يراجع فتحى الديب: المصدر السابق، ص ٣١٨.

١٢- ينظر محمد قنطاري: الثورة الجزائرية وقواعدها الخلفية بالجبهة الغربية والعلاقات الجزائرية المغربية إبان ثورة التحرير الوطنى، الذاكرة، مجلة يصدرها المتحف الوطنى للمجاهد، الجزائر، العدد ٣ (صيف ١٩٩٥)، ص ١٢٧.

١٣- ينظر أحمد بن بلة: مذكرات أحمد بن بلة، ترجمة العقيف الأخضر، ط ٢، دار الآداب، بيروت ١٩٧١، ص ١٠١.

١٤- بعد عودة الملك من منفاه وبمناسبة عيد العرش فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٥، مثلت جبهة التحرير الوطنى فى هذا الاحتفال بحضور مميز، فقد أرسل عبان رمضان أربع شخصيات وطنية فى مهام مختلفة هى: الشيخ خير الدين وعلى مرحوم من أجل التعريف بالقضية الجزائرية والاتصال بالسلطات المغربية، والعربى التبسى فى مهمة خاصة للاتصال بمحمد خطاب وطلب المساعدات المالية منه، فى حين تبقى مهمة مفدى زكريا غامضة. فمعلوم أن الشاعر قد أنشد بين يدي الملك قصيدة هنا فيها الشعب المغربى وأكد له وحدة قضايا المغرب العربى ولا يستبعد أن يكون حمل رسالة خاصة من عبان رمضان إلى الملك محمد الخامس بدليل أنه كان مقربا من عبان ولو أنه لم يخرج فى مهمة خاصة لما رجع إلى الجزائر وهو يعرف أنه مطارَد من قبل السلطات الفرنسية ينظر:

Farouk Ben Atia: Si Mohamed Khattab Précurseur du Magherb, OPU, Alger, 1991, pp. 73-74.

١٥- فتحى الديب: المصدر السابق، ص ٢٦٥.

١٦- أحمد بن بلة، المصدر السابق، ص ١٠١.

١٧- ينظر وزارة الإعلام والثقافة: ملفات وثائقية رقم ٢٤، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطنى، طبع وزارة الاعلام والثقافة، الجزائر، ١٩٧٦، ص ١٦.

١٨- ينظر، المقاومة الجزائرية لسان حال جبهة التحرير الوطنى، العدد ٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦)، ص ١.

١٩- ينظر محمد الخامس: انبعاث أمة، ج ١، مجموعة الخطب التى ألقاها الملك محمد الخامس من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٦. المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٥٦، ص ٢١٣.

٢٠- يراجع بخصوص مواقف الحكومة المغربية تصريحات رئيسها مبارك البكاي، المقاومة الجزائرية، العدد ١٥ (٢٥ مارس ١٩٥٧)، ص ٣.

٢١- ينظر، المقاومة الجزائرية: العدد ٥ (١٢ يناير ١٩٥٧)، ص ١٦.

٢٢- ينظر محمد الخامس: المصدر السابق، ص ٢٥٤.

٢٣- انظر، الحسن الثاني، ذاكرة ملك منشورات عكاظ، جدة ١٩٩٢، ص ٢٢-٢٣.

٢٤- شنت الصحافة الفرنسية حملة مناوئة لشجب المقابلات التي أظهرتها السلطات المغربية تجاه الوفد الجزائري مما أدى بالحكومة الفرنسية إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع المغرب يوما واحدا قبل عملية الاختطاف، ينظر، Le Monde du (27 Octobre 1956), p.7.

٢٥- لم يفكر المسؤولون عن عملية الاختطاف في عواقب الحادثة السياسية لأن العملية تمت دون إعلام الحكومة الفرنسية مما أدى بوزير الشؤون التونسية والمغربية آلان كريستيان إلى تقديم استقالته، كما أن الزعماء الجزائريين كانوا ضيوفا على الملك محمد الخامس وأجبروا على تغيير وجهتهم من تونس إلى الجزائر وهم يمتطون طائرة مغربية وكان الأصل أن يرافقوا الملك على متن طائرته الخاصة لولا تغييرات في آخر لحظة تستبعد فيها الصدفة، مما يعزز أن الإدارة الفرنسية بالجزائر خطت للعملية بإحكام انطلاقا من الرباط واعتمادا على مساعدة عناصر فرنسية وأخرى مغربية موالية لها، يراجع أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٨، ص ٢٢٤.

٢٦- انظر، المرجع نفسه، ص ٢٢٤، وفتحى الديب: المصدر السابق، ص ٢٧٨.

وانظر، العلم، عدد ٣ نوفمبر ١٩٥٦م.

٢٧- ينظر بخصوص هذه الردود الرسمية والشعبية وانعكاساتها، الملك الحسن الثاني: ذاكرة ملك، ص ٢٤، وجريدة العلم، عدد ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦.

٢٨- المقاومة الجزائرية: العدد ٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٦)، ص ١٢.

٢٩- المقاومة الجزائرية: العدد ٤ (٢٤ ديسمبر ١٩٥٦)، ص ١١.

٣٠- ينظر، المجاهد: العدد ١٢ (١٥ نوفمبر ١٩٥٧)، ص ٨.

٣١- انظر أبعاد هذه الاستراتيجية في رسائل قادة الجبهة. mabrouk belhocine. op. cit. p. 162.

٣٢- ينظر اسماعيل دبش: السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية، ط ١، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠، ص ١٠٣.

٣٣- ينظر محمد خير الدين: مذكرات ، ط ١ ، م.و.ك ، الجزائر (د.ت) ، ج ٢ ، ص ٢٧١ و Farouk Benatnia: Op. Cit, p. 90 .

٣٤- يراجع محمد قنطاري . المرجع السابق، ص ١٢٣ .

٣٥- يراجع أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، مصدر سابق، ص ٢٨٠ .

٣٦- المصدر نفسه، ص ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

٣٧- كان بوصوف يقوم بهذه المهمة لوحده ، ثم انتدب شخصين للقيام بالاتصالات مع الملك محمد الخامس هما بوداود منصور وعباسي عزوز، ينظر شهادة عباس عزوز بمجلة الباحث، عدد خاص حول التسليح ، مرجع سابق، ص ٨٠ . وشهادة منصور بوداود، مقابلة مع الباحث ، الجزائر العاصمة، أوغسطس ٢٠٠٦ .

٣٨- ينظر المدني أحمد توفيق : المصدر السابق، ص ص ٢٨٢-٢٨٣، ويظهر لنا أن أقوال ابن بركة تبدو هنا غريبة غير أننا لانتحفظ منها كونه يعبر عنه اتجاه حزب الاستقلال ولم يكن اتجاهه الثوري والقومي قد تبلور آنذاك.

٣٩- المصدر نفسه ، ص ٢٨٣ .

٤٠- ينظر بلقرين عبد الإله وآخرون : الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ، ١٩٤٨-١٩٨٦ ، محاولة في التاريخ ، ط ١ ، م.د.ع، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ٢٦١ .

٤١- ينظر عامر رخيطة: الثورة الجزائرية والمغرب العربي، مجلة المصادر، يصدرها المركز و د ب ح و ث ١٩٥٤ ، الجزائر ، العدد ١ ، صيف ١٩٩٩ ، ص ١٤٧ .

٤٢- يراجع بلقرين عبد الإله وآخرون . المرجع السابق، ص ٧١ ، ومحمد قنطاري : المرجع السابق، ص ١٢٧ .

٤٣- ينظر بخصوص هذا الاجتماع توفيق المدني: المصدر السابق، ص ص ٢٩٦-٢٩٨

٤٤- يراجع ، الديب فتحي : المصدر السابق، ص ٣٦٢ والفاسي علال : كي لائنسي ... مطبعة الرسالة، الرباط ١٩٧٣ .

٤٥- ينظر المجاهد : العدد ١٧ (١ فبراير ١٩٥٨) ، ص ٤ .

٤٦- يراجع ، بلقرين عبد الإله وآخرون : المرجع السابق، ص ١٥٥ .

٤٧- يراجع ، بلقرين عبد الإله وآخرون ، مرجع سابق، ص ١٥٦ .

٤٨- عبد الرحيم بوعبيد : مناضل وسياسي مغربي ساهم في العمل النقابي والحزبي وشارك ضمن وفد حزب الاستقلال في محادثات إكس ليسان، عين وزيرا للدولة مكلفا بالمفاوضات مع فرنسا في أول حكومة مغربية ، وشغل وزير الاقتصاد في الحكومة المغربية (١٩٥٦-١٩٥٩) وأصبح نائبا لرئيس الحكومة سنة ١٩٥٨ ، وساهم سنة ١٩٥٩ في تأسيس الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

٤٩- ينظر شهادته بخصوص مؤتمر طنجة ، بلقرين عبد الإله وآخرون، مرجع سابق، ص ص٢٣٧-٢٣٨ .

٥٠- ينظر الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، المركز الوطني للتوثيق والصحافة والاعلام، الجزائر ١٩٨٦ ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ . وانظر شهادة عبد الحميد مهري، مقابلة مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥ م.

٥١- محمد الميلي: مواقف جزائرية ، ط ١ ، م . و . ك ، الجزائر ، ١٩٨٤ ، ص ٧١ .

٥٢- قامت الأحزاب السياسية الثلاثة بنشر قرارات مؤتمر طنجة وتعميم الاطلاع عليها غير أن هذه النشريات تختلف بعض الشيء في عباراتها عما نشرته جبهة التحرير الوطني بجريدة المجاهد : العدد ٢٣ (٧ مايو ١٩٥٨) ، ص ١١ ، وللتعرف على حيثيات المؤتمر وقراراته يراجع عامر رخيطة. مرجع سابق، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

٥٣- ينظر دراسة الدكتور الهادي الغزى المقدمة للملتقى ، بناء المغرب العربي، تونس ، أكتوبر ١٩٨١ ، المطبعة العصرية ، تونس ١٩٨٣ ، ص ٢٥٠ وما بعدها . إذ يؤكد على فشل الحكومات في تكريس الوحدة في حين نجحت الأحزاب السياسية، ويوضح أن مقررات طنجة أصبحت أمرا اعتباريا نتيجة استفحال الشخصية الاقليمية والمصالح الذاتية على حساب نظرية الكفاح التحرري الموحد. والطرح ذاته يؤكد مهادي عبد الحميد ، مقابلة شخصية مع الباحث ، الجزائر ، أغسطس ٢٠٠٥ .

٥٤- يراجع الجنيدى خليفة وآخرون : حوار حول الثورة ، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

٥٥- يراجع محمد الميلي المرجع السابق ، ص ٩٧

٥٦- ينظر بخصوص مؤتمر المهديّة وقراراته ، المجاهد : العدد ٢٦ (٢ يوليو ١٩٥٨) ، ص ١٠٨ ومحمد الميلي ، المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

٥٧- ورد هذا الرد في محضر جلسات مؤتمر تونس ينظر Mohmmmed Harbi . Les Archives de la Revolution Algerienne . Jeune Afrique, Paris 1981 , pp. 419 - 421 .

٥٨- للاطلاع على أسس هذه السياسة ونجاحاتها ينظر محمد الميلي: المرجع السابق، ص ٩٩ .

٥٩- المرجع نفسه، ص ١٢١ .

- ٦٠- ينظر بخصوص إعادة تركيز القوات بالمغرب والصعوبات التي واجهت جيش التحرير الوطني
A N A : Carton n°6, dossier n°12 "le Maroc et la révolution Algerienne"
- تقرير مطول أعده مكنتي الدراسات التابع لوزارة الاتصالات العامة والإعلام للحكومة الجزائرية المؤقتة سنة
١٩٥٩ ، يتعرض القسم الأول منه لمراكز وطرق مواصلات القواعد العسكرية الفرنسية بالمغرب.
- ٦١- يراجع محمد حربي : مرجع سابق، ص ١٧٨ .
- 62- ANA : Carton n°6 doss n°12 , p. 58 .
- ٦٣- محمد الميلي: المرجع السابق، ص ١٢٠ .
- ٦٤- المرجع نفسه ، ص ٩٩ ، والغالبي الغربي: السياسة الفرنسية لفصل الصحراء وردود الفعل الدولية ،
فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية ، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث ٥٤ ، الجزائر
١٩٩٨ ، ص ٢٧١ وما بعدها .
- ٦٥- المجاهد : العدد ٢٧ (٢٢ يوليو ١٩٥٨) ، ص ١ .
- ٦٦- ينظر بلقرين عبدالإله وآخرون : المرجع السابق، ص ٧٢ .
- ٦٧- نشير أساسا إلى انتفاضة الريف في خريف ١٩٥٨ ، وإلى المظاهرات التي كانت توجه من قبل
المنظمات العمالية والطلابية والتوجيه الثوري في حزب الاستقلال .
- ٦٨- ينظر الموقف المغربي من إعلان الحكومة الجزائرية المؤقتة ، طلاس مصطفى، بسام العسلي: الثورة
الجزائرية ، مرجع سابق، ص ٣٤٠ .
- ٦٩- ينظر الجنيدي خليفة وآخرون . المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
- ٧٠- عامر رخيعة : الثورة الجزائرية والمغرب العربي ، مرجع سابق، ص ١٦٩
- 71- ana . carton . 302 . dos 7 . 11 . probleme des relations avec les outoritee marocanes . rep
date le 17 Nevember 1961 .
- ٧٢- يراجع بن فليس أحمد : السياسة الدولية للحكومة المؤقتة الجزائرية ١٩٥٨-١٩٦٢ ، رسالة
ماجستير ، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر ، ١٩٨٦ ، ص ١٤٣ .
- ٧٣- ينظر حوار الدكتور شوقي مصطفىاوي مع إذاعة صوت الجزائر بالرباط المنشور بـ المجاهد: العدد ٦٥
(٤ أبريل ١٩٦٠) ، ص ٤ .
- ٧٤- ينظر حول نشاطها ومهامها بالمغرب : الجنيدي خليفة وآخرون : المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٢٤٠
وشهادة رئيس هذه الوزارة عبد الحميد مهري ، مقابلة شخصية مع الباحث .

